آية الله العظمى مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

من خطبة ١ إلى ٢٠

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات الولايه: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفحات الولایة المجلد ۱ ----- ۱۹
اشارة ----- ۱۹
الدافع الرئیسی لتألیف هذا الکتاب ----- ۱۹
السید الرضی جامع نهج البلاغة ----- ۲۱
اشارة ----- ۲۱
أساتذة السید الرضی ----- ۲۲
تلامذة السید الرضی ----- ۲۲
کتب ومؤلفات السید الرضی ----- ۲۳
السید الرضی والشعر ----- ۲۳
القابه ومناصبه ----- ۲۳
وفاة السید الرضی ----- ۲۴
کلام بشأن نهج البلاغة وصاحبه ----- ۲۴
اشارة ----- ۲۴
۱- فصاحة النهج وبلاغته ----- ۲۵
۲- المضامین الرصینة الشاملة لنهج البلاغة ----- ۲۷
اشارة ----- ۲۷
مصداق لقوله تعالی: «اوتوا الکتاب» «فصل الخطاب»[۲۲]. ----- ۲۸
۳- جاذبة نهج البلاغة الخارقة ----- ۲۹
اشارة ----- ۲۹
أقوال العظماء بشأن جاذبیة نهج البلاغة ----- ۳۰
أسناد نهج البلاغة ----- ۳۱
شروح نهج البلاغة ----- ۳۳

مقدمة السيد الشريف الرضى رحمه الله ----- ۳۴
لماذا جمعت نهج البلاغة ----- ۳۴
الخطبة الاولى ----- ۳۶
اشارة ----- ۳۶
نظرة إلى الخطبة ----- ۳۶
القسم الأول: بعد العقول عن معرفة الذات الإلهية! ----- ۳۶
القسم الثانى: توحيد الذات والصفات ----- ۴۰
القسم الثالث: ليس كمثله شىء ----- ۴۴
اشارة ----- ۴۴
تأمّلات ----- ۴۷
اشارة ----- ۴۷
۱- علاقة الخلق بالخالق ومسألة «وحدة الوجود»! ----- ۴۷
۲- انحراف الجهال عن حقيقة صفات اللّه ----- ۴۸
۳- نفى‌الحدوث الذاتى والزمانى للذات القدسية ----- ۵۰
۴- هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على اللّه؟ ----- ۵۰
القسم الرابع: تصدر الكلام بشأن خلق العالم ----- ۵۱
اشارة ----- ۵۱
الهداية الفطرية والتكوينية لكافة موجودات العالم ----- ۵۳
تأمّلان ----- ۵۴
۱- هل يصطلح بالعارف على اللّه؟ ----- ۵۴
۲- كيفية علم اللّه بالموجودات قبل ايجادها ----- ۵۴
القسم الخامس: كيفية بداية خلقة العالم ----- ۵۵
اشارة ----- ۵۵
تأمّل: هل العالم المادى حادث؟ ----- ۵۶

القسم السادس: الماء كان أول مخلوق ----- ۵۷
القسم السابع: دور العواصف فی انبثاق الخلقة ----- ۵۹
اشارة ----- ۵۹
تأمّلات ----- ۶۰
۱- دراسة العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة ----- ۶۰
۲- كيفية ظهور العالم ----- ۶۱
۳- الفرضيات السائدة بشأن العالم أبان نزول القرآن ----- ۶۲
۴- ما المراد بالسموات السبع؟ ----- ۶۳
۵- كيفية علم الإمام عليه السلام بهذه الامور ----- ۶۴
القسم الثامن: عالم الملائكة ----- ۶۴
اشارة ----- ۶۴
تأمّلات ----- ۶۷
۱- ماهية الملائكة! ----- ۶۷
۲- أصناف الملائكة ----- ۶۸
۳- العرش وحملته ----- ۶۹
۴- عصمة الملائكة ----- ۷۰
۵- مقام معرفة حملة العرش ----- ۷۱
القسم التاسع: خلق آدم عليه السلام ----- ۷۱
اشارة ----- ۷۱
مراحل خلقة آدم عليه السلام من الناحية الجسمية والروحية ----- ۷۲
تأمّلات ----- ۷۴
۱- خلق آدم عليه السلام ----- ۷۴
۲- التركيب المزدوج للجسم والروح ----- ۷۶
۳- الإنسان، اعجوبة عالم الكون ----- ۷۶

القسم العاشر: بداية انحراف ابليس ---- ۷۷
اشارة ---- ۷۷
تأمّلات ---- ۷۸
۱- عظمة مقام الإنسان ---- ۷۸
۲- كيف كان السجود لآدم؟ ---- ۷۸
۳- أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان ---- ۷۹
۴- تبريرات جوفاء ---- ۸۱
القسم الحادى عشر: عاقبة آدم ---- ۸۲
اشارة ---- ۸۲
تأمّلات ---- ۸۳
۱- ما كانت جنّة آدم؟ ---- ۸۳
۲- هل اقترف آدم معصية؟ ---- ۸۴
۳- ماحقيقة الشجرة المحظورة؟ ---- ۸۵
۴- الكلمات التى تاب اللّه بها على آدم عليه السلام. ---- ۸۵
القسم الثانى عشر: بعثة الأنبياء وعظم مسؤوليتهم ---- ۸۶
اشارة ---- ۸۶
تأمّلات ---- ۸۹
۱- الأنبياء بمثابة المزارعين ---- ۸۹
۲- حوادث الاعتبار واليقظة ---- ۸۹
۳- دور الدين فى الحياة ---- ۹۰
۴- لا تخلو الأرض من حجة ---- ۹۰
۵- مميزات الأنبياء ---- ۹۱
القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام ---- ۹۲
اشارة ---- ۹۲

تأمّلان ----- ۹۳
۱- الأديان قبل البعثة البنوية ----- ۹۳
۲- آفاق الأنبياء المستقبلية ----- ۹۵
القسم الرابع عشر: خصائص القرآن ----- ۹۵
اشارة ----- ۹۵
تأمّلات ----- ۹۸
۱- شمولية القرآن ----- ۹۸
۲- من عنده علم الكتاب؟ ----- ۹۹
۳- معيار التمييز بين الكبائر والصغائر ----- ۹۹
۴- الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما ----- ۱۰۰
۵- تأريخ الامم الماضية والأمثال القرآنية ----- ۱۰۰
القسم الخامس عشر: أهمية فريضة الحج ----- ۱۰۱
اشارة ----- ۱۰۱
تأمّلان ----- ۱۰۳
اشارة ----- ۱۰۳
۱- نبذة تأريخية عن الكعبة ----- ۱۰۳
۲- فلسفة الحج ----- ۱۰۴
الخطبةالثانية ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
القسم الأول ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۰۶
ظروف وملابسات الخطبة ----- ۱۰۶
الركنان الأساسيان فی الإسلام ----- ۱۰۷

تأمّلان ----- ۱۰۹
۱- التوحید رکیزة الصالحات ----- ۱۰۹
۲- التوحید الخالص الذی طبع حیاة أمیرالمؤمنین علیه السلام ----- ۱۱۰
القسم الثانی: العصر الجاهلی ----- ۱۱۱
اشارة ----- ۱۱۱
صورة الحیاة المیتة فی العصر الجاهلی ----- ۱۱۴
القسم الثالث: المنزلة السامیة لآل محمد صلی الله علیه و آله ----- ۱۱۶
اشارة ----- ۱۱۶
تأمّلان ----- ۱۱۸
۱- آل النبی صلی الله علیه و آله کهف الامّة الإسلامیة ----- ۱۱۸
۲- من هم آل النبی صلی الله علیه و آله؟ ----- ۱۱۸
القسم الرابع: لا یقاس بآل محمد أحد من الناس ----- ۱۱۹
اشارة ----- ۱۱۹
تأمّلان ----- ۱۲۱
۱- مکانة أهل البیت فی القرآن والرویات ----- ۱۲۱
۲- تبریرات واهیة ----- ۱۲۲
الخطبة الثالثة ----- ۱۲۳
اشارة ----- ۱۲۳
القسم الأول ----- ۱۲۳
اشارة ----- ۱۲۳
نظرة إلی الخطبة ----- ۱۲۴
مضمون الخطبة ----- ۱۲۵
تحلیل مهم لمسألة الخلافة ----- ۱۲۵
تأمّلات ----- ۱۲۸

۱- لم آثر الإمام علیه السلام الصبر؟ ---- ۱۲۸
۲- لماذا التعبیر بالتراث عن الخلافة؟ ---- ۱۲۹
۳- الإمام علیه السلام جلیس البیت ---- ۱۲۹
۴- لماذا تعرض الإمام علیه السلام لقضیة الخلافة؟ ---- ۱۳۰
القسم الثانی: عصر الخلیفة الثانی ---- ۱۳۱
اشارة ---- ۱۳۱
إجابة علی إستفسار ---- ۱۳۲
تأمّلات ---- ۱۳۵
۱- نماذج الفضاضة الأخلاقیة علی عهد الخلیفة الثانی ---- ۱۳۵
۲- العثار والاعتذار ---- ۱۳۶
۳- رد علی سوال ---- ۱۳۷
القسم الثالث: عصر الخلیفة الثالث ---- ۱۳۷
اشارة ---- ۱۳۷
تأمّلات ---- ۱۴۰
۱- کیفیة انتخاب خلیفة الثانی والثالث ---- ۱۴۰
۲- الشوری وحکومة عثمان ---- ۱۴۱
۳- أسباب الخروج علی عثمان ---- ۱۴۲
۴- هل سار جمیع الصحابة علی نهج النبی صلی الله علیه و آله ---- ۱۴۴
القسم الرابع ---- ۱۴۵
اشارة ---- ۱۴۵
تأمّلات ---- ۱۴۷
۱- البیعة الشعبیة لأمیر المؤمنین علیه السلام ---- ۱۴۸
۲- مصدر الانحرافات الاجتماعیة ---- ۱۴۸
۳- المعارک الثلاث علی عهد الإمام علی علیه السلام ---- ۱۴۹

القسم الخامس: قبول البیعة والخلافة ---- ۱۵۱
اشارة ---- ۱۵۱
تأمّلات ---- ۱۵۳
۱- الرد علی سؤال ---- ۱۵۳
۲- المسائل التی تضمنها الکتاب ---- ۱۵۳
۳- مميزات الخطبة الشقشقية ---- ۱۵۴
الخطبة الرابعة ---- ۱۵۵
اشارة ---- ۱۵۵
نظرة إلی الخطبة ---- ۱۵۵
القسم الأول: التحلی بالوعی والیقظة ---- ۱۵۶
اشارة ---- ۱۵۶
ملاحظة ---- ۱۵۷
الهدایة فی ظل أهل البیت علیهم السلام ---- ۱۵۷
القسم الثانی: کنت أتوقع غدرکم، ولکن ... ---- ۱۵۷
اشارة ---- ۱۵۷
تأمّلان ---- ۱۵۹
۱- البصیرة ---- ۱۵۹
۲- ستر عیوب الناس ---- ۱۵۹
القسم الثالث: الیوم أکشف الحجاب ---- ۱۶۰
اشارة ---- ۱۶۰
الصراع بین الحق والباطل ---- ۱۶۱
الخطبة الخامسة ---- ۱۶۱
اشارة ---- ۱۶۱
نظرة إلی الخطبة ---- ۱۶۱

القسم الأول: احذروا مثیری الفتن ۱۶۲
اشارة ۱۶۲
سکوت الإمام علیه السلام بعد النبی صلی الله علیه و آله ۱۶۴
القسم الثانی: تری ماالعمل مع المتربصین؟! ۱۶۴
اشارة ۱۶۴
تأمّلات ۱۶۵
۱- سوابق الإمام علیه السلام ۱۶۵
۲- لم أخاف الموت؟! ۱۶۶
۳- لم السکوت؟ ۱۶۶
الخطبة السادسة ۱۶۷
اشارة ۱۶۷
نظرة إلی الخطبة ۱۶۷
الحیطة والحذر تجاه الأعداء ۱۶۷
تأمّل: رسالة إلی جمیع المسؤولین ۱۶۸
الخطبة السابعة ۱۶۹
اشارة ۱۶۹
أتباع الشیطان ۱۶۹
تأمّل: خطط الشیاطین ۱۷۱
الخطبةالثامنة ۱۷۲
اشارة ۱۷۲
نظرة إلی الخطبة ۱۷۲
عذر أقبح من ذنب ۱۷۲
الخطبة التاسعة ۱۷۳
اشارة ۱۷۳

ضجة فارغة ----- ۱۷۳
تأملان ----- ۱۷۴
۱- رجل العمل ----- ۱۷۴
۲- الفارق بين الدعاية والاعلام الفعال ----- ۱۷۴
الخطبة العاشرة ----- ۱۷۵
اشارة ----- ۱۷۵
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۷۵
تحذير المسلمين ثانية ----- ۱۷۵
تأمّل: جند الشيطان ----- ۱۷۷
الخطبة الحادية عشر ----- ۱۷۸
اشارة ----- ۱۷۸
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۷۸
كن كالجبل ----- ۱۷۸
تأملان ----- ۱۸۰
۱- محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره ----- ۱۸۰
۲- الشرط المهم فى النصر على الأعداء ----- ۱۸۰
الخطبة الثانية عشرة ----- ۱۸۱
اشارة ----- ۱۸۱
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۸۱
اللحمة العقائدية ----- ۱۸۲
تأمّل: الرابطة الحق ----- ۱۸۲
الخطبة الثالثة عشرة ----- ۱۸۳
اشارة ----- ۱۸۳
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۸۳

خصائص أهل الجمل ----- ۱۸۴
تأمّلات ----- ۱۸۶
۱- نبوءة النبی صلی الله علیه و آله بشأن موقعة الجمل ----- ۱۸۶
۲- ذم أهل البصرة ----- ۱۸۷
۳- المحیط والاخلاق ----- ۱۸۷
الخطبة الرابعة عشرة ----- ۱۸۸
اشارة ----- ۱۸۸
نظرة إلی الخطبة ----- ۱۸۸
ذم أهل البصرة ثانیة ----- ۱۸۸
الخطبة الخامسة عشرة ----- ۱۸۹
اشارة ----- ۱۸۹
نظرة إلی الخطبة ----- ۱۸۹
القسم علی إعادة الأموال المغصوبة ----- ۱۹۰
تأمّلات ----- ۱۹۱
۱- معطیات العدالة فی المجتمعات البشریة ----- ۱۹۱
۲- اسراف عثمان ----- ۱۹۲
۳- الإجابة عن سؤال مهم ----- ۱۹۲
الخطبة السادسة عشرة ----- ۱۹۳
اشارة ----- ۱۹۳
القسم الأول ----- ۱۹۳
اشارة ----- ۱۹۳
نظرة إلی الخطبة ----- ۱۹۳
الیقظة والوعی فی الامتحان ----- ۱۹۴
تأمّلان ----- ۱۹۵

۱- التأريخ يعيد نفسه ---- ۱۹۵
۲- بيان الحقيقة أم رعاية المصلحة ---- ۱۹۶
القسم الثاني: الذنوب شماس كالخيل ---- ۱۹۶
القسم الثالث: سبيل النجاة ---- ۱۹۸
اشارة ---- ۱۹۸
تأمّلان ---- ۲۰۲
۱- الجاهل من جهل قدر نفسه ---- ۲۰۲
۲- الاعتدال هو الصراط المستقيم ---- ۲۰۳
الخطبة السابعة عشرة ---- ۲۰۳
اشارة ---- ۲۰۳
القسم الأول ---- ۲۰۳
اشارة ---- ۲۰۳
نظرة إلى الخطبة ---- ۲۰۴
أبغض الخلائق ---- ۲۰۴
تأمّلان ---- ۲۰۶
۱- ما البدعة ومن المبتدع؟ ---- ۲۰۶
۲- أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين ---- ۲۰۷
القسم الثاني: الجاهل المتشبه بالعالم ---- ۲۰۷
اشارة ---- ۲۰۷
تأمّلات ---- ۲۱۲
۱- آفات علماء السوء ---- ۲۱۳
۲- علم كخيط العنكبوت ---- ۲۱۳
۳- اطراء المتملقين ---- ۲۱۳
القسم الثالث ---- ۲۱۴

اشارة ----- ۲۱۴
التفسیر بالرأی وقلب الحقائق ----- ۲۱۵
الخطبة الثامنة عشرة ----- ۲۱۵
اشارة ----- ۲۱۶
القسم الأول ----- ۲۱۶
اشارة ----- ۲۱۶
نظرة إلی الخطبة ----- ۲۱۶
ما علّة کل هذا الاختلاف؟ ----- ۲۱۶
تأمّلات ----- ۲۱۷
۱- مسألة التصویب ونشأتها ----- ۲۱۷
۲- نتائج القول بالتصویب وغلق باب الاجتهاد ----- ۲۲۰
۳- الهرج والمرج الفقهی والقضائی ----- ۲۲۱
القسم الثانی: الاختلافات غیر المبررة ----- ۲۲۱
اشارة ----- ۲۲۱
شمولیة القرآن ----- ۲۲۳
القسم الثالث: أناقة القرآن وعمقه ----- ۲۲۵
اشارة ----- ۲۲۵
تأمّلان ----- ۲۲۶
۱- القرآن والمسائل المستحدثة ----- ۲۲۶
۲- لم لا تنقضی عجائب القرآن ----- ۲۲۶
الخطبة التاسعة عشرة ----- ۲۲۶
اشارة ----- ۲۲۷
الاصطدام بمنافق طائش ----- ۲۲۷
تأمّلان ----- ۲۲۹

۱- علة هذا الاصطدام العنیف ---- ۲۲۹
۲- کیف صبر الإمام علیه السلام علی هذا المنافق ---- ۲۳۰
الخطبة العشرون ---- ۲۳۰
اشارة ---- ۲۳۰
طرح الحجب قریباً ---- ۲۳۰
ملاحظة: عالم ما بعد الموت ---- ۲۳۲
تعریف مرکز ---- ۲۶۸

نفحات الولاية المجلد ۱

اشارة

عنوان و نام پديدآور : نفحات الولايه: شرح عصری جامع لنهج‌البلاغه/ ناصرمکارم شيرازی، بمساعده مجموعه من‌الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانی.

مشخصات نشر : قم : مدرسه‌الامام علی‌ابن‌ابی‌طالب (ع) ، ۱۴۲۶ق.-= ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهری : ج.

شابک : ۳۰۰۰۰ ريال : دوره ۹۶۴-۸۱۳-۹۵۸-X: ؛ ج. ۱ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۷-۵ : ؛ ج. ۲ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۸-۳ : ؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۷-۲ : ؛ ج. ۴ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۸-۰ : ؛ ج.۵ : ۹۶۴-۸۱۳-۹۴۱-۵ ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۶۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵ : ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۷۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲ : ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۸۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹ : ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۹۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶ : ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۱۰۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳ :

يادداشت : عربی.

يادداشت : ج ۱- ۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت : ج. ۶- ۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق.= ۱۳۹۰).

يادداشت : کتابنامه.

مندرجات : .- ج. ۶. من خطبة ۱۵۱ الی ۱۸۰.- ج. ۷. من خطبة ۱۸۱ الی ۲۰۰.- ج. ۸. من خطبة ۲۰۱ الی ۲۴۱.- ج. ۹. من رسالة ۱ الی ۳۱.- ج. ۱۰. من رسالة ۳۲ الی ۵۳

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه‌ها

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- کلمات قصار

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه‌ها

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج‌البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده : حمرانی، عبدالرحيم

شناسه افزوده : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج‌البلاغه. شرح

شناسه افزوده : مدرسة الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره : BP۳۸/۰۲ /م۷ ۱۳۸۴

رده بندی ديويی : ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی : م۸۴-۴۰۳۴۷

الدافع الرئيسی لتأليف هذا الكتاب

لم يحظ كتاب بالعناية والرعاية- بعد القرآن الكريم- كما حظی نهج البلاغة ولم يتيسر لغيره مثل هذه المنزلة السامية النامية.

فما أكثر البحوث والدراسات فی تصويره الفنی وفصاحته وبلاغته وصياغته حتی أضحی موئلًا ومنهلًا وأساساً ونبراساً للدراسات الإسلامية ومعيناً ثرا للمعارف الإنسانية. وهل رأينا كالنهج يرغب المؤلفون بشرحه والتعرف عليه والاقتباس منه والاستشهاد به وحفظ ولو بعض حكمه ومواعظه. إنّه كتاب المعانی الروحية، والعدالة الاجتماعية، والتربية الرسالية، والقيم الخلقية، والّادلة والكمال والنقاء،

ونابض بكل مفيد وسديد ورشيد، ورافض لكل ألوان الشرور والفجور والغرور ومهما استجدت من أفكار وآراء ونظريات واكتشافات خلال هذه القرون المتطاولة فلا تزيده إلّاتسديداً وتأييداً وتخليداً، ولا يزداد المفكرون والباحثون نحوه إلّاانسجاماً واحتراماً، لأنّه الكتاب الزاهر بالحجج البالغة والزاخرة بالموارد السائغة والجامع بين جلال البلاغة وجمال الصياغة، وبين إصالة المعانى وجزالة المبانى وبين دقّة التصوير ورقة التعبير.

لقد عكفت كأغلب الأفراد الشغفين بنهج البلاغة على مطالعة بعض أجزائه. بحسبما كانت تتطلبه الضرورة والحاجة، حتى لاحت بوادر الخامس عشر من خرداد عام ۱۹۶۳ م فالقى القبض علىَّ برفقة طائفة من كبار العلماء والمفكرين فاودعنا السجن. كانت ظروف السجن عصيبة جدّاً فى الأيام الاولى حيث عمدت جلاوزة النظام الشاهنشاهى البائد إلى حظر أغلب الأشياء عن الوصول إلينا، غير أنّ الضغوط التى مارسها الرأى العام دفعت بذلكالنظام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶

إلى التخفيف من وطأته والتنازل عن بعض المحظورات الثقافية؛ الأمر الذى جعلنا نطلب من أصدقائنا وذوينا إتياننا ببعض الكتب إلى السجن. أمّا أنا فقد ناشدتهم كتاب نهج البلاغة لأستغل تلكالفرصة المناسبة وأتفرغ فيها للتأمل فى هذا الكتاب العظيم، وقد منّ اللّه علىّ ووفّقنى للتدبر والتحقيق فى دراسة القسم الثانى من هذا الكتاب والذى يشمل الرسائل والوصايا السياسية والأخلاقية، آنذاك أيقنت بأنّ نهج البلاغة لأعظم وأكبر ممّا كنّا نفكر فيه ونتصوره عنه. فقد رأيت نفسى حينها أمام بحر زاخر من العلوم والمعارف التى تعالج أهم قضايا الإنسان فى كافة أبعاده المعنوية والمادية، كما يمد الإنسان بمختلف المواهب المعنوية التى تمكنها من بلوغ شأطئ الامان فى هذه الدنيا المحفوفة بالمكاره.

آنذاك أدركت عمق خيبة وخسران أولئك الذين ولّوا ظهورهم لهذا الكنز الفيّاض والمنهل العذب وجعلوا يسيلون لعابهم لموائد الأجانب بما يعجزون عن الإتيان بمثل قطرة من بحره المتلاطم!

من عجائب هذا الكتاب الذى اقتفى آثا رالقرآن حتى طبع بصفاته وسماته إنّه وخلافاً للمدارس الفكرية والأخلاقية والسياسية التى يبليها الزمان فانّه يحمل فى طياته صفات العصرنة والتجدد وكأنّ خطب أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه وتوجيهاته تقرع سمعالمعاصر وتجعله يعيش أجواء مسجد الكوفة. وما أجدر عشاق الحق والحقيقة والمتعطشين لمعرفة العلوم الربّانية والمتطلعين لعيش الحياة الحرة الكريمة أن يقصدوا كل يوم ضريح هذا العالم الفذ السيد الشريف الرضى (جامع نهج البلاغة) فيؤدوا له طقوس الاجلال والاكبار ويقرأوا الفاتحة على روحه الطاهرة بفضل الجهود المضنية التى بذلها من أجل جمع كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام فزود بها البشرية جمعاء فضلًا عن المجتمعات الإسلامية.

وماذا بوسعى أن أقول بشأن نهج البلاغة الذى حار فى وصفه البلغاء وعجز عن تصويره الفصحاء وعيت عن الاحاطة بكنهه العلماء، وعليه لا أرى من جدوى فى الاستغراق فى هذا الموضوع، وأخوض فى الغرض والدافع من هذا الكتاب. فقد أقبل العلماء والادباء على هذا الكتاب النفيس- نهج البلاغة- بين حافظ وناسخ وشارح، حيث بلغ عدد شرّاحه فى العصر القديم والحديث ما جاوز الخمسين شارحاً الذين بذلوا ما بوسعهم لسبر أغواره واستخراج

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷

كنوزه وجواهره حتى قدموا خدمة جليلة لطلاب المعرفة والحكمة، إلّاأنّ الانصاف هو أنّ هذا الكتاب ما يزال يعيش مظلومية كبرى وغربة عظمى، وليس هناك من سبيل لازالتها سوى فى تظافر الجهود وتعبئة الأفكار والطاقات من أجل إعادة النظر والاسهاب فى تفاصيل وجزئيات هذا الكتاب الثر، ولا سيما فى عصرنا الراهن الذى تشهد فيه المجتمعات الإنسانية ذروة المشاكل والمطبات التى تعترض حياتها اليومية، إلى جانب ظهور المذاهب والمدارس الفكرية المختلفة والحملات الشعواء التى تمارسها الأجهزة الاستكبارية والدوائر النفعية الغارقة فى الأهواء والشهوات وحب الدنيا والخلود إليها ضد العقائد والأخلاق والفضيلة والتقوى بغية تحقيق أهدافها

المشؤومة فی ضمان مصالحها ونهب خيرات البشرية وتجريدها من هويتها الإنسانية. أجل فالعصر الحاضر يجعل نهج البلاغة يتطلب جهوداً أكثر وأنشطة أوسع وأشمل من شأنها التوصل إلى الطرق والأساليب التی تذلل الصعاب المادية والمعنوية والفردية والاجتماعية، إلى جانب التصدی إلى النزعات الفكرية الهدامة التی تستهدف الدين والأخلاق. وعلى هذا الأساس وما أن فرغنا من نشاطنا القرآنی فی التفسير الذی دوناه- التفسير الأمثل- وكتابنا رسالة القرآن والتی حظيت باقبال المحافل العلمية والأوساط التحقيقية حتى آلينا على أنفسنا أن نواصل نفس هذه الجهود وبمعونة الاخوة الفضلاء من العلماء بخصوص نهج البلاغة على غرار الجهود والأساليب التحقيقية التی إعتمدناها فی التفسير القرآنی- الأمثل- بل إنّ التجارب السابقة قد جعلت هذا الجهد المتواضع أقرب من غيره إلى الاتقان والاكمال. نعم لقد عزمنا على مباشرة هذا العمل رغم كثرة المشاكل والعراقيل وسعة حجم المسؤوليات مستلهمين العزم والامداد من البارئ سبحانه وعبده الخالص ربيب النبی صلى الله عليه و آله أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين على بن أبی طالب عليه السلام وبعد أن وعدنا الاخوة الذين وقفوا إلى جانبنا فی التفسير القرآنی بتقديم كافة أشكال الدعم والعون فی هذا المجال لكی نعد شرحا جديداً جامعاً لهذا الكتاب من شأنه تلبية حاجات العصر ووضع الحلول الوافية الشافية للمعضلات الفكرية والاجتماعية، كما استعنا فی بعض المواقع بما أورده المفسرون والشارحون القدماء والمعاصرون من أجل إغناء كافة جوانب المواضيع، إلى جانب اعتماد الأفكار والاطروحات الحديثة المعاصرة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸

لقد باشرنا هذا العمل غرة الثالث عشر من شهر رجب المرجب لعام ۱۴۱۳ ه الميلاد الميمون لأمير المؤمنين عليه السلام وسار بخطوات بطيئة هادئة حتى استغرق إعداد المجلد الأول- رغم الجهود الجماعية المشتركة- ما يقارب الثلاث سنوات (ومن الطبيعی أن لا تشوب الأعمال العجلة فی بدايتها). حتى اتسقت لنا الامور فأخذنا نحث السير وننهض سريعاً بهذا العمل، رغم يقيننا بأننا مازلنا نحوم فی هذا المحيط المتلاطم والبحر العميق؛ الأمر الذی لايبد ويسيراً قط. والأفضل ألا أخوض فی التفاصيل التی اعتمدت فی هذا الشرح وأترك ذلك للاخوة القراء، ويسرنی هنا أن أناشد كافة الاخوة الفضلاء أن يتحفونا بآرائهم بما يقرب هذا العمل من أهدافه ومقاصده، إلى جانب النظر بعين العفو والصفح إلى الخطأ والزلل.

وأخيراً أسأل اللَّه أن يتفضل علينا باتمام هذا الجهد المتواضع بغية التزود من مائدة نهج البلاغة لنا ولكافة جياع الفكر والعقيدة، إنّه نعم المولى ونعم المجيب، وما توفيقی إلّاباللَّه عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه‌رب العالمين.

قم- الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازی

۳ ربيع الثانی ۱۴۱۷ ه

۲۰/ تموز/ ۱۹۹۶ م

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹

السيد الرضی جامع نهج البلاغة

اشارة

هو أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى، ولد فى بغداد سنة تسع وخمسن وثلاثمائة للهجرة. أُمّه فاطمة بنت الحسين بن أبى محمد الحسن الاطروش بن على بن الحسن بن على بن عمر بن على بن أبى طالب عليه السلام، وهى إمرأة فاضلة عرفت بالورع والتقوى والبصيرة الثاقبة، فقد قال فيها السيد الرضى (ره):

لَوْ كانَ مِثلَك كلُّ امٍّ بَرّةٍغَنِىَ البَنُونَ بِها عَنِ الآباءِ

كما يتصل نسب جدّه بالإمام موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام وهو أبو أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن الإمام أبى إبراهيم موسى الكاظم عليه السلام. وقد كانت له منزلة عظيمة فى الدولة العباسية والدولة البويهية، حتى لقبه أبو نصر بهاء الدين بالطاهر الأوحد.

أقبل السيد الرضى على العلم والفقه والأدب حتى بات أبدع أبناء زمانه، وقد خلف أبيه عام ۳۸۸ بتولى نقابة الطالبيين فى حياته، وعهد إليه بالنظر فى المظالم والحج بالناس. إبتدأ ينظم الشعر وله من العمر عشر سنين أ وتزيد قليلًا، حكم بعض النقاد بأنّه أشعر الطالبيين، وإلى جانب ذلك فقد كان كاتباً بليغاً مترسلًا، امّا المرحوم العلّامة الامينى فقد صرّح بشأن السيد الشريف الرضى قائلا: «وسيدنا الشريف الرضى هو مفخرة من مفاخر العترة الطاهرة، وإمام العلم والحديث والإدب، وبطل من أبطال الدين والعلم والمذهب، ومهما تشدق الكاتب فان فى البيان قصوراً عن بلوغ مداه».[۱]

أساتذة السيد الرضى

لقد ذكر العلّامة الأمينى إسم أربعة عشر من أساتذة السيد الرضى ومنهم:

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۰

۱- أبو سعيد الحسن بن عبداللّه بن مرزبان النحوى المعروف بالسيرافى المتوفى عام ۳۶۸ ه فقد درس السيد الرضى عليه النحو ولما يبلغ العاشرة من عمره.

۲- النحوى المعروف أبو على الحسن بن أحمد الفارسى المتوفى عام ۳۷۷ ه.

۳- هارون بن موسى.

۴- الخطيب المشهور أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد المعروف بابن نباتة المتوفى عام ۳۹۴ ه.

۵- القاضى عبد الجبار، العالم الشافعى المعتزلى.

۶- الفقيه والمحدث والمتكلم الشيعى الكبير الشيخ المفيد والذى يعدّ من أعظم أساتذة السيد الرضى. وهناك قصة رائعة جديرة بالسماع بشأن كيفية تتلمذه وأخيه السيد المرتضى على يد الشيخ المفيد. فقد قال مؤلف كتاب «الدرجات الرفيعة»: رأى المفيد أبو عبد اللّه محمد بن النعمان الفقيه الإمام فى منامه، كأنّ فاطمة بنت رسول اللّه صلى الله عليه و آله دخلت عليه وهو فى مسجده بالكرخ ومعها والداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين فسلمتهما إليه، (وقالت له: علمهما الفقه). فانتبه متعجباً من ذلك، فلمّا تعالى النهار فى صبيحة تلك الليلة التى رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحولها جواريها وبين يديها ابناها محمد الرضى وعلى المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلّم عليها. فقالت له: أيّها الشيخ هذان ولداى، قد أحضرتهما لتعلمهما الفقه.

فبكى أبو عبد اللّه- الشيخ المفيد- وقصّ عليها المنام وتولى تعليمهما الفقه، وأنعم اللّه عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما فى آفاق الدنيا؛ وهو باق ما بقى الدهر «وردت هذه القصة فى شرح ابن أبى الحديد، ج ۱/ ۴۱».

تلامذة السيد الرضى

روى كبار علماء الفريقين أنّ العلّامة الأمينى ذكر تسعة من تلامذة السيد الرضى، ويمكن الإشارة هنا إلى أبرز من روى عنه ومنهم شقيقه السيد المرتضى وشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى كانت للسيد الرضى همة كبيرة جعلته يؤسس مدرسة لطلاب العلوم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱

الدينية أسماها «دار العلم» ولعلها أول مدرسة يتلقى فيها الطلاب الدروس صباحاً بينما يخلدون إلى الراحة والسكن مساءً فى نفس المدرسة، وهى على غرار مدرسة أخيه السيد المرتضى، وقد كان الشيخ الطوسى والقاضى عبد العزيز بن براج من تلاميذها وسبقت مدرسته «المدرسة النظامية» ببغداد بحوالى ۸۰ سنة وربما كانت تقليداً لها[۲].

كتب ومؤلفات السيد الرضى

ذكر العلّامة الأمينى أنّ السيد الرضى خلف أكثر من تسعة عشر كتاباً، أهمها أثره الخالد نهج البلاغة الذى يضم خطب ورسائل وكلمات الإمام على عليه السلام. ثم يورد الشيخ الأمينى أسماء واحد وثمانين كتاباً زمان السيد تعرضت لشرح نهج البلاغة أ وترجمته.

ومن أهم الكتب التى ألفها السيد الرضى:

۱- خصائص الأئمة، والذى أشار إليه المؤلف فى مقدمة نهج البلاغة.

۲- مجازات الآثار النبوية، والذى طبع عام ۱۳۲۸ ه فى بغداد.

۳- الرسائل العلمية فى ثلاثة مجلدات.

۴- معانى القرآن.

۵- حقائق التأويل فى متشابه التنزيل والذى عبّر عنه الكشى بحقائق التنزيل.

السيد الرضى والشعر

كان السيد الرضى نابغة فى الشعر، علماً أنّ الشعر لم يضف شيئاً لشخصيته العظيمة، ورغم ذلك فقد جادت قريحته الشعرية بمختلف الفنون والآداب والصنوف الشعرية التى تكشف عن مدى قدرته فى نظم الشعر. يذكر أنّ السيد الرضى قد أنشد قصيدة غرّاء كشف فيها النقاب عن علو نسبه ولما يبلغ العاشرة من عمره ولذلك عدّه بعض الادباء أشعر شعراء قريش، وربّما رجّح شعره على المتنبى، وهناك رسائل ومبادلات بينه وبين الصاحب بن عباد وأبى اسحاق

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲

الصابى، وذكر الخطيب البغدادى فى تأريخه قائلًا: سمعت محمد بن عبد اللَّه الكاتب أنّه قال عند أبى الحسين بن محفوظ قال: سمعت من فريق من الادباء أنّهم قالوا: السيد الرضى أشعر شعراء قريش. فردّ ابن محفوظ قائلًا: نعم، هذا كلام صحيح، ثم أضاف: كان هناك بعض الأفراد الذين يحسنون الشعر فى قريش إلّاأنّهم قليلوا النظم للشعر، ولم يكن سوى السيد الرضى يكثر إنشاد الشعر إلى جانب إتصافه بالعذوبة والجمال.

القابه ومناصبه

لقبه بهاء الدولة سنة ۳۸۸ بالشريف الأجل، وفى سنة ۳۹۲ بذى المنقبتين، وفى سنة ۳۸۹ بالرضى ذى الحسبين، وفى سنة ۴۰۱ أمر أن تكون مخاطباته ومكاتباته بعنوان الشريف الرضى أن المناصب والولايات كانت منكثرة على عهد سيدنا الشريف من الوزارة التنفيذية والتفويضية والامارة على البلاد بقسميها العامة والخاصة، تولى الشريف نقابة الطالبيين وامارة الحاج والنظر فى المظالم سنة ۳۸۰ وهو

ابن ۲۱ عاما على عهد الطائع، ثم عهد إليه فى ۱۶ محرم سنة ۴۰۳ بولاية أمور الطالبيين فى جميع البلاد فدعى «نقيب النقباء».[۳]
نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳

وفاة السيد الرضى

توفى السيد الرضى رحمه الله فى السادس من شهر محرم الحرام من سنة ست وأربعمائة- وله من العمر ما يناهز السابعة والأربعين-، وحضر جنازته الوزير فخر الملك، وجميع الأعيان والأشراف والقضاة والصلاة عليه، وقد أقيمت مراسم العزاء فى داره فى الكرخ.
روى أغلب المؤرخين أنّ جسده الطاهر قد حمل إلى كربلاء فدفن إلى جوار قبر جدّه، والذى يفهم من بعض النقول التأريخية أن قبره فى مقدمة الحائر الحسينى. ومضى أخوه المرتضى من جزعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليه السلام؛ لأنّه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه وصلى عليه فخر الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمى، فألزمه بالعود إلى داره.[۴]
رثاه الكثير من الأدباء والشعراء وفى مقدمتهم أخيه السيد المرتضى الذى أنشده قائلًا:
يا للرجال لفجعة جذمت يدىوددت لو ذهبت علىّ براسى
للّه عمرك من قصير طاهرولربّ عمر طال بالأدناس
نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵

كلام بشأن نهج البلاغة وصاحبه

اشارة

يعد الحديث عن على عليه السلام أو نهج البلاغة عملًا سهلًا وفى نفس الوقت وليس بسهل! فهو ليس بسهل بالنسبة لمن يروم الغوص فى أعماق على عليه السلام والوقوف على كنهه وحقيقته والاحاطة بكافة جوانبه الفكرية وسعة إيمانه وقوة صبره وعظم فضائله وملكاته، أو أن يتعرف على نهج البلاغة كما هو فى حقيقته. ولكن من السهل الوقوف على بعض قبسات هذين النبراسين العظيمين والقمرين الزاهرين. لا- تخفى شخصية على عليه السلام على مسلم، فكل من له أدنى معرفة بعلى عليه السلام وتاريخه وسيرة حياته سيوقن بأنّه الإنسان الكامل- بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله- وأنّه آية من آيات الحق جل وعلا وان كتابه نهج البلاغة ليس الّا شعاعاً من شمسه المنيرة.
فنهج البلاغة بحر من العلم ومحيط من الحكمة وكنز لا ينضب وحديقة غناء بالزهور وسماء مزينة بالنجوم ومصدر لسعادة الإنسان فى مسيرته الدنيوية.
وممّا لاشك فيه أنّ من يروم إقتحام هذا الميدان عليه أن يعدّ الكتب والمجلدات علّه يحصى بعض حقائق الامور، بينما لا نهدف- فى هذه المقدمة- إلّاإلى التطرق إلى بعض الإشارات المقتضبة من أجل التمهيد للخوض فى شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام والتى نراها أفضل طريقة للتعريف به، وهل الجو المشمس إلّادليل على وجود الشمس.
وهنا أود أن ألفت إنتباه الاخوة القراء إلى أنّ عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والزعماء- ولا سيما من غير المسلمين- قد تناولوا بالبحث والدرس كتاب نهج البلاغة فرأوا أعظم ممّا ظنوا وتصوروا فأطلقوا عباراتهم المعروفة بشأن نهج البلاغة بما يكشف عن مدى تأثرهم والذهول الذى أصابهم فلم يتمالكوا أنفسهم ويعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم وعواطفهم.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶

ويبدو أن كل واحد من هؤلاء قد تأثر بجانب معين من نهج البلاغة، وربما أمكننا إيجاز هذه الجوانب فى المحاور الرئيسية الثلاث الآتية:

۱- فصاحة وبلاغة نهج البلاغة.

۲- المضامين العميقة لنهج البلاغة.

۳- الجاذبية الخارقة لنهج البلاغة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷

۱- فصاحة النهج وبلاغته

لابدّ فى هذا الأمر من الاستشهاد بأقوال البلغاء والفصحاء والأدباء والشرّاح والكتّاب الذين سيروا- حسب قدرتهم- أغوار نهج البلاغة فتأثروا بما لمسوه من حلاوة وطلاوة فى فصاحته وبلاغته وسحر بيانه بما لم يعهدوه، فأطلقوا عباراتهم بشأنه ومنهم:

۱- وما أحرانا أن نتجه بادئ ذى بدء صوب جامع نهج البلاغة والذى يعتبر من جهابذة الفصاحة والبلاغة الذى احتل الصدارة من بين فصحاء العرب وبلغائها وقد أفنى عمره فى جمع خطب نهج البلاغة، ألا وهو السيد الرضى الذى وصفه الكاتب المصرى المعروف الدكتور «زكى مبارك» فى كتابه «عبقرية الشريف الرضى» قائلًا: «هو اليوم أبدع أبناء الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلى بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبيين، ولو قلت إنّه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق».

يقول الشريف الرضى فى مقدمته الرائعة لنهج البلاغة:

«كانَ أميرُ الْمُؤمِنينَ عليه السلام مَشْرِعَ الْفَصاحَةِ وَمَوْرِدَها وَمَنْشَأ الْبلاغَةِ وَمَوْلِدَها وَمِنْهُ ظَهَرَ مَكْنُونُها وَعَنْهُ أخذَتْ قوانينُها وَعَلى أمْثِلَتِهِ حَذا كُلُّ قائِلٍ خَطيبٍ وَبِكلامِهِ اسْتَعانَ كُلُّ واعِظٍ بَليغٍ وَمَعَ ذلِك فَقَدْ سَبَقَ وَقَصَّرُوا وَقَدْ تَقَدَّمَ وَتَأخّرُوا»

، ثم يفسر هذا الكلام فيقول: «لأن كلامه عليه السلام الكلام الذى عليه مسحة من العلم الإلهى وفيه عبقة من الكلام النبوى».

۲- الشارح المعروف الذى أفنى عمراً فى شرح وتفسير نهج البلاغة وتحدث بشغف وإعجاب عن على عليه السلام وهو عز الدين عبد الحميد ابن أبى الحديد المعتزلى الذى يعدّ من أشهر علماء العامة للقرن السابع الهجرى ۵].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۸

فقد تحدث مراراً وكراراً بهذا الشأن فى شرحه وأذعن لعظمة فصاحة وبلاغة النهج. فقد قال على سبيل المثال بشأن الخطبة ۲۲۱ التى أوردها على عليه السلام- بشأن البرزخ- «وينبغى لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة فى مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى ابن الرقاع: قلم أصاب من الدواة مدادها ... فلم قيل لهم فى ذلك قالوا إنا نعرف مواضع السجود فى الشعر كما تعرفون مواضع السجود فى القرآن»[۶].

ثم قال فى موضع آخر حين عرض للمقارنة بين كلام أمير المؤمنين على عليه السلام وكلام «ابن نباتة»[۷] الخطيب المعروف الذى عاش فى القرن الهجرى الرابع: «فليتأمل أهل المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلام بعين الانصاف ليعلموا أنّ سطراً واحداً من كلام نهج البلاغة يساوى ألف سطر منه بل يزيد ويربى على ذلك»[۸]. وينقل أيضاً إحدى خطب ابن نباتة فى الجهاد والتى تمثل قمة الفصاحة وقد ضمنها عبارات أمير المؤمنين عليه السلام الواردة فى الجهاد «ما غزى قوم فى عقر دارهم إلّاذلّوا» فيقول: «فانظر إلى هذه العبارة كيف تصيح من بين الخطبة صياحاً وتنادى على نفسها نداءً فصيحاً، وتعلم سامعها أنّها ليست من المعدن الذى خرج باقى الكلام منه، ولا من الخاطر الذى صدر ذلك السجح عنه، ولعمر اللّه، لقد جمّلت الخطبة وحسنتها وزانتها وما مثلها فيها إلّاكآية من

الكتاب العزيز يتمثل بها فى رسالة أو خطبة، فانّها تكون كاللؤلؤة المضيئة تزهر وتنير، وتقوم بنفسها، وتكتسى الرسالة بها رونقاً، وتكتسب بها ديباجة»[۹].

وأخيراً نختتم كلامه بما أورده فى مقدمة شرحه للنهج حيث قال: «وأمّا الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء وفى كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة»[۱۰].

۳- «جورج جرداق» الكاتب المسيحى اللبنانى المعروف الذى ألف كتابه المشهور

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹

«الإمام على صوت العدالة الإنسانية» حيث أفرد فصلًا من كتابه لبيان خصائص الإمام على عليه السلام فقال بخصوص نهج البلاغة: «أمّا فى البلاغة، فهو فوق البلاغات، كلام ضم جميع جمالات اللغة العربية فى الماضى والمستقبل، حتى قيل عنه: كلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»[۱۱].

۴- «الجاحظ» الذى عاش مطلع القرن الهجرى الثالث ويعدّ من أبرز أدباء العرب ونوابغهم، حيث أورد بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام فى كتابه المعروف «البيان والتبيين» فجعل يثنى عليه. ومن ذلك قال فى المجلد الأول من كتابه المذكور حين طالعته كلمته عليه السلام: «قيمة كل امرء ما يحسنه»[۱۲]؛ لو لم تكن فى كل هذا الكتاب إلّاهذه الجملة لكفت، بل وزادت، فأفضل الحديث ما كان قليلًا ومفهومه ظاهر جلى ويغنيك عن الكثير، وكأنّ اللّه كساه ثوباً من الجلال والعظمة وحجاباً من نور الحكمة بما يتناسب وطهر قائله وعلو فكره وشدة تقواه.

۵- «أمير يحيى العلوى» مؤلف كتاب «الطراز» حيث أورد فى كتابه عبارة عن الجاحظ انّه قال: «إنّه الرجل الذى لا يجارى فى الفصاحة ولا يبارى فى البلاغة، وفى كلامه قيل دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، ولم يطرق سمعى كلام بعد كلام اللّه ورسوله سوى كلمات أمير المؤمنين كرم اللّه وجهه من قبيل قصار كلماته «ما هلك امرء عرف قدره» و «من عرف نفسه عرف ربه» و «المرء عدو ما جهل» و «استغن عمن شئت تكن نظيره واحسن إلى من شئت تكن أميره واحتج إلى من شئت تكن أسيره». وعليه فليس من العبث أن يعرب هذا الأديب الزيدى «صاحب كتاب الطراز» عن دهشته لاستناد كبار علماء المعانى والبيان بدواوين شعراء العرب وأدبائهم بغية السبيل إلى الفصاحة والبلاغة بعد كلام اللّه وكلام النبى صلى الله عليه و آله وولوا ظهورهم لكلمات الإمام على عليه السلام، بينما كانوا يعلمون أنّه يمثل قمة الفصاحة والبلاغة وفى كتاب نهج البلاغة كل ما يريدون من فنون أدبية من قبيل الاستعارة والتمثيل والكناية والمجاز والمعانى و ...»[۱۳].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰

۶- الكاتب المشهور «محمد الغزالى» الذى نقل فى كتابه «نظرات فى القرآن» عن اليازجى أنه أوصى ولده قائلًا: «إذا شئت أن تفوق أقرانك فى العلم والأدب وصناعة الانشاء فعليك بحفظ القرآن ونهج البلاغة».[۱۴]

۷- المفسر المعروف «شهاب الدين الآلوسى» الذى قال- حين بلغ اسم نهج البلاغة-:

«إنّ انتخاب هذا الاسم لهذا الكتاب نابع من كونه يشتمل على كلام فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق المتعال، وهو كلام يقترب من الاعجاز يضم البدائع فى الحقيقة والمجاز»[۱۵]

۸- الاستاذ «محمد محيى الدين عبد الحميد» الذى قال فى وصفه لنهج البلاغة: «كلّ هذه المزايا مجتمعة، وتلك الصفات متآزرة متناصرة؛ وما صاحبها من نفح إلهى وإفهام قدسى، مكنت للإمام علىّ من وجوه البيان، وملكته أعنّة الكلام، وألهمته أسمى المعانى وأكرمها، وهيأت له أشرف المواقف وأعزها، فجرت على لسانه الخطب الرائعة والرسائل الجامعة والوصايا النافعة».[۱۶]

۹- أحد شرّاح نهج البلاغة «الشيخ محمد عبده» إمام العامة والكاتب العربى المعروف، الذى قال بشأن النهج فى مقدمته عليه- بعد أن إعترف بأنّه تعرف مصادفة على هذا الكتاب الشريف- ويبدو أنّ هذه قضية جديرة بالتأمل-: «حين تصفحت نهج البلاغة وتأملت

موضوعاته بدا لى وكأنّ هذا الكتاب عبارة عن معارك عظيمة، الحكومة فيها للبلاغة والقوّة للفصاحة وقد حملت من كل حدب وصوب على جنود الظنون الباطلة وسلاحها الأدلة القويّة والبراهين الساطعة».

۱۰- «السبط بن الجوزى» أحد أبرز الخطباء والمؤرخين والمفسرين المعروفين العامة، الذى صرّح فى «تذكرة الخواص» قائلًا: «وقد جمع اللّه له بين الحلاوة والملاحة والطلاوة والفصاحة لم يسقط منه كلمة ولا بادت له حجة، أعجز الناطقين وحاز قصب السبق فى السابقين الفاظ يشرق عليها نور النبوة ويحير الافهام والألباب».[۱۷]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱

۱۱ و ۱۲- ونختتم هذا الفصل بقولين لأديب مسيحى معروف وهو الكاتب والمفكر العربى المشهور «ميخائيل نعيمة» الذى قال: لو كان على مقتصراً على الإسلام لم يتعرض شخص مسيحى (يشير إلى الكاتب والمفكر المسيحى اللبنانى جورج جرداق صاحب كتاب الإمام على صوت العدالة الإنسانية) لسيرته وحياته ويتابع الأحداث التى واجهته فيترنم بشجاعته التى أصابته بالدهشة والذهول؛ ولم تقتصر شجاعة الإمام وبسالته على ميدان الحرب، فقد كان رائداً فى البلاغة وسحر البيان والاخلاق الفاضلة وعلو الهمّة وعمق الإيمان ونصرة المظلومين واتباع الحق وبسط العدل. ثم قال فى موضع آخر بأن ما قاله وفعله هذا النابغة ما لم تره عين وتسمعه أذن، وأنّه لأعظم من أن يسع المؤرخ بيانه بقلمه ولسانه. وأخيراً فقد قال فيه ابن أبى الحديد: وأمّا الشجاعة فانه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتى بعده، ومقاماته فى الحرب مشهورة يضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة؛ وهو الشجاع الذى مافرّ قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلّاقتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الاولى إلى ثانية، وأمّا السخاء والجود ففيه يضرب المثل فيهما، فكان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده، وقال الشعبى: كان أسخى الناس؛ كان على الخلق الذى يحبه اللّه: السخاء والجود، ما قال (لا) لسائل قط. وأمّا الحلم والصفح: فكان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسىء؛ وقد ظهر صحة ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم- وكان أعدى الناس له وأشدّهم بغضا- فصفح عنه، وأمّا الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء، ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة، ولما قال محفن بن أبى محفن لمعاوية: جئتك من عند أعيا الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس! فو اللّه ماسن الفصاحة لقريش غيره.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۳

۲- المضامين الرصينة الشاملة لنهج البلاغة

اشارة

من المميزات التى يتصف بها نهج البلاغة التى تلفت انتباه القارئ إذا ما أقبل عليه إنّما تكمن فى شموليته وتنوع مضامينه الرصينة، بحيث «تجعله يصدق أنّ هذه الأقوال المتقنة الدقيقة التى تعالج امور شتى تصل إلى حدِّ التضارب إنّما تصدر من عين واحدة، ومن المسلم به أنّ هذا الأمر لا يصدر إلّامن أمير المؤمنين على عليه السلام الذى أودع قلباً حافظاً وروحاً سامية تفيض علوماً ومعارفاً إلهية حقة وأسراراً جمة لا يسعها سوى ذلك القلب. ويسرنا هنا أن نستشهد بالإقوال التى ساقها كبار العلماء والمفكرين بهذا الخصوص.»

۱- ونستهل ذلك بما أورده العالم المعروف «محمد عبده» إمام العامة، فقد رسم صورة رائعة عن حاله وهو يطالع لأول مرة نهج البلاغة وما اشتمل عليه من خطب ورسائل وكلمات قصار عجزت العقول أن تجود بمثلها فصاحة وصياغة وبلاغة، فقال: «وكان لطيف الحِسّ، نقىّ الجوهر، وضاء النَّفس؛ سليمَ الذّوق، مستقيم الرأى، حتسنَ الطريقة سريع البديهة، حاضر الخاطر؛ حوّلًا قلبًا؛ عارفاً بمهمّات الامور إصداراً وإيراداً.»

۳- نقل «الشيخ البهائى» فى «كشكوله» عن كتاب «الجواهر» ان «أبو عبيدة» قال: قال على عليه السلام تسع جمل عجزت بلغاء العرب عن الإتيان بواحدة منها؛ ثلاث فى المناجاة، وثلاث فى العلوم، وثلاث فى الادب.[۱۸] ثم خاض فى شرح هذه العبارات التى وردت ضمن كلماته فى نهج البلاغة وسائر أحاديثه.

۴- الدكتور «زكى مبارك» الذى صرّح فى كتابه «عبقرية الشريف الرضى» قائلًا: «أعتقد أنّ دراسة نهج البلاغة تمنح الإنسان المروءة والشهامة وسمو الروح، ولا عجب فهو ينبع من نفس عظيمة واجهت الوقائع والحوادث بشجاعة الأسود»[۱۹].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴

فالكلام هنا لا يتناول سعة المعلومات وكسب المعارف والعلوم، بل قصره على استشعار الهمة والمروءة وسمو النفس فى ظل التمعن بالنهج.

۵- «ابن أبى الحديد» هو الآخر أعطى الكلام حقّه فقال: ولم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه و آله إلّالهذا الرجل، ومن أنصف علم صحة ذلك، فان شجاعته وجوده وعفته وقناعته وزهده يضرب بها الأمثال. وأمّا الحكمة والبحث فى الامور الإلهية، فلم يكن من فن أحد من العرب، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفر دون به، وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام ولهذا تجد المباحث الدقيقة فى العدل والتوحيد مبثوثة عنه فى فرش كلامه وخطبه، ولا تجد فى كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك.[۲۰]

۶- أورد «المرحوم السيد الرضى» بعض العبارات المقتضبة العميقة المعنى فى كتابه الشريف بشأن مضامين نهج البلاغة، وهى جديرة بالتأمل والاهتمام، من ذلك ما ذكره ذيل الخطبة «۲۱» حيث قال:

«إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام اللّه سبحانه وبعد كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله بكل كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً».

أمّا الخطبة «۲۱» فهى:

«فإنّ الغاية أمامكم وإنّ وراءكم الساعة تحدوكم، تخففوا تلحقوا فانّما ينتظر بأولكم آخركم».

كما أورد مثل هذا المعنى ذيل الحكمة «۸۱» من كلماته القصار فقال:

«وهى الكلمة التى لا تصاب لها قيمة ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة».

۷- ونطلق الحديث هنا للكاتب المصرى المعروف «عباس محمود العقاد» الذى يعدّ من كبار الأدباء المعاصرين لنرى مدى اعجابه بنهج البلاغة، فقد أورد بعض العبارات الجزيلة فى مواضع من كتاب «عبقرية الإمام على عليه السلام» والتى تبيّن عمق معرفته بشخصية الإمام ومدى تأثره بكلماته، فقد قال: «إن نهج البلاغة عين متدفقة بآيات التوحيد والحكمة الإلهية التى توسع معارف الباحثين فى العقائد والتوحيد والمعارف الإلهية»[۲۱].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵

وقال فى موضع آخر: «إنّ كل نموذج من كلماته شهادة؟

على قدرته الإلهية بيان الحقائق، أنّه لا شك من أبناء آدم الذى علم الأسماء، فهو

مصداق لقوله تعالى: «اوتوا الكتاب» «فصل الخطاب»[۲۲].

وقال أيضاً: «إنّ كلماته عليه السلام تمثل قمة الحكمة والفصاحة والبلاغة، وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل»

. فهذا الحديث يصدق على على عليه السلام قبل غيره، فكلماته الحكيمة فى مصاف كلمات الأنبياء عليهم السلام ۲۳].

۸- وقال الكاتب والأديب المعاصر «محمد أمين النووى» يصف نهج البلاغة: «إنّه الكتاب الذى جعله الله حجة واضحة وقد ضمنه على

عليه السلام الأمثال القرآنية والحكم الربانية بفصاحة وبلاغة قل نظيرها».[۲۴]

۹- وهذا الأديب المصرى المعروف «طه حسين» الذى يعتبر عميد الأدب العربى، فقد قال بعد أن تعرض لردّ على عليه السلام على السائل الذى كان شاكاً فى حرب الجمل: «إنى لم أر ولم أعرف جواباً بعد الوحى وكلام اللّه أعظم وأروع من هذا الجواب».[۲۵]

۱۰- المرحوم «ثقة الإسلام الكلينى» الذى نقل فى الجلد الأول من كتابه الكافى إحدى خطبه عليه السلام فى التوحيد، فقال: «هذه من خطبه المعروفة ولو اجتمعت الانس والجن لبيان حقائق التوحيد لعجزت عمّا بينه على عليه السلام ولولاه لما عرف الناس سبيل الوحدانية».[۲۶]

۱۱- ونختتم البحث بما أورده العلّامة الفقيهٔ آية اللّه الخوئى، إذ قال: «حين يرد الإمام عليه السلام بحثاً فى خطبه من نهج البلاغة فانه لا يترك مجالًا بعده للحديث حتى يخيل لُاولئك الذين لا علم لهم بسيرة أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قضى عمره فى ذلك الموضوع»[۲۷].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۷

۳- جاذبة نهج البلاغة الخارقة

اشارة

لقد شعر جميع من تعامل مع نهج البلاغة- من قبل أشياع على عليه السلام أو سائر العلماء والادباء المسلمين ومن سائر الأديان- دون استثناء بوجود قوة كامنة تشدهم إليه وتجعلهم يتأثرون به ويتكهربون بأجوائه.

والحق إنّ مثل هذه الجاذبة التى اتسمت بها كافة خطبه ورسائله وكلماته هى التى دفعت بفريق من العلماء لتناول هذا الكتاب النفيس بالشرح والتفسير وتدوين المقالات والأبحاث والاستغراق فى مختلف جوانب شخصية الإمام على عليه السلام. بدورنا نرى أن هذه الجاذبة تختزن عدّة دوافع، يمكن إيجاز أهمها فى ما يلى:

۱- لقد شحن نهج البلاغة بالأقوال التى تصرح بمواساة الطبقات المحرومة والمستضعفة، إلى جانب الحديث عن مجابهة الظلم والطغيان ومقارعة حكام الجور والطواغيت. فقد تعرض فى عهده الذى عهده إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر إلى الخطط والبرامج التى ينبغى اعتمادها فى كيفية إدارة شؤون البلاد. يتحدث عليه السلام فى هذا العهد عن حقوق ووظائف الطبقات الاجتماعية السبع، حتى إذا بلغ الطبقة المحرومة من الناس أفصح عن مكنوبات نفسه وسيرته فى التعامل معها فيوصى عامله قائلًا له: «اللّه اللّه فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى ...»، ثم يؤكد عليه: «فلا يشغلنك عنهم بطر فانّك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامه الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد امور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال» ولم تقتصر وصاياه عليه السلام بهذا المجال فى هذا العهد فحسب، بل لم ينفك يؤكد ذلك فى كل خطبة من خطبه وموعظة من مواعظه لعماله وولاته.

۲- لقد سلك نهج البلاغة سبيل تحرير الإنسان من أسر الهوى والشهوات التى تؤدى به

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۸

إلى البؤس والشقاء، وكذلك تحريره من قيود الطواغيت والظلمة، فهو يستفيد من كل فرصة لتحقيق هذا الهدف المقدس، إلى جانب تأكيده على أنّه ما جاع فقير إلّابما متع به غنى، وأن تراكم الثروة يفيد تضييع الحقوق وعدم العمل بالأحكام الشرعية.[۲۸]

ويصرح الإمام عليه السلام:

«أمّا والـذى فلق الحبة، وبرأ النسـمة، لولا حضور الحاضـر وقيام الحجة بوجود الناصـر، وما أخذ اللّه على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألقيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز»!

فهو يؤكـد على شـدة تنمره فى إعـادة روح الحريـة والعدالـة والمساواة التى لا يعرف المهادنـة فيها، بل أبعـد من ذلك فى أنّه لا يرى الامرة والحكومة سوى وسيلة ووظيفة لتحقيق هذه الاهداف ۲۹]. ويخطىء كل من يظن أنّ علياً عليه السـلام يمكنه أن يتهاون فى هذا الأمر، ولم يعرف عمق شخصية على؛ الأمر الذى أكده فى رسالته إلى عثمان بن حنيف ۳۰].

۳- النفحات العرفانيـة التى ينبض بها نهـج البلاغة إنّما تناغم الأرواح المتعطشة للحكمة فتسـقيها الشـراب الطهور الذى يسـكرها بالعلم والمعرفة!

فلاـ يرى القـارئ لخطبه فى اللّه وصـفاته الجماليـة والجلاليـة سوى أنّه يحلق مع الملائكـة ليخترق حجب المعرفـة والكمال ۳۱] امّا إذا تحـدث عن أهوال القيامـة وسـكرات الموت والعاقبـة التى تنتظر الإنسـان فلا تراه إلّاوكأنّه أمسك بقبضـة الغافلين وأخـذ يسوقهم نحو المصير الذى منه يهربون والعاقبة التى عنها لاهون.[۳۲]

۴- قوة الجاذبيـة الاـخرى التى يختزنهـا نهـج البلاغـة والتى أشـرنا إليهـا سابقـاً أنّه عليه السـلام أمير الكلاـم فى كل موضوع يطرقه بما يجعلك تتصور أنّه بارع فى هذا الموضوع وقد أفنى عمره فى بيان عناصره ومقوماته وسائر جوانبه، ولا يحسن شيئاً آخر سواه وسرعان ما يتبدد هذا التصور حين تطالعه وقد تحدث فى موضوع آخر- فاذا تناول- على سبيل المثال- قضية

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹

التوحيد وشـرح أسـماء اللّه وصـفات الجلال، خيل إليك أنّه فيلسوف ربانى سبر أغوار التوحيد وانهمك فيه لسنوات متمادية وليس له مثل هـذا العمق فيما سواه؛ فليس للتجسم من سبيل إلى حـديثه، ولا من سبيل إلى سـلبه الصـفات، بل يقـدم صورة عن التوحيـد تجعل الإنسان يرى ربّه ببصيرته فى كافة السموات والأرضين حاضر فيها وفى نفسه فيمتلئ قلبه حبّاً للّهومعرفة به.

بينما لا تكاد العين تقع على خطبته فى الجهاد، حتى لا تغيب عنها صورته كآمر شـجاع ومقاتل باسل مغوار قـد ارتـدى بزته العسـكرية وأخـذ يسـتعرض أسـاليب الحرب وفنون القتـال وستراتيجيـة الـدفاع والهجوم، وكأنّه أفنى عمره فى ميادين الوغى وساحات القتال ولم تدعه يفكر فى ما سواها.

فـاذا تصـفحنا نهـج البلاغـة وطالعتنا خطبه ووصاياه لعماله وولاته حين أخـذ بزمام الامور وتزعم قيادة الامّـة، رأيناه يكشف النقاب عن عناصر تألق الحضارات وازدهارها وأسباب سقوطها وانهيارها، إلى جانب استعراض مصير الأقوام الظالمة والامم المستبدة بالاضافة إلى الاسـس والمبادئ التى من شأنها ضـمان سـلامة الأنظمـة الاجتماعيـة والسياسـية الحاكمة، بما يجعلك تظن بأنّه عكف عمراً على هذه الامور ويختص بها دون الاهتمام بسائر ميادين الحياة ونواحيها. ثم نقلب صـفحات النهج لنراه زعيماً أخلاقياً هادياً البشرية نحو تهذيب النفس ومكارم الأخلاق. يلتقيه أحـد الأصـفياء من أصـحابه ويـدعى «همام» الذى يسأله أن يصف له المتقين. فيعدد له عليه السـلام ما يقارب المئـة من صـفاتهم بعبارات أحكم صـياغتها وبلاغتها كأنّه جلس عمراً لدروس الأخلاق والتهذيب وتربية النفوس حتى يصـعق همام صعقة كانت نفسه فيها.

حقاً إنّ هـذه الأبحاث العميقـة الفريدة المتنوعة التى شـحن بها نهج البلاغة تعدّ من الخصائص والمميزات التى اتصف بها هذا الكتاب العجيب.

أقوال العظماء بشأن جاذبية نهج البلاغة

الأقوال التى ساقها كبار جهابـذة العلماء بخصوص الجاذبيـة الكامنـة فى نهـج البلاغة تعتبر من الشواهد التى تعزز ما أوردناه سابقاً بهذا الشأن:

فالسيد الرضى جامع نهج البلاغة الرائد الذى يعدّ من مشاهير الادباء العرب يصرح

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰

أحياناً حين نقله لبعض الخطب ببعض العبارات التى تكشف عن عمق افتتانه بما يورد وعدم تمالكه لنفسه تجاه قوة سبك عبارات صاحب النهج. ومن ذلك أنّه قال إثر نقله للخطبة رقم «۸۳» من نهج البلاغة

«وفى الخبر أنّه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت له الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب»

ونقرأ فى خطبة المتقين- حين سأله ذلك العارف «همام» عن صفات المتقين- أنّه حين بلغ ذلك الموضع من الخطبة، صعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أميرالمؤمنين عليه السلام:

«امّا واللّه لقد خفتها عليه، هكذا تفعل المواعظ البالغة فى أهلها».

كما علق السيد الرضى على الخطبة رقم «۲۸» ليعرب عن عمق أثرها فى روحه وعقله فقال: «إنّه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلى الزهد فى الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار ...» وأضاف:

«ومن أعجبه قوله عليه السلام:

«ألا إنّ اليوم المضمار وغدا السباق، والسبقة الجنّة والغاية النار»

فان فيه مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل وواقع التشبيه سراً عجيباً ومعنى لطيفاً ... فتأمل ذلك فان باطن كلامه عجيب، وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه عليه السلام».

وقال ذيل الخطبة «۱۶»:

«إنّ فى هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان مالا تبلغه مواقع الاستحسان، وان حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به».

وفيه- مع الحال التى وصفنا- زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّا من ضرب فى هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق

«وما يعقلها إلّاالعالمون».

وهكذا نقل ما أورده المفسر والمحدث المعروف «ابن عباس» حين ألقى الإمام خطبته الشقشقية حين قام إليه رجل من أهل السواد فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت. فقال:

«هيهات يابن عباس! تلك شقشقة هدرت ثم قرت»

. قال ابن عباس:

«فو اللّه ما أسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد».

فقد قال ابن أبى الحديد:

«هو سيد المجاهدين وأبلغ الواعظين ورئيس الفقهاء والمفسرين وإمام أهل العدل والموحدين».[۳۳]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱

أسناد نهج البلاغة

مامن شك فى أنّ خطب ورسائل نهج البلاغة وكلماته القصار وردت (على ضوء جمعها من قبل المرحوم السيد الرضى) على نحو الروايات المرسلة؛ أى لم تذكر أسانيدها بما يجعلها متصلة بالمعصومين، وقد أدى هذه بدوره إلى تشكيك البعض أحياناً، ولا سيما بالنسبة لُاولئك الذين ظنوا بأن نهج البلاغة وبفضل مضامينه العظيمة قد يكون سنداً لاثبات حقانية مذهب الشيعة وأفضلية على عليه

السلام على جميع الصحابة؛ فاتخذوا ذلك ذريعة لفرض طوق من العزلة على هذا الكتاب فى أوساط الرأى العام الإسلامى. وإن كانت هذه الزوبعة- ولحسن الحظ- لم يكن لها أدنى تأثير فى أفكار علماء وأدباء الفريقين الذين كسروا حاجز الصمت وكالوا له المديح والثناء وخاضوا فى شرحه وتفسيره، وقد مرت علينا نماذج من ذلك، مع ذلك نرى من الضرورى الخوض فى قضية أسناد النهج بغية إزالة الشك وإماطة اللثام عن حقيقة هذا الكتاب وهنا لابدّ من الالتفات إلى أمرين:

۱- أنّ أغلب خطب نهج البلاغة ورسائله وكلماته القصار- إذا لم نقل جميعها سوى معشاره- إنّما هى من قبيل المطالب المستدلة المبرهنة أو ذات الاستدلال المنطقى، بعبارة اخرى من قبيل «القضايا التى قياساتها معها». وعليه فهى ليست بحاجة إلى سلسلة السند بصفتها مباحث تعبدية، فالأعم الأغلب من المضامين وردت بشأن المعارف العقائدية من قبيل: المبدأ والمعاد والصفات وأدلة عظمة القرآن ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله وما شاكل ذلك. كما وردت بعض المضامين كمواعظ ونصائح ودروس وعبر بشأن حياة الامم السابقة ونظم إدارة شؤون البلاد والحياة الاجتماعية والآداب ومسائل الجهاد وما إلى ذلك من المباحث المنطقية الاستدلالية الخاضعة للدليل والبرهان.

ولما كانت نتاجات كبار الفلاسفة وعلماء العلوم المختلفة وحتى النتاجات الأدبية الشعرية

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲

لفطاحل الشعراء تؤخذ دون الحاجة إلى سلسلة الأسانيد، فان هذا الأمر يجرى على مضامين نهج البلاغة بما يجعله غنياً عن تلك السلسلة، وحقيقة الأمر أنّها تحمل أدلتها معها «قضايا قياساتها معها». نعم هناك محور صغير فى النهج قد عنى ببعض الأحكام الفرعية التعبدية، فان كان من حديث عن السند، أمكن إقتصاره على هذا المحور والذى لا يشكل قطعاً عشر كتاب نهج البلاغة. ونخلص من هذا إلى عدم جدوى هذه الضجة المفتعلة بشأن أسانيد النهج، وهى زوبعة جوفاء عديمة الأثر.

۲- بغض النظر عمّا سبق، فاننا لا نرى من عقبة فى هذا الأمر حتى وإن اعتمدنا المعايير المتعارفة لحجية السند بالنسبة لنهج البلاغة؛ وذلك لأنّ المعيار الأصلى لقبول الحديث والرواية- على ضوء ما فرغ منه فى علم الاصول وبرهن فى محله- إنّما يتأتى الوثوق بها من طرق مختلفة؛ فأحياناً يحصل الوثوق بالرواية من خلال سلسلة السند وثقة الرواة، كما يحصل أحياناً اخرى مثل هذا الوثوق بواسطة كثرة الرواة- وفى الكتب المشهورة والمعتبرة-، وأخيراً قد يكون مضمون الرواية على درجة من العمق والرصانة على أنّه إنّما صدر من النبى صلى الله عليه و آله أو الإمام المعصوم؛ الأمر الذى يجعلنا نثق بهذه الرواية وهذا ما ذكروه بالنسبة لزبور آل محمد صلى الله عليه و آله الصحيفة السجادية (إلى جانب الاسناد المعتبرة التى أوردها بهذا الشأن)، بفضلها ضمت أدعية رفيعة سامية ذات مضامين عميقة صدرت عن الإمام السجاد على بن الحسين زين العابدين عليه السلام. ولا شبهة ولا ريب أن من يتمعن فى خطب نهج البلاغة ويتدبر مضامينها ويتأمل أسرارها، فانّه لا يملك سوى الاذعان بأنّ مثل هذه الكلمات محالة الصدور عن الإنسان العادى وأنّها لم تصدر سوى عن النبى صلى الله عليه و آله أو امتداده الإمام المعصوم عليه السلام.

وعلى حد تعبير كبار علماء الفريقين: «إنّ كلامه فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق».

وبناءً على هذا وعلى ضوء بزوغ الشمس دليل على وجودها، فان مضمون نهج البلاغة دليل على اعتبار سنده وصدوره عن المعصوم عليه السلام، واننا لنوقن بذلك على أنّه لم ينسب لمعصوم سوى لعلى عليه السلام. فمن ذا الذى يحتمل أنّه صدر من فرد عادى ثم نسبه لعلى عليه السلام؟! إذا كان مثل هذا الابداع أو حتى عشر من أعشاره فلم لا ينسبه لنفسه ويفوز بهذا الشرف؟ وناهيك عمّا تقدم وعلى ضوء ما نعرفه عن شخصية «السيد الرضى» ووثاقته وعلو مقامه، فاننا نقطع بأنّه لم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۳

ينسبه إلى على عليه السلام مالم يكن قد رأى مصادره المعتبرة، فهو لا يقول روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال كذا، بل اعتاد القول «ومن خطبة عليه السلام ومن رسائله ومن كلماته القصار». فكيف وأنى لهذا العملاق أن يتحدث بهذه الثقة والقطع وينسب

الكلمات لإمامه المعصوم دون أن يستند إلى أسناد معتبرة وردت بهذا الشأن؟!. أضف إلى ذلك فقد دونت عدّة مصنفات قبل «السيد الرضى» ضمت أغلب خطب ورسائل نهج البلاغة والكلمات القصار؛ الأمر الذى يثبت أنّ هذه الكلمات كانت متداولة أيضاً- قبل السيد الرضى- ومعروفة بين العلماء والمحدثين والرواة وأحياناً بين عوام الناس.

ومن شأن هذه الشهرة أن تغنينا عن الاسناد. بل ذهب بعض كبار المؤرخين أنّ الخطب التى اشتهرت بين الناس كانت أكثر بكثير من هذا المقدار الذى جمعه «السيد الرضى» فى نهج البلاغة، والواقع هو أنّ النهج عبقات من تلك الخطب. ومنهم المؤرخ المعروف «المسعودى» الذى عاش لقرن قبل «السيد الرضى»، الذى صرّح فى كتابه «مروج الذهب» بشأن خطب الإمام على عليه السلام قائلًا: «والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربع مائة ونيف وثمانون خطبة»[۳۴]، والحال لا يضم النهج أكثر من مئتين وأربعين خطبة. ونقل العالم المعروف «السبط بن الجوزى» فى كتابه «تذكرة الخواص» عن «السيد المرتضى» انّه قال: «بلغتنى أربعمئة خطبة من خطب الإمام على»[۳۵]. وقال صاحب «البيان والتبيين» العالم‌المعروف: «كانت خطب الإمام على عليه السلام مدونه ومحفوظة ومشهورة»[۳۶]. وقال «ابن واضح» فى كتابه «مشاكلة الناس لزمانهم»: «لقد حفظ الناس الكثير من خطب الإمام على عليه السلام، فقد ألقى أربعمئة خطبة حفظها الناس، وهى هذه الخطب المتداولة بيننا»[۳۷].

وهنا لابدّ من القول بأن جمعاً من العلماء المعاصرين والفضلاء ألقوا كتباً كمصادر وأسناد لنهج البلاغة، حيث استخرجوا أسانيد الخطب من الكتب التى صنفت قبل «السيد الرضى» وصرحوا بها فى كتبهم، من قبيل كتاب «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» تأليف العالم المحقق

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۴

«السيد عبد الزهراء الحسينى الخطيب» الذى يجعل الباحث يقف على هذه الحقيقة، وهى أنّ السيد الرضى لم ينفرد قط بنقله لهذه الخطب.

يذكر أنّ هذا الكتاب يفيد بأنّ نهج البلاغة قد جمع من مئة وأربعة عشر كتاباً، وأنّ أكثر من عشرين منها قد دونت من قبل علماء كانوا يعيشون قبل السيد الرضى. ومن أراد المزيد فليراجع الكتاب المذكور حيث لا نرى المقام يسع للاستغراق أكثر من هذه العجالة. والذى تجدر الإشارة إليه هنا أنّ السيد الرضى قد استفاد من خمسة عشر كتاباً- ذكرها خلال بعض تعليقاته على كلمات نهج البلاغة- فى جمعه لنهج البلاغة.[۳۸]

ونستنتج ممّا مرّ معنا خواء الشكوك التى نشأت من عدم وجود الأسانيد.

شروح نهج البلاغة

حديثنا الأخير فى هذه المقدمة، كلام مختصر بشأن الشروح والتراجم التى أوردها علماء المسلمين بخصوص هذا الكتاب منذ عصر السيد الرضى حتى عصرنا الحاضر، ويبدو أن هذه الشروح إنّما تتضاعف وتزداد كلما ابتعدنا أكثر عن عصر السيد الرضى، والسبب فى ذلك يعود إلى تنامى المعرفة بهذا الكنز النفيس كل يوم، وما هذه المؤتمرات والندوات التى أقيمت وما

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵

زالت تقام بخصوص نهج البلاغة إلّاشهادة حية اخرى على صحة ما أوردناه. فقد أشار المرحوم العلّامة الأمينى فى المجلد الرابع من كتابه الغدير فى ترجمته لحياة المرحوم السيد الرضى إلى هذه المسألة وقال: «لقد كتب أكثر من خمسين شرحاً على نهج البلاغة منذ عصر المرحوم السيد الرضى لحد الآن ...» ثم خاض فى ذكر هذه الشروح، إلى جانب ذكر مؤلفيها وتأريخ وفاتهم، وباضافة التراجم التى ظهرت فى هذه الأواخر، فقد أحصى ما يقارب الحادى والثمانين ترجمة وشرحاً»[۳۹] وبالطبع فان كل شرح من هذه الشروح (كتفاسير القرآن) قد سلط الضوء على جانب من جوانب نهج البلاغة، فقد خاض البعض فى جانبه الأدبى بينما تناول البعض الآخر

أبعاده التأريخية أو الفلسفية أو القضايا التربوية والاجتماعية وما إلى ذلك.

هذا وقد ذكر مؤلف كتاب «مصادر نهج البلاغة» أكثر من مئة وعشرة شروح وتفاسير لنهج البلاغة، بينما ذكر بعض الفضلاء فى كتبهم أسماء ثلاثمائة وسبعين كتاباً ألفت فى شرح نهج البلاغة وترجمته وتفسيره ۴۰]. وبالرغم من ذلك لابدّ من الاعتراف بأن هذا الكتاب ما زال لم يظفر ببغيته من سبر أغواره والغوص فى أعماقه من أجل استخراج كنه معانيه لتعالج متطلبات العصر والزمان وأنين البشرية، كيف لا ـ وأبعاده كأبعاد شخصية على عليه السلام التى لا ـ يحيطها الكلام ولا يلم بتفاصيلها القلم والبيان. وهنا لابدّ من القول بأن الشروح والتراجم المذكورة ليست واسعة كاملة، وأنّ بعضها قد اكتفى بمحور من محاور نهج البلاغة، ولم يشذ منها سوى النزر القليل من الشروح التى تعاملت بشمولية مع النهج ومنها:

۱- «أعلام نهج البلاغة» والذى اعتبره العلّامة الامينى من أقدم شروح نهج البلاغة، ومؤلفه «على بن الناصر» من معاصرى المرحوم السيد الرضى.

۲- «منهاج البراعة» لمؤلفه سعيد الدين هبة اللّه القطب الراوندى، وهو من أعلامالقرن الهجرى السادس.

۳- شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى- من أعلام القرن السابع الهجرى- وهو

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶

من الشروح المشهورة ويقع فى عشرين مجلداً.

۴- شرح ابن ميثم البحرانى- من علماء القرن السابع- وهو من الشروح الواسعة الرائعة.

۵- منهاج البراعة للمرحوم الحاج الميرزا حبيب اللّه الموسوى الخوئى، والمعروف بشرح الخوئى، وهو من علماء القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجرى.

۶- شرح «الشيخ محمد عبدة» من مشاهير علماء العامة الذى عاش فى القرن الثالث عشر الهجرى.

وأخيراً لا يسعنا المقال لأن نذكر أسماء طائفة من الفضلاء المعاصرين الذين صنّفوا شروحاً عظيمة لهذا الكتاب النفيس. وما يجدر ذكره هو أنّ صاحب كتاب «الذريعة» الفاضل المرحوم المحدث الطهرانى قد ذكر مئة وأربعين شرحاً للنهج أوردها علماء الشيعة، بينما أحصى ستة عشر شرحاً لعلماء العامة، يعدّ أقدمها شرح الفخر الرازى المتوفى عام ۶۰۶ ه».[۴۱]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۷

مقدمة السيد الشريف الرضى رحمه الله

لماذا جمعت نهج البلاغة

أمّا بعد حمد اللّه الذى جعل الحمد ثمناً لنعمائه، ومعاذاً من بلائه، وسبيلًا إلى جنانه، وسبباً لزيادة إحسانه، والصلاة على رسوله نبى الرحمة، وإمام الأئمة، وسراج الأمة، المنتخب من طينة الكرم، وسلالة المجد الأقدم، ومغرس الفخار المعرق، وفرع العلاء المثمر المورق. وعلى أهل بيته مصابيح الظلم، وعصم الامم، ومنار الدين الواضحة، ومثاقيل الفضل الراجحة صلى اللّه عليهم أجمعين، صلاة تكون إزاء لفضلهم، ومكافأة لعملهم، وكفاء لطيب قرعهم وأصلهم، ما أنار فجر ساطع، وخوى نجم طالع، فانى كنت فى عنفوان السن، وغضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب فى خصائص الأئمة عليهم السلام: يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم، حدانى عليه غرض ذكرته فى صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغت من الخصائص التى تخص أمير المؤمنين علياً عليه السلام، وعاقت عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الأيام، ومماطلات الزمان.

وكنت قد بوّبتُ ما خرج من ذلك أبوباً، وفصّلته فصولًا، فجاء فى آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير فى المواعظ والحكم والأمثال والآداب؛ دون الخطب الطويلة، والكتب المبسوطة. فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصلُ المقدم ذكره معجبين ببدائعه، ومتعجبين من نواصحه، وسألونى عند ذلك أن أبتدىء بتأليف كتاب يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنونه، ومتشعّبات غصونه: من خطب، وكتب، ومواعظ، وأدب. علماً أنّ ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، ما لا يوجد مجتمعاً فى كلام، ولا مجموع الأطراف فى كتاب؛ إذ كان أميرالمؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۸

وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها؛ ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها؛ وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذى عليه مسحة من العلم الإلهى وفيه عبقة من الكلام النبوى، فأجبتهم إلى الابتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر، ومذخور الأجر. اعتمدت به أن أبين عن عظيم قدر أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الفضيلة، مضافةً إلى المحاسن الدثرة، والفضائل الجمة. وأنّه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنّما يؤثر عنهم منها القليل النادر، والشاذ الشارد فأما كلامه فهو البحر الذى لا يُساجل والجم الذى لا يحافل وأردت أن يسوغ لى التمثل فى الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهمإذا جمعتنا يا جرير المجامع

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أولها: الخطب والأوامر، وثانيها:

الكتب والرسائل، وثالثها: الحكم والمواعظ؛ فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختبار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب. مفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفصّلًا فيه أوراقاً، لتكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عنّى عاجلًا، ويقع إلىّ آجلًا. وإذا جاء شىء من كلامه عليه السلام الخارج فى أثناء حوار، أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض به، وأشدها ملامحة لغرضه. وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كلم غير منتظمة؛ لأنّى أورد النكت واللمع، ولا أقصد التتالى والنسق.

ومن عجائبه، عليه السلام، التى انفرد بها، وأمن المشاركة فيها، أنّ كلامه الوارد فى الزهد والمواعظ، والتذكير والزواجر، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنّه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك فى أنّه كلام من لاحظ له فى غير الزّهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع فى كسر بيت. أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلّاحسّه، ولا يرى إلّانفسه، ولا يكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس فى الحرب مصلتاً سيفه، فيقطّ الرقاب، ويجدل الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة، التى جمع بها

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۹

بين الأضداد، وألف بين الأشتات، وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهى موضع للعبرة بها، والفكرة بها.

وربما جاء فى أثناء هذا الاختيار اللفظُ المردد، والمعنى المكرر؛ والعذر فى ذلك أنّ روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً: فربما اتفق الكلام المختار فى رواية فنقل على وجه، ثم وجد بعد ذلك فى رواية اخرى موضوعاً غير موضعه الأول: إمّا بزيادة مختارة، أو لفظ أحسن عبارة فتقضى الحال أن يعاد، استظهاراً للاختيار، وغيرةً على عقائل الكلام. وربما بعد العهد أيضا بما اختير أولًا فأعيد بعضه سهواً أو نسياناً، لا قصداً واعتماداً. ورأيت من بعد تسمية هذا الكتاب ب «نهج البلاغة» إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويمضى فى أثنائه من عجيب الكلام فى التوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق، ما هو بلال كل غلّة، وشفاء كل علة، وجلاء كل شبهة.

ومن الله سبحانه أستمد التوفيق والعصمة، وأتنجّزُ التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجنان، قبل خطأ اللسان، ومن زلة الكلم، قبل زلة القدم؛ وهو حسبى ونعم الوكيل.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱

الخطبة الاولى

اشارة

[۴۲] ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغة، وما تصدرها النهج إلّادلالة واضحة على براعة السيد الرضى فى الاختيار. فالخطبة تتضمن الرؤية الإسلامية للصفات الكمالية والجمالية، ثم تشير إلى قضية خلق العالم بصورة عامة ومن ثم خلق السموات والأرض والملائكة، كما تخوض فى خلق آدم عليه السلام وتتعرض لقصة سجود الملائكة وإعتراض إبليس وهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض. ثم يتطرق عليه السلام إلى فلسفة بعثة الأنبياء ولا سيما خاتمهم نبى الإسلام صلى الله عليه و آله إلى جانب التحدث عن عظمة القرآن الكريم وأهمية سنّة النبى صلى الله عليه و آله، كما يتوقف عند مسألة الحج من بين الأحكام الإسلامية كفرع من فروع الدين بصفته فريضة إلهية كبرى تختزن بعض الأسرار واللطائف، بالشكل الذى يمد المتتبع لهذه الخطبة برؤية شمولية لأهم القضايا الإسلامية، من شأنها تقديم الحلول لكافة المصاعب التى تنطوى عليها والتى تعترض سبيلها.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۲

وأخيراً فالخطبة من وجهة نظر بمثابة فاتحة الكتاب، حيث تقدم صورة كلية عن المسائل التى درج عليها نهج البلاغة والتى وردت فى المحاور الرئيسية لخطبه ورسائله وكلماته القصار.

وقد قسمنا هذه الخطبة إلى خمسة عشر قسماً تناولنا كل قسم منه بالبحث بصورة مستقلة لنخلص إلى النتائج الكلية التى يمكن التوصل إليها من الخطبة كوحدة كاملة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۳

القسم الأول: بعد العقول عن معرفة الذات الإلهية!

ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها ابتداءً خلق السماء والأرض وخلق آدم وفيها ذكر الحج وتحتوى على حمد اللّه وخلق العالم وخلق الملائكة واختيار الأنبياء ومبعث النبى والقرآن والأحكام الشرعية:

«الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى لا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقائِلُونَ وَلا يُحْصِى نَعْماءَهُ الْعادُّونَ وَلا يُؤَدِّى حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِى لا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ وَلا يَنالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِى لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلا نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَشَرَ الرِّياحَ بِرَحْمَتِهِ وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدانَ أَرْضِهِ».

الشرح والتفسير إنّ نظرة عابرة إلى مضامين هذه الخطبة تفيد إشارة الإمام على عليه السلام إلى إثنتى عشرة صفة من الصفات الإلهية

بتصوير فنى رائع ونظم شاهق:

ففى المرحلة الاولى يشير إلى كيفية عجز العباد عن إظهار المدح والثناء وأداء حق الشكر الإلهى (أشير فى هذه المرحلة إلى ثلاثة أوصاف) ويبين فى المرحلة الثانية عجز البشرية من الناحية الفكرية عن إدراك عظمة اللَّه وكنه ذاته المقدسة (إشارة إلى وصفين فى هذه المرحلة) وفى المرحلة الثالثة يورد الدليل على ما أشار إليه سابقاً والذى يكمن فى خروج هذه الذات

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۴

عن الحدود وعدم تناهى نعمه وآلائه؛ الأمر الذى يستبطن ويعلل عجزنا عن إدراك ذاته القدسية واستحالة أداء حقّه فى الشكر والحمد (وهو يشير فى هذه المرحلة إلى أربعة أوصاف) وأخيراً يشير عليه السلام فى المرحلة الرابعة إلى خلق العالم والكائنات، وكأنه أراد أن يكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهى أن معرفة الذات الإلهية إنّما تقتصر على هذا السبيل، والذى يمثل منتهى قدرتنا واستطاعتنا (ويشير فى هذه المرحلة إلى ثلاث من صفاته الفعلية).

ويفيد هذا الأمر أنّ الدقة والنظام هى الأسس التى استندت إليها هذه العبارات الرفيعة التى تضمنتها الخطبة التى أوردها هذا المعلم الربانى.

الآن وبعد هذه النظرة العامة نعود إلى بحث وتفسير هذه الأوصاف الاثنى عشر التى اشتملت عليها الخطبة:

فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد اللَّه والثناء عليه مع التصريح بالعجز عن أداء حق الحمد، فقال عليه السلام:

«الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى لا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقائِلُونَ».[۴۳]

وذلك لأنّ أوصافه «الكمالية» و «الجمالية» لا تعرف الحدود، فما يؤديه الملائكة والناس من حمد ومدح إنّما يتوقف على مقدار معرفتهم بالذات المطلقة لا بمقدار كمالاته جل وعلا. وأنى لسائر الأفراد بزعم المعرفة وهذا النبى الكريم الذى يمثل أعظم أنبياء اللَّه يظهر عجزه عن معرفة الخالق المتعال فيصرح قائلًا:

«ما عرفناك حق معرفتك»[۴۴]

. فاذا عجز الإنسان عن معرفته فكيف يسعه حمده ومدحه؟ وعليه فان ذروة حمدنا، ما أورده الإمام عليه السلام؛ أى إظهار العجز عن حمده وثنائه والاعتراف باستحالة بلوغ هذه الدرجة على جميع مخلوقاته سبحانه.

فقد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ اللَّه أوحى إلى نبيّه موسى عليه السلام أن اشكرنى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۵

حق شكرى. قال عليه السلام: إلهى! كيف أؤدى حق شكرك، وشكرك نعمة تحتاج إلى شكر (وهكذا يكون التوفيق إلى الشكر نعمة اخرى تستحق الشكر). فقال: «يا موسى الآن شكرتنى حين علمت أنّ ذلك مِنِّى»[۴۵].

وهنا لابدّ من القول بأنّ الإنسان إذا ما قال: الحمد للَّه، فانه أتى به كاملًا دون نقيصة، إلّاأن يكون فى حق اللَّه، ولذلك جاء فى الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام خرج من المسجد ولم يظفر بدابته، فقال عليه السلام، إن أعادها لى اللَّه شكرته حق شكره، فلم تمض مدّة حتى أتى بها إليه فقال عليه السلام:

الحمد للَّه. فقيل له: جعلت فداك ألم تقل أشكره حق شكره؟ فقال عليه السلام: ألم تسمع قولى الحمدللَّه.[۴۶]

أمّا فى الوصف الثانى فقد قال:

«ولا يحصى نعمائه العادون»

. وذلك لأنّ نعمه المادية والمعنوية والظاهرية والباطنية والفردية والجماعية لأكثر وأعظم من أن تعدّ وتحصى. فبدن الإنسان- على سبيل المثال- مؤلف ممّا لا يحصى من الخلايا والأنسجة (يبلغ متوسطها عشرة مليارات) التى تشكل كل وحدة منها كائناً حياً ومركباً معقداً ونعمة من نعمه سبحانه والتى يتعذر إحصاء عددها فى عشرات الالوف من السنين، فاذا عجز الإنسان عن إحصاء نعم اللَّه فى هذا

الجانب اليسير فقط، فكيف يسعه أن يحصى جميع هذه النعم والآلاء على المستويات المادية أو المعنوية؟ فى الواقع ليس لدينا من علم بكافة نعمه ليتسنى لنا عدّها أو إحصائها.

فأغلب نعمه قد أغرقت كياننا وأحاطت بوجودنا، وحيث لم نسلبها قط فقد غفلنا عنها ولم نحط بها (فلا يشعر بالنعمة إلّابعد فقدانها)، أضف إلى ذلك فان ظفر الإنسان بالنعم والآلاء إنّما يتناسب طردياً واتساع مدى علمه ومعرفته؛ الأمر الذى يؤدى إلى الاذعان- وكما قال أميرالمؤمنين عليه السلام- بهذه الحقيقة

«ولا يحصى نعمائه العادون».

ويمكن لهذه العبارة أن تكون علة للعبارة السابقة

«لا يبلغ مدحته القائلون»

إذ كيف يمكن حمد اللَّه والثناء عليه فى ظل العجز عن إحصاء نعمه! ويبدون أنّ هذه النعم ما زالت لا تعرف الحدود رغم الحالة المؤسفة فى قيام بعض الظلمة والفئات النفعية باحتكار أغلب النعم أو تضييعها من خلال البذخ

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۶

والاسراف والتبذير، وتعريض طبقات المجتمع للتعب والارهاق. ويقول عليه السلام فى الوصف الثالث:

«ولا يؤدى حقّه المجتهدون»

. وهذه الجملة فى الحقيقة استنتاج ترتب على العبارة السابقة، فاذا تعذر إحصاء النعم فكيف يمكن أداء حقها؟ بعبارة اخرى فإن حقّه بقدر عظمة ذاته القدسية، فى حين شكرنا وحمدنا بقدر قدرتنا الزهيدة، فأين هذا الحمد من ذلك الحق! ولا يقتصر هذا المدح والثناء وأداء الحق على العجز فى الجانب العملى فحسب بل هو قائم حتى من الناحية الفكرية.

ولذلك أردف عليه السلام- وفى إطار بيانه لوصفين آخرين- قائلًا:

«الذى لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن ۴۷]»

. وكأنّ التعبير ببعد الهمم وغوص الفطن إشارة إلى حقيقة مؤداها أنّ الأفكار الخارقة مهما انطلقت فى قوس الصعود والفطن المتوهجة فى قوس النزول فأنها تبقى عاجزة عن إدراك كنه ذاته المقدسة. ولا يترك الإمام الاقرار بهذا العجز دون تقديم الدليل، فيقول:

«الذى ليس لصفته حد محدود، ولا نعت ۴۸] موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل

ممدود».

أى أنى لنا الاحاطة بكنه ذاته، والحال أن فكرنا بل جميع كياننا محدوداً لا يحسن سوى إدراك الأشياء المحدودة، بينما لا تعرف الذات الإلهية من حدود من جميع النواحى، فليس هنالك من حد أو وصف قابل للإدراك لصفاته المطلقة من الازل إلى الأبد والتى تأبى الاولية والاخروية والبداية والنهاية. ولا يقتصر هذا الأمر على الذات، فصفاته هى الاخرى ليس لها من حدود، فعلمه لا يعرف الحدود، وقدرته لا متناهية، ولا غرو فصفاته عين ذاته التى ليس لها حد محدود.

بعبارة اخرى فانّ اللَّه وجود مطلق ليس له أى قيد وشرط، ولو كان لقيد أو شرط وحد من الحدود من سبيل إلى ذاته لأصبح مركبا، فى حين نعلم بأن المركب- كما يقول الفلاسفة-

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۷

ممكن الوجود لا واجب الوجود- وعليه فواجب الوجود ذات مطلقة غير محدودة فى كافة أبعادها، ولذلك كان سبحانه وتراً واحداً ليس له كفؤاً ولا شبيهاً، لاستحالة قيام وجودين مطلقين من جميع الجهات، وذلك لأنّ هذا التناقض إنّما يؤدى إلى محدودية الطرفين، فهذا فاقد لوجود ذلك، وذاك أيضاً فاقد لوجود هذا (تأمل هذا الموضوع).

وبعد أن تعرض الإمام عليه السلام لصفات الجمال والجلال (الصفات الثبوتية والسلبية)، أشار عليه السلام إلى جانب من صفاته الفعلية

سبحانه، فقال:

«فطر[۴۹] الخلائق بقدرته، ونشر الرياح

برحمته، ووتد[۵۰] بالصخور[۵۱] ميدان ۵۲] أرضه».

لقد استوحيت هذه التعبيرات من بعض الآيات القرآنية، فالعبارة

«فطر الخلائق بقدرته»

مستوحاة من الآية الشريفة

«فاطِرِ السَّمواتِ وَالأَرضِ»

التى وردت فى عدّة سور قرآنية من قبيل: سورة يوسف/ ۱۰۱ وسورة إبراهيم/ ۱۰۰ وسورة فاطر/ ۳۵ وسائر السور المباركة.

والعبارة

«نشر الرياح برحمته»

من الآية الشريفة

«وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ».[۵۳]

والعبارة

«ووتد بالصخور ميدان أرضه»

من الآية ۱۵ من سورة النمل

«وَأَلْقى فِى الأَرْضِ رَواسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ».[۵۴]

وبالالتفات إلى ما ذكرنا من معنى «فطر» فانه شبه الخلق بشق الحجاب الظلمانى للعدم؛ الحجاب المتسق والمنسجم الذى لا شق فيه، غير أن قدرته المطلقة تشقه وتخرج منه المخلوقات، وليس من شأن أية قدرة سوى قدرته أن تفعل هذا. فقد اتفقت كلمة الفلاسفة والمفكرين على استحالة استحداثنا لشىء من العدم، أو تحويلنا من وجود إلى عدم، وكل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۸

مامن شأن قدرتنا فعله هوتغيير شكل الموجودات من شكل إلى آخر ولا غير!

أمّا التعبير بالرحمة عن حركة الرياح فهو تعبير عذب رائع ينسجم ولطافة النسيم وهبوب الرياح وآثاره المختلفة من قبيل حركة السحب والغيوم نحو الأراضى القفار وتلقيح الأزهار ونمو النباتات واعتدال الجو وحركة السفن والفلك فى البحر وانخفاض درجات الحرارة وسائر الخيرات والبركات المكنونة فى هذه الحركة. امّا عن كيفية توتيد الأرض بهذه الجبال والصخور، فالحق لا يمكن الآن قبول النظريات والاطروحات التى أوردها قدماء العلماء بهذا الشأن إثر قولهم بسكون الأرض وعدم حركتها، حتى جاءت النظريات الحديثة التى تنسجم مع الحقائق العلمية من جهة وتتفق والآيات القرآنية والروايات الواردة بهذا الخصوص من جهة اخرى، وذلك لأنه:

۱- أنّ وجود الجبال على سطح الكرة الأرضية يؤدى إلى الحد من آثار ظاهرة المد والجزر التى تشهدها اليابسة بفعل جاذبية الشمس والقمر. فلو اجتاحت الأراضى الرخوة سطح الأرض لأصبح المد والجزر كالبحار والأنهار بما يجعل من المتعذر العيش على هذه الأرض.

۲- أنّ جذور الجبال متصلة مع بعضها تحت القشرة الأرضية وكأنّها درع قد أحاط بالأرض، ولولاها لماجت الأرض وعاشت الحركة باستمرار وفقدت استقرارها بفعل الضغط الداخلى الذى تفرزه الغازات الداخلية والمواد المذابة. وما الزلازل التى تقع إلّانتيجة طبيعية لمثل هذا الضغط الذى يتجاوز الحدود المعينة، ولولا هذه الجبال لتواصلت هذه الزلزلة دون انقطاع.

وبناءً على ما تقدم فان هذه الصخور (الجبال) إنّما توتد الأرض وتحول دون فقدانها لاستقرارها، وناهيك عمّا تقدم فانّ الجبال تعدّ

من أهم مصادر الحياة الجوفية للإنسان، وأنّ كافة العيون والأنهار إنّما تنبع من مصادر الجبال الجوفية وتلك التى على سطح الأرض.

ويتّضح ممّا ذكرنا سابقاً بشأن الدور الحيوى الذى تلعبه الرياح والجبال فى حياة الإنسان وسائر الكائنات الحية، علة تأكيد الإمام على عليه السلام هذين الأمرين بعيد الإشارة إلى مسألة الخلق والخليقة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۹

القسم الثانى: توحيد الذات والصفات

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلاصُ لَهُ وَكَمالُ الْإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّه سُبْحانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ عَدَّهُ».

الشرح والتفسير

تمثل هذه العبارات دورة تربوية تامة فى المعرفة الإلهية. فقد اعتمد أمير المؤمنين عليه السلام عبارات مقتضبة عميقة المعنى بحيث قدم صورة عن الحق تبارك وتعالى لا يمكن الإتيان بأحسن منها حتى ولو جمعنا كافة دروس التوحيد والمعارف إليها وجعلنا بعضها إلى جانب البعض الآخر، فانّها تعجز عن رسم مثل تلك الصورة.

فقد ذكر عليه السلام فى هذا الجانب من خطبته خمسة مراحل لمعرفة اللَّه يمكن ايجازها فى مايلى:

۱- المعرفة الإجمالية والناقصة

۲- المعرفة التفصيلية

۳- توحيد الذات والصفات

۴- الاخلاص

۵- نفى التشبيه

فقد قال عليه السلام مبتدأ

«أول الدين معرفته»

. لا شك أنّ الدين هنا يعنى مجموعة العقائد

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۰

والواجبات والوظائف والأخلاق، ومن المعلوم أنّ دعامتها الأساسية هى «معرفة اللَّه»، وعليه فمعرفة اللَّه تمثل الخطوة الاولى على الطريق من جانب والمحور الرئيسى لكافة أصول الدين وفروعه، وليس لهذا الدين من حيوية دون هذه المعرفة- أمّا أولئك الذين يعتقدون بأنّ هناك شيئاً آخر قبل معرفة اللَّه، إلّاوهو النظر فى طريق معرفة اللَّه والتحقيق بشأن الدين ووجوب المطالعة، فهم على خطأ كبير. وذلك لأنّ وجوب التحقيق يمثل أول الواجبات، بينما تمثل معرفة اللَّه أول دعامة للدين، أو بعبارة أُخرى فان التحقيق مقدمة ومعرفة اللَّه أولى مراحل ذى المقدمة.[۵۵]

والنقطة الاخرى المفروغ منها هى أنّ المعرفة الإجمالية قد أودعت فطرة الإنسان ولا تتطلب أدنى تبليغ بهذا الشأن، وإنما بعث الأنبياء لاستبدال هذه المعرفة الإجمالية بتلك المعرفة التفصيلية الكاملة المتقنة وإغناء جوانبها وتطهير الفكر البشرى من أدران الشرك وأرجاسه.

ثم قال عليه السلام:

«وكمال معرفته التصديق به».

هنالك عدّة تفاسير للفارق بين التصديق والمعرفة. بادئ ذى بدء المراد هنا بالمعرفة هى المعرفة الفطرية، والمقصود بالتصديق المعرفة العلمية والاستدلالية. أو أنّ المراد بالمعرفة هنا المعرفة الإجمالية، والمقصود بالتصديق المعرفة التفصيلية. أو أنّ المعرفة تشير إلى العلم باللَّه، والتصديق يشير إلى الإيمان، لأنّ العلم لا يفارق الإيمان، فالإنسان قد يوقن بشىء إلّاأنّه لا يؤمن به قلبياً- بمعنى التسليم له والاذعان به قلبياً، أو بتعبير آخر الاعتقاد به-. وأحياناً يضرب الفضلاء مثلًا لانفصال هذين الأمرين عن بعضهما، فيقولون: إنّ أغلب الأفراد يشعرون بالهلع ولا سيما فى الليلة المظلمة حين البقاء إلى جانب ميت فى غرفة خالية، رغم علمهم بانه ميت، لكن كأن العلم لم ينفذ إلى أعماقهم ويتسلل إلى قلوبهم، فلم يحصل ذلك الإيمان المطلوب وبالتالى فقد تمخض عن هذا الهلع والخشية.

وبعبارة اخرى فانّ العلم هو تلك المعرفة القطعية بالشىء، إلّاأنّها قد تكتسب صبغة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۱

سطحية فلا تنفذ إلى أعماق وجود الإنسان وروحه، فاذا نفذت إلى أعماقه وبلغت مرحلة اليقين بحيث أذعن الإنسان بذلك قلبياً، فان ذلك العلم يكتسب صفة الإيمان. ثم قال عليه السلام فى المرحلة الثالثة

«وكمال التصديق به توحيده»

. فمما لاشك فيه أنّ الإنسان لم يبلغ مرحلة التوحيد الكامل على أساس معرفته التفصيلية للَّهأو بتعبير آخر بالمعرفة القائمة على أساس الدليل والبرهان. فالتوحيد التام فى أن ينزه الذات الإلهية عن كل شبه ومثيل ونظير. وذلك لأنّ من جعل له شبيه وصنو لم يعرفه، فاللَّه وجود مطلق غنى بالذات عمّا سواه وليس كمثله شىء، ومن طبيعة الاشياء التى لها أشباه وأمثال أن تكون محدودة، لأنّ أى من الشبيهين منفصل عن الآخر وفاقد لكمالاته.

إذن فالإنسان لا يبلغ مرحلة الكمال إلّابالتصديق بذاته المنزهة فى أنّه واحد؛ واحد لا عن عدد، بل واحد بمعنى خلوه من الشبيه والمثيل.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى المرحلة الرابعة وهى مرحلة الاخلاص فيقول:

«وكمال توحيده الاخلاص له».

والاخلاص من مادة الخلوص بمعنى تصفية الشىء عن الغير، بمعنى التصفية والتنزه. وهناك خلاف بين مفسرى نهج البلاغة بشأن هذا الاخلاص، وهل المراد به الاخلاص العملى أم القلبى أم العقائدى. والمراد بالاخلاص العملى هو أن يعيش الفرد ذروة التوحيد الإلهى فلا يسأل سواه ولا يرى غيره فيما يقوم به من أفعال وأعمال. وهو الأمر الذى تناوله الفقهاء فى بحث الاخلاص فى العبادة، وقد أورد «الشارح الخوئى» (ره) هذا التفسير بصفته أحد الأقوال دون أن يذكر من قال به.[۵۶]

أمّا الاخلاص القلبى والذى عبر عنه «الشارح البحرانى ابن ميثم» بالزهد الحقيقى فهو يعنى توجه القلب إلى اللَّه وعدم التفكير بما سواه، والانشغال بغيره ۵۷]. إلّاأننا نرى أنّ الاخلاص

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۲

مفهوم عظيم وسامى لا ينسجم وما أورده الشرّاح فى هذه العبارات، ومن المستبعد أن يكون هذا هو المراد به. أمّا المفهوم الوحيد الذى يناسبه هو تنزيه الاعتقاد باللَّه تبارك وتعالى؛ أى تنزيهه فى وحدته عن كل شبيه ومثيل، إلى جانب تقديسه عن التركيب من الأجزاء.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى فى المرحلة الخامسة حين قال:

«وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه»

. وبعبارة اخرى فان الحديث فى المرحلة السابقة قد تناول الاخلاص على نحو الإجمال، فلما بلغ الاخلاص هنا مرحلة الكمال غاص

فی التفاصیل، لیتضح من ذلک أنّ الاخلاص فی التوحید یتطلب تنزیهه عن کافة الصفات التی یتصف بها المخلوق، سواء کانت هذه الصفات بمعنی الترکب من الأجزاء أم غیرها، وذلک لأننا نعلم بأنّ جمیع الممکنات بما فیها العقول والنفوس المجردة هی فی الواقع مرکبة (علی الأقل مرکبة من الوجود والماهیة) وحتی المجردات؛ أی الموجودات الخارجة عن المادة هی الاخری لیست مستثناة من هذا الترکب، أمّا الموجودات المادیة فکلها مترکبة من الأجزاء الخارجیة، لکن الذات الإلهیة المقدسة لا تشتمل علی الأجزاء الخارجیة ولا الأجزاء العقلیة، لایمکن تجزأته فی الخارج ولا فی إدراکنا وفهمنا. وکل من غفل عن هذه الحقیقة لم یظفر بالتوحید الخالص، ومن هنا یتضح بأنّ مراده علیه السلام بقوله

«کمال توحیده نفی الصفات عنه»

لیس الصفات الکمالیة؛ لأنّ کافة الصفات الکمالیة من قبیل العلم والقدرة والحیاة وما إلی ذلک من الصفات ثابتة له، بل المراد الصفات التی ألفناها وتعرفنا علیها وهی صفات المخلوقین المشوبة بالنقص. فالمخلوقات لها حظ من علم وقدرة، غیر أنّ علمها وقدرتها محدودة ناقصة مشوبة بالجهل والضعف والعجز، بینما الذات الإلهیة منزهة عن مثل هذا العلم والقدرة وأفضل دلیل علی ذلک ما أورده الإمام علیه السلام فی ذیل هذه الخطبة بشأن الملائکة فوصفهم بقوله:

«لا یتوهمون ربهم بالتصویر ولا یجرون علیه صفات المصنوعین»

. أضف إلی ذلک فان صفات المخلوقات منفصلة دائماً عن ذواتها، أو بعبارة اخری فانّ صفاتها زائدة علی ذواتها. فالإنسان شیء وعلمه وقدرته آخر، وبناءً علی هذا فوجوده مرکب من هذین الشیئین، والحال أنّ صفات اللّه عین ذاته ولیس هنالک من سبیل لهذا الترکب. والواقع أنّ أعظم عقبة تعترض مسیرة التوحید إنّما تکمن فی قضیة

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۵۳

«القیاس»؛ أی قیاس صفات اللّه بصفات المخلوقات المفعمة بأنواع النقص والعیب، أو الاعتقاد بالصفات الزائدة علی الذات؛ الورطة التی وقعت فیها الأشاعرة «فرقة من المسلمین».[۵۸]

ولذلک أردف الإمام علیه السلام قائلًا:

«لشهادة کل صفة- من الممکنات- أنّها غیر الموصوف وشهادة کل موصوف- من الممکنات- أنّه غیر الصفة».

فکلامه علیه السلام دلیل واضح وجلی فی أنّ الصفات الزائدة علی الذات تشهد بلسان حالها أنّها غیر الموصوف، وکل موصوف یشهد بأنّه لیس من الصفات، اللّهم إلّا أن نقول بأنّ صفاته عین ذاته، ونؤمن بأنّ اللّه ذات جمیعها علم وجمیعها قدرة وجمیعها حیاة وأزلیة وأبدیة، وإن کان إدراک مثل هذا الاعتقاد متعذر علینا نحن المخلوقات الذین أنسنا بصفات المخلوق فقط ونری أنّ الإنسان شیء وعلمه وقدرته شیئاً مضافاً للذات زائداً علیها، لأننا نلد من أمهاتنا ولیس لنا من علم وقدرة ثم نحصل علیها لاحقاً.

ثم یواصل الإمام علیه السلام خطبته ویردفها بعبارة قصیرة إلّاأنّها عمیقة المعنی فیقول:

«فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله».

فالواقع أنّ کلام الإمام علیه السلام یفید أن اثبات الصفات التی تتصف بها المخلوقات للّه یستلزم الترکب فی وجوده سبحانه؛ أی کما أنّ المخلوق- الإنسان- مرکب من الذات والصفات فان اللّه مرکب کذلک؛ بینما لا ینسجم هذا المعنی وواجب الوجود، لأنّ کل مرکب یحتاج إلی أجزائه والحاجة تتناقض والغنی المطلق لواجب الوجود.

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۵۴

وهناک تفسیران آخران ذکرا لهذه العبارة:

الأول: أننا إذا اعتبرنا صفاته سبحانه غیر ذاته، فانّ ذاته ستکون مرکبة، لأنّ الذات والصفات علی فرض التناقض ستشتملان علی جهات مشترکة ومتمایزة والذی یعبّر عنه «ما به الاشتراک» و «ما به الامتیاز». لأنّ کلیهما مشترک فی الوجود وفی نفس الوقت متمایزان عن

بعضهما، وفى هذه الحالة لابدّ أن نعتبر ذاته مركبة من جهتين مختلفتين أيضاً.

الثانى: أن نؤمن بوحدة الذات الإلهية، ولا نعنى بها الوحدة العددية، بل يعنى مفهوم الوحدة بالنسبة للذات الإلهية أنّها منزهة عن الشبيه والمثيل والنظير. وبشكل عام فانّ الوجود المطلق من كل الجهات يأبى أن يكون له شبيه ومثيل، فان قلنا بأنّ صفات اللَّه كذاته أزلية وأبدية ومطلقة، نكون قد حددناه سبحانه من جانب وقلنا بشبيه له من جانب آخر (لابدّ من التأمل فى هذا الكلام) وهذا هو المعنى الذى كشف عنه الإمام عليه السلام فى إطار توضيحه للاخلاص، فقال «فمن وصف اللَّه سبحانه» أى وصفه بصفات المخلوقين «فقد قرنه» بالأشياء الاخرى

«ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزاه ومن جزاه فقد جهله»

لأنّه حين جزاه بمعنى جعل ذاته متركبة من أجزاء وحقاً لم يعرف اللَّه من اعتقد بتركب ذاته؛ وذلك لأنّه تصور كائناً على شاكلته- من حيث التركيب والمحدودية- وأسماه اللَّه.

ثم يقول عليه السلام:

«ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده»

. ويوجد احتمالان بشأن قوله عليه السلام:

«ومن أشار إليه» الأول

أن يكون المراد بها الإشارة العقلية، والثانى أن يكون المراد بها الإشارة العقلية والحسية. وتوضيح ذلك أنّ الإنسان إذا لم يعرف اللَّه بتلك الحقيقة المطلقة اللامتناهية فانّه سيمتلك فى ذهنه مفهوماً محدوداً وخاصاً عنه سبحانه، أو بتعبير آخر فانّه سيشير إليه بالإشارة العقلية، وبالطبع سيكون محدوداً فى هذه الحالة تصوراً، وذلك لتعذر إدراك وتصور اللامحدود واللامتناهى على الإنسان المحدود والمتناهى.

فالإنسان إنّما يدرك ما يحيط به من أشياء يسعه تجسيمها فى فكره المحدود، وبالطبع فان مثل هذه الموجودات محدودة. وعلى هذا الضوء فان اللَّه سيكون فى مصاف المعدودات والأشياء القابلة للعدد، لأنّ من لوازم المحدود هو إمكان تصور موجود آخر فى موضع آخر مثله.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۵

والأول الوحيد الذى ليس له ثان من كان غير محدود من جميع الجهات ولا يسعه العدد. وعلى هذا الأساس فان مولى الموحدين- على بن أبى طالب عليه السلام- قد عكس حقيقة التوحيد فى هذه العبارة القصيرة ذات المعنى العميق، فوصف البارئ سبحانه بما يفوق الخيال والقياس والظن والوهم. وهى ذات الحقيقة التى كشف النقاب عنها الإمام الباقر عليه السلام حين قال:

«كل ما ميزتموه باوهامكم فى أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم»[۵۹].

والاحتمال الآخر مازال قائماً بأن يكون المراد «بالإشارة» الإشارة العقلية والإشارة الحسية أيضاً؛ وذلك لأنّ اللَّه ليس بجسم ولا عرض والاعتقاد بجسمية اللَّه جهل محض، ونتيجة ذلك كون الذات الإلهية محدودة لأنّ كل مشار إليه فهو محدود، فالمشار إليه لابدّ أن يكون فى جهة مخصوصة، وكل ما هو فى جهة فله حد وحدود.

سؤال

هنا يبرز سؤال يطرح نفسه: إذا تعذرت حتى الإشارة العقلانية للَّه، فانّ معنى ذلك تعطيل معرفة اللَّه وإغلاق أبواب المعرفة بوجه الإنسان وبالتالى سوف لن يكون هناك من مفهوم لمعرفة اللَّه. وذلك لأننا كلما حاولنا التوجه إلى تلك الذات المقدسة ارتطمنا بمخلوق من نسج أفكارنا، كلما أردنا الاقتراب منه لم نزدد إلّابعداً عنه، فما أحرانا والحالة هذه الا نقتحم ميدان المعرفة بغية عدم الابتلاء بالشرك.

الجواب

إنّ الجواب على هـذا السؤال يتضـح من خلال الإلتفات إلى نقطـة مهمّة- من شأنها أن تحل المشـكلة هنا وفى سائر الموارد- وهى أنّ المعرفة على نوعين: معرفة إجمالية ومعرفة تفصـيلية، أو بتعبير آخر معرفة كنه الذات ومعرفة مبدأ الأفعال. فاننا حين نتأمل عالم الوجود بما يضم من العجائب والغرائب والكائنات بتلك الروعـة والجمال والعظمة، بما فى ذلك وجودنا نحن الأفراد لنشـعر بأنّ هنالك خالقاً ومـدبراً لهـذا الكون وهـذا هو العلم الإجمالى الـذى يمثل ذروة معرفـة الإنسان باللّه (غايـة مافى الأمر أننا كلما تعرفنا أكثر على أسـرار الوجود وقفنا بصورة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۶

أعمق على عظمته وتعززت به معرفتنـا الإجماليـة أكثر فأكثر) إلّاأننا حين نعود بالسؤال لأنفسـنا عن ماهيته وكيفيته ونحاول الاقتراب من حقيقة ذاته المقدسة لا نحظى سوى بالحيرة والغموض؛ الأمر الذى يجعلنا نقول بأنّ السبيل إليه مفتوح على مصـراعيه وفى نفس الوقت مؤصد ومغلق تماماً.

وهنا يمكننا إيضاح هذه المسألة بمثال بسيط. فالكل يعلم بوجود قوة الجاذبية؛ لأنّ كل جسم يترك فى الهواء يسقط إلى الأرض بفعل جاذبيتهـا، ولولاـ هـذه الجاذبيـة لانعـدم اسـتقرار الأجسام على سـطح الكرة الأرضـية. ولا تقتصـر معرفـة الجاذبيـة والعلم بوجودها على العلمـاء، بـل يـدركها حتى الصبيـة والأطفـال؛ ولكن ماهى حقيقـة الجاذبيـة، هل هى أمواج لا مرأيـة أم ذرات مجهولـة أم قوة اخرى؟ والعجيب أنّ قوة الجاذبيـة وخلافاً لكل ما نعرفه من قوانين عالم المادة، يبـدو أنّها لا تحتاج من زمان للانتقال من نقطـة إلى اخرى، بل على خلاـف الضوء الـذى يمثـل أسـرع حركـة فى عالم المادة، فى حين قـد يحتاج إلى مـدّة زمانيـة تصل إلى ملايين السـنين الضوئية للانتقال فى الفضاء من نقطـة معينة إلى نقطة اخرى. إمّا قوة الجذب فتنتقل فى لحظة من أية نقطة فى العالم إلى اخرى، أو أنّها تمتلك حد أقل من السرعة يفوق ما سمعناه لحد الآن.

فما هـذه القوة التى تمتلك مثل هـذه الآثار؟ وما حقيقة كنه هذه القوة؟ ليس هنالك من يسـعه تقديم جواب شاف لهذه الاسـئلة. فاذا كان علمنا ومعرفتنا بشأن القوة الجاذبـة- التى تعتبر أحـد المخلوقات- تقتصـر على المعرفـة الإجماليـة دون المعرفـة التفصـيلية، فأنى لنا توقع المعرفـة بكنه الـذات المقدسـة لخالق عالم المادة وما ورائها من وجودات لا متناهيـة؟! لكن مع ذلك فاننا نراه حاضـراً وناظراً فى كل مكان ومقارناً لكل وجود فى العالم. امّا العبارة

«ومن حده فقد عده»

فهى إشـارة إلى أمر مهم يتضـح من الكلام السابق وهو أنّ من حـد اللّه وجب عليه أن يراه معـدوداً، وبعبارة اخرى فانه يعتقـد بإمكانية وجود الشـريك له. لأـنّ المطلق من جميع الجهـات فقط هو الـذى يأبى الشبيه والمثيل والشـريك؛ بينما إن كان محـدوداً (مهما كانت عظمته وقـدرته) كان له شبيهاً ومثيلًا خارج ذاته، وبتعبير آخر فليس هناك من ضـير فى تصور موجودين محـدودين أو أكثر (مهما بلغ كبرهما)، بينما يستحيل تصور وجود ثان للمطلق من كل الجهات؛ وذلك لأنّ كل ما يتصور إنّما يعود إلى ذاته.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۷

القسم الثالث: ليس كمثله شىء

اشارة

«وَ مَنْ قالَ «فِيمَ» فَقَـدْ ضَـمَّنَهُ، وَمَنْ قالَ «عَلامَ»؟ فَقَـدْ أَخْلَى مِنْهُ. كائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شـىء لا بِمُقارَنَةٍ، وَغَيْرُ

كُلِّ شَيْءٍ لا بِمُزايَلَةٍ، فاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكاتِ وَالْآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ».

الشرح والتفسير لقد تعرض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة إلى عدّة نقاط حساسة ودقيقة بشأن مباحث التوحيد بكلمات قليلة ومعان عميقة يمكن إيجازها فى خمس:

۱- كون الذات الإلهية المطلقة منزهة عن المكان، فقد قال عليه السلام:

«ومن قال فيم؟ فقد ضمنه»

. فالكلمة (فى) إنّما تستعمل بشأن المكان الذى يحوى الشىء ويحيط به، من قبيل قولنا فلان فى الدار، والورد فى البستان وما إلى ذلك، ونتيجة ما تقدم هو محدودية ذاته سبحانه، بينما أشرنا سابقاً إلى أنّ كافة أدلة التوحيد تفيد كون الذات المقدسة مطلقة من جميع الجهات.

وهكذا من سأل «علام» بشأن اللَّه؟ (على العرش، على الكرسى، على السموات) فقد حده لأنه أخلى منه سائر المواضع «ومن قال علام؟ فقد أخلى منه). فمثل هذه الأسئلة تستلزم كون الذات القدسية محدودة، وهذا مالا ينسجم وكونه واجب الوجود. وبناءً على هذا فكل من تصوره على العرش أو على السموات أو أى مكان آخر فقد جرد نفسه من التوحيد الخالص، وفى الواقع فانّه يعبد مخلوقاً من نسج خياله الفكرى ويسميه اللَّه. فقد ذهب بعض الجهال إلى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۸

أنّ الشريفة

«الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى [۶۰]

دليل على جسمية اللَّه وأنّه على العرش، بينما تفيد كلمة «استوى» معنى السيطرة على الشىء ولا تقتصر على معنى التربع على الشىء أو الاستقرار عليه، بل هناك تعبير كنائى معروف ومتداول بشأن تزعم الامور والأخذ بزمامها فى مقابل اعتزال السلطة وانفلات القدرة، فيقال

«اسْتَوى عَلى العَرْشِ»

فى مقابل «ثل عرشه» ولا يراد كسر عرش السلطة أو التربع عليه. وعليه فالذى تفيده الآية الكريمة

«اسْتَوى عَلى العَرْشِ»

هو استقرار حكومته وسلطته سبحانه على العرش. على كل حال يبدو من السذاجة والسخرية الاستدلال بهذه الآية على جسميته سبحانه.

۲- يشرح الإمام عليه السلام فى هذه العبارة «كائن لا عن حدث» أزليته سبحانه وكون ذاته غنية عن الحدود من ناحية الزمان، ثم يقول عليه السلام:

«موجود لا عن عدم»

وهذا هو الفارق بينه وبين جميع المخلوقات المسبوقة بالعدم والحدوث، بينما لم تسبق الذات الإلهية بمثل ذلك العدم والحدوث. بل لا يمكن وصفه بصفتى «الكائن» و «الموجود» دون تنقية مفهومها من صفات المخلوقات المسبوقة بالعدم.[۶۱]

۳- العبارة الاخرى تضمنت إشارة رائعة إلى كيفية الرابطة السائدة بين المخلوقات والخالق والممكنات بواجب الوجود، حيث قال عليه السلام:

«مع كل شىء لا بمقارنة وغير كل شىء لا بمزايلة»

. لقد ذهب أغلب الناس وحتى أغلب الفلاسفة والعلماء إلى أنّ الرابطة التى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۹

تسود المخلوقات باللَّه، هى رابطة بين وجودين مستقلين فى أنّ أحدهما مخلوق للآخر، كوجود الشعلة العظيمة والشمعة الصغيرة التى نوقدها من تلك الشعلة، فى حين الحقيقة شىء آخر تماماً. فالفارق بين المخلوق والخالق هو ليس من قبيل الفارق بين وجود ضعيف وقوى قط، بل الفارق هو فارق بين وجود مستقل من جميع الجهات ووجود تابع. فعالم الوجود برمته تابع له ويتغذى فى كل آن من نور وجوده عليه. فاللَّه سبحانه ليس منفصلًا عن عالم الوجودكما أنّه ليس عين الموجودات (كما ذهب إلى ذلك الصوفية التى تقول بوحدة الوجود والموجود)، وأنّ التوحيد الواقعى إنّما يتوقف على إدراك هذه الحقيقة. ويمكن إيضاح هذه الحقيقة بهذا المثال (رغم النقص الذى يشوب مثل هذه الأمثلة). فشعاع الشمس رغم وجوده وكونه غير قرص الشمس، إلّاأنّه متصل بها تابع لها، هو غيرها لكن لا على نحو المغايرة وبمعنى الانفصال والاستقلال، ومعها ولكن ليس بمعنى الالتحام والاتحاد. وهما لاشك فيه أن ارتباط موجودات هذا العالم بالذات الإلهية المقدسة أكثر قرباً وتبعية ممّا صدره هذا المثال، والحقلا يمكن العثور على مثال دقيق فى هذا العالم لتصوير عمق هذه التبعية والوحدة وفى نفس الوقت الثنائية (أى الوحدة فى الكثرة). رغم أنّ الأمثلة ومنها المثال المذكور- أو كالتصورات الذهنية للإنسان التابعة من روحه وغير المنفصلة عنها وفى نفس الوقت تابعة لها وليس لها من مفهوم دونها- يمكنها أن توضح إلى حد ما هذا الموضوع.

۴- تناول الإمام عليه السلام صفة اخرى من صفات الذات الإلهية المقدسة، فقد قال عليه السلام:

«فاعل لا بمعنى الحركات والآلة».

لقد جرت المحاورات اليومية عادة على الاصطلاح بالفاعل على الفرد الذى يقوم ببعض الأعمال من خلال حركات اليد والرجل أو الرأس والرقبة وسائر الأعضاء، ولما كانت قدرة الإنسان وسائر الكائنات محدودة وتعذر الإتيان بكافة الأفعال والأعمال على هذه الأعضاء، فانّه يستعين ببعض الوسائل والأدوات ليسد بها ذلك النقص الذى يشوب قدرته، فهو يستعين بالمطرقة لدق المسمار، وبالمنشار لنشر الخشب وبالمكائن والآلات الضخمة لنقل الأحمال الثقيلة من مكان إلى آخر، وكل هذه الامور هى من آثار الأجسام والجسمانيات.

ولما كان اللَّه منزهاً عن الجسمية، وقدرته غنية مطلقة خارجة عن الحد والحدود فان فاعليته لا تعنى القيام بالحركات أبداً، كما أنّ قدرته المطلقة أغنته عن الاستعانة بالأدوات والآلات. فاللَّه سبحانه فاعل قبل أن تخلق الآلة ولو كان محتاجاً للآلة لعجز عن خلقه لاولى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۰

الأشياء، وبعبارة اخرى فان فعله إبداع. نعم فهو قادر على خلق عالم الوجود أو اعدامه فى طرفة عين أو أقرب بإرادته وقوله (كن)، كما له خلقه تدريجياً أو فى أية مدّة نبتغيها إرادته.

والذى يجدر الالتفات إليه هنا هو أننا حين نصفه سبحانه بأنّه فاعل فلا ينبغى أن نقارن فاعليته بذواتنا وأنّها تستعين بالادوات والآلات. وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يعنى أن ليس للَّه من ملائكة تتولى تدبير الأمر والتى وصفها القرآن

«... فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً».

فقد جرت عادته على ايجاد الحوادث عن طريق الأسباب، لان إرادته شاءت ذلك لامحتاج لها.

۵- ثم قال الإمام عليه السلام:

«بصير إذ لا منظور إليه من خلقه».

صحيح أن مفردة بصير مشتقة من مادة البصر، إلّاأنّها تطلق بالمعنى المجازى على اللَّه سبحانه لا الحقيقى. فكونه بصيراً يعنى عليماً بجميع الأشياء القابلة للرؤية وحتى الأشياء التىترى ولم تخلق بعد. وبناءً على هذا فان بصيرته تعود إلى علمه اللامتناهى، حيث نعلم جميعاً بأنّ علمه أزلى. وأخيراً فقد تحدث الإمام عليه السلام عن وحدانيته سبحانه فى غناه عن الأنيس فقال:

«متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده»[۶۲]

وتوضيح ذلك هو أنّ الناس وسائر الكائنات الحية وبحكم كون قدرتها محدودة فى نيل المنافع ودفع الاضرار فانّها مضطرة للاستعانة ببنى جنسها ومن غيرها لتشعر بالأمن تجاه بعض الأخطار التى تهددها. وهنا يتفاقم شعور الإنسان بالاستيحاش لوحدته، بينما يأنس بوجود سائر الأفراد إلى جانبه ولاسيما أثناء تعرضه للأخطار والآفات والبلايا والأمراض والأوبئة. وأحياناً يندفع الإنسان الضيق النظر ليقارن اللَّه بنفسه فيشعر بالدهشة والذهول كيف يكون اللَّه وحيداً قبل ايجاده لهذه المخلوقات، وكيف لا يكون له من أنيس يسكن إليه، وأخيراً كيف يشعر بالاستئناس بهذه الوحدة؟! غافلًا عن أنّه وجود مطلق لا يحتاج‌الاستعانة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۱

بأحد، وليس له من خشية لعدو ليستعين عليه بظهير، كما ليس له من صنو يستأنس به.

ولذلك كان وسيكون متوحداً.

ويتضح ممّا ذكرنا سابقاً أن لمفردة «المتوحد» مفهوم يختلف عن مفهوم «الواحد» و «الأحد».

تأمّلات

اشارة

لقد تضمنت هذه العبارات العميقة المعانى والعظيمة المضامين عدّة معطيات ودروس قيمة من شأنها حل أغلب المشاكل العقائدية على مستوى «معرفة اللَّه وأسمائه وصفاته» ومنها:

۱- علاقة الخلق بالخالق ومسألة «وحدة الوجود»!

لقد كثر الكلام فى أوساط الفلاسفة والعلماء بشأن كيفية الرابطة بين الخالق والمخلوق، فقد أفرط البعض منهم حتى اعتقد بأنّ الخالق هو عين المخلوق إثر رؤيتهم القائمة على أساس وحدة الوجود والموجود. فهم يقولون ليس هنالك أثر من وجود شخصى واحد فى عالم الوجود وكل ماسواه ترشحات من ذاته، أو بتعبير آخر: هناك شىء واحد فقط أمّا الكثرة والتعدد فهى خيالات وظنون وسراب يحسبه الظمآن ماء. أحياناً يستعيضون عن الوحدة والاتحاد بقولهم بالحلول على أنّه ذات حلت فى كافة الأشياء وتتخذ لها شكلًا فى كل وقت بينما يشعر الجهال بالازدواج والحال ليس الكل إلّاشىء واحد لا غير.[۶۳] وزبدة القول أنّهم يرون عالم الوجود بمثابة بحر وقطراته سائر الموجودات. وبعبارة اخرى فان أى ازدواجية فى هذا العالم ليست سوى ضرباً من الخيال والوهم. بل يعتقد البعض منهم أنّ الفرد لا يعدّ صوفياً

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۲

حقيقياً مالم يؤمن بوحدة الوجود والموجود، وذلك لأنّ وحدة الوجود تشكل الركيزة الأصلية لقضية التصوف!

وبالطبع فانّ بعض كلماتهم يمكن حملها على المعانى الصحيحة والصائبة من قبيل أنّ الوجود الحقيقى القائم بالذات فى العالم واحد وكل ما سواه تابع له مستمد وجوده منه (كما أوردنا ذلك سابقاً فى التشبيه بالمعانى الأسمية والحرفية) أو كل ما عدا الذات الإلهية المقدسة- الوجود المطلق من جميع الجهات- يمثل موجودات صغيرة ضئيلة ليس لها شأناً يذكر ولكن لا يعنى ذلك أنّها لا تمتلك وجوداً واقعياً حقيقياً. ولكن الذى لا شك فيه هو أنّ بعض أقوالهم وعقائدهم لا يمكن تبريرها والتماس التفسير الصائب لها، فهم يصرحون بأن ليس فى عالم الوجود أكثر من وجود واحد وكل ما سواه سراب وخيال، وأبعد من ذلك تصريحهم بأنّ الوثنية وعبادة

الأصنام لو خرجت عن شكلها المحدود فهى عين عبادة اللّه، لأنّ كل العالم هو، وهو كل العالم. فهذا الكلام يستتبع لوازم فاسدة ليست بخافية على أحد على ضوء العقائد والتعاليم الإسلامية، ناهيك عن تعارضها والوجدان بل البديهيات وانكارها للعلة والمعلول والخالق والمخلوق والعابد والمعبود، وذلك لأنّه لم يعدّ هناك من مفهوم للفارق بين المعبود والعبد والشارع والمكلف، بل حتى الجنّة والنار وأهلهما، فكلها واحدة وكلها عين ذاته وما هذه الكثرة والتعدد الا وهم وخيال ولو أزيلت هذه الغشاوة عن أبصارنا فسوف لا نرى إلّا وجوده سبحانه! إلى جانب ذلك فان من لوازم ذلك القول بجسمية اللّه والحلول وما إلى ذلك.

وعليه فعقائدهم لا تنسجم مع الوجدانيات والأدلة العقلية ولا تتفق مع العقائد الإسلامية وتعاليم القرآن الكريم، ومن هنا انبرى المرحوم المحقق اليزدى (ره)- الفقيه المعروف- ليكتب فى عروته الوثقى فى مبحث الكفار:

«لا إشكال فى نجاسة الغلاة[۶۴] والخوارج والنواصب

وأمّا المجسّمة والمجبّرة والقائلين بوحدة الوجود من الصوفية إذا التزموا بأحكام الإسلام فالأقوى عدم نجاستهم إلّامع العلم بالتزامهم بلوازم مذهبهم من المفاسد»[۶۵].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۳

وتتضمن المسألة أمرين مهمين يجدر الإلتفات إليهما: أحدهما عطف أصحاب عقيدة وحدة الوجود على المجبرة والمجسمة وجعل الجميع بمنزلة واحدة، والآخر بان عقائدهم تنطوى على مفاسد دينية إذا التزموا بها خرجوا من ربقة الإسلام وإن لم يلتزموا بها فهم مسلمون. فالكلام يفيد بما لا يقبل الشك أنّ مذهب هؤلاء يتصف ببعض المفاسد التى يؤدى الالتزام بها إلى الخروج عن صف المسلمين. أمّا الجدير بالذكر هو أنّ كافة العلماء الذين كتبوا حاشية على العروة الوثقى- حيث جرت عادة العلماء الكشف عن اجتهادهم وقدرة استنباطهم للأحكام الشرعية من مصادرها المقررة على كتابة تعليقة على العروة الوثقى- قد أقروا بما أورده صاحب العروة أو أضافوا لما ذكره بعض القيود (من قبيل قولهم بما لا يوجب إنكار التوحيد والرسالة)[۶۶].

وللوقوف على عمق المفاسد التى انطوت عليها هذه المسألة، نرى من الضرورى هنا الإشارة إلى نموذج ورد فى الدفتر الرابع للشاعر المثنوى حين نقل قصة طويلة بشأن قول «بايزيد» سبحانى ما أعظم شأنى، فقد واجه اعتراضاً من صحبه، فقال لهم: «لا إله إلّاأنا فاعبدون» فقالوا له ما تقول؟! قال: سأقول ذلك ثانية فاحملوا السكاكين واطعنونى بها. فشهر صحبه سكاكينهم وجعلوا يطعنونه، إلّاأنّهم شعروا بأن كل طعنة كانت تمزق أجسادهم لا جسده. فهذه الاسطورة الخرافية من شأنها الإشارة إلى مدى الاندفاع والتيه الذى بلغه أصحاب هذا المسلك.

وأخيراً نختتم هذا الموضوع بما أورده أحد المعاصرين من شرّاح نهج البلاغة إذ قال بهذا الخصوص: انّ هذا المذهب (القائل بوحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود) إنّما يتنكر لكافة القوانين العقلية والاسس الوجدانية وروح الأديان الإلهية، ويرفع من شأن عالم الوجود ليبلغ به المرتبة الوجودية الإلهية أو ينزل بالوجود الإلهى إلى الحضيض فيسويه بسائر مخلوقاته، ويبدو أن مثل هذا المذهب إلى الأذهان والأذواق والهروب من الإشكالات أقرب منه إلى التعقل والالمام بالواقعيات.[۶۷]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۴

۲- انحراف الجهال عن حقيقة صفات اللّه

لو تأملنا بدقّة وأجلنا الفكر فى كلماته عليه السلام لاكتشفنا مدى قطعه الطريق أمام أى انحراف عن مبدأ التوحيد وحقيقة صفات اللّه، واتضح لدينا المفهوم الحقيقى لقوله سبحانه وتعالى

«وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ»[۶۸]

و

«وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ»[۶۹]

و

«وَما يَكُونُ مِنْ نَجْوى

ثَلاثَةٍ إِلّا هُوَ رابِعُهُمْ»[۷۰]

و

«اللَّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ»[۷۱]

و

«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ

المَرْءِ وَقَلْبِهِ»[۷۲]

وما إلى ذلك من المضامين القرآنية الشريفة.

فهذه المسألة وإضافة لاكمالها الأبحاث المتعلقة بوحدة الوجود- بمعناها الصحيح- من شأنها أن تقف حائلًا أمام أى انحراف فى فهم الصفات الإلهية. إلّاأنّ أصحاب الضلالة قد وطأوا وادياً لا يجر عليهم سوى الخجل والخيبة، ومنهم طائفة «المجسمة» التى أضفت صفات الممكنات على اللَّه تبارك وتعالى فصوروه كجسم من الأجسام وقد انطوى على بعض الأعضاء من قبيل الجسم واليد والرجل والشعر المجعد ومن باب أولى أن يحدوه بالمكان والزمان فذهب البعض إلى إمكانية رؤيته سبحانه فى الدنيا، بينما اقتصر بها البعض الآخر على الآخرة.

فقد قال المحقق الدوانى- من مشاهير الفلاسفة- طبق نقل بحار الأنوار- أنّ: «المشبهة منهم من قال: إنّه جسم حقيقة، ثم افترقوا فقال بعضهم: إنّه مركب من لحم ودم وقال بعضهم:

هو نور متلألىء كالسبيكة البيضاء، طوله سبعة أشبار بشبر نفسه، ومنهم من قال: إنّه على صورة إنسان، فمنهم من يقول: إنّه شاب أمرد جعد قطط، ومنهم من قال: إنّه شيخ أشمط الرأس».[۷۳]

والأدهى من ذلك أنّهم قالوا ببعض الصفات الجسمية للَّهسبحانه من خلال ما نقلوه من

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۵

روايات عن النبى صلى الله عليه و آله- وهى روايات موضوعة بالطبع- وصحيحه. ومن ذلك أنّه سئل ابن عباس: هل رأى محمد صلى الله عليه و آله ربّه؟ قال: بلى، فسئل: كيف رآه؟ قال: رآه على كرسى ذهبى مفروش بالذهب ويحمله أربعة من الملائكة فى حديقة خضراء[۷۴].

وبغض النظر عمّا سبق فقد شحن «صحيح البخارى» و «سنن ابن ماجة» وغيرها بالروايات التى صرّحت بأنّ اللَّه سيرى فى يوم القيامة[۷۵]، حتى أنّ بعض الروايات صرّحت بأنّ أهل الجنّة سيرونه كما يرى القمر بدراً[۷۶] والحق أنّ مثل هذه الروايات دفعت بالكثير من علماء العامة للاعتقاد برؤية اللَّه يوم القيامة والاستماتة فى الدفاع عن هذه العقيدة. بينما هذا القرآن يهتف آناء الليل والنهار «لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ»[۷۷]

وقد خاطب سبحانه كليمه موسى عليه السلام قائلًا

«لَنْ تَرانِى»[۷۸]

ونعلم بأن «لن» نافيه أبدية. وقد تصدى الإمام على عليه السلام لبيان هذه المسألة فى خطبة الأشباح، فقال عليه السلام:

«والرادع أناسى الأبصار عن أن تناله أو تدركه أو تبصره»[۷۹]

. كما قال عليه السلام فى خطبة اخرى ببلاغته وفصاحته الجلية:

«الحمد للّه‌الذى لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر»[۸۰]

. وناهيك عمّا تقدم فان هذه العقائد تمثل مخالفة صريحة لما يحكم به العقل؛ وذلك لأنّ الرؤية لو كانت جائزة على اللّه لكان جسماً له مكان وجهة، الأمر الذى يعنى محدويته وتغيره وبالتالى سلبه وجوب الوجود وجعله من ممكناته. وهنا يأتى دور عبارات أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام ومنها العبارة السابقة لتكون كالشمس فى رابعة النهار فتميط اللثام عن الحقائق وتسحق العقائد الباطلة والخرافية وتستعرض الدروس القيمة فى التوحيد ومعرفة الصفات الإلهية. ولما جرت العادة أن يقابل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۶

كل إفراط بتفريط فقد انبرت طائفة بوجه المجسمة التى نزلت باللّه سبحانه إلى مرتبة الجسم فاعتمدت عقيدة التعطيل لتقول باستحالة معرفة اللّه لا على مستوى كنه ذاته ولا أوصافه، ولا تحسن سوى المفاهيم السلبية من صفات اللّه، فكل ما نفهمه من قولنا أنّه عالم هو أنّه ليس بجاهل، امّا عالميته المطلقة فهى خافية علينا تماماً، وعليه فمن مواضع فخر الإنسان أن يودع مسألة معرفة اللّه بوتقة النسيان ولا يقترب من هذا الوادى الذى ينطوى على ظلمات دامسة ويتناقض والتعاليم القرآنية المسلمة التى تقودنا إلى معرفة اللّه.

نفحات الولاية ؛ ج۱ ؛ ص۶۶

ختتم بحثنا بعبارات اخرى أوردها الإمام عليه السلام فى نهج البلاغة بهذا الخصوص فقال:

«لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الذى تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذى الجحود تعالى اللّه عمّا يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً»[۸۱].

فالحق أنّ هذا التعبير هو الخط المعتدل الفاصل بين الإفراط والتفريط (المشبهة والمعطلة) فى معرفة اللّه. هذا وقد شحن نهج البلاغة بالكلمات البليغة الرائعة التى تضمنتها خطبه عليه السلام بشأن صفات اللّه والسبيل الصحيح لتوحيده سبحانه، وسنتعرض فى أبحاثنا القادمة لخطبه عليه السلام بهذا الخصوص.

۳- نفى‌الحدوث الذاتى والزمانى للذات القدسية

تفيد عباراته عليه السلام بهذا الشأن أنّ الذات الإلهية منزهة عن الحدوث الذاتى والحدوث الزمانى. والمراد بالحدوث الزمانى هو وجود الشىء فى الزمان، أو بتعبير آخر مرور المدّة الزمانية على شىء لم يكن موجوداً ثم يوجد. وهذا هو المعنى المتصور بعد خلقه عالم المادة؛ لانّ الزمان انبثق من خلال خلقة العالم المادى بحيث أصبح هناك مفهوم للحدوث والعدم الزمانى.

أمّا الحدوث الذاتى فالمراد به الشىء الحادث فى ذاته بغض النظر عن ظهور عالم المادة، أو

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۷

بتعبير آخر لا- يترشح وجوده من باطن ذاته، بل يكون تابعاً ومعلولًا لوجود آخر، ومن المسلم به أن ليس من سبيل لهذين الحدوثين إلى الذات المقدسة الواجبة الوجود فى الماضى والمستقبل، بل وجوده هو الوجود الاصلى (عليك بالدقة والتأمل).

۴- هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على اللّه؟

هل يمكن اطلاق لفظ «الموجود» على اللّه؟ يبدو من تعبيره عليه السلام:

«موجود لا عن عدم»

إمكانية اطلاق هذا اللفظ على الذات الإلهية المقدسة، ولكن من المسلم به أن المفهوم الأصلى لهذا اللفظ الذى ورد بصيغة اسم

المفعول والـذى يعنى أن الآـخر هو الـذى منحه الوجود، لاـ يصـدق على ذاته المقدسـة، فـالموجود هنـا يشـتمل على مفهوم آخر وهو يتضـمن معنى ذىالوجود؛ وهو المعنى الذى صـرّح به فى بعض شروح نهج البلاغة، بحيث يطلق الموجود تارة على الماهيات الممكنة التى اتصـفت بـالوجود، كمـا يطلق تـارة اخرى ويراد به أصل الوجود[۸۲]. وقـد ورد هـذا التعبير (الموجود) فى بعض روايـات أصول الكافى أيضاً.[۸۳]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۶۹

القسم الرابع: تصدر الكلام بشأن خلق العالم

اشارة

«أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا وَلا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا وَلا هَمامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيها أَحالَ الْأَشْياءَ لِأَوْقاتِها وَلَامَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدائِها مُحِيطاً بِحُدُودِها وَانْتِهائِها عارِفاً بِقَرائِنِها وَأَحْنائِها».

الشـرح والتفسـير لقد تضـمنت بداية هذه الخطبة المهمة إشارات دقيقة عميقة المعانى إلى معرفة اللّه وصـفاته والتى تمثل أولى مراحل المعرفـة الإنسانيـة، ثم طرق عليه السـلام بعـد ذلك إلى خلق العالم وكيفية ابتداء الخلق والعجائب التى انطوت عليها السـماء والأرض، وإن كانت مكملة للأبحاث السابقة بشأن صفات اللّه. فقد قال عليه السلام:

«أنشأ[۸۴] الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً بلا رويةٍ[۸۵] أجالها[۸۶] ولا تجربة

استفادها ولا حركة أحدثه ولا همامة[۸۷] نفس اضطرب فيها.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۰

فالإمـام عليه السـلام يبين البون الشاسع بين الخلق الإلهى والأعمال والأفعال التى تصـدر عن المخلوقات. فالإنسان مثلًا إذا أراد أن يقوم بعمـل ولم يكن لهـذا العمل من سابقـة وظن فكره وتأمله لينطلق إليه، وإن كان له سابقـة احتـذى بتجربته وتجارب الآخرين كما يعمد إلى خزينه الـذهنى والفكرى بشأن ترتيب مقـدمات العمل بغية التوصل إلى نتائجه وكيفية أدائه، وأحياناً يتيه فى ترديده وحيرته بحيث يحكم رأيه ويقوم بالعمـل على أساسه. وليس هنالك من سبيل لأى من هـذه الحالات والاحتمالات للـذات الإلهيـة المقدسـة، فما من حاجة إلى الفكر والتأمل ولا إلى التجارب السابقة ولا الحركة الفكرية اسـتناداً إلى ترتيب المقدمات والحصول على النتائج ولا الترديد والاضطراب فى الأعمال والقرارات. فليس وجود الشىء إلّاإرادته

«إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[۸۸]

. بعبـارة اخرى فان هـذه الاحتمالات الأربع إنّما تتعلق بحصـيلة أعمال الأفراد الـذين له حظ محـدود من العلم والقـدرة، ولازمـة ذلك الحاجة وأفكار الآخرين وتجاربهم والشعور بالاضـطراب والقلق. ولا سبيل لهذه الحالات إلى من خرج علمه وقدرته عن الحدود حين الخلق.

ويتّضـح بجلاء ممّا قيل أنّ المراد بالحركـة فى العبارة المـذكورة إنّما هى حركـة الفكر فى باطن النفس. ولكن هناك معنى آخر ساقه بعض المفسـرون للحركـة على أنّ المراد بهـا الحركـة الجسـمية الخارجيـة التى تعـدّ من لوازم الأجسـام واللّه أعظم وأجل وأسـمى من الجسم والجسـمانيات. ويبـدو أن المعنى الأول أنسب من الثانى؛ لأنّ الحالات الثلاث الاخرى التى وردت قبل وبعـد العبارة المـذكورة كلها مرتبطة باتخاذ القرار والتفكر والتأمل قبل الإتيان بالعمل.

وزبدة الكلام أنّ أفعال اللّه ليست من جنس أفعال العباد وتختلف عنها تماماً، وذلك لأنّ

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۱

أفعاله سبحانه تستند إلى علمه المطلق بمصالح الأشياء ومفاسدها ومعرفته الكاملة بالنظام الأحسن للخلقة والقدرة التامة على جميع الأشياء، وإرادته قاطعة تامة لا لبس فيها ولا ترديد ولا تأمل وتفكير فى إفاضة الوجود على الموجودات، وإرادته كانت وما زالت نافذة فى الخلق.

ثم أشار عليه السلام إلى كيفية خلق الموجودات والتدبير الإلهى فى ظهور الأشياء طبق‌الخطط والبرامج المنظمة فقال عليه السلام:

«أحال الأشياء لأوقاتها»

أى أنّ اللَّه جعل لخلق كل موجود وقتاً معيناً (وذلك لأنّ خلقه قائم على أساس التدريج والتخطيط الزمانى بغية إيضاح عظمة تدبيره وقدرته الفريدة الفائقة). فلما فرغ من الإشارة إلى التصنيف الزمانى لخلقه الموجودات، تطرق عليه السلام إلى نظامها الخاص الداخلى والتركيبى فقال عليه السلام:

«ولام ۸۹] بين مختلفاتها».

وهذا من عجائب عالم الخلقة، فقد ألف اللَّه سبحانه بين مختلف الموجودات لتبدو متسقة وكأنّها شىء واحد، فقد لائم بين البارد والحار والظلمة والنور والموت والحياة والماء والنار. لقد خلق النار من الشجر الأخضر وخلق الإنسان والحيوان والنبات مركباً من مواد تامة الاختلاف ذات طبائع متنوعة.

وأبعد من ذلك فقد أوجد رابطة عميقة محكمة بين الروح والجسم وهما ينتميان إلى عالمين مختلفين تماماً؛ أحدهما مجرّد ونورانى وشفاف للغاية والآخر مادى وظلمانى وخشن للغاية. ثم قال عليه السلام:

«وغرز[۹۰] غرائزها».

فقد أودعها اللَّه سبحانه طبائعها ثم جعل لكل موجود طبيعته والهمه غريزته. وهذا فى الحقيقة من الحكمة الإلهية البالغة التى أودعت كل موجود صورته الطبيعية المنبعثة منه دون الحاجة إلى محرك خارجى، ولولا الدوافع الذاتية لهذه الموجودات لانقطعت استمرارية

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۲

الأشياء ولسادها الاضطراب والفوضى. وهناك اليوم تعبيران مختلفان بشأن هذه الدوافع الذاتية فى الإنسان أو سائر الموجودات، فأحياناً يطلق عليها اسم الفطرة وأنّ معرفة اللَّه مودعة فى الفطرة الإنسانية .. وأحياناً اخرى يعبر عنها بالغريزة. فمثلًا يقولون أنّ للإنسان غريزة جنسية، أو يقولون بأن لحركات الحيوانات عموماً صبغة غريزية. وهذا فى الواقع اصطلاح استعمله العلماء بهذا الشأن. أحدهما بشأن الدوافع التى تتسم بالبعد الفكرى (الفطرة) والآخر بخصوص تلك التى ليس لها بعداً فكرياً أو لها بعد عاطفى (الغريزة). إلّاأنّ كليهما يعنى الخلقة على أساس المعنى اللغوى.

ثم قال عليه السلام:

«والزمها[۹۱] أشباحها».

وقد تضاربت أقوال المفسرين- لنهج البلاغة- بشأن هذه العبارة، فذهب البعض ومنهم ابن أبى الحديد الذى قال ان الضمير المنصوب فى «الزمها» عائد إلى الغرائز؛ أى ألزم الغرائز أشباحها، أى أشخاصها لأنّ كلا مطبوع على غريزة لازمة، وبالنتيجة فان العبارة تأكيد على ثبوت غرائز الموجودات. بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بالعبارة وجود التشخصات الخاصة لكل موجود، أى أنّ اللَّه سبحانه قد وهب كل موجود بعض الخصائص والمميزات، وبعد أن كان لها بعداً كلياً فى علم اللَّه فقد تبلورت فى الخارج على هيئة جزئيات وأشخاص وعلى ضوء هذا التفسير فان الضمير فى ألزمها يعود إلى (الإشياء) كما ذكر البعض كلا التفسيرين على نحو الاحتمال. ولكن لما كان التفسير الأول لا يتضمن انسجام الضمير وما ذهب إليه، إضافة إلى كون العبارة تتخذ طابع التأكيد لا بيان موضوع جديد، فانّ الذى يبدو أنّ التفسير الثانى أصح وأصوب من التفسير الأول. وتوضيح ذلك أن اللَّه تبارك وتعالى قد وهب كل موجود نوعين من

الخصائص. الخصائص التى أودعت باطن ذاتها والتى عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرائز، والخصائص فى الجوانب الظاهرية من قبيل الزمان والمكان وسائر الجزئيات والتى عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله

«ألزمها أشباحها»

وعلى هذا

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۳

الأساس يكون الحق واستناداً لحكمته البالغة فى افاضته للخصائص الباطنية والظاهرية لكل موجود ليقوم بوظائفه الخاصة به على ما يرام ويتميز عن سائر الموجودات.

تنبيه

الهداية الفطرية والتكوينية لكافة موجودات العالم

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشارة لنقطة مهمّة طالما ورد التأكيد عليها كراراً فى القرآن: وهى أنّ لكافة موجودات عالم الخلقة والمادة تصنيف زمانى خاص وفى نفس الوقت الذى يحكمها التضاد والاختلاف إلّاأنّها منسجمة مع بعضها البعض ومكملة لها وأنّها مهدية على الدوام طبق نظمها الذاتى الباطنى والظاهرى وأنّها تنطلق كقافلة منتظمة ومنسجمة نحو هدفها النهائى دون أى تعثر وانحراف، بل تسير إليه على نحو الدقة دون أن تخطأه. فتفتح الزهور وتحمل أوراق الأشجار للفاكهة والثمار فى فصلى الربيع، ذبولهاوجفافها وتساقطها فى فصلى الخريف والشتاء، حركة الشمس فى الابراج الاثنى عشر، تعاقب الليل والنهار، دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وما اودع الإنسان من قوى باطنية وظاهرية كلها شواهد على الهداية التكوينية الإلهية، والتى صرّح بها القرآن على لسان موسى عليه السلام:

«رَبُّنا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [۹۲]

وقال:

«فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها»[۹۳]

و

«وَ إِنْ

مِنْ شَىءٍ إِلّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلّا بِقَدَرٍ مَعْلُوم».[۹۴]

وهذا فى الحقيقة يمثل آية من آياته سبحانه فى عالم الوجود التى تجعل الإنسان أكثر معرفة بالهداية التكوينية والنظم والتصنيف الزمانى والتأليف بين الاضداد والمختلفات كلما تعمق فى التفكير بهذا العالم.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۴

ثم قال عليه السلام:

«عالماً بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائنها[۹۵]

وأحنائها[۹۶]»[۹۷].

والواقع أنّ هذه العبارات الثلاث قد جاءت بمثابة دليل أو إيضاح للعبارات السابقة، وذلك لأنّ من أراد أن يخلق موجوداً فى وقته المناسب ويلائم بين الأشياء المختلفة ويودعها غرائزها الباطنية ولوازمها الظاهرية فانه يحتاج إلى علم جامع كامل من جانب وإلى إحاطة وقدرة تامة وشاملة من جانب آخر. ولذلك قال عليه السلام:

«عالماً بها قبل ابتدائها ...»

ولا يقتصر علمه على ابتدائها وانتهائها فحسب، بل هو عالم محيط بلوازمها وعللها وآثارها أيضاً. ومن المفروغ منه أن من كان عالماً بهذه الامور قادراً على الإتيان بها، فان له أن يضع كل شيء في موضعه ومكانه ويفيض على كل منها لوازمه ويسوقه في مسيرته الوجودية إلى كماله المنشود.

تأمّلان

۱- هل يصطلح بالعارف على اللّه؟

لقد تحفظ بعض مفسرى نهج البلاغة على وصف اللّه سبحانه بالعارف. ويبدو أنّ هذا الترديد ينبع من أمرين: الأول ما أورده «الراغب» في «المفردات» من أنّ المعرفة والعرفان تعنى إدراك الشيء من خلال التفكر والتأمل والتدبر في آثاره، أو بتعبير آخر إنّما يطلق اسم المعرفة على العلم المحدود الذى يتأتى عن طريق التفكير، ومن المسلم به أنّ العلم الإلهى ليس كذلك. والثانى الحديث الذى روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أنّ له (تعالى) تسعة وتسعين

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۵

اسماً من أحصاها دخل الجنة»

حيث يجمع العلماء على أنّ اسم العارف لم تكن واردة ضمن هذه التسعة والتسعين إسماً[۹۸] إلّاأن الدراسة الإجمالية تفيد أنّ هذا الوصف قد اطلق كراراً على اللّه في الروايات الإسلامية، وبالاضافة إلى نهج البلاغة الذى تعرض هنا لهذا الأمر بصورة وصفية وفي موضع آخر بصورة فعلية، فقد ورد هذا الوصف كثيراً في الروايات التى نقلها أصول الكافى.[۹۹]

ويشير هذا الأمر إلى أنّ مفردة المعرفة وان كانت في الأصل تعنى المحدودية أو الحاجة إلى التفكر والتدبر، غير أنّها اتسعت أثر كثرة الاستعمال حتى صارت تطلق على كل نوع من العلم والمعرفة، وإن لم تكن وليدة الفكر والتدبر.

أمّا بشأن الروايات المرتبطة بالتسع وتسعين اسماً للّه، فينبغى القول أنّ هذه الرواية لا تقصر الأسماء على تسعة وتسعين أبداً، بل هى تشير في الحقيقة إلى صفات اللّه وأسمائه الحسنى، ولذلك صرّحت بعض الروايات بألف اسم للبارئ سبحانه، وأخيراً أى دليل أعظم من أن يستفيد الإمام على عليه السلام في نهج البلاغة من هذا الاسم أو مشتقاته بالنسبة للّهوهو الأعرف والأعلم أكثر من غيره بخصوص أسماء اللّه وصفاته.

۲- كيفية علم اللّه بالموجودات قبل ايجادها

إنّ أحد أعقد المباحث الفلسفية والعقائدية هو بحث «علم اللّه بالموجودات قبل ايجادها».

فاننا نعلم بأنّ اللّه سبحانه عالم بالحوادث التى ستقع، وهذا ما ورد التأكيد عليه في الآيات القرآنية الشريفة، وهو ما ورد في العبارة المذكورة، ومن جانب آخر فان علم اللّه ليس من قبيل «العلم الحصولى»؛ أى ليس هنالك من انعكاس للصورة الذهنية للأشياء في ذاته؛ وذلك لأنّه ليس له من «ذهن» كالمخلوقات، فعلمه لا يتأتى من خلال انعكاس صور الموجودات، بل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۶

علمه «علمحضورى»؛ أى أنّ المخلوقات حاضرة عنده، ونعلم أن ليس هناك من معنى للعلم الحضورى بشأن الأشياء التى لم تظهر للوجود؛ بل هذا الإشكال وارد حتى بخصوص الموجودات التى زالت وانعدمت في الماضى؛ فان كان لنا من علم بها بفضل صورها الذهنية التى تبلورت في أعماقنا وأفكارنا. ولكن كيف لمن ليس له ذهن وصور باطنية وليس من سبيل للحوادث إلى ذاته المقدسة أن

يحيط بها؟! على سبيل المثال: لقد زالت صورة فرعون ورهطه وانقطع تأريخهم، وليس لنا سوى استحضار صورتهم فى أذهاننا، ولكن ما كيفية علم اللّه به وهو ليس من قبيل علمنا؟ فهل يمكن القول بأنّه ليس عالماً بالماضى؟ أم ليس له من علم بالمستقبل؟ أبداً لا يمكن ذلك! إذن إن كان عليماً فما كيفية هذا العلم؟

لقد أثارت هذه المسألة الجدل فى أوساط الفلاسفة والعلماء فقدموا عدّة أجوبة بهذا الشأن، سنقتصر هنا على الإشارة إلى بعضها:

۱- إنّ الله كان ومازال عالماً بكافة الأشياء بذاته التى تعتبر علة لجميعها، وبعبارة اخرى فانّ لذاته أعظم الحضور لدى لذاته، وهذا العلم بذاته هو علم إجمالى بكافة حوادث العالم وموجوداته قبل الايجاد وبعده. وتوضيح ذلك أننا لو علمنا على نحو الدقة بعلة الأشياء فان مثل هذا العلم سيقود بالنتيجة إلى العلم بنتائجها ومعلولاتها؛ وذلك لأنّ كل علة تشتمل على كافة كمالات المعلول وزيادة، ولما كان اللّه علة جميع الأشياء ويعلمها بذاته ويحيط بها، وفى الواقع فان هذا نوع من الكشف التفصيلى تجاه جميع الأشياء من خلال العلم الاجمالى. ويمكن توضيح هذا الكلام بالقول: إنّ الحوادث الماضية لم تنعدم بالمرة أبداً وإنما لها وجود وحضور فى عمق حادث الحاضر. كما أنّ الحوادث المستقبلية ليست معزولة عن الحوادث الحاضرة فهى مرتبطة بها ونابعة منها. وعلى هذا الأساس فانّ الماضى والحاضر والمستقبل إنّما يوجد سلسلة من العلل والمعاليل بحيث أنّ العلم باحدى حلقاتها انّما يعنى العلم بما قبلها وما بعدها من حلقات. على سبيل المثال لو علمنا بدقّة الأوضاع الجوية للكرة الأرضية والعوامل المؤدية لظهور الأجواء الفعلية وأحطنا بكافة جزئيات وروابط عللها ومعاليلها، فاننا سنستطيع التعرف بدقة على أوضاع الأجواء لما قبل أو بعد آلاف السنين؛ وذلك لأنّ ملف حوادث الماضى والمستقبل موجودة فى الحاضر. فاليوم يحمل انعكاساً دقيقاً عن الأمس،

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۷

والغد عن اليوم والعلم التام بجزئيات اليوم بمعنى العلم التام بالحوادث الماضية والمستقبلية.

فاذا التفتنا إلى هذه الحقيقة وهو أنّ اللّه سبحاه المصدر الأصلى لجميع حوادث الأمس واليوم والغد وأنّ له العلم بذاته المقدسة، فان علينا أن نقر بأنّه عالم أيضاً بحوادث المستقبل والحاضر والماضى. وبالطبع فانّ آثار كل موجود مهما كان إنّما تتبع إرادة اللّه وأمره، إلّاأنّ سنته جرت فى منح الموجودات القدرة على القيام بفعاليتها، فاذا شاء جردها منها.[۱۰۰]

۲- الإجابة الثانية التى يمكن إيرادها فى هذا المجال أنّه يمكن لعلمنا تصور الأمس واليوم والغد، وذلك لأننا موجودات محدودة. أمّا بالنسبة للّهالذى لا حدد لذاته فليس هنالك من مفهوم للأمس واليوم والغد لديه، بل إنّ كافة الأشياء والحوادث حاضرة عنده بجميع جزئياتها وخصوصياتها.

ويمكننا الاستشهاد بمثال على هذا الكلام:

افرض أنّ هناك فرداً فى زنزانة مظلمة ليس لها سوى نافذة صغيرة على الخارج. فاذا مرت قافلة من الجمال من هذه النافذة فانه سيشاهد فى بداية الأمر رأس وعنق جمل واحد ثم يرى رجليه وذنبه ومن ثم سائر الجمال فى هذه القافلة. فصغر النافذة هو الذى يشكل السبب الذى يجعله يعيش حالة من الماضى والحاضر والمستقبل، بينما يختلف هذا الموضوع تماماً بالنسبة لذلك الفرد الواقف على سطح فى محيط مكشوف خارج تلك الزنزانة وينظر إلى الصحراء، فهو يرى قافلة الجمال معاً خلال حركتها.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۷۹

القسم الخامس: كيفية بداية خلقة العالم

اشارة

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ».

الشرح والتفسير لقد تناول الإمام عليه السلام بداية انبثاق الخلق فقال عليه السلام:

«ثم أنشأ سبحانه فتق ۱۰۱] الأجواء[۱۰۲]»

وهو يشير إلى شق الطبقات الجوية، ثم فتح جوانبها وأطرافها

«وشق ۱۰۳] الأرجاء[۱۰۴]»

وأوجد الفضاء والهواء

«وسكائك ۱۰۵] الهواء[۱۰۶]»

. فقد أشير إلى فتق الأجواء ثم ايجاد أطرافها وجوانبها

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۰

ومن ثم طبقاتها. وتشير العبارة بأجمعها إلى أنّ الخلق الأول فى عالم المادة كان خلق فضاء العالم، الفضاء الذى يسعه استيعاب الكرات السماوية والمنظومات وما إلى ذلك، بالضبط كالصفحة الورقية التى يعدها الرسام الماهر مسبقاً لرسم ما يشاء. ومن هنا يتضح أنّ كلمة «ثم» فى العبارة لا- تفيد معنى الترتيب التكوينى، بل تفيد الترتيب والتأخير البيانى؛ لأنّه قد أشير فى العبارات السابقة إلى خلق أنواع الموجودات والكائنات، ومن المتيقن ألا تكون قد أعقبت بخلق الفضاء ثم كريات السماء والأرض. وفى الواقع فقد تضمنت العبارات السابقة أبحاثاً بشأن خلق الموجودات بينما تكفلت هذه العبارة شرح تلك الأبحاث وتفصيلها. على كل حال فانّ ظاهر هذه العبارة تفيد أن الفضاء أول مخلوق فى عالم المادة، غير أنّ هناك ترديد لدى بعض الفلاسفة والمتكلمين بشأن الفضاء فى أنّه أمر وجودى أم عدمى؟ فهناك من يعتقد كما أنّ الزمان قد ظهر بعد انبثاق الموجودات وحركتها (لأنّ الزمان هو وحدة الحركة) فان المكان هوالآخر قد حصل بعد ظهور الأجسام المختلفة ومقارنتها مع بعضها. والحال يتعذر علينا تصور عدم وجود مكان مطلق إثر ظهور أول جسم إلى الوجود. فلو أردنا أن نبنى عمارة ذات عدّة طبقات فاننا نحتاج إلى فضاء تشغله تلك العمارة كحاجتنا إلى مكان على الأرض نبنيها عليه، وإذا أردنا أن نبنى عمارة أكبر فانّها ستحتاج إلى فضاء أوسع. والخلاصة فاننا نؤمن بما أورده الإمام عليه السلام بقوله

«ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء»

ونوكل الاستغراق فى هذا البحث إلى محله.

تأمّل: هل العالم المادى حادث؟

هناك كلام كثير يدور بين الفلاسفة والعلماء بشأن العالم فهل العالم المادى حادث أم قديم أزلى؟ فالبعض يرى أنّه قديم وأزلى بينما يعتقد الأعم الأغلب أنّه حادث. امّا دليل القائلين بالأزلية والقدم فانما يستند إلى الذات الإلهية المقدسة القديمة وكل ما سواها فهو حادث ومخلوق وتابع لذاته المقدسة. وأمّا أنصار عقيدة حدوث العالم فأحياناً يستدلون بالأدلة الفلسفية على مدعاهم وأحياناً اخرى بالادلة العلمية. فبرهان الحركة والسكون من الأدلة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۱

الفلسفية المعروفة التى تقول بأن عالم المادة دائماً فى حالة حركة وسكون، والحركة والسكون من «الامور الحادثة» وما كان معروضاً للحركة والسكون فهو حادث أيضاً. ويمكن ايراد هذا الدليل بتعبير أوسع وأشمل وهو أنّ عالم المادة دائماً فى حالة تغيير، والتغيير والتبدل علامة على الحدوث، لأنّه لو كان أزلياً وهو مسرح على الدوام للتغير والتبدل فان ذلك سيكون جمع بين الحدوث والقدم، أى لابدّ أن نرى التغييرات وهى من الامور الحادثة أزلية، وهذا تناقض صريح. ويتضح هنا أكثر فأكثر اقرار هذا الدليل للحركة الجوهرية

التى تقول بأنّ الحركة كامنة فى ذات الأشياء، بل هى عين ذاتها؛ لأنّ وجود الحركة هذا الأمر الحادث فى الأزل لا معنى له. ونترك دراسة وتحليل هذا الدليل إلى الأبحاث الفلسفية الواردة بهذا الشأن. الدليل العلمى فهو الدليل الذى يقول بأنّ العالم فى حالة تآكل دائمية وقد قامت الأدلة والبراهين العلمية التى تثبت ذلك، ويصدق هذا الأمر على التيارات والثوابت والأرض وما كان على سطحها. فالتآكل المستمر دليل على أن هناك نهاية وخاتمة لعالم المادة. لأنّ التآكل لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، فاذا قبلنا أنّ للعالم المادى نهاية، يجب أن نذعن بأن له بداية. لأن الشىء لا يكون أزلياً مالم يكن أبدياً. فالأبدية تعنى اللانهاية، والشىء اللامنتهى ليس بمحدود، وإذا كان ليس بمحدود فلا بداية له، وعليه فالشىء إذا لم يكن أبدياً سوف لن يكون أزلياً. ويمكن ايراد هذه الكلمة بصيغة اخرى وهى أنّ العالم لو كان أزلياً وفى حالة تآكل، فلابدّ أن يكون هذا التآكل قد أنهى عمر العالم لأنّ تناهى التآكل يساوى العدم. وبتعبير آخر على ضوء آخر النظريات العلمية أنّ العالم المادى يسير نحو الروتينية. فالذرات تتلاشى تدريجياً وتتحول إلى طاقة، والطاقة تسير نحو الروتينية (بالضبط كشعلة النار التى توقدها فى غرفة فتتحول مادة النار إلى حرارة فتنتشر هذه الحرارة تدريجياً فى وسط الغرفة حتى تكون بالتالى شيئاً روتينياً لا أثر له). وكلما مرت لا نهاية الزمان على العالم ستحصل هذه الحالة؛ أى تحول كافة المواد إلى طاقة وبالتالى تتحول هذه الطاقة الفعالة إلى طاقة روتينية وباهتة.

لكن لا- يعنى هذا الكلام أنّ زماناً قد مرّ ولم يكن للّه‌من خلق وأنّ ذاته الفياضة قد توقفت عن هذا الفيض، بل بالعكس فان عملية الخلق مستمرة، إلّاأنّ المخلوقات كانت دائماً تشهد حالة التغير والتبدل وأنّ جميع هذه المخلوقات تابعة لذاته المقدسة، أو بتعبير آخر كان له

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۲

حدوثاً ذاتياً لا زمانياً. وذلك لعدم إمكانية تصور الحدوث الزمانى للجميع. وما ورد فى الرواية التى قالت:

«كان اللّه ولا شىء معه»[۱۰۷]

إنّما يراد بها أنّه لم يكن شىء مصاحباً لذاته بل مخلوقاً لها (لابدّ من التأمل).

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۳

القسم السادس: الماء كان أول مخلوق

«فَأَجْرَى فِيهَا ماءً مُتَلاطِماً تَيَّارُهُ مُتَراكِماً زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعاصِفَةِ وَالزَّعْزَعِ الْقاصِفَةِ فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ، الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِها فَتِيقٌ وَالْماءُ مِنْ فَوْقِها دَفِيقٌ».

الشرح والتفسير ما يستفاد من كلمات أمير المؤمنين على عليه السلام ولاسيما فى هذه العبارات وما سيتبعها فى توضيح كيفية خلق العالم هو أنّ اللّه سبحانه قد خلق ابتداءً الماء- أو بتعبير آخر- مائعاً يشبه الماء ثم حمله على ريح عاتية شديدة، وقد أمرت هذه الريح أن تحفظ هذا المائع وتحول دون تشتته وتفرقه. ثم هبت ريح شديدة اخرى بهدف ايجاد أمواج فى ذلك المائع العظيم والواسع فجعلت الريح تلك الأمواج أعظم وأشد ثم دكتها على بعضها، ثم تموج ذلك المائع تمويجاً شديداً حتى ارتفع فى الفضاء، فخلق منه السموات السبع. جدير بالذكر أنّ الماء والريح والعاصفة وما شابه ذلك- فى ذلك الوقت الذى لم يكن فيه ماء ولا ريح ولا عاصفة- كناية عن موجودات شبيهة بما نراه اليوم من ماء وريح وهواء، وذلك لأنّ واضعى المفردات قد جعلوا هذه الكلمات لمثل هذه الامور، فلم يضعوا أية مفردة لما حدث أوائل خلقة العالم. وان أدنى تأمل يجعل من الممكن تفسير ما ورد من عباراته عليه السلام على ضوء آخر الفرضيات والنظريات التى طرحها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، ولا نقول إنّ هذا هو مراد الإمام عليه السلام على سبيل القطع، بل نحتمل أن يكون تفسيره كذلك.

فآخر الفرضيات التى توصل إليها العلماء بشأن بداية ظهور العالم، هو أنّ العالم برمته فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۴

البداية كان بهيئة كتلة غازية عظيمة شبيهة بالمائع، كما يمكن الاصطلاح عليها باسم «الدخان»، أو بتعبير آخر كانت الطبقات العليا من العالم دخاناً، وكان هذا الدخان يتخذ شكل المائع بفعل حالة الضغط كلما إقترب من مركز العالم.

أمّا الشىء الذى تكفل بحفظ تلك الكتلة العظيمة للغاية إنّما تمثل بالجاذبية التى تحكم جميع ذرات العالم، وقد سلطت هذه الجاذبية على ذلك الغاز المائع فشدته وحالت دون خروجه من حدوده. ثم ابتدأت هذه الكتلة العظيمة بالدوران حول نفسها (أو أنّها كانت تدور حول نفسها منذ البداية) وهنا ظهرت قوة الطرد المركزية.[۱۰۸] وقد أدت قوة الطرد المركزية هذه بتلك الكتلة العظيمة من ذلك الغاز المضغوط أن تقذف فى الفضاء الخالى، وعلى حد تعبير نهج البلاغة كما سيأتى فى العبارات التالية من هذه الخطبة

«فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء»

ثم ظهرت منها المنظومات والكواكب والكرات الصغيرة والكبيرة للعالم؛ الأمر الذى نعته القرآن ونهج البلاغة بالسموات السبع. طبعاً كل ما نريد أن نقوله- دون الاصرار على هذا الموضوع- هو الانسجام القائم بين عبارته عليه السلام والفرضيات والنظريات العلمية الواردة بذات الشأن، حيث يمكن استيعاب كلام الإمام على عليه السلام على ضوء النظريات والاطروحات العلمية المعاصرة بخصوص ظهور السموات والارضين والكواكب والاجرام السماوية وسائر الكرات. وننتقل الآن إلى أصل عبارته، فقد قال الإمام عليه السلام:

«فاجرى فيها ماء متلاطماً[۱۰۹] تياره ۱۱۰]».

«التلاطم» بمعنى اصدام الأمواج ببعضها، والتيار يعنى الموج، ولا سيما الأمواج التى يقذفها الماء خارجاً، أفليس هذا الماء المتلاطم والمتدفق هو تلك الغازات الأولية المضغوطة التى تمثل المادة الأولية للعالم على ضوء نظريات العلماء واطروحاتهم؟ ثم أكد الإمام على عليه السلام على شدة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۵

تدفق ذلك الماء وعظم تلاطمه فقال:

«متراكم ۱۱۱] زخاره ۱۱۲]».

ثم أضاف عليه السلام:

«حمله على متن الريح العاصفة[۱۱۳] والزعزعة[۱۱۴] القاصفة[۱۱۵]».

فالعاصف بمعنى الضاربة والكاسرة والزعزع بمعنى الضطربة والشديدة الهبوب وكذلك القاصفة التى تهلك الناس بشدة هبوبها، وكأنّ كل هذه المفردات تأكيدات متتالية لبيان قوة تلك الريح وسعتها وشموليتها. ثم امرت هذه العاصفة العظيمة المرعبة بحفظ أجزاء الماء مع بعضها البعض ضمن حدودها

«فأمرها برده، وسلطها على شدة[۱۱۶]، وقرنا إلى حده».

أو ليست هذه العاصفة العظيمة والشديدة إشارة إلى أمواج الجاذبية التى سلطها اللّه على جميع ذرات عالم المادة والتى كانت سبباً لتماسك أجزائها وعدم تشتتها وتناثرها، وتقييدها بالحركة فى إطار حدودها؟ فهل هناك من تعبير أروع وأدق من الريح العاصفة القاصفة لتبيين الأمواج العظيمة للجاذبية فى ظل تلك الأجواء.

وقد حصلت كل هذه الامور و

«الهواء من تحتها فتيق ۱۱۷] والماء من فوقها دفيق ۱۱۸]»

والفتيق من مادة فتق بمعنى المفتوق؛ المفتوح، ودفيق من مادة دفق بمعنى الحركة السريعة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۶

نعم إنّ هـذه الأمواج المتدفقـة انّما تحـد بواسـطة تلك الريـح العاصـفة، فتحول دنها ودون تجاوزها لحـدودها- وهنا يبرز هذا السؤال: كيف تظهر تلك الأمواج المتدفقة على سطح الماء رغم وجود تلك الريح العاصفة الحائلة والمانعة، فالمعروف أنّ تلك الأمواج عادة مـا تظهر بفعـل حركـة الرياح والعواصف، رغم أنّ الرياح هنا تلعب دور المانع والحائل لتلك الأمواج، إذن ما العامل الـذى يقف وراء حركة الأمواج.

يبدو أنّ العامل الذى يقف وراء ظهور هذه الأمواج هو شيء كامن فى باطنها بحيث يجعله يتلاطم على الدوام. ولكن ليست لدينا رؤية واضـحة لماهية هذا العامل، إلّاأنّه ينسجم تماماً والنظريات التى أوردها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، فهم يقولون أن انفجارات نووية متواصلة وقعت فى جوف الغازات الاولى ذات الطبيعة المائعة، وهى هذه الانفجارات التى تحدث اليوم فى الشمس. فهذه الانفجارات العظيمة قضت على سكون واستقرار هذه الغازات المائعة وأوجدت تلك التلاطمات فى أمواجها المتدفقة.

ولابد لنا من متابعة المقطع الآخر لاكمال هذا القسم فنقف على الصورة الدقيقة التى رسمها الإمام عليه السلام لإنبثاق الخليقة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۷

القسم السابع: دور العواصف فى انبثاق الخلقة

اشارة

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّها وَأَدامَ مُرَبَّها وَأَعْصَفَ مَجْراها وَأَبْعَدَ مَنْشَأَها فَأَمَرَها بِتَصْفِيقِ الْماءِ الزَّخَّارِ وَإِثارَةِ مَوْجِ الْبِحارِ فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقـاءِ وعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَها بِالْفَضاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ وَساجِيَهُ إِلَى مائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عُبابُهُ ورَمَى بِالزَّبَدِ رُكامُهُ فَرَفَعَهُ فِى هَواءٍ مُنْفَتِقٍ وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَواتٍ جَعَلَ سُفْلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً وعُلْياهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَسَمْكاً مَرْفُوعاً بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُها وَلا دِسارٍ يَنْظِمُها ثُمَّ زَيَّنَها بِزِينَةِ الْكَواكِبِ وضِياءِ الثَّواقِبِ وَأَجْرَى فِيها سِراجاً مُسْتَطِيراً وَقَمَراً مُنِيراً فِى فَلَكٍ دائِرٍ وَسَقْفٍ سائِرٍ وَرَقِيمٍ مائِرٍ».

الشـرح والتفسير كما أوردنا فانّ هذه الكلمات امتداد لعباراته السابقة ونتجه بادئ ذى بدء إلى فهم التعبيرات الدقيقة والعميقة فى كلام الإمام عليه السـلام دون اصدار حكم بشأنها، ثم نتحدث بعد ذلك عن مدى انسجامها مع آراء ونظريات العلماء المعاصرين بخصوص مسألة خلق العالم.

فالإمام يشير فى كلامه إلى عدّة مراحل. فقال عليه السلام:

«ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم ۱۱۹] مهبها[۱۲۰]».

فالريح العقيم هى الريح الخالية من السحب التى تؤدى إلى نزول المطر، وبالتالى فهى لا

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۸

تلقح سحاباً ولا شجراً. ثم وصفها عليه السلام بملازمتها للماء وعدم انفصالها عنه فقال:

«وأدام مربّها[۱۲۱]»

خلافاً للرياح العادية التى تهب أحياناً وتسكن أحياناً اخرى ريح شديدة عاتية (تختلف كلياً عن الرياح والعواصف الاعتيادية) فقال عليه السلام:

«وأعصف ۱۲۲] مجريها».

وهى ريح تهب من مكان سحيق وليست على غرار الريح الاعتيادية التى تنطلق من أماكن قريبة (وأبعد منشاها).

ثم أشار فى المرحلة الثانية إلى مهمّة هذه الرياح

«فامرها بتصفيق ۱۲۳] الماء الزخار، واثارة

موج البحار»

فقامت هذه الريح العاتية العظيمة بمخض الماء كقراب السقّاء

«فمخضته ۱۲۴]

مخض السقاء». «وعصفت به عصفها بالفضاء»

ثم قال عليه السلام:

«ترد أوله إلى آخره وساجيه ۱۲۵] إلى مائره ۱۲۶]».

وقال عليه السلام فى المرحلة الثالثة بشأن تراكم المياه وارتفاعها

«حتى عب عبا[۱۲۷]»

بمعنى ارتفع أعلاه

«ورمى بالزبد ركامه ۱۲۸]».

ثم قال عليه السلام فى المرحلة الرابعة:

«فرفعه فى هواء منفتق وجو

منفهق ۱۲۹]»

فخلق منها تبارك وتعالى السموات السبع

«فسوى منه سبع سموات»

حيث جعل الأقسام السفلى، كالأمواج المكفوفة الممسوكة والطبقات العليا كالسقف المحفوظ

«جعل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۹

سفلاهن موجاً مكفوفاً[۱۳۰] وعلياهن سقفا محفوظاً وسمكاً[۱۳۱] مرفوعاً».

ثم أشار عليه السلام إلى عدم وجود الأعمدة التى تحملها ولا المسامير التى تحكم وثاقها فقال:

«بغير عمد[۱۳۲] يدعمها[۱۳۳] ولا دسار ينظمها[۱۳۴]»

وأخيراً تأتى المرحلة الأخيرة- الخامسة-

«ثم

زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب ۱۳۵]»

. ثم أشار عليه السلام إلى القمر والشمس وتحرك كل منهما ضمن مداره

«واجرى فيها سراجاً مستطيرا[۱۳۶] وقمراً منيراً فى فلك دائر وسقف سائر

ورقيم ۱۳۷] مائر».

تأمّلات

۱- دراسة العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة

للعلماء المعاصرين نظريات متعددة لا تتجاوز حدود الفرضيات بشأن خلق العالم؛ حيث لم يكن هناك مخلوق قبل مليارات السنين

ليشهد كيفية ظهور العالم، مع ذلك هناك بعض الشواهد والقرائن التى تؤيد صحة بعض هذه الفرضيات. امّا العبارات التى ساقها الإمام عليه السلام فهى تنطبق تماماً على بعض الفرضيات المعروفة، سنتعرض لها الآن دون الاصرار على أنّ الإمام عليه السلام إنّما أراد هذه الفرضيات. فكما أسلفنا فى الأبحاث السابقة أن العالم كان فى البداية كتلة ضخمة من الغازات المتراكمة الكثيرة الشبه بالمائعات بحيث يصح نعتها بالماء، كما يصح

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۰

الاصطلاح عليها بالدخان على ضوء التصريحات القرآنية. وقد سلط خالق العالم عليه قوتين عظيمتين، حيث عبر عنهما فى العبارة المذكورة بالريح:

قوة الجاذبية التى حفظته متماسكاً وحالة دون تشتته وزواله، والقوة الدافعة التى تدفعه إلى الخارج إثر الحركة الدورانية حول نفسه وبفعل قوة الطرد المركزية، وهذه هى الريح والعاصفة الثانية. فاذا أقررنا بالحركة الدورانية للعالم الأول على أنّها كانت متذبذبة تشتد أحياناً وتنخفض أحياناً اخرى فمن الطبيعى أن تكون قد ظهرت تلك الأمواج العظيمة فى تلك الكتلة الغازية العظيمة الشبيهة بالمائع بحث تراكمت تلك الأمواج على الدوام ثم أخذت بالتساقط.

وفى الختام فان الطبقات الأكثر خفة والأقل وزناً- والتى ورد التعبير عنها بالزبد من قبل الإمام عليه السلام- قد قذف بها نحو الفضاء الخارجى (أنّ مفردة «الزبد» تطلق على ما يطفو من الماء، وكذلك على الزبدة التى تطفو لخفتها على سطح محتويات القربة).

وبهذا فقد اشتدت الحركة الدورانية، فانفصلت أجزاء كبيرة من هذه الكتلة العظيمة وانطلقت إلى الفضاء، فما كان منها أكثر شدة بلغ نقاطاً مرتفعة وأمّا ما كان منها أقل شدة فقد بلغ نقاطاً أوطئ. لكن الأجزاء التى بلغت نقاطاً مرتفعة أصبحت على هيئة سقف محفوظ وذلك بفعل قوة الجاذبية التى لم تدعها تفلت تماماً، بينما أصبحت الأجزاء السفلى الأقل ضغطاً موجاً مكفوفاً حسب تعبير الإمام عليه السلام.

ثم ظهرت فى ذلك الفضاء المترامى السموات السبع (التى سنتناولها بالحديث لاحقاً) دون أن تكون هناك عمد ترفعها ومسامير تنظمها وتحكم وثاقها، ولم تستقر فى مواقعها وتتزن فى حركتها ضمن مداراتها سوى من خلال تعادل القوتين الجاذبة والدافعة. كان الفضاء آنذاك مملوءاً بالكرات الصغيرة والكبيرة، فانطلقت قطع متناثرة من هذه الأمواج إلى الخارج، وقد انجذبت القطع الصغيرة تدريجياً نحو الكرات الكبيرة بحكم الجاذبية فأصبح الفضاء وأضاءت النجوم وزينت بالكواكب وأشرقت الشمس واضيء القمر وأخذت الأجرام تتحرك ضمن أغلفتها ومداراتها.

لقد ورد فى بعض الفرضيات بشأن ظهور العالم أنّ العامل الذى أدى إلى انفصال المنظومات والكرات السماوية عن الكتلة الاولى إنّما يعزى إلى الانفجار الداخلى العظيم والذى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۱

ظل سببه مجهولًا غامضاً لحد الآن. فالقى الانفجار المذكور بأجزاء عظيمة من الكتلة الغازية الاولى الشبيهة بالمائع إلى الفضاء وكون الكرات والمنظومات ولعل قوله عليه السلام:

«ثم انشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها وأدام مربها وأعصف مجراها وأبعد منشأها فامرها بتصفيق الماء الزخار ...»

إشارة إلى هذا الانفجار العظيم الذى انطلق من أعماق المادة الاولى. لكن وكما قلنا سابقاً فان الهدف من هذا الكلام هو ايضاح مدى انسجام عبارات الخطبة مع الفرضيات الواردة بشأن ظهور العالم ولا يمثل إصدار حكم بهذا الشأن أبداً.

۲- كيفية ظهور العالم

تعد مسألة كيفية ظهور العالم من أعقد المسائل التى واجهها العلماء والمفكرون. فالمسألة المذكورة تعود إلى ماقبل ملياردات

السنوات، ولعلها القضية التى لم تطرق فكر أحد؛ الأمر الذى حير كبار العلماء والمفكرين رغم الجهود المفنية والتحقيقات والفرضيات الضخمة التى توصلوا إليها فى هذا المجال وبالتالى لم يكن أمامهم سوى الاعتراف بالعجز عن سير تحور هذه المسألة. إلّاأنّ روح حب الاستطلاع والتعرف على المجهول التى تسود الفكر البشرى لم تدعه يقف مكتوف الايدى حيال هذه القضية والصمت إزائها. فالواقع أنّ لسان حال العلماء هو إننا وإن عجزنا عن بلوغ كنه هذا الموضوع، غير أننا نرغب برسم صورة فى أذهاننا من شأنها إشباع حب تطلعنا واقتحامنا لهذا الأمر. وبالطبع فانّ الآيات القرآنية والروايات الإسلاميه قد اكتفت بإشارات مقتضية بالنسبة لهذا الموضوع؛ الأمر الذى لا- يؤدى إلّاإلى رسم صورة باهتة فى الذهن لا- ترقى إلى إماطة اللثام عن طبيعتها وكنه حقيقتها. على كل حال فان العبارات الواردة فى هذه الخطبة انّما تتناغم وما ورد فى خطبته رقم ۲۱۱ التى قال فيها عليه السلام:

«وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم فطر منه اطباقا ففتقها سبع سموات، بعد ارتتاقها».

من جانب آخر فقد شحنت الروايات الإسلامية بعدة أبحاث بهذا الشأن، والواضح أنّ أغلب هذه الروايات تنسجم وخطب نهج البلاغة الواردة بهذا الخصوص مع فارق جاء فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۲

أغلبها وهو تصريحها بأنّ الزبد أول شيء ظهر على الماء ثم انبعث منه البخار أو الدخان الذى كوّن السموات.[۱۳۸]

ولكن وكما أوردنا آنفاً فانه ليس هنالك من تضارب بين هذه العبارات، لأنّ المادة الاولى على الأقوى كانت عبارة عن غازات مائعة مضغوطة يصدق عليها وصف الماء والبخار والدخان بالنظر لمراحلها المختلفة. والجدير بالكذر هنا هو أنّه ليس هناك من تضاد بين الروايات التى صرّحت بأنّ أول ما خلق اللّه الماء، أو الشيء الأول الذى خلقه اللّه كان نور النبى صلى الله عليه و آله أو العقل؛ وذلك لأنّ بعض الروايات تحدثت عن خلق عالم المادة بينما تحدث البعض الآخر عن خلق عالم المجردات والأرواح. كما يتبيّن عدم وجود التناقض بين ما أوردناه من مضامين الروايات وما صرّحت به الآية ۱۱ من سورة فصلت التى قالت:

«ثم استوى إلى السماء وهى دخان».

۳- الفرضيات السائدة بشأن العالم أبان نزول القرآن

الطريف أنّه كانت هناك نظريتين بشأن ظهور العالم فى الوسط الذى نزل فيه القرآن- أو بعبارة أدق فى العصر الذى نزل فيه القرآن-: الاولى نظرية «بطليموس» التى سادت المحافل العلمية لخمسة عشر قرناً واستمرت حتى أواخر القرون الوسطى. وعلى ضوء هذه النظرية فانّ الأرض كانت مركز العالم وتدور حولها تسعة أفلاك؛ وهى أفلاك تشبه الأغطية البصلية وشفافة وبلورية ومتراكمة بعضها، وكان كل كوكب سيّار (عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى وزحل) فى فلك، كما كان لكل من الشمس والقمر فلكهما. واضافة إلى هذه الأفلاك السبع، هناك فلك يرتبط بالكواكب الثابتة (المراد بالكواكب الثابتة هى تلك الكواكب التى تطلع معاً وتغرب معاً دون أن تغير مواقعها فى السماء بخلاف الكواكب الخمس التى ذكرناها). وبعد الفلك الثامن؛ أى فلك الثوابت هناك فلك الاطلس الذى ليس له أى كوكب، امّا مهمته فهى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۳

سوق العالم العلوى للدوران حول الأرض، وهو الفلك الذى يسمى أيضاً بفلك الأفلاك.

أمّا الفرضية الاخرى فهى الفرضية التى تستمد قوتها من فرضية بطليموس بشأن العالم وتفسره على أساس العقول العشرة.

وعلى ضوء هذه النظرية التى طرحها جمع من الفلاسفة اليونانيين فان اللّه لم يخلق بادئ ذى بدء سوى شيء واحد هو العقل (الملك أو الروح العظيمة والمجردة التى اصطلح عليها بالعقل).

وقد خلق هذا العقل شيئين هما العقل الثانى والفلك التاسع، ثم خلق العقل الثانى العقل الثالث والفلك الثامن، وهكذا خلق عشرة عقول وتسعة أفلاك، ثم قام العقل العاشر بخلق موجودات هذا العالم. والواقع ليس هنالك من دليل على هذه السلسلة من الفرضيات، وهكذا هو الحال بالنسبة لفرضية بطليموس رغم ذلك فقد كانت هذه الفرضيات هى السائدة لقرون.

أمّا القرآن والروايات الإسلامية فقد رفضت الفرضية الاولى- فرضية بطليموس- كما رفضت الفرضية الثانية- فرضية العقول العشرة-؛ وذلك لأننا لم نر أثر لهما فى الآيات والروايات المعروفة- ولا سيما فى نهج البلاغة-، وهذا بدوره يمثل أحد الأدلة والشواهد على استقلالية القرآن وعظمة الأخبار الإسلامية واستنادها إلى الوحى لا إلى الأفكار البشرية، وإلّا لاصطبغت بصبغتها.[۱۳۹]

وقد رأينا الانسجام التام بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الروايات الإسلامية بشأن ظهور العالم. فالمحور الأصلى فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية إنّما كان الحديث عن السموات السبع لا الأفلاك التسع ولا العقول العشرة، وسنتناول لاحقاً تفسير السموات السبع.

لكن من المؤسف أنّ قدماء شرّاح نهج البلاغة- ممن تأثروا بفرضية العقول العشرة ونظرية بطليموس بشأن ظهور العالم- قد سحبوا هذه الفرضيات على شرح نهج البلاغة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۴

فسعوا جاهدين لحمل الخطبة المذكورة عليها دونما أية ضرورة أو حاجة إلى ذلك؛ فهى لم تكن سوى فرضيات وقد ثبت بطلانها اليوم.

فقد أثبتت التحقيقات والمشاهدات العلمية وتجارب علماء الفلك عدم وجود فلك بالمعنى الذى ذهب إليه بطليموس، وأنّ الكواكب الثابتة والسيارة والتى يفوق عددها بكثير ممّا ظنه القدماء وأنّها تدور فى فضاء خال (وَ أنّ السيارات إنّما تدور حول الشمس لا حول الأرض والثوابت على المحاور الأخرى) وأنّ الأرض ليت مركزاً للعالم فحسب، بل هى سيارة صغيرة من سيارات المنظومة الشمسية وهذه الاخرى منظومة صغيرة من بين ملايين بل مليارات منظومات العالم العلوى. أمّا أنصار فرضية العقول العشرة ورغم تأثرها بفرضية بطليموس- التى سلم اليوم ببطلانها- إلّاأنّهم يستندون إلى قاعدّة من القواعد العقلية «والتى تصرح بان الواحد لا يصدر منه إلّاواحد» لإثبات صحة فرضيتهم ولا نرى هنا من ضرورة للاستغراق فى شرح هذه القاعدّة.

ولما كانت هذه القاعدّة تفتقر إلى الدليل من وجهة نظر أغلب العلماء، فانّ أسسها تعتبر جوفاء لا قيمة لها.[۱۴۰]

۴- ما المراد بالسموات السبع؟

لم يقتصر الحديث عن السموات السبع على نهج البلاغة- فى هذه الخطبة والخطبة ۲۱۱- فحسب بل سبقه القرآن الكريم للحديث عن هذا الموضوع ۱۴۱].

وهناك عدّة تفاسير أوردها العلماء القدماء بشأن السموات السبع، ولا نروح الخوض فيها

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۵

جميعاً؛ الا ان التفسير الوحيد الذى يبدو صحيحاً من بينها هو ذلك الذى قال بأنّ المراد بالسموات السبع هو المعنى الواقعى لهذه الكلمة؛ فالسماء هى مجموعة من الكواكب والنجوم فى العالم العلوى، والسبع هو العدد سبعة المعروف ولا يراد به الكثرة، غاية مافى الأمر أنّ الذى نفهمه من الآيات القرآنية هو أن ما نشاهده من كواكب وسيارات ثابتة ومتحركة كلها مرتبطة بالسماء الاولى. وبناءً على هذا فان وراء هذه السماء العظيمة ستة سموات عظيمة أخر لم يتسنى لحد الآن للعلم البشرى التوصل إلى معرفتها.

والآية السادسة من سورة الصافات تؤيد هذا المعنى: «إِنّا زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ»، كما ورد هذا المعنى فى الآية ۱۲ من سورة فصلت «وَزَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ»، وجاء فى الآية الخامسة من سورة الملك «وَلَقَدْ زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ». والطريف فى الأمر

أنّ المرحوم العلّامة المجلسي قد ذكر هذا التفسير- في بحار الانوار- على أنّه إحتمال اقتدح في ذهنه، أو استنتاجه من الآيات والروايات كما يعبر عن ذلك اليوم.[۱۴۲]

وهنا لابدّ من القول بأنّ الأجهزة العلمية لم تتمكن حتى اليوم من إماطة اللثام عن هذه العوالم الست، إلّاانّ الدليل لم يقم على نفيها علمياً، ولعل العلم يكشف أسرار هذا الموضوع مستقبلًا، بل أفادت كشوف العلماء الفلكيين أنّ هناك أشباحاً ترى من بعيد تفيد وجود عوالم اخرى، على سبيل أوردت بعض المجلات الفضائية نقلًا عن المراصد الجوية المعروفة «بالومار» قولها: لقد تمكن ناظور مرصد بالومار من كشف ملايين المجرات التي يبعد بعضها عنا ألف مليون سنة ضوئية. لكن هناك فضاء عظيم ومهيب مظلم بعد تلك المسافة البالغة ألف مليون سنة ضوئية، غير أنّه يتعذر رؤية مافيه من أشياء. ومما لاشك فيه أنّ ذلك الفضاء المهيب والمظلم يضم مئات الملايين من المجرات بحيث تكفلت جاذبيتها بحفظ البسيطة التي نعيش على وجهها. وما هذه الدنيا العظيمة التي تغص بمئات آلاف الملايين من المجرات إلّاذرة تافهة لا قيمة لها مقارنة بدنيا أعظم وأوسع ولسنا متأكدين لحد الآن من وجود دنيا اخرى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۶

عظيمة فيما وراء هذه الدنيا.[۱۴۳] ونخلص ممّا سبق إلى أنّ العوالم التي تمّ كشفها من قبل البشرية ورغم عظمتها وما تنطوى عليه من أسرار وأعاجيب ليست إلّاجزءاً ضئيلًا من عالم ضخم عملاق، ولعل المستقبل سيكشف النقاب عن العوالم الست الاخرى.

۵- كيفية علم الإمام عليه السلام بهذه الامور

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ عبارات الإمام عليه السلام بشأن ظهور العالم لم ترد بصيغة فرضية واحتمال أبداً، بل صورها عليه السلام وكأنّه يشهد ذلك الظهور، وهذا دليل على استناد علمه إلى خزانة علم الغيب الإلهى أو تعليمات النبى صلى الله عليه و آله- التي تستند إلى الوحى حتى تحدث ابن أبى الحديد بهذا الشأن فقال:

«إنّ أمير المؤمنين على عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام ۱۴۴]».

وكيف لا يكون الإمام عليه السلام كذلك وهو القائل:

«أنا بطرق السماء أعلم منّى بطرق الأرض».[۱۴۵]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۷

القسم الثامن: عالم الملائكة

اشارة

«ثُمَّ فَتَقَ ما بَيْنَ السَّمَواتِ الْعُلا- فَمَلأَهُنَّ أَطْواراً مِنْ مَلائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لا- يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لا- يَنْتَصِبُونَ، وَصافُّونَ لا- يَتَزايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لا- يَسْأَمُونَ، لا يَغْشاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلا سَهْوُ الْعُقُولِ وَلا فَتْرَةُ الْأَبْدانِ وَلا غَفْلَةُ النِّسْيانِ وَمِنْهُمْ أُمَناءُ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبادِهِ وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوابِ جِنانِهِ، وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدامُهُمْ، وَالْمارِقَةُ مِنَ السَّماءِ الْعُلْيا أَعْناقُهُمْ وَالْخارِجَةُ مِنَ الْأَقْطارِ أَرْكانُهُمْ، وَالْمُناسِبَةُ لِقَوائِمِ الْعَرْشِ أَكْتافُهُمْ ناكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصارُهُمْ مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَأَسْتارُ الْقُدْرَةِ، لا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ وَلا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفاتِ الْمَصْنُوعِينَ وَلا يَحُدُّونَهُ بِالْأَماكِنِ وَلا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظائِرِ».

الشرح والتفسير يواصل الإمام عليه السلام خطبته التى تطرق فيها إلى خلق السموات وكيفية ظهور العالم، فيتحدث عن خلق الموجودات السماوية وملائكة العالم العلوى فيشير بعبارات قصيرة بليغة إلى أصناف الملائكة وصفاتهم وخصائصهم وطبيعة أنشطتهم ومهامهم وعظم خلقتهم ومدى علو معرفتهم، فالواقع هو أنّ هذا القسم من الخطبة يختص بالتعريف بالملائكة. فاستهل كلامه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۸

قائلًا:

«ثم فتق مابين السموات العلا»[۱۴۶]

فالذى يستفاد من هذا التعبير أنّه كانت هناك فواصل بين السموات وقد التحمت فى البداية ثم ما لبثت أن انفصلت، وهذا بالضبط على الخلاف ممّا تضمنته نظرية بطليموس فى أن السموات كأغطية البصل متراكمة على بعضها دون وجود أية فجوة. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فملأهن أطواراً[۱۴۷] من ملائكته ۱۴۸]».

وقد ورد نظير هذه العبارة فى الخطبة رقم ۹۱ المعروفة بخطبة الأشباح حيث قال:

«وملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها»

كما ورد فى موضع آخر من هذه الخطبة قوله:

«وليس فى أطباق السماء موضع اهاب إلّاوعليه ملك ساجد أو ساع حافد».

ثم يتطرق عليه السلام إلى أصناف، أو بعبارة أدق أطوار الملائكة فيقسمهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أرباب العبادة، ثم يقسم هؤلاء إلى أقسام، فمنهم من هو ساجد أبداً لم يقم من سجوده ليركع «منهم سجود[۱۴۹] لا يركعون»، ومنهم من هو راكع أبداً لم ينتصب قط «وركوع لا ينتصبون» ومنهم الصافون فى الصلاة بين يدى خالقهم لا يتزايلون «وصافون ۱۵۰] لا يتزايلون». ذهب البعض إلى أنّ «صافون» هنا بمعنى الصف فى العبادة، بينما ذهب البعض الآخر إلى انّ معناها فتح أجنحتهم فى السماء بدليل الآية القرآنية القائلة: «أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافّاتٍ»[۱۵۱]. وهناك إحتمال آخر أن يكون المراد بها الوقوف فى صفوف منظمة والاستعداد لطاعة أوامر اللّه وامتثالها.

إلّا انّ الاحتمال الأول أكثر انسجاماً مع الجمل السابقة واللاحقة، والواقع أنّهم يمارسون الحالات الثلاث لعبادتنا فى القيام والركوع والسجود. فالتعبير بصافين إمّا أنّه إشارة للصفوف

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۹

المنظمة للملائكة، أو القيام المنظم لكل منها. وهذا عين ما ورد فى خطبته عليه السلام فى وصف المتقين لهمام

«أمّا الليل فصافون أقدامهم تالين لاجزاء القرآن»[۱۵۲]

. وأخيراً المسبحون الذين لا يملون التسبيح والتحميد له سبحانه

«ومسبحون لا يسأمون»

. فظاهر هذه الجملة يفيد أنّ هؤلاء طائفة اخرى غير الطوائف الثلاث القائمة والراكعة والساجدة (و ان ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المسبحين هم الطوائف المذكورة سابقاً، حيث يمكن الاستشهاد ببعض الروايات التى تؤيد ماذهبوا إليه. فقد روى أنّه سئل النبى صلى الله عليه و آله: كيف صلاة الملائكة؟ فأطرق رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال له:

«أنّ أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون سبحان ذى الملك والملكوت وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون سبحانه ذى العزة وأهل الجبروت وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون سبحان الحى الذى لا يموت»[۱۵۳].

لكن هل المراد بهذا السجود والركوع والقيام ذات أعمالنا فى السجود والركوع والقيام أم إشارة إلى درجات خضوع الملائكة

وعبادتهم حسب مراتبهم ومقاماتهم، المسألة محل بحث ونقاش. فاذا اعتبرنا الملائكة أجساماً لطيفة ولهم أيدى وأرجل ووجوه وجبهات فان المعنى الأول أنسب، وإن نفينا عنهم الأجسام، أو أقررنا بأن لهم جسم غير أنّه ليس على غرار أجسامنا فان المعنى الثانى هو الأنسب (وسنتحدث فى الأبحاث القادمة عن هذا الأمر).

على كل حال فانّ هذه المجموعة من الملائكة منهمكة فى عبادة اللَّه وتسبيحه وتقديسه وكأن مهمتهم مقتصرة على العبادة فقط. والواقع هو أنّ هذه آية بيّنة من آياته سبحانه وعظمة مقامه وعلو شأنه وعدم حاجته إلى عبادة العباد، وبعبارة اخرى فانّ المحتمل أنّ فلسفة خلقة هؤلاء الملائكة هو عدم اغترار العباد من الناس بعبادتهم وليعلموا على فرض المحال أنّه لو كان بحاجة إلى العبادة فانّ هناك الملائكة المنهمكين بالعبادة فلا ينبغى أن يتصور عباد اللَّه فى الأرض ان عبادتهم أو عدمها ليست لها أدنى تأثير على كبرياء اللَّه وعظمته، ولو كفروا جميعاً لما ضره ذلك ذرة «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ»[۱۵۴]. ثم أشار عليه السلام إلى صفات هؤلاء الملائكة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۰

فقال عليه السلام:

«لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان»

. على العكس من الناس الذين يشعرون تدريجياً بالفتور من جراء تكرار العبادة فيخالطهم النعاس فيصاب الجسم بالوهن والضعف ويعرض لهم السهو والنسيان.

إلّا أنّ الملائكة بعيدون كل البعد عن هذه الحالات والعوارض. فهم على درجة من العشق للعبادة والاستغراق فى المناجاة والتسبيح بحيث لا يعرض عليهم النوم والغفلة والفتور قط.

وبعبارة اخرى فان الفتور فى إداء الوظائف إنّما يستند إلى امور ليست لها من سبيل إلى الملائكة أبداً. فأحياناً تتمثل تلك الامور بالتعب وغفو العين وسهو العقول وضعف البدن وأحياناً اخرى بالغفلة والنسيان ولما كانت أى من هذه الامور ليست لها من سبيل إلى الملائكة، فانّهم لا يفترو فى عبادتهم قط.

ثم يعرض عليه السلام إلى القسم الثانى من الملائكة وهم السفراء بينه تعالى وبين المكلفين من البشر بتحمل الوحى الإلهى إلى الرسل «ومنهم امناء على وحيه والسنة إلى رسله ومختلفون بقضائه وأمره»

فهم فى الواقع الواسطة بين اللَّه والأنبياء. ونفهم من هذه العبارة أنّ السفارة الإلهى لا- تقتصر على جبرئيل عليه السلام، بل هو فى الحقيقة زعيم سفراء اللَّه، القرآن بدوره أشار إلى هذا الصنف من الملائكة: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ»[۱۵۵]، وقال فى آية اخرى: «قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذنِ اللَّهِ»[۱۵۶]، كما أشار أحياناً إلى الملائكة من حملة الوحى فقال: «يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»[۱۵۷].

كما أشارت بعض الروايات الإسلامية وسائر خطب نهج البلاغة إلى هذا المعنى أيضاً.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ المراد بالقضاء والأمر الإلهى الوارد فى العبارة التى نخوض فيها هو الأحكام والأوامر الدينية الشرعية، لا القضاء والأوامر التكوينية التى احتملها البعض

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۱

من شارحى نهج البلاغة؛ وذلك لعدم انسجام هذا الاحتمال والعبارات السابقة- التى طرحت مسألة امناء الوحى-، امّا مختلفون هنا فقد جاءت من مادة الاختلاف بمعنى الذهاب والاياب والتردد على الأماكن.

ثم أشار عليه السلام إلى القسم الثالث من الملائكة

«ومنهم الحفظة لعباده والسدنة[۱۵۸] لأبواب جنانه»

. «حفظـة» جمع حافظ بمعنى الحارس، ويمكن أن يكون لها هنا معنيان: أحدهما حفظهما للعباد بمراقبة أعمالهم واحصائها وتسـجيلها، كمـا أشارت إلى ذلك الآيـة الرابعـة من سورة الطارق القائلـة «وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ* كِراماً كاتِبِينَ» وضـرب آخر من هؤلاء الملائكة الذين يحفظون البشـر من المهالك والورطات والبلاء، ولولا ذلك لكان الإنسان مسـرحاً للفناء والزوال والاعطاب، وهذا ما صرّحت به الآيـة الحاديـة عشرة من سورة الرعد: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ».

ولكن يبـدو أنّ المعنى الأول أنسب بالالتفات إلى العبارات السابقة التى تحدثت عن الوحى والتكاليف الشـرعية، والعبارة اللاحقة التى أشارت إلى الجنّة وجزاء الأعمال، وإن لم يستبعد الجمع بين المعنيين عن مفهوم العبارة.

أمّا مفردة سدنـة فهى جمع سادن بمعنى البواب، وجنان على وزن كتاب واحدها جنة، والذى يسـتفاد من هذه العبارة إنّ للّه‌عدّة جنان، ذهب بعض شـرّاح نهج البلاغة إلى أنّها ثمانية كما وصـفها القرآن وهى «جنّة النعيم، جنّة الفردوس، جنةالخلد، جنّة المأوى جنّة عدن، دار السلام، دار القرار وجنّة عرضها السموات والأرض»[۱۵۹].

أمّـا فائـدة وجود الملائكـة الـذين يحفظون أعمـال العباد، فقـد قيل بأنّ الإنسان يشـعر بالمسؤوليـة أكثر لوجودهم ويكون أعظم مراقبة لنفسه وأحرص فى سلوكه وتعامله، وذلك لأنّ الهدف الأسمى هو تربية الإنسان وتهذيبه وإبعاده عن الرذيلة والانحراف.

وأمّا القسم الرابع من الملائكة فهم حملة العرش، الذين وصفهم عليه السلام بقوله «ومنهم الثابتة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۲

فى الأرضـين السـفلى أقـدامهم والمارقـة من السـماء العيـا أعنـاقهم والخارجـة من الأقطـار أركـانهم والمناسـبة لقوائم العرش أكتـافهم ناكسة[۱۶۰] دونه أبصارهم متلفعون ۱۶۱] تحته بأجنحتهم مضـروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة وأستار القدرة» ثم يستغرق عليه السـلام أكثر فى التعرض لصـفاتهم فيقول: «لا يتوهمون ربّهم بالتصوير ولا يجرون عليه صـفات المصـنوعين ولا يحـدونه بالاماكن ولا يشـيرون إليه بالنظائر»[۱۶۲]. أجل فقـدرتهم ليست قـدرة جسـمانية، بل يتمتعون بقـدرة روحانيـة خارقـة متعذرة على الإنسان، ومن هنا أوكلت لهم مهمّـة حمل العرش. والواقع أنّهم بلغوا أعظم مقامات التوحيـد بحيث أصـبحوا قـدوة فى التوحيـد لكافة عباد اللّه ولا سـيما أوليـاء اللّه البـارزين من النـاس. فهم لا يرون من مثيل وشبيه ونظير للّه قط، كما لا يرون من حـدود لـذاته وصـفاته سـبحانه، حتى أنّهم يرونه أعظم من الخيـال والقيـاس والظن والوهم؛ وذلـك لأـنّ كـل ما يتصوره الإنسان أو الملك إنّما هو مخلوق للّه‌واللّه أعظم من أن يكون مخلوقاً. أمّا المراد بالعرش وحملـة العرش وماهيـة وظائفهم والمفاهيم التى وردت فى هـذه العبارات، فهـذا ما سـنتناوله فى هـذه الأبحاث.

تأمّلات

۱- ماهية الملائكة!

هنالك عـدّة أبحاث تضـمنتها الآيات القرآنيـة بشأن الملائكـة وصـفاتهم وخصائصـهم وأفعالهم والمهام المختلفـة الموكلة إليهم. كما شحنت الروايات الإسـلامية بالأخبار التى تتحدث عن الملائكة ومقاماتهم وصـفاتهم وأعمالهم، غير انّه لم يرد البحث فى التحدث عن ماهيتهم، ومن هنا كثر الكلام بين العلماء والمتكلمين بهذا الشأن. فيرى علماء الكلام، بل أغلب علماء الإسـلام أنّ الملائكة موجودات ذات أجسام لطيفة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۳

كمـا وردت بعض العبـارات التى أشـارت إلى النور على أنّه المادة الأصـلية لخلقـة الملائكـة، فقـد وردت العبارة المعروفـة بشأنهم فى أغلب المصادر الإسلامية التى وصفتهم قائلة:

«الملك جسم نورى ...»

. أمّا المرحوم العلّامة المجلسى فقد قال:

«ترى الإمامية بل جميع المسلمين سوى طائفة قليلة من الفلاسفة أنّ الملائكة هم أجسام لطيفة نورانية ولها أن تأتى بأشكال مختلفة ... وانّ الأنبياء والأوصياء العصومين كانوا يرونهم»[۱۶۳]

. وبعبارة اخرى فانّ الملائكة أجسام نورية والجن أجسام نارية والانس أجسام كثيفة. امّا ما عليه جمع من الفلاسفة فهو أنّ الملائكة مجردون من الجسم والجسمانيات وأنّ لهم أوصاف لا يستوعبها الجسم. وقد نقل المرحوم «الشارح الخوئى» فى «منهاج البراعة» عدّة أقوال بهذا الخصوص بلغت ستة أقوال، إلّاأنّ أصحاب هذه الأقوال هم قلة قليلة جداً.

لاشك أنّ وجود الملائكة- ولا سيما بالالتفات إلى تلك الصفات والمقامات والأعمال التى ذكرها القرآن- لمن الامور الغيبية التى لا يمكن إثباتها وبتلك الخصائص والصفات إلّامن خلال الأدلة النقلية.

فالقرآن يصف خصائصهم على أنّهم:

۱- موجودات عاقلة ذات شعور.

۲- لا يعصون اللّه وهم بأمره يعملون.

۳- إنّ اللّه قد أوكل لهم عدّة وظائف ومهام. فمنهم حملة العرش، ومدبرات الأمر، والمأمورة بقبض الأرواح، حفظة أعمال البشر، حفظة الإنسان من المهالك والأخطار، المدد الإلهى لنصرة المؤمنين فى المعارك، عذاب الأقوام الظالمة والطاغية ومبلغى الوحى إلى الأنبياء.

۴- اختلاف مقامات الملائكة وتفاوتهم فى الدرجات.

۵- المداومة على تسبيح اللّه وتقديسه وتمجيده.

۶- تمثلهم أحياناً بهيئة البشر وما شاكل ذلك للأنبياء وبعض العباد الصالحين كمريم عليها السلام.

وما إلى ذلك من أوصاف يتعذر إحصائها فى هذا البحث. وبحث ماهية الملائكة فى أنّها

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۴

مجردة عن الجسم أو غير مجردة ليس من ورائه طائل، إلّاأنّ ظاهر الآيات والروايات- إذا لم نطرح لها توجيها وتفسيراً خاصاً- هو أنّ الملائكة ليس من قبيل المواد الكثيفة والعناصر الخشنة، مع ذلك فهم ليسوا مجردات مطلقة، لتضافر الروايات والآيات التى صرّحت بعروض الزمان والمكان والأوصاف الاخرى الملازمة للأجسام عليهم. وهذا ما تؤكده عبارات الإمام عليه السلام فى هذا القسم من خطبته وكذلك ما ورد فى خطبته المعروفة بالأشباح. ولكن على كل حال فانّ الإيمان بالملائكة على نحو الإجمال لمن الامور التى أكد عليها القرآن الكريم، فقد ورد فى الآية ۲۸۵ من سورة البقرة قوله تعالى:

«آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ».[۱۶۴]

الجدير بالذكر هنا هو أنّ بعض المغفلين وارضاءً لُاولئك الذين ينكرون عوالم الغيب فقد عمدوا إلى تفسير الملائكة بالقوى والطاقات التى تختزنها الطبيعة الإنسانية وسائر الموجودات والكائنات، والحال أنّ أدنى تأمل ونظرة إجمالية للآيات القرآنية تفيد رفض هذه الفكرة تماماً؛ كيف لا وقد ثبتت بعض الصفات للملائكة من قبيل العقل والشعور والإيمان والاخلاص والعصمة.

۲- أصناف الملائكة

الملائكة على أصناف وأقسام عديدة على ضوء ما أشارت الآيات والروايات، وقد وردت فى هذه الخطبة الأصناف الأربعة الرئيسية منهم «أرباب العبادة والسفراء وحفظة العباد كالكرام الكاتبين ومنهم سدنة الجنان وحملة العرش». ولكن وكما ذكرنا سابقاً فانّ الآيات

القرآنية قد أشارت إلى الأصناف الاخرى من الملائكة، ومنهم الموكلون بعذاب الامم الطاغية الظالمة، والموكلون بالامدادات الغيبية ونصرة المؤمنين ومدبرات الأمر وقبضة الأرواح، غير أنّه يمكن اختصار جميع هذه الطوائف فى مدبرات الأمر التى تتولى إدارة شؤون

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۵

العالم. فقد اقتضت السنة الإلهية وجرت بغية اظهار قدرته وعظمته وتحقق أهدافه وأغراضه أن تسند إدارة شؤون العالم إلى الملائكة المأتمرين بأوامر اللَّه والبعيدين كل البعد عن الوهن والضعف والفتور والسهو والنسيان والتباطؤ فى الطاعة ولكل صنف من أصناف الملائكة وظيفته المختصة به.

والحق أنّ الإنسان إذا تأمل أقسام وأصناف الملائكة وسعة وعظمة الوظائف الموكلة إليها يشعر بالتصاغر والحقارة ويتساءل من أكون فى خضم هذا العالم الواسع المليء بعمال اللَّه وجنوده الذين لا يفترون عن عبادته وطاعته وامتثال أوامره؟ واين تكون عبادتى وطاعتى من هذه العبادة والطاعة التى تؤديها الملائكة؟ وما قيمة قوتى وقدرتى مقارنة بقوة الملائكة وقدرتها؟ والخلاصة فانه يقف على عظمة هذا العالم والأعظم منه خالقه من جانب وحقارته ودنو موضعه من جانب آخر، وهذه إحدى حكم وفلسفة وجود الملائكة.

۳- العرش وحملته

لقد أشارت الآيات القرآنية عشرين مرة إلى العرش الإلهى، كما كثرت الأبحاث التى تضمنتها الروايات الإسلامية الواردة بهذا الشأن، وعلى ضوء بعض هذه الروايات فانّ عظمة العرش متعذرة على التصور البشرى، حتى قيل بهذا الخصوص: ما السموات والأرضين وما فيها مقابل العرش إلّاحلقة فى صحراء عظيمة.

كما صرّحت بعض الروايات بأنّ أعظم ملائكة اللَّه يعجزون عن بلوغ ساق العرش وانّ أسرعوا فى تحليقهم إلى يوم القيامة. كا جاء فى الخبر أنّ اللَّه خلق للعرش ألف لسان وضمنه صورة جميع مخلوقاته فى الصحارى والبحار.

كما روى أنّ اللَّه حين خلق العرش، أمر الملائكة بحمله، فما استطاعوا أن يحملوه، فخلق ملائكة، فعجزوا عن حمله، فحمله اللَّه بقدرته، ثم أمر سبحانه ثمان من الملائكة المأمورين بحمل العرش أن احملوه.

فقالوا: وهل يسعنا حمله وقد عجزت الملائكة. فأمروا بذكر اللَّه والقول

«لاحول ولا قوّة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۶

إلّا باللَّه العلى العظيم»

والصلوات على محمد وآله، فلما فعلوا سهل عليهم حمله.[۱۶۵]

وتشير كل هذه الكنايات إلى عظمة عرشه سبحانه، أمّا ماهية العرش، فهى من الامور التى كثر البحث فيها بين العلماء، ونرى ان الاستغراق فى شرح هذا الأمر إنّما يبعدنا عن الهدف الأصلى، ولذلك نكتفى بإشارة مختصرة إلى هذا الموضوع:

فقد كان للملوك والسلاطين عرشان، أحدهما منخفض يعتلونه فى الأيام الاعتيادية ويسيرون شؤون الحكم ودفة امور البلاد، وآخر مرتفع يرتقونه فى الأيام الخاصة والمرام المهمة والكبيرة. وقد اصطلحت الآداب العربية على الأول بالكرسى والثانى بالعرش، وقد درجت هذه الآداب على التعبير بالعرش كناية عن القدرة والسلطة وإن افتقر العرش للدعامات المرتفعة، كما هناك المعنى الكنائى الآخر الذى يشير إلى فقدان السلطة والذى جسدته العبارة المشهورة «ثل عرشه». وللَّه هذان العرشان فى الامرة والحكومة كونه سلطان عالم الوجود (وبالطبع لما كان اللَّه ليس بجسم ولا فى زمرة الجسمانيات فالمفهوم الكنائى هو المراد هنا من العرش والكرسى).

على كل حال يبرز هذا السؤال: ما كنه هذا العرش الإلهى؟ ومن التفاسير التى يمكن ايرادها بهذا الشأن هو أنّ عالم المادة والسموات والأرضين والمنظومات والمجرات كلها بمثابة الكرسى وعرشه المنخفض كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله:

«وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمواتِ وَالأرْضَ»

، والمراد بالعرش هو العالم الكامن وراء عالم المادة (المادة الكثيفة والغليظة)، التى لا تحيط بعالم المادة فحسب، بل ليس عالم المادة أمامه سوى مقدار تافه لا- أهميه له. امّا حملة العرش فمما لاشك فيه انهم ليسوا ملائكة غلاظ الهيكل وأقوياء الجسم والبنية بحيث يحملون على أكتافهم دعائم العرش الذى استوى عليه الرحمن؛ لأنّ للعرش- كما أشرنا سابقاً- معنى كنائى والقرائن العقلية التى تفيد تنزه اللَّه عن الجسم والجسمانية إنّما تؤيد صحة هذا المعنى، وعليه فحملة العرش ملائكة عظام ذوى مقامات رفيعة وليس لهم من شبيه أو نظير ولهم تدبير عالم ما وراء الطبيعة وتنفيذ أوامره سبحانه فى كل مكان، امّا التعبيرات

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۷

التى ساقها الإمام فى أوصافهم بقوله

«الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم»

فكل هذه‌تفيد مدى قدرتهم فى تدبير شؤون العالم. طبعاً يجب علينا أن نحمل الألفاظ أينما وردت على معانيها الحقيقية، إلّاأنّه يتعذر علينا ذلك الحمل ولا يبقى أمامنا سوى المعنى الكنائى كالذى أوردناه بشأن الآية القرآنية المباركة

«يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»

إذا كانت هناك القرائن العقلية المسلمة. نعم لقد نهض هؤلاء الملائكة بالقيام بهذه الامور بالاستناد إلى قوتهم وقدرتهم، بل بحول اللَّه وقوته، كما ينهمكون بالتسبيح والتقديس وعدم الفتور عن ذكر اللَّه، وهذا ما صورته الآية السابعة من سورة المؤمن التى أكدت إلى جانب ذلك على دعائهم واستغفارهم للمؤمنين

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا».

۴- عصمة الملائكة

يتمتع الملائكة بصفات جمّة وقد تكفلت عباراته المذكورة (الواردة بشأن الطائفة من الملائكة المشغولة بالعبادة) ببيان بعض هذه الصفات:

«لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان»

. كما أشار القرآن إلى تنزههم عن الذنوب والمعاصى

«بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ* لايَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»[۱۶۶]

، ووصف الموكلين بالعذاب منهم

«لا

يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ»[۱۶۷].

طبعاً يتصور البعض أنّه ليس هنالك من مفهوم لعصمة الملائكة من عدمها، إلّاأنّ هذا التصور لا يبدو صحيحاً؛ صحيح أنّ الملائكة لا تنطوى على دوافع الذنب والمعصية من قبيل الشهوة والغضب (أو أنّها ضعيفة جداً فيهم)، ولكن لا- ينبغى الغفلة عن أنّهم فاعلون ومختارون ولهم القدرة على ارتكاب المخالفة، بل إنّ الآيات القرآنية تصرح بمدى خشيتهم من

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۰۸

العقاب الإلهى

«وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»[۱۶۸]

، فالآيـة الشـريفة تكشف عن عصـمتهم وطهارتهم من المعاصـى فى ذات الوقت الـذى يسـعهم ارتكابها. ومن هنا تتضح مغازى بعض الروايات التى صـرّحت بتباطؤ بعض الملائكـة فى امتثال أوامر الحق وعقابهم على هـذا التباطؤ بصـفته يمثل ترك الاولى الذى يصدق على الأنبيـاء، ونعلم جميعـاً بأنّ ترك الاولى لا يعـدّ ذنباً قط، بل قـد يكون عملًا مسـتحباً، إلّاأنّه يعتبر ترك الاولى مقارنـة بعمل يفوقه، ونوكل الخوض فى تفاصيل هذا الموضوع إلى أبحاثه المختصة به.

۵- مقام معرفة حملة العرش

يفهم من العبارات الواردة بهـذا الشأن أنّ العامل الـذى جعل حملة العرش مؤهلين للقيام بهذه المسؤولية الخطيرة لا يقتصـر على قوتهم وقـدرتهم، بل يمتـد ذلك إلى سـعة وسـمو مسـتوى معرفتهم باللّه تبارك وتعالى. فقد بلغوا أعظم مقامات التوحيد ونفى كافة أشـكال الشـرك والشبيه والمثيل للحق تعالى، ومن هنا اسـتحقوا أهلية تحمل تلك المهمّة العظيمة؛ الأمر الذى يعتبر درساً لابدّ أن يتعلمه العباد وذوى المعرفة باللّه.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١٠٩

القسم التاسع: خلق آدم عليه السلام

اشارة

«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِها، وَعَذْبِها وَسَبَخِها، تُرْبَةً سَنَّها بِالْماءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاطَها بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ فَجَبَلَ مِنْها صُورَةً ذاتَ أَحْناءٍ وَوُصُولٍ، وَأَعْضاءٍ وَفُصُولٍ، أَجْمَدَها حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَها حَتَّى صَلْصَلَتْ لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ، فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذا أَذْهانٍ يُجِيلُها، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِها، وَجَوارِحَ يَخْتَدِمُها وَأَدَوات يُقَلِّبُها وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِها بَيْنَ الْحَقِّ وَالْباطِلِ وَالْأَذْواقِ وَالْمَشامِّ وَالْأَلْوانِ وَالْأَجْناسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الْأَلْوانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْأَشْباهِ الْمُؤْتَلِفَةِ وَالْأَضْدادِ الْمُتَعادِيَةِ، وَالْأَخْلاطِ الْمُتَبايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ».

الشـرح والتفسـير بعـد الإشارات البليغـة التى وردت فى الأقسام السابقـة من هذه الخطبة العميقة المضامين بشأن خلق العالم والسـموات والأرض تنـاولت خطبـة الإمـام عليه السـلام هنـا خلق العـالم والسـموات ثم عرجت هنا إلى سائر مخلوقات هـذا العالم ومن بينها خلق الإنسان ومراحله المختلفة والتى قسمها عليه السلام إلى خمس مراحل تكتنف تمام مسيرة حياته وهى:

١- خلقة آدم من ناحية الجسم والروح (يعنى فى مرحلتين).

٢- سجود الملائكة لآدم وتمرد ابليس.

٣- إسـكان آدم الجنّـة ثم بيـان ترك الاولى الـذى صـدر من آدم عليه السـلام ونـدمه وتـوبته وأخيراً قبـول تـوبته واخراجه من الجنّة والهبوط إلى الأرض.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١١٠

۴- لقد أصبح لآدم ذرية ثم تكاثرت هذه الذرية فكونت المجتمعات البشرية ثم بعث اللّه أنبيائه عليهم السلام بكتبه السماوية المقدسة من أجل هداية الناس وتنظيم شؤون المجتمعات البشرية والأخذ بأيديها إلى حيث السمو الروحى والرفعة والكمال.

۵- المجتمعـات البشـرية من جانبهـا خطت خطوات عريضـة نحو التكامـل حتى تـأهلت لتقبـل الـدين الخاتم حيث اصـطفى اللّه رسوله محمد صـلى الله عليه و آله فبعثه بالقرآن الكريم لهداية الإنسانية وانقاذها من خلال اطروحته التى تتضمن السعادة والفلاح، ثم تحدث

الإمام عليه السلام عن القرآن.

مراحل خلقة آدم عليه السلام من الناحية الجسمية والروحية

قال الإمام عليه السلام بشأن خلق جسم آدم عليه السلام:

«ثم جمع سبحانه من حزن ۱۶۹] الأرض وسهلها

وعذبها[۱۷۰] وسبخها[۱۷۱] تربة».

فالعبارة تشير إلى خلق الإنسان من التراب من جهة، كما تشير من جهة اخرى أن ذلك التراب مركب من جميع المواد المختلفة على وجه الأرض لتنطوى على مختلف الاستعدادات وتشمل التنوعات والتقلبات التى تحتاجها المجتمعات البشرية فى مختلف مجالات حياتها، ثم أشارت إلى مادة اخرى هى الماء والتى اختلطت بالتراب فقال عليه السلام بهذا الشأن

«سنها[۱۷۲] بالماء حتى خلصت ولاطها[۱۷۳] بالبلة حتى لزبت ۱۷۴]».

فالواقع أنّ دور الماء هو خلط تلك الأجزاء المختلفة مع بعضها وتخليصها من شوائبها وارساء الوشيجة والرابطة بين هذه الأجزاء. ثم أشار عليه السلام إلى مسألة تبلور خلقة الإنسان من ذلك التراب والطين فقال عليه السلام:

«فجبل منها صورة ذات أحناء[۱۷۵] ووصول وأعضاء

وفصول»

. فى الواقع «أحنا» جمع «حنو» إشارة إلى انحناءات البدن من قبيل انحناء الأضلاع

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۱

والفك العلوى والسفلى وراحة القدم بحيث يتكيف البدن للقيام بمختلف الأعمال والفعاليات، وذلك لتعذر قيامه بمثل هذه الأفعال التى يمارسها اليوم لو كان البدن على هيئة جسم هندسى مكعب أو ما شابه ذلك. أمّا العبارة

«وأعضاء وفصول»

فهى تشير إلى الأعضاء المختلفة التى ترتبط مع بعضها من خلال المفاصل؛ الأمر الذى أكسب البدن القدرة العملية على ممارسة مختلف الانشطة فلو كانت يد الإنسان على سبيل المثال مستوية ذات عضو واحد وعظم واحدلا تقوى على أداء الفعاليات التى تؤديها الآن، بينما نعلم أنّ البارئ سبحانه جعلها عدّة عظام وغضاريف وعدّة أعضاء متصلة مع بعضها البعض الآخر؛ الأمر الذى جعل كل اصبع بل كل سلامية من أصابعه واضافة لليد تتمتع بعملية خاصة وهذه بدورها تعدّ آية من آيات حكمته وعظمته سبحانه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحلة لاحقة فقال:

«اجمدها حتى استمسكت واصلدها[۱۷۶] حتى صلصلت ۱۷۷]»

وبذلك فقد أعد الإنسان إعداداً تاماً من الناحة البدنية بحيث يسير إلى الغاية المعينة المرسومة له

«لوقت معدود وأجل معلوم ۱۷۸]»

. فقد روى فى بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أن هذه الحالة دامت أربعين سنة، فكان جسد آدم ملقى فى موضع والملائكة تمر به وتقول لأىأمر خلقت؟[۱۷۹]

ولعل هذه المدّة الزمانية- كما صرّح بذلك بعض المحققين- كانت اختباراً للملائكة أو إرشاداً وتعليماً للناس بالتأنى فى الامور وعدم الاستعجال فيها. وهنا جاءت المرحلة الثانية؛ مرحلة نفخ الروح فى الجسد ليتحول إلى هذه الطبيعة الإنسانية التى زود فيها الإنسان بقوى العقل والإدراك التى تسوقه لممارسة الأعمال:

«ثم نفخ فيها من روحه فمثلت ۱۸۰] إنساناً ذا

أذهان يجيلها»[۱۸۱]

. العبارة

«ذا أذهان يجيلها»

إشارة إلى مختلف القوى العقلية والذهنية التى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۲

زود بها الإنسان ويوظف كلًا منها فى مجال من مجالات حياته بحيث يلائم بينها جميعاً فى مسيرته نحو الهدف المنشود (والقوى المذكورة عبارة عن قوة الإدراك وقوة الحفظ وقوة الخيال و ...). وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الذهن فى الأصل يعنى القوة، ثم استعمل بمعنى العقل والفهم والدراية وسائر القوى العقلانية، فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام قد عنى مختلف هذه القوى معتبراً كل واحدة منها نعمة وعناية من العنايات الإلهية ثم قال عليه السلام:

«وفكر يتصرف بها»

. قد يتصور أحياناً أنّ هذا التعبير من قبيل العطف التفسيرى والتعبير الآخر لمفهوم العبارة السابقة، غير أنّ الظاهر هو أنّ كل عبارة من العبارتين تشير إلى حقيقة:

فالعبارة

«ذا أذهان يجيلها»

إشارة إلى مراحل المعرفة والتصور والتصديق وفهم وإدراك الحقائق، وأمّا العبارة

«وفكر يتصرف بها»

فهى إشارة إلى الأفكار التى تخضع لمرحلة التطبيق ويتصرف الإنسان بواسطتها فى مختلف الأشياء (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الفكر فى الأصل يعنى الحركة الفكرية وتوظيف الذهن). على كل حال فقد جاءت مفردة «فكر» بصيغة الجمع (كالأذهان بصيغة الجمع) لتفيدان القوى العقلية والأفكار الإنسانية كثيرة للغاية ومتنوعة، وهذه نقطة مهمّة أكدها كبار الفلاسفة والمفكرين وعلماء النفس، وإليها تعزى الفوارق فى الاستعدادات الفكرية لافراد البشرية. فربما كان هناك الأفراد الأقوى فى قسم منها وأضعف فى القسم الآخر بينما هنالك العكس، فالمسألة تنطوى على أسرار ورموز عجيبة للغاية، وكلما غاص الإنسان فى كنهها تعرف أكثر على عظمة الحق خالق هذه القوى الذهنية والفكرية. ثم يتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى شيئين يسهمان فى ايصال الإنسان إلى هدفه المطلوب وهما الجوارح والأدوات التى زوده بها اللَّه سبحانه لتسه له تحقيق ما يصبو إليه

«وجوارح يختدمها[۱۸۲] وأدوات

يقلبها»

. فالواقع هو أنّه يجتاز أربع مراحل لبلوغ الهدف: تمثلت المرحلة الاولى بالمعرفة والإدراك والتصور والتصديق ومرحلة الفكر ومن ثم ائتمار الأعضاء والجوارح، وأخيراً الاستعانة بالأدوات المختلفة التى خلقها اللَّه فى هذا العالم حين لا تجدى الأعضاء والجوارح بمفردها نفعاً، كما أنّ كل مرحلة من هذه المراحل الأربع متنوعة تتفرع منها عدّة فروع. ولما

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۳

كان بلوغ الأهداف المرسومة يتطلب تشخيصاً وتمييزاً للحق من الباطل والصواب من عدمه وكافة المحسوسات المختلفة، فانّه يتحدث عن إحدى قوى النفس المهمّة والتى تعتبر فى الواقع المرحلة الخامسة، ألا وهى قوة التميز ولا يراد بها سوى المعرفة

«ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل»

. كما يتمكن بواسطة هذه القوة من تمييز المحسوسات من قبيل الأطعمة والأذواق و ...

«والأذواق والمشام والألوان والأجناس»[۱۸۳]

. والواقع ان قدرة التمييز والتشخيص والمعرفة لمن أهم قوى الإنسان العقلية التى تشمل الامور المعنوية كالحق والباطل كما تشمل الامور المادية المحسوسة كالألوان والمشام والأذواق. فهل قوّة التمييز هذه هى قوة مستقلة، أم داخلة فى مفهوم الذهن والفكر فى العبارة السابقة؟ يبدو من كلامه عليه السلام أنّها قوّة مستقلة، جدير بالذكر أنّ الحديث تطرق لأربعة أصناف من الامور المادية والمحسوسة وهى: الأذواق، المشام، الألوان والأجناس التى تشير هنا إلى مختلف أنواع الموجودات ۱۸۴]. من قبيل مختلف أنواع النباتات، الطيور والحيوانات وما إلى ذلك، امّا عدم الإشارة إلى المسموعات (الأصوات) والملموسات فلأن بيان الأقسام الثلاث كان على نحو المثال، فذهن كل مستمع سينتقل إلى بقية ذلك من خلال الأقسام الثلاث المذكورة. ثم ينتقل الإمام على عليه السلام ليشير إلى أهمّ خصائص الإنسان التى تشكل المصدر الرئيسى لأغلب ظواهر حياته فيقول:

«معجوناً[۱۸۵] بطينة الألوان المختلفة»

. ولعل هذه العبارة إشارة إلى اختلاف ألوان الناس وأعراقهم المتفاوتة، أو اختلاف لون أجزاء البدن حيث إنّ بعضها تام البياض (كبياض العين والعظام) والآخر تام السواد (كالشعر) وسائر الألوان التى يكسبه خلطها جمالًا خاصاً، كما يمكن أن يكون المراد بها معنى أوسع بحيث يشمل سائر الاستعدادات والغرائز المختلفة. ثم أضاف الإمام عليه السلام قائلًا:

«والأشباه المؤتلفة»

من قبيل الأوردة والشرايين والأعصاب

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۴

والعظام التى تشبه إلى حدّ بعيد بضها البعض الآخر، وفى‌نفس الوقت تقوم بعدة وظائف ومهام. وأخيراً قال عليه السلام:

«والاضداد المتعادية والأخلاط المتباينة من الحر والبرد والبلة والجمود»[۱۸۶]

. والعبارة إشارة إلى الطبائع الرباعية المعروفة فى الطب التقليدى، والأطباء المعاصرون وأن تنكروا لهذه الطبائع لفظاً، غير أنّهم اوردوها بتعابير اخرى من قبيل الاستعاضة عن الحرارة والبرودة بارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، كما يصطلحون بزيادة ماء الجسم وقلته بدلًا من البلة والجمود.

على كل حال فان عبارات الإمام عليه السلام آنفة الذكر إنّما تشير إلى قضية مهمّة فى أنّ اللّه سبحانه قد خلق جسم الإنسان (بل جسمه وروحه) مركباً من مواد مختلفة وكيفيات متنوعة واستعدادات وغرائز متباينة، وأنّ هذه الفوارق والتباينات شكلت أساس التفاوت فى أساليب التفكير لدى أفراد الجنس البشرى؛ الأمر الذى أدى فى خاتمة المطاف إلى تلبية مختلف حاجات الجماعات البشرية واشغال المناصب الاجتماعية على ضوء تلك الاستعدادات بحيث تنتظم الامور ويوضع كل شىء فى موضعه فيتسق النظام العام، ولا يسع المقام الخوض أكثر فى تفاصيل هذا الموضوع.

تأمّلات

۱- خلق آدم عليه السلام

نفهم من العبارات التى تضمنتها خطبة الإمام عليه السلام أنّ خلق آدم عليه السلام قد تمّ بصورة مستقلة متكاملة على هذه الصورة التى نحن عليها اليوم دون أن يطوى مراحل النشوء والارتقاء من الكائنات الحية المتسافلة؛ الأمر الذى أكده القرآن كراراً على لسان آياته الشريفة. طبعاً كلنا نعلم بأن «القرآن الكريم» وكذلك «نهج البلاغة» ليسا من قبيل كتب العلوم الطبيعية، بل هما كتابان تكفلا بهداية الإنسان وتهذيبه بالدرجة الأساس إلى جانب الإشارة حسب المقام وما

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۵

يتناسب وأبحاثه العقائدية والتربوية إلى بعض مسائل العلوم الطبيعية. امّا النظرية السائدة اليوم فى الأوساط العلمية بشأن خلق الإنسان فهى نظرية «تكامل الأنواع». ويرى أنصار هذه النظرية أنّ كافة أنواع الكائنات الحية لم تكن سابقاً كما هى عليه اليوم، بل كانت موجودات بسيطة أحادية الخلية ثم تكاملت بعد أن سبحت فى مياه المحيطات وغاصت فى أعماق البحار لتتكامل تدريجياً فتغيرت من نوع إلى آخر من خلال تغييرها لأشكالها فانتقلت من البحار إلى الصحارى. والإنسان هو أحد هذه الكائنات الذى قطع مسيرته التكاملية بعد أن اجتاز تلك المرحلة التى كان فيها قرداً بشكل إنسان، وعليه فقد انحدر الإنسان من تلك الكائنات المتسافلة. وبالطبع فان أنصار هذه الفرضية قد انقسموا إلى عدّة طوائف، فمنها اتباع «لاماركّ» و «داروين» و «الداروينية الحديثة» وطائفة «موتاسيون» (نظرية الطفرة) وما إلى ذلك من الطوائف التى تقدم كل منها أدلتها على صحة نظريتها بهذا الشأن.

ويقف مقابل هؤلاء، أتباع ثبوت الأنواع حيث يقولون بأنّ أنواع الكائنات الحية قد ظهر كل منها بصورة منفصلة منذ البداية بهذه الهيئة الحاضرة، كما أقاموا أدلتهم وبراهينهم التى تعرض بالنقد للأدلة التى اعتمدتها نظرية التطور والتكامل، ولا يسعنا الخوض فى تفاصيل هذه النظرية. ونكتفى هنا بالإشارة بصورة مقتضبة للمواضيع التالية:

۱- يستفاد من القرآن الكريم وكذلك خطب نهج البلاغة مسألة ثبوت الأنواع على الأقل بالنسبة للإنسان، بينما لم ترد مثل هذه التصريحات بشأن سائر أنواع الكائنات- رغم أنّ بعض أنصار فرضية التطور والتكامل التى تشمل الإنسان بشكل عام يصرون على توجيه الآيات القرآنية وعبارات خطب نهج البلاغة بحيث تنسجم ونظرية النشوء والارتقاء، حتى ذهبوا إلى أنّ هذه الآيات والخطب أدلة على مزاعمهم. إلّاأنّ المتتبع المحايد يذعن بأنّ هذه المزاعم تنطوى على تكلفات وحرج لا يمكن قبولها إلّامن خلاله.

۲- إنّ قضية التكامل والارتقاء أو ثبوت الأنواع ليست من قبيل القضايا التى يمكن إثباتها من خلال التجربة والأدلة الحسية والعقلية، وذلك لأنّ جذورها قد امتدت لملايين السنين السابقة، وعليه فان كل ما يورده أنصارها أو مخالفوها إنّما هى فرضيات وأدلتها ليست سوى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۶

أدلة ظنية، وبناءً على ماتقوم فانه يتعذر القول بنفى آيات خلقة الإنسان وعبارات نهج البلاغة وفقاً لأقوال هؤلاء.

وبعبارة اخرى: ان العلوم تجد سبيلها وتعتمد معاييرها فى مثل هذه الفرضيات دون أن تقدح فى التعاليم الدينية، ومن هنا كانت الفرضيات العلمية تشهد التغيير والتحول على الدوام، فلعل الغد يفرز كشف قرائن جديدة بحيث تحظى فرضية ثبوت الأنواع بأنصار أكثر.

على سبيل المثال فقد طالعتنا الصحافة فى هذه الأواخر بخبر يفيد العثور على جماجم بشرية تعود لما قبل مليونى سنة وهى لا تفرق كثيراً مع الإنسان المعاصر؛ الأمر الذى زعزع مرتكزات فرضية التكامل، وذلك لأنّ أصحاب هذه الفرضية يزعمون أنّ الإنسان الذى كان يعيش قبل مئات الآلاف من السنين لم يكن بهذه الصورة التى عليها الإنسان اليوم أبداً.

فالنتيجة التى يمكن أن نخلص إليها ممّا سبق أنّ هذه الفرضيات ليس لها من صمود واستقرار وغالباً ما تتزلزل أسسها ودعائمها بفعل الاكتشافات والاختراعات الحديثة، ولكن حيث ليس من سبيل سوى هذا فى العلوم الطبيعية بصفته دعامة يعتمد عليها حتى تأتى فرضية اخرى فتطرد سابقتها وتقتحم الميدان. والخلاصة فانّ التعامل مع الفرضيات يختلف عنه تماماً مع المسائل العلمية القطعية؛ فالمسائل العلمية القطعية من قبيل تركب الماء من ذرتين أوكسجين وذرة هيدروجين هى من امور الحس والتجربة والتى يمكن البرهنة عليها من خلال الأدلة القطعية، امّا الفرضيات فهى حدسيات تبرهن بسلسلة من القرائن الظنية، وهى تحظى بالقبول والتأييد مالم تقم القرائن العلمية المخالفة لها، دون أن يدعى أحد قطعيتها[۱۸۷].

۲- التركيب المزدوج للجسم والروح

يستفاد ممّا مرّ معنا فى هذه الخطبة المسنجمة والآيات القرآنية أنّ الإنسان خلق من عنصرين: العنصر المادى المركب من الماء والتراب (أبسط مواد العالم) والعنصر الآخر هو الروح الإلهية السامية، وهذا هو سر التضاد الباطنى للإنسان حيث تتنازعه الدوافع التى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۷

تسوقه إلى العالم المادى وتلك التى تدفعه إلى العالم الملائكى. فهو يتصف بالخلق والطبيعة الحيوانية من جانب ويتحلى بالطبيعة الملكوتية والروحانية من جانب آخر. ولهذا أيضاً فهو يتمتع بقوس صعودى ونزولى تكاملى غاية فى العظمة بحيث زود بالملكات والاستعدادات التى تبلغ به فى قوس الصعود درجة «أعلى عليين» بينما يهبط فى النزول والانحطاط إلى «أسفل السافلين» وليت هناك مثل هذه الميزة فى الكائنات سوى للإنسان ولا تمنح سوى للمطهرين من الأفراد فتكسبهم قيمة ومنزلة رفيعة، ولا غرو فقد تماسك وحفظ نفسه مقابل جميع عوامل الانحطاط وعناصر التسافل والانسياق نحو المادة والمادية وقد اجتاز كافة العقبات والمطبات. ولعل الملائكة عجزت عن إدراك ذلك الأمر قبل خلق آدم فظنت التكرار فى هذا الخلق دون حصول جديد، فحسبوا أنّ هذه الخلقة تحصيل حاصل من خلال تسبيحهم وتقديسهم. والمهم فى الأمر هو أنّ اللَّه سبحانه قد نسب الروح التى نفخها فى آدم إليه سبحانه فقال:

«وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى»[۱۸۸]

. ونعرف على نحو البداهة أن ليس للَّهمن جسم ولا- روح، وأنّه يهدف إلى بيان عظمة الأشياء التى يضيفها إلى نفسه من قبيل «بيت اللَّه» و «شهر اللَّه» فالهدف هو أن هذه الروح الآدمية تتمتع بآثار من صفات اللَّه كالعلم والقدرة والخلاقية والابداع. والواقع هو أنّ اللَّه قد نفخ فى آدم أشرف وأفضل روح، ولذلك نعت نفسه سبحانه بأحسن الخالقين فقال:

«ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ»[۱۸۹]

ويالها من مصيبة أليمة ومفجعة أن يحث الإنسان الخطى نحو السقوط بحيث يتحول إلى ما يجعله أسوأ من الانعام

«أُولئِك كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»[۱۹۰]

فى حين يمتلك مثل هذه الاستعدادات والقدرات والإمكانات التى تبلغ به الكمال والمقام الذى ينتظره ويؤهله لأن يتميز على كافة المخلوقات فيرتدى التاج العظيم الذى يكرمه على من سواه

«وَلَقَدْ كَرَّمْنا ...».

۳- الإنسان، اعجوبة عالم الكون

يعتبر الإنسان- فى‌الحقيقة- من أعجب ظواهر عالم الوجود، وقد تضمن كلام الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۸

إشارة إلى غيض من فيض أسرار الوجود: الاشتمال على الجوارح والأعضاء المتنوعة والقوى المختلفة والقدرات المتفاوتة، والتركيب من العناصر المتضادة والتشكل من عدّة عوامل عجنت بصورة بالغة التعقيد بحيث جمع فيه كل شىء، حتى أصبح فى الواقع نموذج مصغر لجميع عالم الوجود، وعالم صغير يضاهى العالم الكبير.

أتزعم أنّك جرم صغيروفيك انطوى العالم الأكبر

فهذه الميزة التى يتحلى بها الإنسان تجعلنا نتعرف بصورة أعمق على أهمية خلقه من جانب، كما تلفت انتباهنا إلى مدى عظمة خالقه من جانب آخر، فمراد الإمام عليه السلام من هذه الميزة الفريدة للإنسان إنّما يكمن فى‌الإشارة إلى عظمة الخالق وعظمة المخلوق.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۱۹

القسم العاشر: بداية انحراف ابليس

اشارة

«وَ اسْتَأْدَى اللَّه سُبْحانَهُ الْمَلائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِى الْإِذْعانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقالَ سُبْحانَهُ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصالِ فَأَعْطَاهُ اللَّه النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ وَاسْتِتْماماً لِلْبَلِيَّةِ وَإِنْجازاً لِلْعِدَةِ فَقالَ فَإِنَّك مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

الشرح والتفسير ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لقضية خلق آدم حتى تطرق إلى موضوع آخر ذا صلة وثيقة به مستخلصاً منه الدروس والعبر التى يمكن أن تحتذيها البشرية جمعاء فى مسيرتها إلى اللّه، فقال عليه السلام:

«واستأدى اللّه سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم فى الاذعان بالسجود له والخنوع ۱۹۱] لتكرمته فقال سبحان اسجدوا لآدم فسجدوا الّا إبليس»

فالذى تفيده العبارة أنّ اللّه قد أخذ عهد الملائكة مسبقاً بالسجود لآدم حين خلقه؛ الأمر الذى وردت الإشارات إليه فى القرآن الكريم ومنها الآية ۷۰ و ۷۱ من سورة ص: «إِذ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ* فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ».[۱۹۲] فقد كانت الملائكة تدرك أنّ الوفاء بذلك العهد إنّما يحصل حين خلق آدم وتكامله بهذه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۰

الصورة الإنسانية، ولذلك أمرهم اللّه سبحانه لما أتم خلقه بالسجود «اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ»[۱۹۳].

نفحات الولاية ؛ ج۱ ؛ ص ۱۲۰

ب بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ هذا الأمر قد يكون مستغرباً لدى الملائكة ويثير اندهاشهم ولعلهم يتساهلون فى امتثاله لولا تلك المقدمة بذلك العهد الذى أخذ عليهم، ولذلك أعدهم اللّه سبحانه لهذا الأمر مسبقاً ليعلم أنّ مثل هذه المقدمات ضرورية فى الأوامر المهمّة. ثم يتطرق عليه السلام إلى الدوافع التى وقفت وراء تمرد ابليس فقال عليه السلام: «اعترته الحمية[۱۹۴] وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقة النار واستوهن خلق الصلصال».

فالواقع أنّ العامل الأصلى لتمرده إنّما كان تلوثه الباطنى والذى عبر عنه بالشقوة إلى جانب الكبر والغرور والحمية والأنانية التى تفرزها طبيعة ذلك الدنس الباطنى والذى غلب على فكره وأعمى بصيرته ليصده عن رؤية الواقع فيغتر بخلقة النار ويراها أعظم شأناً من خلقة الطين والتراب؛ التراب الذى يعتبر مصدر جميع الخيرات والبركات والمنافع والفوائد، بالتالى حسب أن علمه ومعرفته إنّما تفوق حكمة اللّه- طبعاً لا يبدو هذا الحكم غريباً من الأفراد الذين يغرقون فى مثل هذا الحجب؛ فالإنسان الأنانى المضروب عليه بحجاب الغرور قد يرى القبة حبة والحبة قبة أحياناً، فعباقرة الفكر وجهابذة العلم إذا ما ابتلوا بالغرور والأنانية وحب الذات ربما يرتكبون أفضع الأخطاء والزلات. فالمراد بالشقاوة هنا تلك الموانع الباطنية والصفات الرذيلة التى كانت لدى الشيطان، وهى الموانع والصفات الاختيارية النابعة من أفعاله السابقة وهى ليست شقوة ذاتية وغير اختيارية؛ لأنّ الشقاوة تقابل السعادة. وتعنى السعادة توفير الإمكانات وتمهيد السبيل من أجل الحركة نحو الصلاح والشقاوة تعنى المطبات والصعوبات التى تعترض هذا السبيل؛ والمهم أنّ كل هذه الامور إنّما تنبع من ذات أفعال الإنسان وسائر الموجودات المختارة لا- أنّها تستند إلى العوامل الجبرية والقهرية. على كل حال فان ابليس قد

ارتكب هذه المعصية الكبرى والخطأ الجسيم ليسقط

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۱

بالمرة فيطرد من حظيرة القرب الإلهى حتى أصبح من ألعن خلق اللّه وأبعدهم عن رحمته بفعل تلك المعصية الخطيرة؛ غير أنّ هذه اللعنة والطرد من الرحمة لم تكن لتوقظه فتمادى فى غيه وغروره واستناداً لسيرة المغرورين والمتعصبين من ذوى الأنفة والحمية فقد باشر عملًا قبيحاً آخر تمثل بتوعده باغواء آدم وذريته، ثم سأل اللّه ويداقع اشباع غريزة غضبه وحسده النظرة إلى يوم القيامة ليرتكب معصية اخرى أفدح من سابقتها «قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»[۱۹۵]. فاستجاب اللّه له لثلاث؛ استحقاقاً للغضب، وإكمالًا لابتلاء العباد وتمحيصهم وأخيراً انجاز ما وعده به «فأعطاه اللّه النظرة استحقاقاً للسخطة واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة»، ولكن ليس على ضوء ما سأل، بل جعل لذلك أجلًا معيناً «فقال أنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم»[۱۹۶]. أمّا ما المراد بيوم الوقت المعلوم فهناك كلام واختلاف بين مفسرى القرآن ونهج البلاغة.

فذهب البعض إلى أنّ المراد بذلك انتهاء العالم وانقطاع مدّة التكليف (وعلى ضوء هذا المعنى فقد كانت الموافقة على بعض سؤال ابليس، لأنّه سأل النظرة إلى يوم القيامة بينما أجيب بالنظرة إلى ختام الدنيا). بينما ذهب البعض الآخر أنّ المراد بذلك زمان معيّن وهو انقطاع عمر ابليس؛ الأمر الذى لا يعلمه إلّااللّه؛ وإلّا لو أعلنه آنذاك لكان إغراءً لابليس بالتمرد وارتكاب المعاصى. وأخيراً فقد احتمل البعض أنّ المراد يوم القيامة؛ لأنّ الآية الخمسين من سورة الواقعة عبرت باليوم المعلوم عن يوم القيامة «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ* لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ». إلّاانّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأنّه وعلى ضوء هذا التفسير قد استجيب لجميع طلباته، فى حين يفيد ظاهر الآيات القرآنية أنّه لم يستجب إلّالبعض طلباته، أضف إلى ذلك فانّ الآية التى وردت فى البحث قالت «يوم الوقت المعلوم» بينما قالت الآية الواردة فى سورة الواقعة «يَوْمٍ مَعْلُومٍ» فالآيتان متفاوتتان، وعليه فالتفسير الصحيح هو التفسير الأول أو الثانى. من جانب آخر فقد جاء فى الحديث أنّ المراد بيوم الوقت المعلوم هو زمان ظهور إمام العصر والزمان المهدى (عج) والذى ينهى بدوره عمر ابليس ۱۹۷]. وبالطبع

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۲

فان هذا لن يؤدى إلى اجتثاث جذور الذنب والمعصية عن العالم بالمرة وتنتفى قضية الطاعة والامتحان الإلهى؛ لأنّ العامل الأصلى إنّما يكمن فى هوى النفس الذى يبقى سائداً فى الإنسان، بل حتى عامل انحراف الشيطان إنّما يعزى إلى هوى نفسه.[۱۹۸]

تأمّلات

۱- عظمة مقام الإنسان

إنّ الآيات القرآنية التى تناولت قضية سجود الملائكة للإنسان فى عدّة سور لتشكل أحد الأدلة المهمّة على أن الإنسان يمثل أفضل موجود فى عالم الخلقة وأشرف مخلوقات اللّه سبحانه ۱۹۹]، كما تشير هذه الآيات إلى سجود جميع الملائكة دون استثناء وخضوعها لآدم عليه السلام، وهذا بدوره دليل واضح على أفضليته عليه السلام حتى على الملائكة، ويبدو أنّ الهدف من هذه التأكيدات القرآنية المستمرة الفات انتباه الإنسان إلى عظم شخصيته الإلهية والمعنوية؛ الأمر الذى يلعب دوراً مهماً فى تربية النفس البشرية وتهذيبها وهدايتها.

۲- كيف كان السجود لآدم؟

هناك عدّة أبحاث لدى المفسرين بشأن كيفية السجود، وهل يجوز السجود لغير اللّه تعالى.

يرى البعض أنّ ذلك السجود لم يكن إلّاللّه‌تعالى، غير أنّه حصل أمام آدم بينما كان معلولًا لخلق هذا الكائن العجيب؛ فى حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ السجود كان لآدم، إلّاانّه لم يكن سجود العبادة المختص باللّه تبارك وتعالى، بل كان سجود خضوع واكرام واحترام. وجاء فى كتاب عيون الأخبار عن كتاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال:

«كان سجودهم للّه تعالى عبوديةً ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا فى صلبه»[۲۰۰]

. فالذى يستفاد من هذا الحديث أن

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۳

السجدة كانت تنطوى على بعدين؛ أحدهما عبادة اللّه والآخر تكريم آدم عليه السلام. وشبيه ماذكر سابقاً هو ماورد فى الآية ۱۰۰ من سورة يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً». فقد جاء فى الحديث الذى روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام بشأن الآية السابقة أنّه قال:

«أمّا سجود يعقوب وولده فانّه لم يكن ليوسف وإنّما كان من يعقوب وولده طاعة للّه‌وتحية ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم».

۳- أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان

هنالك عدّة أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان وسوابقه وتمرده على الأوامر الإلهية ومن ثم امهاله حتى الزمان المعلوم، وبالطبع فانّ المقام لا يسع الاسهاب والوقوف على التفاصيل، ولذلك سنقتصر على التعرض بأطناب لهذه المواضيع.

سؤال:

مهل ابليس من الملائكة؟ إنّ كان الجواب بالإيجاب فلم ارتكب تلك المعصية الخطيرة مع أن الملائكة معصومون، وإن كان الجواب بالنفى فى أنّه لم يكن من الملائكة، فما علة ذكره فى عداد الملائكة على لسان الآيات القرآنية؟

جواب:

يقيناً لم يكن من الملائكة، فقد صرّح القرآن قائلًا: «كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»[۲۰۱]، إلّا أنّه قد اصطف مع الملائكة أثر جهوده فى الطاعة والعبودية ولذلك عد واحد منهم، ولهذا السبب أيضاً وردت بعض خطب نهج البلاغة بما فيها الخطبة رقم ۱۹۲ المسماة بالقاصعة التى عبرت بالملك عن ابليس؛ وناهيك عن ذلك فقد صرّح نفسه قائلًا: «خَلَقْتَنِى مِنْ نارٍ»[۲۰۲] ونعلم جميعاً بأنّ الجن قد خلقوا من النار لا الملائكة، وهذا ما صرّحت به الآية الخامسة عشرة من سورة الرحمن «وَخَلَقَ الْجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ»، وقد أشارت بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى أيضاً[۲۰۳]. أضف إلى ذلك فقد أشار القرآن إلى ذرية ابليس وولده

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۴

«أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ»[۲۰۴] بينما ليست للملائكة من ذرية.

سؤال:

كيف جاز على اللّه سبحانه أن يسلط ابليس على الناس حتى أنّهم سلبوا قدرة الدفاع؟ أضف إلى ذلك فما الضرورة فى الاغواء والضلال؟ ومنحه تلك المدّة الطويلة من العمر والمهلة ليسعى سعيه فى اغواء بنى آدم وتوظيف كافة إمكاناته فى سبيل تحقيق هذا الهدف؟

جواب:

أولًا: أنّ الشيطان قد خلق طاهراً عفيفاً وقد جدّ لسنوات من أجل صون قدسيته وطهّره حتى قادته طاعته وعبوديته لأن يكون فى مصاف الملائكة، إلّاأنّه فى نهاية الأمر وأثر حبّه لذاته وكبره وغروره واستغلاله لحريته قد سلك سبيل الضلال فسقط إلى الحضيض.

ثانياً: من الضرورى الالتفات إلى نقطة مهمّة وهى أنّ نفوذ الوساوس الشيطانية إلى باطن الإنسان ليس نفوذاً عبثياً وإجبارياً؛ بل إنّ الإنسان هو الذى يفسح المجال بإرادته واختياره لهذا النفوذ سيجعله يستحوذ على نفسه، حيث يمنح الشيطان تأشيرة الدخول إلى حدود قلبه وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: «إِنَّ عِبادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِن الغاوِينَ»[۲۰۵].

وقال فى موضع آخر «إِنَّما سُلْطانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ».[۲۰۶]

ثالثاً: لقد تضمنت عبارات الإمام على عليه السلام رداً لطيفاً رائعاً على السؤال المذكور حيث قال:

«فأعطاه اللَّه النظرة استحقاقاً لسخطه واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة»

؛ أى أنّ اللَّه قد أجزل عقابه بمنحه هذه المهلة من جانب؛ لأنّ الآيات القرآنية تفيد التحذير الإلهى الشديد والمتكرر لُاولئك الذين يسيرون باتجاه الذنوب والمعاصى؛ فاذا فاد التحذير وأثّر بهم ورجعوا عن غيّهم كان ذلك خيراً وإلّا أمهلهم ووكلهم إلى أنفسهم ليكون عذابهم أشد: «وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أ نَّما نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۵

«مُهِينٌ»[۲۰۷]، ومن جانب آخر فانّ وجود الشيطان يشكل اختباراً وامتحاناً ضخماً للناس، وبعبارة اخرى فانّه يمثل جسر الأفراد المؤمنين نحو السمو والتكامل- لأنّ وجود هذا العدو المقتدر بالنسبة للمؤمنين الذين يرومون انتهاج سبيل الحق ليس فقط لايستبطن أى ضرر فحسب، بل سيكون وسيلة للتسامى والتكامل؛ حيث إننا نعلم بأنّ السمو والتكامل إنّما يتمّ عادة فى ظل التضاد وإذا ما رأى الإنسان نفسه أمام عدو شرس فانه سيوظف كافة طاقاته وقدراته ونبوغاته، وبعبارة اخرى فان وجود هذا العدو القوى سيؤدى بالإنسان إلى ممارسة مزيد من الحركة والجهد؛ الأمر الذى يقوده بالتالى إلى السمو والرقى والتكامل. بينما لايزيد هذا الأمر مرضى القلوب والآثمين المنحرفين سوى انحرافاً وبؤساً وشقاءً، والحق أنّهم استحقوا ذلك بما كسبت أيديهم: «لِيَجْعَلَ ما يُلْقِى الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» فالهدف هو أنّ اللَّه يختبر اولئك القاسية قلوبهم وفيها مرض بالقاءات الشيطان، «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ»[۲۰۸].

سؤال:

كيف كانت شبهة ابليس بالتعزز بخلقة النار فيرى نفسه أفضل من آدم وبالتالى يعترض على حكمة اللَّه؟

ونقول فى الجواب أنّ حب الذات والغرور تعدّ من أضخم الحجب التى تحول دون رؤية الحقائق والواقعيات؛ وهذا ما حصل لابليس، فلم يدفعه ذلك إلى التمرد والعصيان فحسب، بل اعترض على الحكمة الإلهية ليجعل ذلك حجة احتج بها فى شرف عنصره على عنصر آدم، فكيف أسجد لهذا الموجود الذى خلقته من طين بينما خلقتنى من النار، فقد ذهبت به الظنون إلى أفضلية النار على التراب، بينما لا يخفى أنّ التراب ينبوع مختلف الخيرات والبركات ومصدر جميع المواد الحيوية والمهمة والوسيلة الرئيسية لمواصلة الحياة، كما يضم فى طياته أنواع المعادن والفلزات والجواهر وليس النار كذلك. صحيح أنّ النار والحرارة تعتبر من سائر الوسائل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۶

الحياتية الضرورية، لكن ممّا لاشك فيه أن الدور الأساسى إنّما تقوم به المواد الموجودة فى التراب والنار ليست سوى وسيلة من أجل تكامل هذه المواد.

لقد صرّحت بعض الروايات ۲۰۹] أنّ وحدة من أكاذيب ابليس هو زعمه بأنّ النار أفضل من التراب، والحال إننا نعلم بأنّ النار عادة ما تتولد من احتكاك الأشجار أو من المواد الدهنية وانّ أصل الأشجار هو التراب، كما أنّ الدهون النباتية والحيوانية إنّما تستخرج بواسطة من الأرض. أضف إلى ذلك أنّ امتياز آدم لم يقتصر على أفضلية عنصر التراب؛ بل تكرمته إنّما استندت إلى عامل أصلى تمثل بتلك الروح العظيمة التى نفخت فيه «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى». ولنفترض جدلًا أنّ المادة الاولى فى خلقة الشيطان كانت أفضل من مثيلتها لدى آدم، فان هذا الأمر هو الآخر لا يقوى دليلًا على تمرده وعدم امتثاله لأمر اللَّه بالسجود لآدم بفضل تلك الروح الإلهية

التى حلت فيه واكسبته ذلك المقام العظيم، ولعل الشيطان كان يعلم بكل هذه الامور إلّاأنّ الكبر والغرور والعجب وحب الذات أعمى بصره وبصيرته عن الاذعان للحق.

۴- تبريرات جوفاء

لقد حاول بعض الفلاسفة- كما نقل ذلك ابن ميثم البحرانى رحمه الله فى شرحه لنهج البلاغة- أن يبرروا ويأولوا كافة تفاصيل قصة خلق آدم وسجود الملائكة وتمرد ابليس وعدم امتثاله لأمر اللّه ليحملوها على مفاهيم لا تنسجم وظواهر تلك القصة. ومن ذلك أنّهم قالوا أنّ المراد بالملائكة الذين امروا بالسجود لآدم هو القوى البدنية المأمورة بالخضوع أمام النفس العاقلة (الروح البشرية)، والمراد بابليس القوة الوهمية وجنود ابليس هى القوى النابعة من الوهم وهوى النفس والتى تتعارض والقوى العقلية، امّا المقصود بالجنّة التى طرد منها آدم فانّما يراد بها المعارف الحقة وأنوار الكبرياء الإلهية! وما إلى ذلك من التأويلات الجوفاء التى لا أساس لها من الصحة.[۲۱۰]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۷

هذا نموذج من التفسير بالرأى الذى ورد النهى عنه فى الأحاديث والروايات على أنّه سبب السقوط والابتعاد عن اللّه سبحانه.

فكلنا نعلم بأنّ التفسير بالرأى وتحميل الأحكام الذهنية المسبقة على الآيات والروايات يعدّ على الدوام من أهم الوسائل التى تمسك بها المحرفون والمتصنعون المتلبسون بالدين الذين لا يألون جهداً فى توجيه الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بما ينسجم ورغباتهم ونزعاتهم، كما نعلم بأنّ الباب لو فتح أمام تفسير الآيات والروايات بالرأى فسوف لن يبقى هناك من أصول مسلمة ومبانى وأحكام قانونية ثابتة وسيصبح كل شىء تابع للأفكار الخاطئة والأهواء الضالة لهذا وذاك، بل سيهجر الكتاب والسنة ويصبحان طينة بيد المنحرفين والمغرضين يصنعون منها ما شاءت أهوائهم ورغباتهم. ومن هنا طالعنا إصرار كبار محققى الإسلام والباحثين بضرورة استخدام القواعد المسلمة لباب الألفاظ فى فهم معانى الكتاب والسنة. فالألفاظ لابدّ أن تحمل على معانيها الحقيقية، اللّهم إلّاأن تكون هناك قرائن جلية تدعو لحملها على المعانى المجازية؛ ويراد بها القرائن المقبولة لدى العرف والعقلاء الذين يستندون إليها فى إقامة أدلتهم وبراهينهم ۲۱۱].

وأخيراً فان ذكر قصة ابليس وعاقبته كما وردت فى عبارات الإمام على عليه السلام لتنطوى على الدروس والعبر التى ينبغى أن تحتذيها البشرية فى مسيرتها فينظروا بعين الاعتبار إلى نتائج الكبر والغرور وحب الذات والحمية والعاقبة المشؤومة لابليس وطرده من ماقم القرب لتلاحقه اللعنات والشقاء الأبدى، فتكون على حذر من سلوك هذا الطريق الخطير. ونختتم الحديث بما أورده العالم الجليل المرحوم مغنية فى شرحه لنهج البلاغة فقد خلص إلى عدّة دروس من قصة ابليس منها:

۱- من حسد صاحب فضيلة أو عادى إنساناً لرياسته وعمله فانّه على دين ابليس ومن رهطه يوم القيامة.

۲- ليس هنالك من سبيل لمعرفة الدين والأخلاق الحميدة سوى سبيل واحد وهو

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۸

التسليم للحق والثبات عليه مهما كانت النتيجة.

۳- أنّ أغلب الناس يصرون على الباطل لا على أساس عدم معرفتهم به، بل بسبب العناد واللجاجة ضد مخالفيهم، وهذا الاصرار الخاطئ إنّما ينتهى بهم إلى أسوأ العواقب. فلو تاب ابليس ورجع عن خطأه لقبل اللّه توبته وقد كان له مثل هذا الاستعداد، إلّاأنّه كان يعتقد بشرط وهو ألا يأمره اللّه بالسجود لآدم ثانية بينما اشترط اللّه قبول توبته بذلك الشرط.[۲۱۲]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۹

القسم الحادى عشر: عاقبة آدم

اشارة

«ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحانَهُ آدَمَ داراً أَرْغَدَ فِيها عَيْشَهُ وَآمَنَ فِيها مَحَلَّتَهُ وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَداوَتَهُ فاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفاسَةً عَلَيْهِ بِدارِ الْمُقامِ وَمُرافَقَةِ الْأَبْرارِ فَباعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًا وَبِالْاغْتِرارِ نَدَماً ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ وَأَهْبَطَهُ إِلَى دارِ الْبَلِيَّةِ وَتَناسُلِ الذُّرِّيَّةِ».

الشرح والتفسير كان الحديث فى مامضى عن اختبار الملائكة وتمرد ابليس، بينما تطرق الحديث هنا عن امتحان آدم والنتيجة التى تمخض عنها هذا الامتحان. ونقول هنا ما تفيده بعض الآيات القرآنية هو أنّ آدم قد خلق للعيش فى الأرض. فقد قال سبحانه وتعالى فى الآية ۳۰ من سورة البقرة «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»، كما أشارت الآية ۳۶ من نفس السورة إلى المراد بالأرض موضع غير الجنّة (الجنّة بأى معنى كانت): «وَقُلنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ».

على كل حال كان لابدّ لآدم من دورة تدريبية وامتحان إلهى يمده بتجربة ليتعرف على المفاهيم من قبيل الأمر والنهى والتكليف والطاعة والمعصية والندم والتوبة ويتعرف عن قرب على عدوه، ومن هنا أسكنه اللَّه الجنّة وأباح له التمتع بنعيمها ولم يحظر عليه سوى الاقتراب من تلك الشجرة، إلّاأنّ وساوس الشيطان ومكره وحيله قد أثرت فى آدم ودفعته إلى ترك الاولى، فتناول من تلك الشجرة ويهبط من الجنّة؛ الأمر الذى أدى بالتالى إلى يقظته وعودته

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳۰

إلى اللَّه فى التوبة والإنابة، فاحفه اللَّه بلطفه وعنايته فالهمه كيفية التوبة، فتاب اللَّه عليه ووعده بالعودة إلى الجنّة، فكان من الآثار الوضعية لفعل آدم أن يحرم من تلك النعم والدعة فى الجنّة لأن يهبط إلى الأرض فيمارس الحياة المليئة بالتعب والمشقة. ما مر معنا لحد الآن نظرة كلية عامة إلى خطبة الإمام بشأن قصة آدم عليه السلام، ونخوض الآن فى شرح تفاصيل الخطبة.

قال عليه السلام:

«ثم اسكن سبحانه آدم داراً أرغد[۲۱۳] فيها عيشه»

ثم قال عليه السلام:

«وآمن فيها محلته»

فى إشارة واضحة إلى أنّ البارئ سبحانه قد أفاض عليه ركنين رئيسيين من الأركان المهمّة للحياة وهما: الأمن ووفور النعمة. والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد استوحى ذلك المعنى من الآية ۳۵ من سورة البقرة: «وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما». كما حذر اللَّه سبحانه آدم عليه السلام من عدوه ابليس

«وحذره ابليس عداوته»

وبذلك فقد أرشده إلى سبيل السعادة والفلاح، كما أتم عليه الحجة بابانته لطرق البؤس والشقاء. وهذا ما صرحت به الآية ۱۷ من سورة طه إذ قالت: «فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى واتماماً للحجة أكثر فقد دله على الشجرة التى لا ينبغى إليه الاقتراب منها، بينما أباح له التمتع بثمار كافة أشجار الجنّة، غير أنّ آدم عليه السلام وبسبب عدم امتلاكه التجربة الكافية بشأن مكائد الشيطان وحبائله قد آل أمره إلى الوقوع فى مصيدة الشيطان، فأشار الإمام عليه السلام إلى هذه المسألة بقوله:

«فاغتره عدوه نفاسة[۲۱۴] عليه بدار المقام ومرافقة

الأبرار»

. ويبدو أن هذه هى الوظيفة التى نهض بها الشيطان، حيث يسعى للاقتراب من الصالحين والخيرين ليوسوس لهم ويسلبهم النعم والإلهية ويقودهم نحو البؤس والشقاء. ثم أشار عليه السلام إلى الأمر الرئيسى فى خطأ آدم عليه السلام:

«فباع اليقين بشكه»

كما ضعف تجاه الوساوس

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳۱

الشيطانية التى كان ينبغى له مجابهتها بعزمه الراسخ «والعزيمة بوهنه»[۲۱۵] والعبارة إشارة للآية ۱۱۵ من سورة طه «وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً».[۲۱۶] نعم صحيح أنّ الشيطان أقسم لهما بأنّه لا يريد بهما إلّاالنصيحة والخير «وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ»[۲۱۷] ولكن هل كان على آدم أن يثق بوعد اللَّه القائم على اليقين أم يصغى إلى كلام الشيطان القائم على أساس الشك والوهم؟ لاشك إن نسيان هذه الحقيقة وإغفالها جعلت آدم يقدم على تلك المعاملة التى لا تنطوى سوى على الغبن والضرر فضعف عزيمته فى طاعة اللَّه.

وهذا بحد ذاته درس وعبرة لكافة بنى آدم فى ضرورة الاستناد إلى عوامل اليقين فى جميع معاملاتهم واجتناب طرق الشك والغموض والابهام فى مراعاة الاحتياط وعدم اقتحام أى ميدان دون دراسة ظروفه وملابساته، وذلك لأنّ الشياطين درجت على تنميق سبلها المفسدة بما يكسبها ظاهراً أنيقا فى حين لا تستبطن سوى النار المستعرة التى أوقدها لبنى آدم. أجل هنالك الدروس والعبر القيمة فى قصة آدم والتى لابدّ للبشرية من وضعها نصب عينها فى حياتها حتى قيام الساعة.

ثم تطرق عليه السلام إلى النتائج المريرة التى أفرزتها تلك المعاملة فقال: «واستبدل بالجذل»[۲۱۸] وجلا[۲۱۹] وبالاغترار ندما».

وهنا نسأل ماهى الحوادث التى دفعت بآدم للالتفات إلى خطأه وبالتالى حسرته وندمه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳۲

على ما فرط منه؟ يبدو أنّ الإمام عليه السلام أجمل عبارته بهذا الشأن، بينما تصدى القرآن الكريم فى أكثر من آية لشرح التفاصيل: فحين استسلم آدم لوساوس الشيطان وأكل من تلك الشجرة المحظورة، لم تمر عليه مدّة حتى نزع عنه لباس الجنّة وبدت سوأته التى قدر لها أن تخفى، فشعر بالخجل من الملائكة وطفق يخصف عليها من ورق الجنّة، ثم أعقب ذلك ما تلقاه من أمر بالهبوط من الجنّة على أنّه يمثل جزاء كل من يولى ظهره لأوامر اللَّه ويستجيب لوساوس الشيطان. إلّاأنّ آدم عليه السلام وخلافاً لسلوك الشيطان وتجربته الخاطئة، لم يصر على خطأه ويركب رأسه ويواصل معصيته، فأقبل فوراً على اللَّه سائله بلطفه ورحمته أن يتوب عليه، فعلمه كيفية التوبة ثم وعده العودة ثانية إلى الجنّة «ثم بسط اللَّه سبحانه له فى توبته ولقاه كلمة رحمته ووعده المرد إلى جنّته»[۲۲۰].

على كل حال فان قبول التوبة لم يبق على آدم فى الجنّة، حيث لم يعدّ هنالك من مبرر لمواصلة حياته فيها، فقد تعلم ما كان ينبغى عليه تعلمه وجرب ما كان لابدّ له من تجربته.

ولذلك أهبطه اللَّه إلى دار الدنيا- الامتحان-؛ دار التزاوج والذرية «وأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية». فالذى يستشف بوضوح من هذه العبارة أنّ الدنيا دار البلاء والامتحان، وما مر فى الجنّة كان تحضيراً لخوض هذا الامتحان، كما لا مكان فى الجنّة للتزاوج والتناسل، بل ذلك من مختصات الدنيا.

تأمّلات

۱- ما كانت جنّة آدم؟

ذهب جماعة إلى أنّ الجنّة التى سكنها آدم عليه السلام كانت جنّة الخلد التى وعد اللَّه عباده

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳۳

الصالحين، بينما ذهبت جماعة اخرى إلى أنّها كانت جنّة دنيوية غنية بحدائقها وبساتينها، وقد استدلت هذه الجماعة ببعض الأدلة فيما اعتقدت:

بادئ ذى بدء أنّ الجنّة الموعودة بعد القيامة هى جنّة خالدة لا يعتريها الخروج. وقد يقال فاذا كانت كذلك فأنى لابليس الذى يفيض كفراً وعناداً وطغياناً أن يدخل هذه الروضة المقدسة؟

فاذا قيل بأن إبليس لم يوسوس لآدم فى الجنّة قط، بل وسوس له وقد وقف خارجاً على بابها، قلنا بانّ ذلك لا ينسجم وما صرّحت به الآية ۳۶ من سورة البقرة التى قالت: «وَقُلنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» التى تشمل آدم وحواء وابليس معاً.

أضف إلى ذلك فقد صرّحت الروايات الكثيرة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ تلك الجنّة كانت من جنان الدنيا.

فقد جاء عن حسين بن بشار أنّه قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن جنّة آدم، فقال عليه السلام:

«جنّة من جنان الدنيا يطلع عليها الشمس والقمر ولو كانت من جنان الخلد ما خرج منها أبداً»[۲۲۱].

كما أورد المرحوم الكلينى فى الكافى عن حسين بن ميسر مثل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام ۲۲۲]- امّا الإشكال الوحيد الذى يرد على هذا الكلام فانما يكمن فى العبارة السابقة من هذه الخطبة

«نفاسة عليه بدار المقام»

، لكن من الممكن أن يكون معنى هذه العبارة هو أنّه لو لم يرتكب هذه المخالفة لبقى مدّة طويلة فى هذه الجنّة ثم يهبط إلى الأرض، إلّاأنّه تركه للاولى أسرع فى إخراجه من الجنّة وهبوطه إلى الأرض، أو أن يقال أنّه أراد سبحانه أن يحرم آدم من جنّة الخلد، فلو كان آدم مطيعاً لأوامر اللّه لالتمس طريقه إلى تلك الجنّة.

۲- هل اقترف آدم معصية؟

يرى أولئك الذين يجوزون ارتكاب الذنب على الأنبياء- ولاسيما فى مثل هذه الامور- أنّ

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳۴

آدم عليه السلام قد ارتكب المعصية، بينما لا يرى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام الذين يؤمنون بعصمة الأنبياء عن كل خطأ وزلل- سواء فى باب العقائد وتبليغ الأحكام الشرعية أو فى باب الأعمال والأفعال اليومية قبل النبوّة وبعدها-[۲۲۳].

أنّ آدم عليه السلام قد قارف أية معصية وأن نهى اللّه لآدم عليه السلام عن تلك الشجرة المحظورة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان فعلًا مكروهاً، ولما كان مقام الأنبياء ولاسيما آدم عليه السلام الذى سجدت له الملائكة لمن العلو والرفعة بحيث لا يتوقع ارتكابهم للمكروه، فان فعلوا ذلك آخذهم الحق سبحانه فحسنات الأبرار سيئات المقربين- وبعبارة اخرى الذنوب على قسمين: ذنوب مطلقة وذنوب نسبية. الذنوب المطلقة هى الذنوب لدى الجميع من قبيل الكذب والسرقة وشرب الخمر، أمّا الذنوب النسبية فهى ليست بذنوب لدى عامة الناس، بل قد تكون مستحبة لدى البعض من الناس، بينما نفس هذه الأعمال المستحبة والمباحة قد يطلق عليها اسم المعصية فيما إذا صدرت من المقربين الذين يستبعد أن يقوموا بمثل هذه الأفعال، إلّاأنّها ليست من قبيل الذنوب المطلقة بل الذنوب النسبية والمراد بها هنا «ترك الاولى». كما ذهبت جماعة إلى النهى عن تلك الشجرة المحظورة على آدم عليه السلام كان نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً، على غرار نصائح الطبيب وإرشاداته حين ينصح مريضه بعدم تناول الطعام الفلانى خشية من استفحال المرض وازدياد مدته. فمن البديهى أنّ مخالفة نصائح الطبيب لا تعتبر اهانة له ولا تعدّ معصية لأوامره، بل ستجر تلك المخالفة على صاحبها مزيداً من الألم والمعاناة.

وهذا هو المعنى الذى أشارت إليه بعض الآيات القرآنية بشأن قصة آدم عليه السلام: «فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا

يُخْرِجَنَّكَما مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقى [۲۲۴].

وقد ورد فى بعض الروايات أنّ آدم عليه السلام لم يتناول من تلك الشجرة المحظورة، بل أكل من شجرة مشابهة لها، ولذلك قال لهما الشيطان فى ضمن وساوسه إنّ اللّه لم ينهكما عن هذه الشجرة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۳۵

«وَقالَ ما نَهيكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ»[۲۲۵]. أضف إلى ذلك فهناك نقطة مهمّة لابدّ من الالتفات لها والتى تكمن فى قسم الشيطان لاثبات حسن نيته فى دعوتهما للأكل من تلك الشجرة «وَقاسَمَهُما إِنِّى لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ»[۲۲۶] ولم يكن آدم وحواء آنذاك سمعا من يقسم كاذباً؛ الأمر الذى جعلهما يصغيان إلى وساوس الشيطان.

بالطبع لو تأملا قليلًا لاكتشفا كذب الشيطان؛ لأنّ اللّه سبحانه قد حذرهما سابقاً مكائده وأنّه عدو لهما، ومن الواضح أنّه لايمكن الوثوق بكلام العدو وإن عززه بالإيمان المغلظة.

۳- ماحقيقة الشجرة المحظورة؟

اختلفت أقوال المفسرين بشأن الشجرة المحظورة على آدم عليه السلام هل كانت شجرة خارجية اعتيادية أم مسألة معنوية أخلاقية، وإن كانت مادية أو معنوية فما هى هذه الشجرة؟

نتناول هذه القضية بالبحث المقتضب رغم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يتعرض فى خطبته لتلك الشجرة حيث وردت الإشارات فيها إلى قصة إبليس ووساوسه لآدم عليه السلام.

فقد أشار القرآن الكريم فى ستة مواضع إلى تلك الشجرة المحظورة دون الخوض فى ماهية تلك الشجرة، غير أنّ الأخبار والروايات الإسلامية وكلمات المفسرين قد تضمنت أبحاثاً مسهبة بهذا الخصوص- حيث فسرها البعض بشجرة الحنطة (وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الشجرة تطلق على النبات أيضاً، وهذا ما صرّحت به الآية ۱۴۶ من سورة يونس: «وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ». فى حين فسرها البعض الآخر بشجرة العنب والنخيل والكافور أيضاً.[۲۲۷]

وأخيراً فسرها البعض معنوياً على أنّ تلك الشجرة كانت علم آل محمد صلى الله عليه و آله وقيل بل العلم بصورة مطلقة كما قيل كانت الحسد. وقد ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حين سئل عن علة اختلاف الروايات بهذا الشأن أنّه قال:

«كلّه صحيح، لأنّ اشجار الجنان ليست من

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۳۶

قبيل أشجار الدنيا. فشجرة الجنّة تحمل أنواع الثمار. ولما كرم اللّه آدم عليه السلام واسجد له الملائكة واسكنه الجنّة حدث نفسه: هل خلق اللّه خلقاً أكرم منّى؟ فأراه اللّه مقام محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله فتمنى أن يبلغ مقامهم»[۲۲۸]. جدير بالذكر أنّ التوراة صرّحت بأنّ الشجرة المحظورة كانت شجرة العلم والمعرفة (معرفة الحسن من القبيح) وشجرة الحياة الخالدة وقد نهى اللّه آدم وحواء من التناول من تلك الشجرة فيحصلا على المعرفة ويصبحا خالدين كاللّه.[۲۲۹]

وتكفى هذه العبارة لوحدها فى إثبات تحريف التوراة الفعلية عن التوراة الحقيقية، حيث تثبت أنّها من وضع الأفراد والجهال الذين يرون العلم والمعرفة مثلبة على آدم وأنّه استحق الطرد من الجنّة بسبب هذا الذنب. وكأن الجنّة لا تسع ذوى العلم والمعرفة، وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ بعض الروايات التى ذهبت إلى أنّ الشجرة المحظورة كانت شجرة العلم والمعرفة إنّما هى روايات موضوعة أخذت عن التوراة المحرفة.

۴- الكلمات التى تاب اللّه بها على آدم عليه السلام.

لقد تحدث الإمام عليه السلام فى الخطبة عن تلقى آدم عليه السلام لكلمة الرحمة من اللّه سبحانه دون الدخول فى تفاصيل هذه الكلمة. القرآن من جانبه أيضاً أشار من بعيد إلى هذه المسألة دون الحديث عن ماهيتها وكنهها. إلّاأنّ الذى يفهم من هذه التعابير أن تلك الكلمات كانت تتضمن مسائل مهمة، فقد صرّح البعض بأنّ المراد بالكلمات هو الاعتراف بالخطأ، وهذا ما أشارت إليه الآية ۲۳ من سورة الأعراف: «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ». كما استدل البعض الآخر على هذا الاعتراف بالتقصير وطلب المغفرة بالعبارة: «لا إله إلّاأنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى أنّك خير الغافرين»[۲۳۰] وقد ورد مثل هذا المعنى فى بعض الروايات عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام.[۲۳۱]

بينما صرّحت أغلب الروايات بأنّ تلك الكلمات كانت أسماء محمد وعلى وفاطمة والحسن

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳۷

والحسين عليهم السلام. فقد جاء فى كتاب الخصال أن ابن عباس قال: سألت النبى صلى الله عليه و آله عن الكلمات التى تلقاها آدم من ربّه فقال صلى الله عليه و آله:

«سأله بحق محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين إلّاتبت عليه فتاب اللّه عليه إنّه هو التواب الرحيم»[۲۳۲].

جدير ذكره أنّ هذا المعنى مع فارق طفيف قد ورد فى «الدر المنثور» التفسير الروائى المشهور لدى العامة.[۲۳۳] كما جاء فى رواية اخرى عن تفسير الإمام الحسن العسكرى عليه السلام أنّ آدم عليه السلام حين ارتكب الخطيئة وطلب المغفرة من اللّه، سأله أن يقبل توبته بعد أن اعترف بذنبه.

فقال له الحق سبحانه ألم أعلمك أن تدعونى بمحمد وآل محمد لكل شدة نزلت بك؟ فقال آدم عليه السلام: اللّهم بلى. فقال اللّه: ادعنى بهؤلاء محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لأقبل عذرك وأعطيك ما تريد.[۲۳۴]

وفى حديث آخر عن عائشة عن النبى صلى الله عليه و آله أنّ الكلمات التى تلقاها آدم عليه السلام هى: «اللّهم إنّك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنبى اللّهم انّى أسألك ايماناً يباشر قلبى ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنّه لا يصيبنى إلّاما كتبت لى وارضنى بما قسمت لى»[۲۳۵]

ونرى هنا أن ليس هناك من تضارب فى هذه الروايات، فلعل آدم عليه السلام قد تضرع بهذا الدعاء إلى جانب توسله بالنبى وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وأخيراً فقد فسرها البعض بالحالة المعنوية لآدم عليه السلام ومدى انشداده للّهسبحانه؛ الأمر الذى رافق توسله بالنبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

وبالطبع فليس هنالك من منافاة بين عدم علم آدم عليه السلام بهذه الكلمات قبل التعليم الإلهى مع علمه بالأسماء، لأنّ الاحتمال القوى هو أنّ العلم بالأسماء يعنى العلم والالمام بأسرار الخليقة وهذا غير المقولة الاخرى التى تتناول سبل تزكية النفس وتهذيبها وتدارك التقصير والسير إلى اللّه تبارك وتعالى.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳۹

القسم الثانى عشر: بعثة الأنبياء وعظم مسؤوليتهم

اشارة

«وَ اصْطَفى سُبْحانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِياءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسالَةِ أَمانَتَهُمْ لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ

وَاتَّخَذُوا الْأَنْدادَ مَعَهُ وَاجْتالَتْهُمُ الشَّياطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبادَتِهِ فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آياتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَمِهادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ وَمَعايِشَ تُحْيِيهِمْ وَآجالٍ تُفْنِيهِمْ وَأَوْصابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْداثٍ تَتابَعُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُخْلِ اللَّهُ سُبْحانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قائِمَةٍ. رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ وَلا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَوْ غابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ. عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الْآباءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْناءُ».

الشرح والتفسير لقد تحدث الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من خطبته عن قضية بعث الأنبياء. وهى المرحلة التى أعقبت مرحلة خلق آدم وممارسة للحياة على الأرض، وقد تطرق الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء إلى علة بعث الأنبياء وارسال الرسل، ثم أشار إلى ماهية مضمون دعوات الأنبياء ورسالاتهم، إلى جانب استعراض الخطوط الرئيسية لتعاليمهم وإرشاداتهم، وأخيراً خصائص الأنبياء وصمودهم أمام الصعاب والمشاكل والأطار العام الذى كان يحكم علاقاتهم فيما بينهم وكيفية

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۰

إرتباط بعضهم مع البعض الآخر. فقد استهل كلامه عليه السلام بهذا الشأن قائلًا:

«واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحى ميثاقهم ۲۳۶] وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم».

وعلى هذا الأساس فانّ الأنبياء قد عاهدوا اللَّه منذ بداية الوحى برعايته وايصاله إلى الناس على أنّه أمانة وعهد فى أعناقهم.

نعم لقد تقبل الأنبياء عليهم السلام هذه المسؤولية العظيمة فجدّوا واجتهدوا فى حملها وايصالها إلى الناس كأمانة ووديعة الهية. أمّا الحديث بشأن بعض الامور من قبيل: كيف اختار اللَّه هذه الصفوة من الأنبياء، وما حقيقة الوحى، وكيف يوحى للبعض بينما لا يوحى للبعض الآخر منهم، فنوكله إلى موضعه ۲۳۷].

والواقع هو أنّ العبارة المذكورة إشارة للآية: «وَ إِذ أَخَذنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً»[۲۳۸].

ثم أشار عليه السلام إلى السبب الرئيسى لبعثة الأنبياء فقال:

«لما بدل أكثر خلقه عهد اللَّه إليهم فجهلوا حقّه واتخذوا الأنداد[۲۳۹] معه واجتالتهم ۲۴۰] الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته».

فالواقع لقد كانت إنعدام معرفة هؤلاء باللَّه سبحانه سبباً لأنّ يهووا فى أودية الشرك الرهيبة ومن ثم تتلقفهم الشياطين فتصدهم عن طاعة اللَّه وعبادته. أمّا بشأن المراد بهذه العدّة وماهية العهد الإلهى، فقد أشار أغلب المفسرين وشرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد به ميثاق عالم الذر، ويمكن اعتبار ذلك إشارة إلى الفطرة[۲۴۱] التى تطرق لها الإمام عليه السلام فى عباراته اللاحقة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۱

وبعبارة اخرى فان اللَّه قد خلق الإنسان على هذه الفطرة الطاهرة التى تجعله يتعرف على حقيقة التوحيد فى باطنه ويتطلع إلى الخير وينبذ الشر. ولو بقيت هذه الفطرة السليمة على حالها لحفت العنايات الإلهية الإنسانية جمعاء ولهدتها إلى السمو والكمال ولسهل لهم الأنبياء السبل إلى ذلك الكمال ولقل حجم المسؤولية التى نهض بعبئها هؤلاء العظام، غير أن الانحراف عن الفطرة سواء على مستوى المعارف التوحيدية لينتهى بالنزوع نحو الشرك والوثنية وعلى المستوى العملى ليقود الاستسلام إلى الأهواء والشياطين، قد أدى إلى مواترة بعث اللَّه للأنبياء وتحملهم لتلك المسؤوليات الخطيرة بغية إعادة البشرية إلى فطرتها الأصلية، وهذا ما تطرق له الإمام عليه السلام فى العبارات اللاحقة من الخطبة والتى أشار فيها إلى عظم مسؤوليات الأنبياء وما اتصفوا به من خصال عملية ومكارم أخلاقية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى فلسفة بعثة الأنبياء فقال:

«فبعث فيهم رسله وواتر[۲۴۲] إليهم أنبيائه ليستادوهم ميثاق

فطرته ويذكروهم منسى نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة أهداف رئيسية تقف وراء بعث الأنبياء. أولها:

طلب أداء ميثاق الفطرة فقد ذكرنا أن اللّه سبحانه قد أودع المعارف التوحيدية فطرة الإنسان التى تقوده بصورة طبيعية- مالم تدنس وتلوث وتتعرف على الانحراف ودون نشأة صاحبها وولادته على الشرك بفعل انحداره من والدين مشركين- إلى عبادة الواحد الأحد وسوف يتطلع إلى الصالحات ويعشق الحق والعدل فى ظل هذه الفطرة السليمة الموحدة، فقد جاء الأنبياء ليعيدوا الأفراد المنحرفين إلى هذه الفطرة التوحيدية المودعة لديهم.

الهدف الثانى: لتذكير الناس بنعم اللّه التى اعترتها الغفلة والنسيان، فالإنسان ينطوى على نعم مادية ومعنوية جمة ولو استغلها كما ينبغى فانّه سيشيد صروح سعادته وفلاحه فى حين سيفقد مثل هذه السعاة إذا ما نساها وتجاهل استعمالها واستغلالها. ومثله كمثل الفلاح

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۲

الذى لا يستفيد من المياه لسقى أشجار حديقته ولا يقطف ثمار أشجاره حين الحصاد. فاذا ما جاء أحدهم وذكره بهذه النعم المنسية فانه يكون قد أسدى له أعظم خدمة، وهذا ما ينهض به الأنبياء.

الهدف الثالث: اتمام الحجة على الناس من خلال الأدلة العقلية- إلى جانب المسائل الفطرية- وإرشادهم إلى الكمال فى ظل التعاليم السماوية والأوامر والأحكام الشرعية.

الهدف الرابع: «يثيروا لهم دفائن العقول» ليكشفوا للناس كنوز العلوم والمعارف الكامنة فى عقولهم، فقد أودع اللّه هذه العقول كنوزاً عظيمة قيمة لو ظهرت واستغلت لشهدت العلوم والمعارف نهضة عظيمة وجبارة، غير أن هذه الكنوز اختفت واستترت اثر هذه الغفلة والتعاليم الفاسدة والذنوب والمعاصى والتلوث الأخلاقى، ومن هنا فان إحدى وظائف الأنبياء تكمن فى ازالة هذه الحجب واثارة تلك الكنوز المفعمة بالعلوم والمعارف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الهدف الخامس فى استعراض الآيات الإلهية للناس فى عالم الخلقة فقال عليه السلام:

«ويروهم آيات المقدرة»

ثم يشير عليه السلام إلى هذه الآيات فيقول:

«من سقف فوقهم مرفوع ومهاد تحتهم موضوع ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم وأوصاب ۲۴۳] تهرمهم ۲۴۴] وأحداث تتابع عليهم».

والواقع هى أنّ هذه الامور تمثل سلسلة من أسرار الخلقة فى السماء والأرض وعوامل الحياة وأسباب الفناء والألم والعناء والتى تذكر كل واحدة منها الإنسان باللّه سبحانه وتعالى إضافة إلى الحوادث والوقائع التى تدعو الإنسان إلى اليقظة والاعتبار، وعليه فان الأنبياء يحملون إلى الناس تعاليم سامية ومفاهيم نبيلة من شأن كل منها رفع المستوى العلمى والمعرفى لدى الإنسان أو ايقاظه من غفلته وجعله يتحلى بالفطنة والذكاء. ثم قال عليه السلام:

«ولم يخل اللّه سبحانه خلقه من نبى مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة»

. فالعبارة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۳

تشير إلى أربعة مواضيع لا يعدم الوجود بعضها طرفة عين أبدا؛ الأمر الذى يتمّ الحجة على الناس.

۱- وجود الأنبياء- سواء من كان له كتاب سماوى أم لم يكن- الذى يتضمن هداية البشرية وانتشالها من غفلتها واتمام الحجة عليها.

۲- الكتب السماوية المتداولة بين الأمم رغم وفاة الأنبياء الذين أتوا بها.

۳- الأوصياء وأئمة العصمة والذين عبر عنهم الإمام عليه السلام بقوله «حجة لازمة». وهناك من احتمل أنّ المراد بالحجة اللازمة دليل العقل، لكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً لأنّه لا يكفى فى هداية الناس، ولا مانع من الجمع بينهما فى هذه العبارة.

۴- سنة الأنبياء والأوصياء والأئمة والتى عبر عنها بالمحجة القائمة، حيث عنوا المحجة بالطريق الواضح والمستقيم- سواء الظاهرى أو

الباطنى- الذى يوصل الإنسان إلى هدفه المنشود[۲۴۵] وبهذا فان الحق سبحانه قد أتم حجته على كافة الامم والمجتمعات البشرية فى جميع الأعصار والأمصار وأمدهم بأسباب الهداية، ثم تطرق عليه السلام لخصائص هؤلاء الأنبياء فقال:

«رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم»

. أجل كانوا مثلًا فى الرجولة والأقدام والشجاعة بحيث كان أحدهم يصمد بوجه الآلاف من خصوم الدعوة فيلقى بالنار فتشمله عناية اللّه ورحمته ليخرج منها سالماً مرفوع الرأس، ويحطم الآخر الاصنام ثم يحتج بالأدلة القاطعة التى تفند عقائدهم الباطلة وتثبت صحة دعواه. كما كان البعض يحاصر من قبل جموع الكفر والشرك بيد عزلاء وقد شهر خصومهم سيوفهم فلم يضعفوا ويهنوا ووقفوا بكل صمود وشموخ. والجدير بالذكر فى خصائص الأنبياء التأكيد هنا على صمودهم وشهامتهم. ثم يواصل عليه السلام حديثه عن الأنبياء وكيفية ارتباط بعضهم بالبعض الآخر ووحدة رسالتهم وهدفهم فقال:

«من سابق سمى له من بعده أو غابر[۲۴۶] عرفه من قبله»

. فقد حدد عليه السلام فى هذه العبارة اسلوب من أساليب التعرف على الأنبياء فى أن يقوم نبى ببشارة قومه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۴

بالنبى الذى يأتى من بعده وبهذا يعرف النبى من خلال البشارة به.[۲۴۷]

ثم يشير عليه السلام إلى ثبوت هذه السنة قائلًا:

«على ذلك نسلت ۲۴۸] القرون ومضت الدهور

وسلفت الآباء وخلقت الأبناء».

تأمّلات

۱- الأنبياء بمثابة المزارعين

ما تفيده عبارة أمير المؤمنين عليه السلام أنّ القدرة الإلهية المطلقة قد أودعت الذات الإنسانية قابلية كافة أسباب الخير والصلاح والفلاح، وقد نشرت كافة البذور والرياحين العطرة ساحة قلب الإنسانية الخصبة. والأنبياء من جانبهم يقومون برى هذه البذور لتنبت أشجاراً محملة بالثمار والفاكهة فيستثيروا هذه الكنوز الكامنة فى النفس البشرية «ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسى نعمته ... ويثيروا لهم دفائن العقول» واستناداً لهذا فان الأنبياء لا يمنحون الإنسان شيئاً خارجاً عن وجوده، بل ينمون ما لديه ويظهروا له مكنونه، حتى ذهب البعض إلى أنّ التعاليم والمفاهيم التى تلقى على الإنسان إنّما تمثل تذكيراً له، فالعلوم والمعارف قد اودعت النفس البشرية وما وظيفة المعلمين- سواء الأنبياء أو امتداداتهم- سوى إثارة هذه المعارف من خلال تعاليمهم، وكأنّ هذه المعارف مصادر مياه جوفية تشق طريقها إلى سطح الأرض بعد الحفر والتنقيب ولعل التعبير بالتذكير الذى ورد على لسان الآيات القرآنية

«لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» و «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ»

شاهداً على صحة المعنى الذى أوردناه. والواقع أن هذا البحث متشعب وشامل لا يسعنا استيعابه فى هذه العجالة.

۲- حوادث الاعتبار واليقظة

لقد تضمنت العبارة المذكورة إشارة إلى حقيقة وهى أنّ الأنبياء وإلى جانب تعليمهم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۵

الناس المعارف الإلهية الحقة وبيان آيات القدرة وعظمة خالق الوجود، فانهم يلفتون انتباه الناس إلى الحوادث ذات الدروس والعبر

من قبيل حلول الأجل وانتهاء العمر وآجال النعم المادية واستعراض المحن والخطوب والوقائع الشديدة. فالعبارات الواردة فى الخطبة إشارة اخرى لفلسفة الأحداث الخطيرة التى تنطوى عليها الحياة البشرية، بحيث لولا هذه الأحداث لغطت البشرية فى سبات عميق وحجاب من الغفلة يتعذر معه صحوتها وافاقتها من سيادتها.[۲۴۹]

۳- دور الدين فى الحياة

الدرس الآخر الذى تعرضت له الخطبة هو دور الدين فى حياة الإنسان ولولا الأنبياء لتاهت البشرية فى غياهب الشرك والوثنية وعبادة الأصنام ولاستحوذت عليها الشياطين وحالت دون عبوديتها ومعرفتها باللّه، وذلك لأنّ العقل بمفرده لا يسعه الأخذ بيد الإنسان إلى السعادة بعد تجاوز موانع الطريق ومعوقاته.

صحيح أنّ العقل نور خالد إلّاأنّ شعاعه باهت خافت مالم يستند إلى ضياء الوحى الذى يخترق المكان ولا يقف عند حدود فيهديه فى اجتياز ظلمات الطريق. ومن هنا تتضح جسامة الخطأ الذى أصاب البراهمة الذين تنكروا لبعثة الأنبياء وارسال الرسل. ولو كان العقل يدرك كافة أسرار الإنسان الباطنية والظاهرية ويحيط بالعلاقة التى تحكم الماضى والحاضر والمستقبل ولا يخطئ فى تشخيصه للأحداث لأمكن القول بالاكتفاء بإدراكه وفهمه لكافة وقائع الحياة فى هذا العالم والعالم الآخر، غير أنّ محدودية هذا الفهم والإدراكوضآلة المعاليم مقارنة بالمجاهيل (وهى المعاليم التى تتسم بالسعة والشمولية) لا تجعل من الصواب الاستناد إليها بمفردها.

طبعاً لا ننكر أنّ العقل هو حجة اللّه؛ الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة، بل تواترت الروايات التى صرّحت بأنّه «الرسول الباطنى» حيث ورد فى الحديث المروى عن الإمام

الكاظم عليه السلام أنّه قال:

«إنّ للّهعلى الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأمّا الباطنة فالعقول»[۲۵۰]

. مع ذلك فرسالة هذا الرسول الباطن محدودة، بينما ليست كذلك رسالة الرسول الظاهر الذى يستند إلى الوحى والعلم الإلهى المطلق. وبناءً على ما تقدم فقد اتضح الرد على البراهمة السوفسطائيين الذين يقولون: ما يأتى به الأنبياء لا يخرج عن حالتين: امّا أن يدرك العقول ما يقوله أو لا يدرك، فان أدركه العقل فلا حاجة للأنبياء، وإن لم يدركه فو ليس بمعقول ولا يمكن قبوله لأن الإنسان لا يقبل قبط ما لايعقل. والإشكال الذى يرد على هذا الاستدلال هو أن هؤلاء لم يفرقوا بين اللامعقول والمجهول، وكأنّهم تصوروا أنّ العقل يدرك جميع الأشياء، والحال لدينا تصنيف ثلاثى بشأن المواضيع المطروحة. فالمواضيع التى تعرض علينا إمّا أن تكن موافقة لحكم العقل أو مخالفة له أو مجهولة. ولا يسعنا هنا إلّاأنّ نقول بكل تأكيد أن أغلب الموضوعات من قبيل القسم الثالث؛ أى هى من قبيل المجاهيل التى كرست رسالة الأنبياء وظيفتها فى هذا المجال.

أضف إلى ذلك فغالبنا ما يعترينا هاجس الخطأ والزلل فى إدراكاتنا العقلية؛ ومن هنا برزت حاجتنا الملحة للأنبياء، وبعبارة اخرى إلى تأييد العقل بالنقل الذى يسعه منحنا السكينة والاطمئنان فى إدراكاتنا العقلية ويزيل الوساوس والهواجس ويأخذ بأيدينا إلى السبيل القويم.

۴- لا تخلو الأرض من حجة

لقد أكد الإمام على عليه السلام على حقيقة اخرى وهى عدم خلو الأرض من الحجة الإلهية الظاهرية أو الباطنية

«ولم يخل اللّه سبحانه خلقه من نبى مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة»

والطريف فى كلام الإمام عليه السلام أنّه قرن الكتب السماوية بالأنبياء والحجج الإلهية والسيرة المعتبرة. نعم وراء كل كتاب سماوى نبى من أنبياء اللّه يكشف أسراره ويوضح معالمه ويبيّن أحكامه إلى جانب إجراءه وتنفيذ مفاهيمه، كما يواصل نهجه بواسطة سنته

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۷

واستخلافه للوصى والإمام من بعده ليحفظ رسالته ويواصل نهجه. وهذه من أهم عقائدنا فى هذا المجال، حيث ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لو لم يبق فى الأرض إلّااثنان لكان أحدهما الحجة»[۲۵۱]

. وهو الأمر الذى أكده أمير المؤمنين عليه السلام فى قصار كلماته:

«اللّهم بلى لا تخلو

الأرض من قائم للّهبحجة إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج اللّه وبيناته»[۲۵۲].

۵- مميزات الأنبياء

إنّ الأنبياء الذين يبعثهم اللّه من أجل هداية الخلق ليسوا من قبيل الأفراد العاديين، بل يتصفون بجميع الخصال والمميزات اللازمة لقيامهم بوظيفتهم الرسالية الخطيرة ومنها البسالة والشجاعة الفائقة فى ابلاغ الرسالة والصمود بوجه خصوم الدعوة من الأقوام الجاهلة والمعاندة والذود عن هذه الرسالة إلى حد الاستماتة والشهادة فى سبيل تحقيق أهداف الرسالة.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى تصدى الأنبياء لخصومهم والمكذبين والمستهزئين من أعدائهم؛ الأمر الذى يشاهد بوضوح فى تاريخ الأنبياء ولاسيما خاتمهم المصطفى صلى الله عليه و آله:

«رسل لا تقصر بهم قلّة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم»

. كما أكد القرآن الكريم على تحلى الأنبياء بصفتهم مبلغى الرسالات بهذه الصفة: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلّا اللَّهَ»[۲۵۳].

والذى يفهم من عبارة الإمام عليه السلام- كما صرّح بذلك صاحب منهاج البراعة- أن التقية لاتجوز على الأنبياء، ومن هنا يتضح بطلان ما نسبه الفخر الرازى للشيعة الإمامية من أنّها لا تجوّز على الأنبياء حتى إظهار الكفر تقية.[۲۵۴] بل الأمر أبعد من ذلك لأنّ التقية حرام على الأئمة بل وحتى الأفراد العاديين فى الحالات التى يتعرض فيها الدين للخطر، بعبارة اخرى قد تكون التقية واجباً وقد تكون حراماً. فاذا كان تركها يؤدى إلى سفك الدماء دون حلها فهى واجبة،

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۸

كأن تقع جماعة من المسلمين فى يد الأعداء بحيث يراق دمهم إذا أظهروا إسلامهم، فهنا يجب عليهم اخفاء دينهم كى لا يمكنوا العدو من قتلهم، فى حين قد يؤدى اخفاء الدين والافصاح عن العقيدة أحياناً إلى ضعف المسلمين وذلتهم، ففى هذه الحالة يحرم على الأفراد كتم دينهم وعليهم أن يكشفوا عنها بكل شجاعة مهما كلف الأمر (وما واقعة كربلاء عنك ببعيد التى جسد فيها الإمام الحسين وصحبه الكرام حرمة التقية حفظاً للدين).

ولما كان كتم الأنبياء لمعتقداتهم يهدد أصل رسالتهم كانت وظيفتهم ترك التقية. جدير ذكره أنّ التقية ليست من المفاهيم التى تقتصر على الشيعة أو المسلمين فحسب، بل مفهوم من المفاهيم العقلائية الذى يدعو الإنسان إلى حفظ نفسه وعدم هدر دمه إذا لم يكن هناك من جدوى لابداء عقيدته.[۲۵۵]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۴۹

القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام

اشارة

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه و آله لِإِنْجازِ عِدَتِهِ وَإِتْمامِ نُبُوَّتِهِ مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلادُهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْواءٌ مُنْتَشِرَةٌ وَطَرائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ فَهَداهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكانِهِ مِنَ الْجَهالَةِ ثُمَّ اخْتارَ سُبْحانَهُ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله لِقاءَهُ وَرَضِيَ لَهُ ما عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دارِ الدُّنْيا وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقامِ الْبَلْوَى فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً صلى الله عليه و آله وَخَلَّفَ فِيكُمْ ما خَلَّفَتِ الْأَنْبِياءُ فِي أُمَمِها إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بِغَيْرِ طَرِيقٍ واضِحٍ وَلا عَلَمٍ قائِمٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة إلى أربعة امور:

۱- قضية بعثة نبى الإسلام محمد صلى الله عليه و آله وبعض خصائصه وصفاته وفضائله وعلائم نبوته.

۲- الوضع الذى كانت تعيشه الامّة أبان انبثاق الدعوة الإسلامية من حيث الانحرافات الدينية والعقائدية وانقاذها من تلك الظلمات بنور رسالة النبى صلى الله عليه و آله.

۳- رحيل النبى صلى الله عليه و آله من الدنيا.

۴- الارث الذى خلفه النبى صلى الله عليه و آله للُامّة (القرآن الكريم).

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۰

فقد قال عليه السلام:

«إلى أن بعث اللَّه سبحانه محمداً صلى الله عليه و آله لانجاز[۲۵۶] عدته واتمام نبوته ۲۵۷]».

ثم أشار إلى شمة من فضائله والميثاق الذى أخذ من النبيين من قبله بالبشارة به

«مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته ۲۵۸]، كريماً ميلاده»

ولعل العبارة الأخيرة إشارة إلى كرامة آبائه وأجداده، أو بركات ولادته التى عمت أرجاء العالم، فقد صرّحت بعض السير التأريخية بتهاوى أوثان الكعبة وانطفاء نار المجوس وجفاف بحيرة ساوة التى كانت تحظى بعبادة بعض الناس وتهدم قصور بعض الجبابرة تزامناً مع الولادة الميمونة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وكل هذه الأحداث دلالة واضحة على بداية عصر جديد بانطلاقة شرارة التوحيد والوقوف بوجه كافة مظاهر الشرك والالحاد. ثم قال عليه السلام:

«وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطرائف متشتتة بين مشبه للَّهبخلقه أو ملحد فى اسمه أو مشير إلى غيره».

«ملحد» من مادة «لحد» على وزن مهد بمعنى الحفرة الواقعة على جانب ومن هنا اطلق على مثل هذه الحفرة اسم اللحد، كما أطلق الالحاد على كل عمل يخرج عن حالة الاعتدال ويجنح نحو الإفراط والتفريط، ومن هنا نعتت الوثنية والشرك بالالحاد. وعليه فالمراد بقوله عليه السلام:

«ملحد فى اسمه»

هو ما أشرنا إليه سابقاً من نعت الأصنام بأسماء اللَّه، على سبيل المثال كانوا يسمون أحد الأصنام باللات والآخر بالعزى والثالث بمناة، وهى الأسماء التى اشتقت على التوالى من أسماء اللَّه والعزيز والمنان، أو أن يكون المراد منها اضفاء صفات اللَّه على المخلوقين، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين. ثم قال عليه السلام:

«فهداهم به من الضلالة وانقذهم بمكانه من الجهالة، ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه و آله لقائه، ورضى له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا ورغب به عن مقام البلوى»[۲۵۹].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۱

أجل فقد قبضه إليه قبض اختيار وكرامة

«فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه و آله»

وقد ورث أمته ما ورثت الأنبياء من قبله امهما

«وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء فى امهما»

- فالأنبياء لم يتركوا امهم من بعدهم سدى، بل أضاءوا له معالم الطريق ونصبوا عليهم الحجج

«إذ لم يتركوهم هملًا»[۲۶۰] بغير طريق واضح ولا علم قائم»

. من البداهة أن يكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة ما ورد فى حديث الثقلين الذى تواترت الروايات بشأنه حيث قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«إنّى مخلف فيكم الثقلين: كتاب اللَّه وعترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً وقد نبأنى اللطيف الخبير إنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».[۲۶۱]

وبالطبع فانّ الإمام عليه السلام واصل حديثه فى بحث جامع عن كتاب اللَّه (القرآن الكريم) إلّاأنّه لم يتطرق إلى العترة، حيث تعرض بصورة مفصلة- كما سنشير لاحقاً- إلى العترة فى عدّة خطب من نهج البلاغة. ولعل عبارته عليه السلام:

«علم قائم»

فى آخر كلامه إشارة إلى الأوصياء. على كل حال فان حرص الأنبياء على امهم لم يقتصر على حياتهم، بل كانوا قلقين على مستقبلهم إلى حد يفوق قلق الوالد الشفيق حال احتضاره على ولده الصغير؛ ومن هنا يتعذر تصور ترك الأنبياء لامهم دون استخلافهم لأوصياءهم عليهم لكى لا تذهب مساعيهم فى إرشاد الامّة وهدايتها أدراج الرياح.

تأمّلان

۱- الأديان قبل البعثة النبوية

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشارات مقتضبة عميقة المعنى بشأن أديان العرب وغير العرب فى العصر الجاهلى وقبل البعثة النبوية. بحيث صرّح المؤرخون والمحققون بأنّ العرب وعلى غرار سائر الأقوام كانت تعيش عدّة أديان ومذاهب لا يحصى عددها إلى جانب الانحرافات والخرافات الجمة. وقد قال ابن أبى الحديد- الشارح المعروف لنهج البلاغة- بشأن أديان

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۲

العرب فى الجاهلية: فأمّا الامّة التى بعث النبى محمد صلى الله عليه و آله فيها فهم العرب، وكانوا أصنافاً شتى، فمنهم معطلة ومنهم غير معطلة، فأمّا المعطلة منهم، فبعضهم أنكر الخالق والبعث والاعادة، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم: «ما هِيَ إِلّا حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلّا الدَّهْرُ»[۲۶۲] فجعلوا الجامع لهم الطبع، والمهلك لهم الدهر. وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث. وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: «قالَ مَنْ يُحْيِ العِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»[۲۶۳].

ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه، وهم الذين قالوا: «ما نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِيُقَرِّبُونا إِلى اللَّهِ زُلْفى [۲۶۴]. وكان فى العرب مشبهة ومجسمة، منهم أمية بن الصلت، وهو القائل:

من فوق عرش جالس قد حط رجليه إلى كرسيه منصوب وذهب بعض متكلمى المجسمة إلى أنّ البارئ تعالى مركب من أعضاء على حروف المعجم. وقال بعضهم: إنّه ينزل على حمار فى صورة غلام أمرد، فى رجليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير. وقال بعضهم: إنّه فى صورة غلام أمرد صبيح الوجه، عليه كساء أسود، ملتحف به.[۲۶۵]

وأمّا الذين ليسوا بمعطلة من العرب؛ فالقليل منهم، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرج عن القبائح كعبد اللّه، وعبد المطلب وابنه أبى طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدّة الابادى، وعامر بن الظرب العدوانى وجماعة غير هؤلاء.[۲۶۶] أمّا البعض الآخر من شرّاح نهج البلاغة فقد صنفوا علماء العرب إلى عدّة طوائف منهم العارفين بالانساب، ومفسرى الأحلام ومتخصصين فى علم الأنواء (نوع من التنجيم المشوب بالخرافات) والكهنة الذين يوحون إلى الناس بأنّهم يخبرون عن مغيبات المستقبل. أمّا من غير العرب كان البراهمة الذين عاشوا فى الهند ينكرون كافة الأديان ولا يؤمنون سوى بالأحكام العقلية.

وطائفة اخرى من عبدة الكواكب والشمس والقمر التى تمثل أنواعاً من الوثنية[۲۶۷].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۳

وإلى جانب هذه الطائفة هناك اليهود والنصارى والمجوس. وقد شهدت كل طائفة منهم انحرافاً عقائدياً، فالمجوس قالت باله الخير والشر. وقد انطوت المجوسية- التى قد تكون فى بدايتها منسوبة لبعض الأنبياء- على خرافات جمة حتى ذهب بعض المحققين إلى أنّهم يعتقدون باله الخير واله الشر الذين تقاتلا حتى تدخلت الملائكة فأصلحت ذات بينهما بشرط تفويض العالم السفلى لاله الشر مدّة سبعة آلاف سنة (ويفوض العالم العلوى لاله الخير).[۲۶۸]

بينما ابتليت النصرانية بالتثليث (الأقانيم الثلاث) كما حرفت اليهود كتاب التوراة وشحنته بالانحرافات والخرافات التى لا يسعنا الخوض فيها فى هذه الابحاث. فقد أوجز الإمام جميع هذه الطوائف فى ثلاث: الاولى: المشبهة التى جعلت للّه شريكاً، كالمجوس والنصارى أو أولئك الذين يجعلون للّه صفات المخلوقين كاليهود. الثانية: أولئك الذين عدلوا باسمه إلى غيره كأغلب الوثنيين الذين أسموا أوثانهم بأسماء اللّه سبحانه فجعلوهم شفعائهم عند اللّه. الثالثة: أولئك الذين عبدوا غير اللّه كالدهرية التى تعتقد بأنّ الطبيعة هى خالقة الوجود، أو عبدة الأصنام والكواكب والشمس والقمر التى ترى الاصالة للكواكب والأصنام؛ أى تراها هى اللّه.

أجل لقد بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى ظل هذه الأوضاع ليحمل مشعل الهداية ويضىء الظلمات بنور القرآن. لقد أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله تلك الامم بأسمى مفاهيم التوحيد وأعظم المعارف والعلوم وأرصن الصفات الإلهية، حيث جاءهم بالحنيفية السمحاء الخالية من الأساطير والخرافات والانحرافات التى سادت سائر الأديان، ولم تهدف قوانينه وتعاليمه سوى إلى حماية المحرومين والمستضعفين وبسط العدل والقسط وحتى أوجز القرآن الكريم وظيفته فى انقاذ الامّة من الضلال المبين وتعليمها الحكمة وتهذيب نفوس أبناءها: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ»[۲۶۹].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۴

نعم لقد ظهرت معالم الدين الحق بظهور هذا النبى الكريم وانهارت الأساطير والخرافات لتشهد البشرية عصرها الجديد؛ الحقيقة التى أذعن لها الأعداء فضلًا عن الأصدقاء والفضل ما شهدت به الأعداء. فقد تناول الكاتب الانجليزى المعروف «برناردشو» هذا الأمر ليصف دين محمد بأنّه الدين الوحيد الذى يصلح لقيادة البشرية ويتكيف مع حياتها على مدى التأريخ بحيث يسعه استقطاب جميع الشعوب والأقوام، كما ذهب إلى القول بأن محمد منقذ البشرية جمعاء ولو قدر لزعيم على غراره أن ينهض بقيادة العالم اليوم لتغلب على كافة المشاكل التى تعانى منها الإنسانية ولقادها إلى السعادة والسلام، فمحمد أكمل إنسان عرفه الماضى والحاضر ولا يتصور أن يجود الزمان بمثله فى المستقبل.[۲۷۰]

۲- آفاق الأنبياء المستقبلية

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة أن تفكير الأنبياء والرسل لا يقتصر على عصرهم، بل يفكرون بمستقبل الامّة ومصيرها بعد وفاتهم، ومن هنا جهدوا فى تبيين كل مامن شأنه هدايتهم فى المستقبل، فلم يألوا جهداً فى إضاءة معالم الطريق وبيان سبل النجاة.

ولا شك أن نبى الإسلام لم يكن بدعا من الرسل فى هذا الشأن. أو يمكن تصور تركه للُامّة بعد رحيلها عنها؟ أفكان يسعه وداع الامّة وايكالها إلى نفسها دون دليل على الطريق؟ أو ليس حديث الثقلين المتواتر لدى الشيعة والسنة والذى قال فيه:

«إنّى مخلف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى»

نموذج من نماذج إضاءة الطريق للُامّة من بعده و صونها من اللبس و الانحراف؟

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۵

القسم الرابع عشر: خصائص القرآن

اشارة

«كِتابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيِّناً حَلالَهُ وَحَرامَهُ وَفَرائِضَهُ وَفَضائِلَهُ وَناسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ وَرُخَصَهُ وَعَزائِمَهُ وَخاصَّهُ وَعامَّهُ وَعِبَرَهُ وَأَمْثالَهُ وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشابِهَهُ، مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ وَمُبَيِّناً غَوامِضَهُ، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثاقُ عِلْمِهِ وَمُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبادِ فِى جَهْلِهِ وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِى الْكِتابِ فَرْضُهُ وَمَعْلُومٍ فِى السُّنَّةِ نَسْخُهُ وَواجِبٍ فِى السُّنَّةِ أَخْذُهُ وَمُرَخَّصٍ فِى الْكِتابِ تَرْكُهُ وَبَيْنَ واجِبٍ بِوَقْتِهِ وَزائِلٍ فِى مُسْتَقْبَلِهِ وَمُبايَنٌ بَيْنَ مَحارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرانَهُ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرانَهُ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِى أَدْناهُ مُوَسَّعٍ فِى أَقْصاهُ».

الشرح والتفسير لقد بحثت أهمية القرآن الكريم وعظمته كراراً ومراراً فى خطب نهج البلاغة بحيث تناولت كل خطبة جانباً من الجوانب القرآنية.

وقد أشار الإمام عليه السلام بشكل جامع إلى شمولية القرآن وخطوطه العريضة فى هذه العبارات، فقد هدف الإمام عليه السلام لبيان حقيقة مهمّة وهى أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله رحل عن الامّة بعد أنّ ورثها كتاب اللّه الذى نظم جميع شؤون حياة الامّة المادية والمعنوية؛ الفردية والاجتماعية فى كافة الميادين والمجالات؛ فقد قال عليه السلام:

«كتاب ربّكم فيكم»[۲۷۱]

ثم أشار عليه السلام إلى أربعة عشر نقطة بشأن شمولية القرآن وخصائصه:

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۶

۱- اتضاح الحلال والحرام والواجب والمستحب

«مبيناً حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله»

. والعبارة إشارة إلى الأحكام الإسلامية الخمس المعروفة، فالفرائض إلى تشيرالواجبات، والفضائل إلى المستحبات، والحرام إلى المحرمات وأخيراً الحلال الذى يشمل المباحاة والمكروهات.[۲۷۲]

۲- بيان الناسخ والمنسوخ

«وناسخه ومنسوخه».

المراد بالناسخ والمنسوخ الأحكام الجديدة التى تزيل الأحكام القديمة والتى تقتصر على عصر الرسالة حين نزول الوحى الذى كان

يعنى إمكانية تغيير الأحكام. فبعض الأحكام وإن كانت مطلقة فى ظاهرها، غير أنّها مقيدة باطنياً ومختصة بزمان معين، فاذا انتهى ذلك الزمان نفد حكمها بحكم جديد آخر يطلق عليه اسم الناسخ من قبيل التصدق قبل مناجاة النبى صلى الله عليه و آله:

«يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً»[۲۷۳]. فقد كان هذا الأمر امتحاناً للمسلمين لم يعمل به سوى أمير المؤمنين عليه السلام حتى نسخ بقوله تعالى: «أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ»[۲۷۴].

-۳

«ورخصه وعزائمه»

. فلعل هذه العبارة إشارة إلى ما تعارف اليوم فى علم الفقه والأصول بأن حكم الواجب أو الحرام إذا رفع قد يستبدل بحكم الاباحة كقوله: «وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا»[۲۷۵]. فمن المسلم به أنّ الصيد ليس واجباً بعد الخروج من الاحرام، بل مباح، وأحياناً يستبدل بحكم ضده، كقوله: «وَ إِذا ضَرَبْتُ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ»[۲۷۶] ومعلوم أنّ صلاة القصر فى السفر واجبة ليست مباحة، فيقال للاولى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۷

رخصة وذلك لجواز طرفى العمل ويقال للثانية عزيمة حيث يجب على المكلف جزم عزمه بالعمل. وهنالك إحتمال آخر فى تفسير هاتين المفردتين، كأن يكون المراد بالرخص الأحكام الواجبة أو المحرمة التى استثنيت فى بعض الموارد من قبيل قوله: «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ»[۲۷۷]. أمّا العزائم فهى الأحكام التى لا سبيل إلى الاستثناء اليها، كقوله: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»[۲۷۸].

-۴

«وخاصه وعامه»

، فالخاص هو الحكم الذى لا يشمل كافة المسلمين كحكم الحج الذى يختص بمن له الاستطاعة «وَلِلَّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»[۲۷۹] والعام هو الحكم الذى يشمل جميع المسلمين كاقامة الصلاة «وأقيموا الصلاة». وقيل أيضاً بأ المراد بالخاص الآيات التى لها ظاهر عام غير أنّ المراد بها حالة خاصة كآية الولاية: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ»[۲۸۰]. حيث نعلم بوجود مصداق واحد لهذه الآية فقط وهو أمير المؤمنين على عليه السلام.

أمّا العام فيراد به الآيات ذات العموم والتى تشمل الجميع كقوله عز وجل: «وَالسّارِقُ وَالسّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمْا»[۲۸۱].

-۵

«وعبره وأمثاله»

، عبر من مادة عبرة وقد اشتقت من العبور، ولذلك يصطلح بالعبرة على الحادثة التى تعرض للإنسان ويتخطاها، والقرآن الكريم ملىء بالدروس والعبر بشأن تواريخ الأنبياء والأمم السالفة حيث تتضمن كل حادثة من تلك الحوادث المعانى والدروس للقيمة التى تستفيدها البشرية فى مسيرتها الحياتية.

أمّا الأمثال فقد تكون إشارة إلى الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم بتلك الكثرة من قبيل: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ»[۲۸۲]، كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۸

الأفراد الذين أصبحت سيرتهم وحياتهم مثلًا يحتذى به كقوله عز من قائل: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ»[۲۸۳].

۶- كما بيّن القرآن أحكام المطلق والمقيّد

«ومرسله ومحدوده»

فالمطلق الأحكام التى بيّنت دون قيد أو شرط كقوله سبحانه: «وَأَحَلَّ اللَّهُ البَيْعَ»[۲۸۴] وأمّا المقيد فهو الحكم الذى وضعت له بعض القيود والحدود كقوله: «تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ»[۲۸۵].

ومن الواضح أنّ الجمع بين المطلق والمقيّد يتطلب منا تقييد المطلق بواسطة المقيّد، ففى المثال المذكور لا تصح المعاملة إلّابتراضى الطرفين. ويمكن أن يكون المراد بالمطلق الأحكام الخالية من القيود والشروط، فى حين الأحكام المقيّدة هى الأحكام المحدّدة بالقيود والشروط من قبيل كفارة القسم التى جاء فيها «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ»[۲۸۶]، بينما جاء فى كفارة القتل الخطأ «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ»[۲۸۷].

-۷

«ومحكمه ومتشابهه»

. فالمراد بالمحكم الآيات الواضحة الدلالة التى لا تحتمل سوى وجه واحد كقوله سبحانه:

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»

بينما تحتمل الآيات المتشابهة عدّة وجوه، وإن أمكن بيانها من خلال سائر الآيات القرآنية كقوله:

«إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ»[۲۸۸]

حيث يزال ابهام هذه الآية وغموضها من خلال الآيات التى نزهت اللّه عن المكان والزمان والجهة والجسم والرؤية وما إلى ذلك كقوله: «لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ»[۲۸۹].

۸- من الخصائص الاخرى هى بيان لمجمل القرآن وغوامضه من خلال السنّة النبوية «مفسراً مجمله ومبيناً غوامضه». فالمجمل الآيات التيى تأمر باقامة الصلاة ولم تشر إلى أركانها وعدد ركعاتها فيقوم النبى صلى الله عليه و آله بشرحها، أمّا المراد بالغوامض الحروف القرآنية المقطعة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵۹

والتى بيّنت بواسطة الأحاديث النبوية. ولعل الفارق بين الغوامض والمتشابهات هو أن المتشابهات تنطوى على معان ومفاهيم للوهلة الاولى بينما يكتنف الاولى الابهام كالمثال السابق.

۹- هناك بعض الحقائق القرآنية التى أخذ الميثاق على معرفتها ولا يعذر أحد بجهلها فى حين يعذر فى بعضها الآخر:

«بين مأخوذ ميثاق علمه وموسع على العباد فى جهله»

فالحقائق التى لا يعذر أحد بجهلها من قبيل آيات التوحيد والصفات الإلهية التى تجب معرفتها على جميع المؤمنين، والثانية من قبيل الذات الإلهية التى ليس لأحد من سبيل إلى معرفتها وكذلك مسألة المعاد والقيامة التى ينبغى الإيمان بها، فى حين ليست هنالك من ضرورة للإلمام بالتفاصيل المتعلقة بالجنّة والنار.

۱۰- وهناك بعض الأحكام القرآنية المختصة بزمان معيّن والتى نسختها السنّة النبوية «وبين مثبت فى الكتاب فرضه ومعلوم فى السنّة نسخه» من قبيل عقاب المرأة المحصنة بالحبس المؤبد إذا ارتكبت فاحشة الزنا «وَاللّاتِى يَأْتِينَ الفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى البُيُوتِ حَتّى يَتَوَفّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا»[۲۹۰] ثم نسخت السنّة النبوية هذا الحكم بالأحاديث التى وردت فى باب رجم المحصنة.

۱۱- الآيات الناسخة للسنّة بشأن بعض الأحكام التى صرّحت السنّة بالعمل بها بينما أجازت الآيات القرآنية تركها «وواجب فى السنّة أخذه ومرخص فى الكتاب تركه» من قبيل حكم الصوم فى بداية التشريع حيث لم يكن يسع الصائم الافطار سوى أوائل الليل، فاذا نام

وأفاق لم يجز له تناول شيء من المفطرات، غير أن هذه السنّة النبوية نسخت فيما بعد بالآية القرآنية الشريفة: «... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ»[۲۹۱].

۱۲- الأحكام الواجبة لبعض الأوقات

«وبين واجب بوقته وزائل فى مستقبله»

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۰

فالعبارة تشير إلى الواجب المؤقت وغير المؤقت؛ الواجب المؤقت من قبيل صوم شهر رمضان وارتفاعه فى غير هذا الشهر، خلافاً للتكاليف الدائمية كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحق والعدل الواجبة على الدوام ۲۹۲]. وذهب البعض إلى أنّ العبارة تشير إلى بعض الواجبات كالحج الذى يجب على المكلف لمرة واحدة فى العمر ثم يزول، واستدلوا على ذلك بالهجرة التى وجبت على المسلمين فى بداية انبثاق الدعوة الإسلامية- حيث كان المسلمون يعيشون حالة من المحدودية- ثم زال هذا الوجوب بعد فتح مكة، وإن كانت الهجرة على حالها إلى يومنا هذا فى المناطق التى تشهد الحالة المكية قبل الهجرة.

۱۳- فرز أنواع المحرمات عن بعضها وبيان كل واحدة منها فى إشارة إلى الكبائر التى توعد اللّه مرتكبيها والصغائر التى وعد بمغفرتها

«ومباين ۲۹۳] بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانّه

أو صغير أرصد له غفرانه»

فالكبائر من قبيل الشرك وقتل النفس التى صرّحت الآيات القرآنية بتوعد مرتكبيها بالعذاب، فقد ورد فى الآية ۷۲ من سورة المائدة بخصوص الشرك «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْواهُ النّارُ» وفى الآية ۹۳ من سورة النساء بشأن قتل النفس «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فيها» وأمّا الصغائر فمن قبيل اللمم الواردة فى الآية ۳۲ من سورة النجم «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وَالفَواحِشَ إِلّا اللَّمَمَ» حيث ذهب بعض المفسرين إلى أنّ المراد باللمم انعقاد النية على المعصية دون الإتيان بها أو المعاصى عديمة الأهمية.

۱۴- الأعمال التى يقبل القليل منها وورد الحث على كثيرها «وبين مقبول فى أدناه، موسع فى أقصاه». فالعبارة تشير إلى الأعمال التى ورد التأكيد على الإتيان بقليلها وللُامّة الاتيان بالمزيد.

وقد استدل بعض شرّاح نهج البلاغة على ذلك بتلاوة القرآن «فَاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ»[۲۹۴]. فقراءة اليسير من القرآن مؤكدة وترك للناس قراءة الكثير (وهذا ما نلمسه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۱

بوضوح فى أواخر سورة المزمل). وبالمقابل هنالك الأحكام الإلزامية التى لا يسير ولا كثير فيها من قبيل صوم شهر رمضان، حيث يلزم المكلف بصوم شهر معيّن دون زيادة أو نقيصة (الآيات ۱۸۳ إلى ۱۸۵ من سورة البقرة).

تأمّلات

۱- شمولية القرآن

المسألة الاولى التى تطالعنا فى كلام الإمام عليه السلام شمولية القرآن الكريم، أو بعبارة اخرى اعجاز القرآن من حيث المضمون؛ لأن خاض من خلال النقاط الأربعة عشر بشأن القرآن فى تفاصيله الدقيقة وتنوع مضامينه على جميع المستويات فى إطار تلبيته لمتطلبات الإنسان و احتياجاته من حيث الامور العقائدية والقضايا العلمية والأخلاقية والأحكام الواجبة والمحرمة والعلاقة القائمة بين القرآن والسنة والأحكام الثابتة والمؤقتة والعام والخاص والمطلق والمقيّد والناسخ والمنسوخ، حيث يفيد تأمل هذه الامور مدى حساسية

المضامين القرآنية المدروسة والتى تنسجم ومتطلبات الإنسانية. فالمضامين الرصينة الدقيقة والعميقة المتنوعة والشاملة- كما أشرنا إلى ذلك فى بحث اعجاز القرآن- تمثل أحد أبعاد اعجاز القرآن فأدنى لإنسان امى تربى فى وسط الجهل والظلام أن يأتى بمثل هذا الكتاب مكتفياً بما يمليه عليه فكره دون الاستناد إلى فيوضات الغيب والوحى؛ الكتاب الذى غص بالدروس والعبر والأمثال الرائعة البليغة والأحكام الجامعة والمعارف الجمة العميقة. والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام بهذا البيان القصير قد استعرض دورة جامعة فى الاصول الفقهية وأشار إلى موضوعات واسعة لم تتكامل فى علم الاصول إلّابعد قرون طويلة، ثم فصل الأحكام عن بعضها البعض ليميط اللثام عن القواعد المتعلقة بالحلال والحرام والناسخ والمنسوخ والرخصة والعزيمة والخاص والعام والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والمجمل والمبين والمؤقت وغير المؤقت والواجب والمستحب المؤكد والمستحب غير المؤكد.

۲- من عنده علم الكتاب؟

يفهم من عباراته عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله موظف بتبيين بعض مجملات القرآن الكريم وإزالة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۲

غوامضه بما لا يدع لأحد من مجال للشك، ولهذا قال القرآن المجيد: «وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ»[۲۹۵]. قد يقتدح فى الأذهان سؤالًا: كيف يحتاج القرآن إلى تفسير مجمله وإزالة غوامضه وتبيين مبهمه وقد نزل هداية للناس ولابدّ للعامة من فهمه وإدراكه؟

وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى أمرين:

الأول: إن القرآن بفضله يتضمن سلسلة من القوانين والأحكام الإسلامية لا يسعه أن يخوض فى التفاصيل، فهو يشير إلى هذه القوانين على نحو العموم بينما يفوض شرحها والخوض فى تفاصيلها إلى النبى صلى الله عليه و آله. على سبيل المثال فقد وردت أحكام الصلاة والحج والصوم وبعض كلياتها فى القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أنّ هذه العبادات تشتمل على شرائط واركان وفروع كثيرة يحتاج شرح كل ركن منها إلى كتاب مستقل، بل هناك الامور التى تتطلب عدّة مجلدات من قبيل الامور المرتبطة بالمعاملات والقضاء والحدود والشهادات والسياسات الإسلامية بصورة عامة.

الثانى: أنّ حاجة الامّة للنبى صلى الله عليه و آله فى تبيين المبهمات وتفسير المجملات تؤدى إلى تعزيز إرتباطها بالسنّة النبوية؛ الارتباط الذى يهديها وينير معالم طريقها فى جميع الميادين، وبعبارة اخرى فان القرآن ليس بدعاً من الكتب التى يتطلب فهم بعض مواضيعها من قبل الطلاب وجود المعلم، الذى يسعه ايضاح الحقائق لتلامذته من خلال الرابطة السائدة بينهما. وهنا يبدو هذا السؤال: هل يوجد مثل هذا المعلم الإلهى فى الوسط الإسلامى بعد رحيل النبى صلى الله عليه و آله أم لا؟ لاشك. لابدّ أن يستمر وجود مثل هذا المعلم وإلّا بقيت المشاكل على حالها دون حل وبيان. ومن هنا اعتقدت الشيعة بوجود الإمام المعصوم فى كل عصر والذى لديه علم الكتاب، وهذا ما يراد بالعترة الواردة فى حديث الثقلين المتواتر المروى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، والتى أشار إلى امتناع مفارقتها للكتاب إلى يوم القيامة، فقال صلى الله عليه و آله:

«إنّى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وإنّهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض»[۲۹۶].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۳

۳- معيار التمييز بين الكبائر والصغائر

هناك اختلاف بين العلماء بشأن الكبائر والصغائر. فقد اعتبرهما البعض من قبيل الامور النسبية التى تخضع للمقارنة فى أهميتها، فما كانت أهميتها كبيرة فهى من الكبائر وما كانت أهميتها صغيرة فهى من الصغائر (وقد نسب المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان هذا

القول إلى الشيعة، ويبدو أنّه أراد بعض علماء الشيعة، لأنّ أغلبهم يرى غير ذلك كما سنشير لاحقاً).

وقال البعض الآخر أنّ الكبيرة كما يتضح من اسمها هى المعصية الكبيرة حقاً والتى تحظى بأهمية لدى الشرع والعقل كقتل النفس وغصب حقوق الآخرين والربا والزنا- ولعل هذا هو الدليل الذى جعل الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تصرح بأنّ المعيار فى الكبائر هو الوعيد بالعذاب الإلهى على ارتكابها، فقد جاء فى الحديث المعروف الذى روى عن الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا عليه السلام انّه قال:

«الكبائر التى أوجب اللّه عز وجل عليها النار»[۲۹۷]

ويتضح ممّا مر معنا أنّ الصغائر ماليست لها مثل هذه الأهمية. وقد وردت بعض الأحاديث التى أشارت إلى أنّ الكبائر سبع وقيل عشرون.

۴- الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما

لعل هذين الحكمين يثيران الجدل والذهول لدى أغلب الناس وتعجبهم من كيفية اشتمال القرآن على الآيات الناسخة والمنسوخة (فالمراد باناسخ والمنسوخ هو الحكم الذى يلغى حكماً آخر من قبيل استقبال الكعبة فى الصلاة التى نسخت حكم استقبال بيت المقدس فى الصلاة). وقد تزول هذه الدهشة والذهول بالنسبة للناسخ والمنسوخ فى القوانين الوضعية التى يشرعها أفراد البشر؛ لأهم قد يسنون اليوم قانوناً ويكتشفون غداً بعض أخطائه فيعمدون إلى نسخه، ولكن ما بال القوانين التى يشرعها الحكيم سبحانه؟

يمكن خلاصة الإجابة على السؤال المذكور فى جملة واحدة وهى أنّ علم اللّه المطلق لا يعتريه التغيير قط، غير أنّ بعض الموضوعات تتغير بمرور الزمان. على سبيل المثال قد يكون

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۴

هناك دواء هو شفاء لمرض اليوم، إلّاأنّه قد يصبح خطراً ومضاعفاً لذلك المرض بعيد مدّة من الزمان. فالطبيب ينصح المريض باستعمال ذلك الدواء إلّاأنّه ينسخه فيما بعد ويحظر استعماله على المريض. ويصدق هذا الكلام فى الامور الدينية على القبلة مثلًا. فقد تنطوى الصلاة إلى بيت المقدس يوماً على منافع ومصالح معينة إذا كانت الكعبة بؤرة للأصنام والأوثان واتخذت لنفسها بعداً قومياً بحيث يدعو استقبالها فى الصلاة أبان انبثاق الدعوة الإسلامية إلى بعض المشاكل، فى حين تنتفى هذه المشاكل بالصلاة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس. بينما تتحول الكعبة إلى مركز للتوحيد بعيد الهجرة إلى المدينة فتنطوى الصلاة إلى جانبها على مصالح جمة وتنعدم الأضرار.

فالواقع هو أنّ أغلب أحكام النسخ من هذا القبيل؛ وبالطبع فانّ مباحث النسخ واسعة جداً لا يسعها المقام ولذلك نكتفى بهذه الإشارة العابرة إلى فلسفة النسخ.[۲۹۸]

۵- تأريخ الامم الماضية والأمثال القرآنية

يشغل تأريخ الامم السابقة ولا سيما أنبياء اللّه حيزاً مهما من القرآن الكريم المفعم بالدروس والعبر والتجارب القيمة التى تحتذيها البشرية فى كل عصر ومصر؛ الأمر الذى جعل القرآن يتابع حركة الأنبياء فى مختلف السور ويسلط الضوء على تأريخ أحدهم أحياناً (كسرده لوقائع النبى إبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليهم السلام) ويكرر قصته فى أكثر من سورة، وبالطبع لا نرى كلمة التكرار مناسبة هنا حيث إنّ القرآن يعرض لزاوية من زوايا هذه القصص فى كل مرة، فقد قال عز من قائل: «لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلبابِ»[۲۹۹]. وأحياناً أبعد من ذلك واضافة إلى التأريخ يدعو البشرية لتأمل آثار الأقوام السابقة والذى يعتبر بحد ذاته نوعاً من أنواع

التأريخ التكوينى والحى «قُلْ سِيرُوا فِى الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ»[۳۰۰].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۵

وإلى جانب القصص والتأريخ فقد درج القرآن على استعمال الأمثال بغية هداية الناس؛ وقد تكون هذه الأمثال نماذج حية واقعية مستقاة من حياة بعض الأفراد تارة، وتارة اخرى تشبيهات بالامور الطبيعية فى عالم النبات والحيوان وما شاكل ذلك. وقد انطوت هذه الأمثال على جمالية وروعة فى الدقة والتصوير بحيث غدت من معاجز القرآن التى يقود التأمل فيها والتدبر إلى العودة إلى العقل والرشد «وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ فِى هذا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»[۳۰۱].

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى شمولية القرآن الكريم مؤكداً على تدبر قصصه وأمثاله.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۷

القسم الخامس عشر: أهمية فريضة الحج

اشارة

«وَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنامِ يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعامِ وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمامِ وَجَعَلَهُ سُبْحانَهُ عَلامَةً لِتَواضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ وَإِذْعانِهِمْ لِعِزَّتِهِ وَاخْتارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَوَقَفُوا مَواقِفَ أَنْبِيائِهِ وَتَشَبَّهُوا بِمَلائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحْرِزُونَ الْأَرْباحَ فِى مَتْجَرِ عِبادَتِهِ وَيَتَبادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ جَعَلَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى لِلْإِسْلامِ عَلَماً وَلِلْعائِذِينَ حَرَماً فَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ حَجَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفادَتَهُ فَقالَ سُبْحانَهُ: «وَلِلَّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ»».

الشرح والتفسير

لا يعلم أى الأحكام الدينية أشار إليها الإمام عليه السلام بعد بيانه لخصائص القرآن، لأننا نعلم بأنّ السيد الرضى- جامع نهج البلاغة- لم يروم ذكر خطبه عليه السلام بصورة كاملة بقدر ما كان يختار منها بعض القطوف، مع ذلك فان التأكيد على فريضة الحج من بين سائر الفرائض الإسلامية المختلفة والفردية وفى خطبة تكفلت بالحديث عن بداية نشوء الخليقة والمراحل المختلفة لسير الإنسان منذ انطلاقته حتى انبثاق الدعوة الإسلامية بظهور خاتم الأنبياء محمد المصطفى صلى الله عليه و آله إنّما يتضمن معناً ومفهوماً خاصاً، كما يفيد أن حج بيت اللّه الحرام يمثل عصارة الفكر الإسلامى وشموليته للمسائل المهمّة الفردية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية والسياسية، وهذا ما سنتطرق إليه فى آخر البحث. ونخوض الآن فى تفسير هذا القسم من الخطبة:

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۸

فقد أشار الإمام عليه السلام فى البداية إلى مسألة وجوب الحج، حيث اعتمد عبارات فى غاية الروعة واللطافة بغية حث المسلمين على أداء هذه الفريضة الإلهية العظيمة، فقال عليه السلام:

«وفرض عليكم حج بيته الحرام»

ثم كشف عن صفة هذا البيت بقوله

«الذى جعله قبلة للأنام»[۳۰۲]

فهى القبلة التى يتجه إليها المسلمون فى صلواتهم اليومية على أنّها رمز وحدة جميع المسلمين الذين ينظمون صفوفهم فى الاتجاه اليها. ثم يتطرق عليه السلام إلى وصف الشعائر والمراسم التى يؤديها عشاق الحق فيشبههم عليه السلام بالعطاش الذين يردون على الماء

العذب والطيور التى تبحث عن الملاذ

«يردونه ۳۰۳] وورود الانعام ويألهون ۳۰۴] إليه ولوه الحمام ۳۰۵]».

حقاً أنّ من أدرك معنى الحج فانّه يرد البيت على هذه الشاكلة فتكاد روحه وقلبه تسبقه إلى البيت فيعيش الوفادة عليه بكل كيانه ويستعيد به من شر الشياطين وأهواء النفس وتبعات الذنوب فيلبى دعوة الحبيب ويسعى بين الصفا والمروة ويحلق فى أجواء الكعبة التى تفيض بالمعنويات. أمّا التشبيه بالانعام فلعله إشارة إلى التواضع المطلق الذى يستشعره الحجاج تجاه بيت اللّه أو حالة الاضطراب حين الاقبال على الكعبة والطواف، أمّا التعبير بالحمام فذلك لأنّه يرمز إلى الحب والسلام والوئام.

جدير بالذكر أنّ مراسم الحج تستهل بالاحرام والتلبية التى تفيد اجابة الدعوة الإلهية، فاللّه سبحانه قد دعى زوار بيته الحرام للضيافة وقد تقاطر عليه الضيوف بقلوب مفعمة بالعشق لتعيش القرب الإلهى وهم يلمسون معانى الورع والتقوى والانس بالمحبوب. ثم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۹

خاض عليه السلام فى جانب من الجوانب الفلسفية لشعيرة الحج فقال:

«وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته واذعانهم لعزته»

. فأعمال الحج من مناسك ومراسم إنّما تشتمل على أفعال غاية فى التواضع لعظمة اللّه قلما نجد نظيرها فى سائر الشعائر العبادية. وهذا ما يتجسد بوضوح فى الاحرام والتخلى عن اللباس الفاخر والاكتفاء بثياب الاحرام البيضاء غير الموصولة والطواف فى الكعبة والسعى بين الصفا والمروة والوقوف على جبل عرفة والتوقف فى منى والمشعر الحرام ورمى الجمرات والتقصير ما إلى ذلك من الأعمال التى تحطم ما تعيشه النفس البشرية من غرور وكبر. ثم يشير عليه السلام إلى أنّ الوقوف فى تلك المشاهد المشرفة والوفادة على البيت لمن المفاخر الكبرى والنعم الجزيلة التى يمن اللّه بها على بعض عباده فيقول عليه السلام:

«واختار من خلقه سماعاً[۳۰۶] أجابوا إليه ۳۰۷] دعوته وصدقوا كلمته».

فقد ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية أنّ اللّه أمر خليله إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة بدعوة الناس إلى الحج.

فقال عليه السلام: إنّ صوتى لا يبلغهم. فجاءه الخطاب: إنّما عليك دعوتهم وعلينا الابلاغ. فارتقى الخليل عليه السلام المقام الذى كان ملاصقاً للكعبة آنذاك فجعل اصبعيه فى أذنيه وقد استقبل الشرق والغرب فنادى بأعلى صوته:

«أيّها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم»

فناداه من خلف البحار السبع مابين المشرق والمغرب بل حتى النطف فى قرارات النساء وأصلاب الرجال ممن سمع صوته

«ولبيك اللّهم لبيك»[۳۰۸]

. كما ورد فى الروايات أن من لبى حج بعدد تلبيته ومن لم يلب لم يحج ۳۰۹] ثم يواصل الإمام عليه السلام حديثه عن فلسفة الحج وآثاره وبركاته فيقول:

«ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه».

ولعل التعبير بمواقف الأنبياء يشير إلى كثرة الأنبياء من بعد إبراهيم بل حتى قبله طبقاً لبعض الروايات ممن حجوا البيت ۳۱۰] أمّا العبارة التى صرّحت بتشبههم بالملائكة المطيفين

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۰

بعرشه، فقد جاء فى الخبر الصحيح أنّ فى السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت.[۳۱۱] ثم قال عليه السلام:

«يحرزون ۳۱۲] الأرباح فى متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته»

ويالها من تجارة عظيمة مربحة تلك التى يتطهر فيها الإنسان من جميع ذنوبه إذا أتى بالعمل على وجه الصحة؛ بل ورد أنّه يعود كيوم ولدته أمه ولا ذنب عليه كما صرّحت بذلك بعض الأحاديث الإسلامية.

ثم قال عليه السلام:

«جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً وللعائذين حرماً».

فالواقع هو أنّ الكعبة تمثل الراية الإسلامية الخفاقة على الدوام؛ الراية التى يتمحور حولها المسلمون من أجل تحقيق استقلالهم ومجدهم وعزتهم. وكل عام تنفخ روح جديدة بمشاهدتها فى جسد المسلمين ويجرى دم جديد فى عروقهم. وما إن يفرغ الإمام عليه السلام من ذكر هذه الفضائل حتى يشير إلى وجوب حج البيت فيقول:

«فرض حقّه وأوجب حجه وكتب عليكم وفادته ۳۱۳]

فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلى النّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ».

تأمّلان

اشارة

هنالك عدّة مسائل ومباحث متعلقة بالحج لا يمكن استيعابها فى هذا البحث، وعليه سنكتفى بالإشارة إلى بعض الامور التى تتمتع بأهمية كبيرة:

۱- نبذة تأريخية عن الكعبة

للكعبة- التى يطلق عليها اسم بيت اللَّه الحرام أيضاً- تأريخ عريق يعود إلى زمان آدم عليه السلام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۱

حسب ما أشارت الروايات ۳۱۴] فآدم عليه السلام هو أول من بناها وطاف حولها، ثم اندرست فى الطوفان الذى عم الأرض زمان نبى اللَّه نوح عليه السلام، ثم أعاد بنائها إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل- على ضوء صريح الآيات القرآنية كقوله سبحانه: «وَ إِذ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ ..»[۳۱۵]- فأديا مراسم الحج حيث أصبحت الكعبة أول مركز للتوحيد للإنسانية: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً»[۳۱۶]. وكما أشرنا سابقاً وعلى ضوء بعض الروايات الصحيحة أنّ فى السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت، وانّ البيت أول من عتق من الماء[۳۱۷] كما ورد هذا المعنى فى قصة دحو الأرض. وقد تظافرت الروايات- فى نهج البلاغة وغيره من المصادر الإسلامية- التى كشفت عن عظمة الكعبة ومدى أهميتها، ومنها ماروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«ما خلق اللَّه عز وجل بقعة فى الأرض أحب إليه منها

- ثم أومأ بيده نحو الكعبة-

ولا أكرم على اللَّه عز وجل منها»

بل ورد فى مقدمة هذا الحديث أنّ النظر إليها عبادة[۳۱۸] فالكعبة هى رمز الوحدة الإسلامية التى تتطلع إليها الجماعة الإسلامية فى العالم أجمع. جدير ذكره بشأن أهمية البيت أن زرارة- من كبار صحابة الإمام الباقر والصادق عليهما السلام- دخل على الإمام الصادق عليه السلام فقال: (جعلنى اللَّه فداك أسألك فى الحج منذ أربعين عاماً فتفتينى». فرد الإمام قائلًا:

«يا زرارة بيت يحج إليه قبل آدم بألفى عام تريد أن تفتى مسائله فى أربعين عاماً»[۳۱۹]

. فالذى يستفاد من هذا الحديث أنّ الملائكة والمخلوقات التى عاشت على الأرض قبل آدم عليه السلام كانت تحج البيت. ففى

الحديث أنّ آدم لما قضى مناسكه وطاف بالبيت لقيته الملائكة، فقالت: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۲

۲- فلسفة الحج

لقد تضمنت عبارات الإمام عليه السلام إشارات عميقة لفلسفة الحج وما ينطوى عليه من أسرار. إلى جانب ذلك فقد وردت الروايات التى صرّحت بمثل هذا المعنى، والذى يخلص إليه من مجموعها أنّ هذه المناسك العظيمة تشتمل على أربعة جوانب هى: الجانب الأخلاقى والعبادى، الجانب السياسى والاجتماعى، الجانب الثقافى والجانب الاقتصادى.

أمّا الجانب الأخلاقى والعبادى الذى يمثل أهم جوانب فلسفة الحج بفضل تنبيه لتربية النفس وتهذب الأخلاق والتحلى بالورع والتقوى والاخلاص. حيث صرّحت الروايات الإسلامية بشأن من يحج البيت

«يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه»[۳۲۰]

. والرواية بدورها دليل واضح على مدى التأثير الذى يلعبه الحج فى النفس الإنسانية وتنقيتها من الذنوب والمعاصى التى دنست عفتها طيلة العمر وهذه أعظم فائدة يصيبها الوافد على بيت اللّه. ولو التفت الحاج إلى أسرار المناسك التى يؤديها والشعائر التى يؤتى بها فان كل خطوة ستجعله أكثر قرباً من اللّه ليرى مولاه حاضراً فى كل مكان فهو معبوده الحق الذى لا يفارقه طرفة عين. أجل سيعود إلى الحياة من جديد كيوم ولدته أمه.

ولا غرو فمن أدرك الحج بمعناه الحقيقى سيشعر بآثاره الروحية والمعنوية إلى آخر عمره، ولعل هذا هو السبب فى وجوب الحج مرة واحدة طيلة العمر.

وأمّا على صعيد الجانب السياسى والاجتماعى فانّ الإتيان بمراسم الحج على ضوء التعاليم الإسلامية والحج الإبراهيمى الذى دعى الناس لامتثاله إنّما يؤدى إلى عزة المسلمين وتحكيم دعائم الدين وارساء أسس الأخاء والوحدة وتنامى شوكة الدين وصلابته والوقوف بوجه الأعداء والمستكبرين واعلان البراءة من المشركين والملحدين. كما يمنح هذا المؤتمر الإلهى العظيم الذى يعقد كل عام فى البيت العتيق المسلمين الفرصة الذهبية فى إعادة بناء أنفسهم وتقوية أواصر الاخوة فيما بينهم ورص صفوفهم بما يحبط مؤامرات أعداء الدين وافشال

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۳

خطط الشياطين، وما يؤسف له أنّ المسلمين لم يقفوا لحد الآن على عظمة الحج ويدركوا كنهه وإلّا لتمكنوا- فى ظل هذه الشعيرة- من إسداء أعظم الخدمات للإسلام وتسديد أوجع الضربات إلى ركائز الشرك والكفر؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الروايات الإسلامية ولاسيما تلك التى وصفته:

«لايزال الدين قائماً ماقامت الكعبة»[۳۲۱]

. وكأن أعداء الإسلام أدركوا الدور العظيم الذى يلعبه الحج على صعيد المسائل السياسية فمارسوا أقصى ردود الفعل تجاهه بغية الحؤول دون تحقيق أهدافه. فهذا «غلادستون»- رئيس وزراء بريطانيا- يخاطب مجلس العموم بأنّ المسيحية مهددة بالخطر وسنعجز عن إصلاح العالم (طبعاً ليس الإصلاح من وجهة نظرهم سوى الاستعمار) مادام اسم محمد يذكر صباح مساء من على المآذن والقرآن هو دستور حياة المسلمين، الذين يقيمون مراسم الحج كل عام بهذا الشكل ۳۲۲]. بل قيل أن غلادستون اختتم خطابه لمجلس العموم بقوله: يجب عليكم يا ساسة المسيحية أن تزيلوا اسم محمد من آذان المسلمين فتنسونهم ذكره وتحرقون القرآن وتخربون الكعبة.

وهناك جملة اخرى معروفة أطلقها أحد زعماء النصرانية فى الغرب قائلًا:

«الويل للمسلمين إن غفلوا عن معنى الحج، الويل لمن سواهم إن فهموا معناه»

. وبالبداهة أنّهم لا ينوون من هذا الاحراق ظاهر القرآن، كما أنّهم لن ينجحوا فى تخريب الكعبة، غير أنّهم يستطيعون وفى ظل غفلة المسلمين من تحقيق مآربهم بالقضاء على أحكام الدين وافراغ الحج من محتواه الأصيل.

وأمّا بالنسبة للجانب الثقافى وعلى ضوء الأخبار الإسلامية فان هذه المراسم سوف تؤدى إلى التعريف بالثراء الجم لرسول اللّه صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين عليهم السلام وستكون الفرصة مؤاتية بفضل حضور علماء المسلمين ومفكريهم ومن كافة الاصقاع- بما فيهم كبار علماء الدين وكبار الأدباء والفنانين والمثقفين والكتاب الذين يتوافدون على البيت كل عام- لتبادل الأفكار والثقافات والانفتاح على تجارب الآخرين بما يسهم فى إحياء مفاهيم الدين ونشر تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه و آله والهداء الميامين من آله الطيبين الطاهرين.

وأخيراً الجانب الرابع الذى يشير إلى الفلسفة الاقتصادية للحج. فقد وردت الروايات

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۴

والأخبار التى تفيد أن من معطيات الحج تفعيل القدرة الاقتصادية للمسلمين وانقاذهم من الأزمات المالية التى تعصف بحياتهم وحياة مجتمعاتهم. ولعل البعض لا يرى من رابطة من قريب أو بعيد بالجانب الاقتصادى، إلّاأنّ أدنى تأمل لهذه القضية سيكشف بوضوح بأنّ الخطر العظيم الذى يهدد كيان المسلمين إنّما يتمثل اليوم بالتبعية الاقتصادية للأجانب، فما الضير فى اقامة المؤتمرات والندوات الاقتصادية من قبل المعنيين والمتخصصين فى تلك الديار المقدسة بصفتها مراسم عبادية تهذف إلى انتشال المسلمين من مخالب الفقر والتبعية وطرح المشاريع والبرامج الاقتصادية التى من شأنها معالجة الأوضاع المزرية؟ ولا نرى لهذه القضية من طابع فردى لتعالى الأصوات بالانشغال بزخارف الدنيا وحطامها الزائل، بل الهدف أنبل وأسمى حيث يكمن فى خدمة الإسلام والمسلمين فى هذا الجانب الحيوى.[۳۲۳] ويتضح من قوله عليه السلام:

«ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح فى متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته»

مدى الأهمية التى أولاها الإمام عليه السلام لحج بيت اللّه الحرام؛ ولا عجب فهى عبادة اجتماعية عامة تقسم فى طياتها الدنيا والآخرة والأخلاق والمعنويات وعزة المسلمين وتنامى شوكتهم.

طبعاً واسع وشامل البحث المتعلق بالحج وأبعد ممّا ذكرنا إلّاأننا سنستغرق أكثر فى هذا الموضوع حين شرحنا لسائر خطب الإمام عليه السلام الواردة بهذا الشأن، ونكتفى هنا بهذا المقدار المتواضع.

نفحات الولاية ؛ ج۱ ؛ ص۱۷۵

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۵

الخطبةالثانية

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد انصرافه من صفين وفيها حال الناس قبل البعثة وصفة آل النبى صلى الله عليه و آله ثم صفة قوم آخرين.

القسم الأول

اشارة

«أَحْمَدُهُ اسْتِشْماماً لِنِعْمَتِهِ وَاسْتِسْلاماً لِعِزَّتِهِ وَاسْتِعْصاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ.
وَأَسْتَعِينُهُ فاقَةً إِلَى كِفايَتِهِ إِنَّهُ لا يَضِلُّ مَنْ هَداهُ وَلا يَئِلُ مَنْ عاداهُ وَلا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفاهُ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاصُها مُعْتَقَداً مُصاصُها نَتَمَسَّكُ بِها أَبَداً ما أَبْقانا، وَنَدَّخِرُها لِأَهاوِيلِ ما يَلْقانا فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ وَفاتِحَةُ الْإِحْسانِ، وَمَرْضاةُ الرَّحْمَنِ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ وَالضِّياءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزاحَةً لِلشُّبُهاتِ وَاحْتِجاجاً بِالْبَيِّناتِ وَتَحْذِيراً بِالْآياتِ وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلاتِ».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۶

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على خمسة مضامين (تبحث فى أربعة أقسام):
المضمون الأول فى حمد اللَّه والثناء عليه والملاذ بفضله وكرمه ورحمته، والثانى فى الشهادة للَّه بالوحدانية ومعطيات الإيمان بالتوحيد، والثالث فى الشهادة بالنبوة والعبودية إلى جانب التذكير بفضائل النبى صلى الله عليه و آله واوضاع العصر الجاهلى والملمات والخطوب التى شهدها المجتمع الإسلامى آنذاك والجهود التى بذلها الرسول الكريم صلى الله عليه و آله من أجل مجابهة تلك الخطوب وتحمل المصاعب والويلات بهذا الشأن، والرابع فى منزلة أهل البيت وعلو مقامهم وسمو مكانتهم واللجوء إليهم فى امور الدين، والمضمون الأخير الذى يواصل فيه المعنى المذكور بصيغة اخرى محذراً الامّة من مقارنة أنفسها بهم، متطرقاً إلى عدم إمكانية تشبه أى من الأفراد بهم ومستعرضاً لفضائلهم والاعراب عن الارتياح لعودة الحق السليب لأهله.

ظروف وملابسات الخطبة

كما مر علينا سابقاً فقد صرّح المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد انصرافه من صفين.
ومضامين الخطبة ومعانيها تبدو منسجمة والمعنى المذكور؛ الحقيقة التى تجسدت فى استعراض حياة الامّة فى العصر الجاهلى حيث يحذرها من مغبة تكرار الجاهلية الاولى والحؤول دون تمكن من تبقى من رواد تلك الجاهلية الذين كانوا يشكلون غالبية معسكر الشام فى صفين من تحقيق أطماعهم ومآربهم. كما يؤكد عليه السلام على ضرورة تمسك الامّة بأهل بيت النبى صلى الله عليه و آله بغية التحصن من الأخطار التى كانت تهدد الإسلام آنذاك، فهم الذين قال فيهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:
«إنّى مخلف فيكم الثقلين كتاب اللَّه وعترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً وإنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»
فالنجاة بالتمسك بالكتاب والعترة معاً.
ومن هنا يتضح بطلان ماذهب إليه ابن أبى الحديد بشأن صدور الخطبة حيث قال: واعلم أنّ هذه الكلمات وهى قوله عليه السلام:
«الآن إذا رجع الحق إلى أهله»
إلى آخرها يبعد عندى أن
نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۷
تكون مقولة عقيب انصرافه عليه السلام من صفين، لأنّه انصرف عنها وقتئذ مضطرب الأمر، منتشر الحبل، بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وما تم لمعاوية عليه من الاستظهار، وما شاهد فى عسكره من الخذلان، وهذه الكلمات لا تقال فى مثل هذه الحال، وأخلق بها

أن تكون قيلت فى ابتداء بيعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأنّ الرضى رحمه اللّه تعالى نقل ماوجد، وحكى ماسمع والغلط من غيره، والوهم سابق له، وما ذكرناه واضح.[۳۲۴]

وقد صرّح بعض العلماء بأنّ هذا الكلام ينبغى ألا يقال بشأن فرد يعتبر علماً فى العلم وبحراً من الوقار واسطورة فى الجهاد والمقاومة. فانّ فرداً مثل على عليه السلام لاتهزه هذه الحادثة وأنى للاضطراب والقلق من سبيل إلى هذه الروح الملحمية والأفكار الربانية التى كان يتحلى بها على عليه السلام. بل بالعكس وكما أوردنا سابقاً فان الإمام عليه السلام يحذر- فى هذه الخطبة- الامّة من الاستسلام إلى الدعايات السامة والمشاريع الشيطانية التى كان يمارسها ولاة الشام ومن مغبة العودة القهقرى إلى العصر الجاهلى والصمود فى الذود عن الحق بعد أن عاد إلى أهله. وعليه فلا يبدو رأى ابن أبى الحديد صائباً فى أن معاوية هو الذى انتصر فى الميدان ولا سيما قول الإمام عليه السلام:

«الآن إذا راجع الحق إلى اهله»

وذلك للأسباب التالية:

أولًا: أنّ معاوية لم يكسب تلك المعركة قط، غاية مافى الأمر أنّه نجى من هزيمة منكرة بفعل خدعة عمرو بن العاص فما زال الإمام عليه السلام يرى الحق (هو وأهل بيته) ويحذر الامّة من التغابى عنه إلى جانب الذود عنه وعدم زحزحته عن أهله.

ثانياً: إنّ التحكيم الغادر لعمرو بن العاص- وخلافاً لما يراه الكثيرون- لم يحصل فى صفين بحضور الإمام عليه السلام بل وقع بعيد بضعة أشهر، والطريف أنّ ابن أبى الحديد قد صرّح بهذا المعنى فى موضع آخر من شرحه. ونخلص ممّا سبق إلى أنّ الدليل الذى حاول أن يتمسك به ابن أبى الحديد والذى تمثل بالجملة الأخيرة فى الخطبة لإثبات صحة مدعاه فى أنّ الخطبة صدرت بعد موقعة صفين، هو دليل باطل وشاهد عارى من الصحة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۸

الشرح والتفسير

الركنان الأساسيان فى الإسلام

استهل الإمام عليه السلام الخطبة- كسائر خطبه- بحمد اللّه والثناء عليه، إلّاأنّه يكشف عن الدوافع الثلاث لهذا الحمد والثناء:

الأول الاستزادة من النعم الإلهية، واظهار الاستسلام والخضوع للعزة الإلهية والقدرة المطلقة، وأخيراً الاعتصام بالطافه من المعاصى. فقد قال عليه السلام:

«أحمده استتماماً[۳۲۵] لنعمته

واستسلاماً[۳۲۶] لعزته واستعصاماً[۳۲۷] من معصيته»

. لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ مفهوم الحمد أشمل من الشكر، وبعبارة اخرى فانّ الشكر ممزوج بالمدح وهذا يدعو من جانب لاستزادة النعم الإلهية كما قال سبحانه:

«لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»[۳۲۸]

ويشكل القيام بوظيفة العبودية من جانب آخر وهذا هو التسليم مقابل عزة اللّه وأخيراً يوجب عنايات اللّه وألطافه الغيبية فى حفظ الإنسان وعصمته من الذنوب والمعاصى. ثم يستعين عليه السلام باللّه بعد حمده والثناء عليه موعزاً ذلك إلى حاجته إليه سبحانه وعدم غناه عنه

«واستعينه فاقة إلى كفايته»

. أجل إذا رأى العبد نفسه محتاجاً لتلك الذات الغنية وصاحب الكمال المطلق فانه يلجأ إلى الحق سبحانه ليشمله بفضله ورحمته

ويعينه فى كافة شؤون حياته. آنذاك يشير إلى دليل آخر لهذه الاستعانة فيقول:

«انّه لا يضل من هداه ولا يئل ۳۲۹] من عاداه ولا يفتقر من كفاه»

. نعم فقدرته على درجة من القوة والعظمة بحيث لا يسع أحد الوقوف أمامها، وإن علمه ثاقب ليس للخطأ من سبيل إليه. وهناك إحتمال أيضاً أنّ الدوافع الثلاث دليل آخر على الحمد والثناء ودليل على الاستعانة أيضاً.

ثم يشير فى آخر العبارة إلى دليل آخر يوجب الحمد للّهوالثناء عليه

«فانه أرجح ما وزن

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۷۹

وأفضل ما خزن»

. والواقع هو أنّ الفوائد والآثار التى وردت فى العبارات السابقة إنّما تتعلق بهذا العالم، بينما ترتبط الفوائد الواردة فى العبارتين الاخيرتين بالعالم الآخر وزاد المعاد يوم القيامة، وهكذا يكون حمد اللّه والثناء عليه سبب النجاة فى الدنيا والآخرة، وما أروع عبارات الإمام عليه السلام المقتضية التى تضمنت تلك المعانى العميقة. فلا يبدو من العبث أن يصرح ابن أبى الحديد حين يتناول بالشرح هذه الخطبة فيذهل للكنايات والبديع وعذوبة التعبير الذى تضمنته عبارات الإمام عليه السلام قائلًا:

«فسبحان من خصه بالفضائل التى لا تنتهى السنة الفقهاء إلى وصفها وجعله إمام كل ذى علم وقدوة كل صاحب خصية».

ثم يتطرق عليه السلام إلى الشهادة بالوحدانية بصفتها تشكل مصدر جميع الفضائل والكمالات:

«واشهد ان لا إله إلّااللّه وحده لا شريك له»

وتمسك الإمام عليه السلام بالتوحيد على أنه دعامة كافة العقائد والأفكار الطاهرة والأعمال الصالحة من جانب، ومن جانب آخر ليلتفت من يرى الوهيته عليه السلام إلى خطأ إعتقاده. ثم يضيف الإمام عليه السلام بأنّ شهادته هذه شهادة حقيقية تستند إلى الاخلاص والتقوى وليست لقلقة لسان

«شهادة ممتحنا[۳۳۰] اخلاصها معتقداً مصاصها[۳۳۱]».

فهى شهادة حقة دائمة مادامت الحياة مدخرة حيث الأهوال والخطوب

«نتمسك بها أبداً ما أبقانا وندخرها لاهاويل ۳۳۲] ما يلقانا».

فالإمام عليه السلام يعلن عن عمق إيمانه وإذعانه بحقيقة التوحيد فى كافة شؤون الحياة وعلى جميع المستويات؛ الحقيقة التى تجسدت فى سيرته عليه السلام والمشهودة فى كافة جوانب حياته حتى لم يتطرق الشرك إليه طرفة عين، فلم يسجد لصنم قط وكانت سكناته وحركاته فى ظل التوحيد البعيد عن أدنى شرك خفى. ثم يذكر عليه السلام أربعة دعائم لهذا الركن الركين فى الإسلام

«فانها عزيمة الإيمان وفاتحة الاحسان ومرضاة الرحمن ومدحرة[۳۳۳] الشيطان».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۰

سنرى فى الأبحاث القادمة أنّ الإيمان بأى من أصول الدين إنّما هو إيمان أجوف مالم يستند إلى التوحيد، كما أنّ الصالحات بأجمعها إنّما تستقى من حقيقة التوحيد، ومن هنا كان مرضاة للّه ومدحرة للشيطان، لأنّ الوسيلة المهمّة الهدامة للشيطان إنّما تتمثل بالشرك سواء كان جلياً واضحاً أم مخفياً مستتراً.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بفاتحة الاحسان هو الأجر والثواب الإلهى الذىالتوحيد مفتاحه، غير أن التفسير الذى ذكرناه يبدو أكثر صحة من هذا. وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذه الشهادة الخالصة الحقة حتى يردفها بمتممتها التى تتمثل بالشهادة بالنبوة:

«وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»

. نعم فهو عبد اللّه قبل أن يكون رسوله، فليس من مجال لبلوغ مقام النبوة دون العبودية، وفى هذا رد على أولئك الذين قد يبالغون فى مقام الرسول ليبلغوا درجة الإلوهية. آنذاك يصف رسالة ووظيفة النبى فيقول:

«أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور[۳۳۴] والكتاب المسطور والنور الساطع ۳۳۵]

والضياء اللامع والأمر الصادع ۳۳۶]»

. والواقع هنالك عدّة تفاسير بشأن هذه العبارات الست العميقة المعانى والامور التى تشير اليها. منها أنّ المراد بالدين المشهور هو الإسلام الحنيف والعلم المأثور المعجزات والكتاب المسطور القرآن الكريم والنور الساطع علوم النبى صلى الله عليه و آله والضياء اللامع سنته صلى الله عليه و آله والأمر الصادع- بقرينة الآية الشريفة ۹۴ من سورة الحجر

«فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ»[۳۳۷]

- ترك التقية واظهار التوحيد فى مقابل المشركين والكافرين. كما يحتمل أن يكون المراد بالضياء اللامع والنور الساطع تبيين القرآن الكريم، فالقرآن مصدر اشعاع أفكار المجتمعات الإنسانية. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى الهدف النهائى لرسالة النبى صلى الله عليه و آله والقرآن والمعجزات والقوانين والأحكام الشرعية، فيوضح أهداف النبى صلى الله عليه و آله فى ثلاث محاور: ازالة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۸۱

الشبهات بالأدلة والبراهين واستقطاب الخصوم من خلال إرشادها بالآيات البيّنات وتحذيرهم من العقاب الأليم ان هم تمادوا فى غيّهم وعصيانهم

«إزاحة[۳۳۸] للشبهات واحتجاجاً

بالبيّنات وتحذيراً بالآيات وتخويفاً بالمثلات ۳۳۹]».

يمكن أن يكون المراد من قوله

«ازاحة الشبهات»

الحقائق التى تعززها البراهين والأدلة الربانيّة والتى لا تدع مجالًا لشك أو شبهة،

«واحتجاجاً بالبيّنات»

المعجزات الحسية بالنسبة لُاولئك الذين لا يسلمون سوى للاستدلالات العقلية والتى من شأنها سوقهم نحو الإيمان واليقين،

«تحذيراً بالآيات»

الوعيد بالعذاب الاخروى

«تخويف بالمثلات»

الوعيد بالعذاب الدنيوى كما ورد ذلك فى بعض الآيات القرآنية كقوله سبحانه وتعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ».[۳۴۰]

تأمّلان

۱- التوحيد ركيزة الصالحات

تعتبر الشهادة لله بالواحدانية من الاصول العقائدية المسلمة بالنسبة لسائر الاصول؛ إلّا أنّ هذا استنتاج ساذج لهذا الأصل الإسلامى المهم. فالتمعن فى المصادر الإسلامية والتحليلات العقلية يدل على أن التوحيد أصل جار على سائر الاصول والفروع، بعبارة اخرى فان كافة أصول الإسلام وفروعه تشكل بلورة لمفهوم التوحيد؛ ولا يقتصر هذا الأمر على المباحث العقائدية والعبادية فى المسائل

الاجتماعية والسياسية والأخلاقية بل تسرى روح التوحيد لتحكم جميع المجالات.

فالتوحيد على مستوى الذات والصفات والافعال والعبودية لمن الامور المسلمة الواضحة ولا نقتصر به على نبيّنا دون سائر الأنبياء بحكم الآية الشريفة «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»[۳۴۱]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۸۲

وعليه فاننا نؤمن بأنّ جميع الأنبياء والمرسلين إنّما يتفقون فى أهدافهم ووحدة رسالتهم وبرامجهم رغم أن بعض الأحكام والمشاريع والبرامج التى تلبس حللا جديدة وتتخذ طابعا حديثا بفعل تطور المجتمعات البشرية وتقدم مسيرتها.

أمّا بالنسبة للمعاد وعلى ضوء الآية الشريفة «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْداً»[۳۴۲] فانّ الجميع سيقف بمفرده يوماً فى محكمة العدل الإلهى لينالوا جزائهم من ثواب أو عقاب يتناسب مع طبيعة أعمالهم وفقا لمعايير إلهية واحدة.

فالمجتمعات البشرية تنتمى إلى جذور واحدة تحكمها أصول ثابتة ومعينة، بل تحكم جميع عالم الوجود. والواقع صحيح أنّ هنالك تفاوتا فى القوانين الإلهية فى الأديان السماوية من حيث آلياتها وتفرعاتها، إلّاأنّ مستقاها واحد، ومن هنا فاننا نؤمن بوحدة دعوة الأنبياء للمجتمع العالمى الموحد، وأنّ العالم برمته سيشهد فى خاتمة المطاف حكومة العدل الإلهى.

أمّا على صعيد المسائل الأخلاقية فليس هنالك من يتردد فى أنّ الفضائل الأخلاقية إنّما تنبع من التوحيد بينما تنبع الرذائل من الشرك. و عادة ما يتورط بالشرك الأفراد المرائين وأولئك الذين يصابون بأمراض الحسد والبخل و الحرص والتكبر، وإلّا فالفرد الذى يعيش توحيد الأفعال بكل كيانه وفى أعماقه ويؤمن بأنّ العزة والذلة والرزق والحياة والممات والنصر والغلبة لله بيده وحده لايرى من مسوغ لان يستشعر قلبه معانى الرياء والحرص والبخل والحسد.

و زبدة الكلام فانّ التوحيد ليس بمثابة حبة مسبحة بالنسبة لسائر الحبات، بل هو بمثابة الخيط الذى يشد الحبات إلى بعضها البعض الآخر.

و من هنا يتضح عمق كلمات الإمام عليه السلام بالنسبة لمفهوم التوحيد- فى الخطبة-، فالتوحيد هو الدعامة الرئيسية للإيمان وانطلاقة الأعمال الصالحة ويستبطن رضى الرحمن وطرد

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۸۳

الشيطان، وإذا ما أشرقت شمس التوحيد على جسم المجتمع البشرى وروحه فانّه سيتخذ طابعا متبلورا فى ظل أشعته الزاهرة. وإذا رأينا أمير المؤمنين ومولى المتقين على عليه السلام الذى يمثل بدوره روح التوحيد لاينفك عن تكرار التعرض للتوحيد- فى خطب نهج البلاغة- وتعليم أتباع مدرسة أهل البيت الاخلاص فى التوحيد فإنّما يعزى ذلك إلى ضرورة الابقاء على جذوة هذه الشعلة الخالدة متقدة فى القلوب ورى أرض الحياة بهذه المياه العذبة لتورق ثمار أشجارها وتنضج فى ظل صبغة التوحيد الإلهية.

و ممّا لا شك فيه أنّ الشهادة بالنبوة والالتفات إلى وظائفها ومسؤولياتها وكتبها السماوية إنّما يعدّ أفضل أرضية خصبة لبلورة حقيقة التوحيد فى أعماق كيان الإنسانية.

۲- التوحيد الخالص الذى طبع حياة أميرالمؤمنين عليه السلام

كان على عليه السلام مجسمة التوحيد ومظهره التام قبل أن يدعو الآخرين لهذه الحقيقة الخالصة.

لم يسجد لصنم طرفة عين طيلة حياته قط ليلوث صفو روحه غبار الشرك. كان لا يفعل شيئا إلّاويرى الله فيه وقبله ومعه لايروم سوى رضاه.

كما وقف كالطود الشامخ يشد أزره ويذود عنه بغية استتباب التوحيد والعبودية. ولا يخفى على أحد موقفه فى الخندق ومبارزته لعمرو بن العاص، فقد صرعه الإمام عليه السلام وأو شك أن يقتله؛ وقد أصيب جيش الإسلام بالذهول حين رأى الإمام عليه السلام

قد انصرف عن قتله (و لعله نهض من عنده وتركه لمدّة بعد أن تجول فى الميدان) ثم عاد إليه وقتله.

فلما سسئل عن علة ذلك قال عليه السلام:

«قد كان شتم أمى وتفل فى وجهى فخشيت أن أضربه لحظ نفسى فتركته حتى سكن ما بى ثم قتله فى الله»[۳۴۳]

وقد وقف بكل قوة تجاه بعض أصحابه الذين اعترضوا عليه بالتسوية فى العطاء من بيت المال قال:

«أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم فى السماء نجماً! لو كان المال لى لسويت بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله».[۳۴۴]

ولما كان يقف للصلاة كان يستغرق فى صفات الله وجلاله وجماله بحيث لم يكن يرى سوى الله ولا يفكر فى سواه، حتى ورد فى الأخبار أن سهما أصاب رجله فى موقعة أحد وكان يصعب سله من رجله فأمر

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۸۴

رسول الله صلى الله عليه و آله سسله حين يقف للصلاة. فلما فرغ عليه السلام من صلاته قال لم أشعر بالسهم حين الصلاة.[۳۴۵] وما أكثر هذه التماذج التوحيدية فى حياة الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۸۵

القسم الثانى: العصر الجاهلى

اشارة

«وَالنَّاسُ فِى فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيها حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوارِى الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ وَضاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِىَ الْمَصْدَرُ فالْهُدَى خامِلٌ وَالْعَمَى شامِلٌ عُصِىَ الرَّحْمَنُ وَنُصِرَ الشَّيْطانُ وَخُذِلَ الْإِيمانُ فانْهارَتْ دَعائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُكُهُ أَطاعُوا الشَّيْطانَ فَسَلَكُوا مَسالِكَهُ وَوَرَدُوا مَناهِلَهُ، بِهِمْ سارَتْ أَعْلامُهُ، وَقامَ لِواؤُهُ، فِى فِتَنٍ داسَتْهُمْ بِأَخْفافِها وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِها، وَقامَتْ عَلَى سَنابِكِها، فَهُمْ فِيها تائِهُونَ حائِرُونَ جاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِى خَيْرِ دارٍ وَشَرِّ جِيرانٍ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضٍ عالِمُها مُلْجَمٌ وَجاهِلُها مُكْرَمٌ».

الشرح والتفسير

يصور الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة والبليغة أوضاع العصر الجاهلى وكأن السامع يشهد عن قرب تلك الأوضاع ويرى نفسه فى خضم ذلك العصر ليلمس الفوضى والبؤس والشقاء الذى كان عليه الناس. ولا نرى أنفسنا نبالغ إذا ما قلنا بأنّ الإمام عليه السلام قد إختصر كتابا ضخما بهذه العبارات الموجزة؛ الأمر الذى يعدّ دلالة اخرى على مدى رصانة بيانه وعمق الفصاحة والبلاغة والروعة فى التصوير والدقة فى التعبير التى تشتمل عليها كلماته وخطبه عليه السلام.[۳۴۶]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۸۶

ومن البديهى إلّاتتضح عظمة رسالة النبى صلى الله عليه و آله وسمو الخدمات التى أسداها إلى البشرية وحلاوة الإيمان التى حملها الدين الحنيف ما لم تكن هناك صورة واضحة عن الأوضاع السائدة لدى الأقوام السابقة التى سبقت عصر الرسالة وانبثاق الدعوة الإسلامية.

فمن شأن هذه المقارنة أن تميز عظمة مشاريع الأنبياء وبرامج الأولياء والعباقرة على مدى التاريخ. فقد أشار عليه السلام إلى الفتن التى كانت تعصف بالامّة آنذاك بحيث تصدعت عرى الدين وتزعزعت أعمدة الإيمان وتلوثت الفطرة وتغيرت القيم وسادت الفرقة بين

الناس، فغدوا حيارى قد ضلوا المخرج

«والناس فى فتن إنجذم ۳۴۷] فيها حبل الدين وتزعزعت ۳۴۸] سوارى ۳۴۹]

اليقين واختلف النجر[۳۵۰] وتشتت الأمر وضاق المخرج وعمى المصدر».

فقد تقطعت حبائل الدين وغيبت المعارف الدينية الحقة إثر فتن الشياطين ووساوس عبدة الأهواء من جانب، ومن جانب آخر فان الفوضى عمت الامّة وتصاعدت بين أوساطها حدة الفرقة والاختلاف؛ والانكى من ذلك وفى ظل هذه الظروف لم يكن هناك من سبيل للخروج من المأزق ولا من كهف يؤى إليه؛ الأمر الذى اضطر الناس للبقاء على الانحراف والدنس الذى ساد ذلك المحيط والعوم فى مستنقعه العفن. والعبارة «حبل الدين»- التى وردت بصيغة المفرد- إشارة إلى وحدة الدين الحق ووحدة المصدر الذى تستقى منه كافة أصول وتعاليم الأنبياء وإن شهدت هذه الاصول والتعاليم بعض الفوارق التى تفرزها طبيعة تقادم الزمان، وهذا ما يجوزه القرآن الكريم على لسان المؤمنين الصادقين بقوله: «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»[۳۵۱] وقوله عليه السلام

«إختلف النجر»

لا يشير إلى الاختلافات التى شهدها العصر

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۷

الجاهلى على أنّها إختلافات صورية فى تفرعاتها واطيافها فحسب، بل كانت إختلافات أصولية وأساسية جذرية.

بل يمكن القول إنّ العبارة إشارة إلى معنى يتضمن تزلزل حتى أركان الفطرة الإنسانية والاصول الفطرية التى جبل عليها الإنسان من قبيل التوحيد وعشق الأعمال الصالحة والخيرة؛ أو تغير قيم المجتمع الإنسانى وتنكرها حتى عاد لكل معاييره الخاصة للتعامل مع القضايا؛ الأمر الذى أدى إلى تلك الحالة من الفرقة والتشتت و

«تشتت الأمر»

يمكن أن تكون أشارة إلى شدة الخلافات الدينية القصوى آنذاك (على أساس أنّ المراد بهذا الأمر هو أمر الدين) أو إشارة إلى الفرقة والشقاق فى كافة الامور الاجتماعية، سواء الامور الدينية والدنيوية والمسائل المرتبطة بالمجتمع والاسرة أو القضايا الاقتصادية أو الأخلاقية.

ويبدو أنّ المعنى الثانى أكثر إنسجاما والعصر الجاهلى؛ وهنا تكمن الطامة الكبرى حيث يغط الإنسان فى هالة من الشك والترديد وإنعدام الإيمان وأنواع الاختلافات والشقاقات والفساد والانحراف وليس هنالك من سبيل أمامه للخروج من هذا المأزق حتى يعيش اليأس والقنوط من رأسه إلى أخمص قدمه. وهذه هى الصورة الحقيقية التى رسمها الإمام عليه السلام لذلك العصر.

ثم يتطرق عليه السلام إلى المعطيات السلبية التى أفرزتها تلك الأوضاع المزرية آنذاك فوصفها عليه السلام قائلًا:

«فالهدى خامل ۳۵۲] والعمى شامل، عصى الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان».

من الطبيعى أن يتطلب سبيل طاعة الله نور الهداية من جانب والبصيرة التى تهتدى إلى ذلك النور من جانب آخر؛ فالامّة تتحول إلى رعيل شيطانى تتكالب على الفواحش والرذائل شاءت أم أبت إذا إنعدم فى وسطها ذلك النور وفقدت تلك البصيرة.

والجدير بالذكر فى العبارة

«عصى الرحمن»

أن الإمام عليه السلام قد إختار هنا اسم الرحمن من بين أسماء الله الحسنى فى إشارة إلى أنّه ورغم الرحمة الإلهية التى عمت الجميع دون إستثناء وانّ طاعته أمر فطرى وبديهى جبلت عليه النفس البشرية إلّاأنّ هؤلاء العمى البصائر فى العصر

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۸

الجاهلى قد صموا أبصارهم حتى عن رؤية هذه الحقيقة القائمة. ثم يؤكد هذه النتائج المرة التى أصيبوا بها آنذاك فيلخصها عليه

السلام قائلًا:

«فانهارت ۳۵۳] دعائمه وتنكرت معالمه ودرست ۳۵۴] سبله

و عفت شركه ۳۵۵]» و

لعل التعبير بالدعائم إشارة إلى أولياء الله ورواد سبيل الحق أو التعليمات الاصولية للأنبياء.

و قوله إنهارت تعود إلى القضاء على هذه الدعائم أو التعليمات؛ والمعالم ممكن أن تكون إشارة إلى الكتب السماوية السابقة أو التعاليم النبوية، كما أنّ المراد بالسبل والشرك طرق المعرفة سواء الطرق العقلائية والفطرية أو طريق الوحى والتعاليم السماوية.

النقطة الجديرة بالذكر هنا هى أنّ «الشرك» كما أشرنا سابقاً بمعنى الطريق الرئيسى.

فالطرق الصغيرة قد تكون عرضة للاهمال والنسيان فى حين ليس الطريق الرئيسى كذلك، مع ذلك ففى مثل هذا المجتمع وحتى الطرق الرئيسية قد فقدت وزالت غايتها فى إرشاد المارة.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى أنّ الامّة وفى ظل هذه الشرائط والأوضاع قد وقعت فى حبائل الشيطان واسلست له قيادها

«أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله ۳۵۶]».

ولم تكن نتيجة ذلك سوى ما قاله الإمام عليه السلام:

«بهم سارت ۳۵۷] اعلامه، وقام لواؤه»

. ثم قال عليه السلام:

«فى فتن داستهم ۳۵۸] باخفاقها[۳۵۹] ووطئتهم باظلافها[۳۶۰] وقامت على سنابكها[۳۶۱]».[۳۶۲]

و السؤال المطروح هنا: هل هذه الفتن هى تلك التى أشير لها سابقاً أم هى فتن اخرى؛ يبدو أنّها الفتن المذكورة آنفا، غير أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى تفاصيلها الاخرى، حيث يشبه الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۸۹

فتن الجاهلية بالحيوان الوحشى الذى يركل صاحبه بحافره. والذى يقف على رجليه ليدوس بها أدنى حركة تبدو أمامه.

أمّا تعبيره عليه السلام بالسنابك التى تعنى طرف الحافر فهى إشارة لطيفة إلى حقيقة مفادها أنّ هذه الفتن لا تعرف الانكسار وهى باقية فى إلقاء ضلالها الوخيمة على الناس (لأن مثل هذه الحيوانات حين تقف على أطراف حوافرها إنّما تعلن عن تأهبها لابداء ردود الفعل العنيفة تجاه كل من يقف أمامها».

و عليه فقد كانت الأوضاع فى ذلك الزمان على درجة من التعقيد والوخامة بحيث لم يعدّ هنالك من أمل فى التغلب عليها. وهذا بالذات ما جعل الإمام عليه السلام يخلص إلى هذه النتيجة بالنسبة لما عليه الناس فى ظل تلك الفتن

«فهم فيها تائهون ۳۶۳] حائرون جاهلون مفتونون».

تائهون إشارة إلى أنّهم قد ضلوا سبيل الحق بالمرة حتى نسوا أنفسهم وخسروا ذاتهم.

حائرون إشارة إلى الحيرة التى سيطرت عليهم فسلبتهم حتى القدرة على اتخاذ القرار الذى من شأنه إنقاذهم من تلك الفتنة. جاهلون أى أنّهم وعلى فرض عزمهم على إتخاذ القرار لنجاتهم فانّ الجهل والتخبط سوف لن يدعهم يبلغون السبيل السليم.

مفتونون إشارة إلى الأوهام والخيالات وإلّا لا عيب والحيل التى استهوتهم فجعلتهم يرون السراب ماءاً والمجاز حقيقة. وقد حصل كل هذا حين كان الناس فى خير أرض (فى جوار بيت الله الحرام وديار الأنبياء العظام) واسوأ جيران

«فى خير دار وشر جيران»[۳۶۴]

وأثر ذلك فقد أصبح

«نومهم سهود[۳۶۵] وكحلهم دموع»

. والأدهى من ذلك أنّهم يعيشون فى مجتمع لا يقيمزنا للعالم بما جعله يفقد قدرته على هدايتهم وإرشادهم بينما يخطى الجاهل فى ذلك المجتمع بمكانة لا يحلم بها

«بارض عالمها ملجم وجاهلها مكرم»

هنالك أربعة تفاسير أوردها شرّاح نهج البلاغه بشأنه قوله عليه السلام «فى خير دار» فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بها مكة (بيت اللّه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۰

الحرام) (و على هذا الضوء فان العبارات المذكورة وصف لعصر الجاهلية) بينما قال البعض الآخر أريد بها الشام حيث كانت من الأراضى المقدسة ومهبط الأنبياء وأهلها شر جيران؛ أى أصحاب معاوية (إذا اعتبرنا عبارات الإمام عليه السلام واردة بشأن عصره).

الاحتمال الثالث أن يراد بقوله خيردار الكوفة التى كان يقيم فيها الإمام عليه السلام بينما كان أهلها ومن يحيط بها من شر الجيران من قبيل المنافقين والناكثين الذين لا يلتزمون بالعهود. وأخيراً الاحتمال الرابع أن يكون المراد بها دار الدنيا التى يسكنها أغلب الطالحين والاثمين ويبدو التفسير الأول هو الأنسب والأصوب حيث ينسجم والعبارات المذكورة سابقاً.

و على ضوء هذا التفسير فان قوله عليه السلام «نومهم سهود» إشارة إلى الفوضى والاضطراب وإنعدام الأمن والمصائب التى عمت عصر الجاهلية، والعلماء أولئك الصلحاء الذين تمحوروا حول رسول الله صلى الله عليه و آله والجهال أولئك المفسدون من قريش ومن لف لفهم؛ أمّا على ضوء سائر التفاسير فان المراد الفوضى وإنعدم الأمن فى زمان معاوية والمشاكل التى برزت بين العراق والشام آنذاك، وقد ألمحنا سابقاً إلى عدم انسجام هذه التفاسير وروح الخطبة.

والشاهد على ذلك إضافة لما ذكر، ما أورده إبن أَبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة حيث قال: أنّه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية وقوله «فى خير دار» يعنى مكة و «شر جيران» يعنى قريشا، وهذا لفظ النبى صلى الله عليه و آله حين حكى بالمدينة حالة كانت فى مبدأ البعثة فقال

«كنت فى خير دار وشر جيران»[۳۶۶].

أمّا قوله عليه السلام

«نومهم سهود وكحلهم دموع»

فهو إشارة لطيفة إلى تفاقم الفوضى والاضطراب ومصائب ذلك الزمان بحيث إذا خلدوا ليلا إلى النوم كان نومهم مضطربا مشوبا بالخوف والرعب والسهاد، وقد إتسعت هوة الفتن بحيث إكتحلت عيونهم بالدموع التى تحرق أجفانها بدلًا من تزينها بالكحل.

و من الطبيعى وفى ظل هذه الاجواء وفى تلك الديار والمجتمعات أن يغيب دور العلماء وتهمل مكانتهم وبالمقابل يبرز الجهال الذين كانوا يمثلون زعماء قريش وكبرائها ليحظوا

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۱

باحترام الآخرين وتقديرهم بعد أن قلبت الموازين وضاعت القيم.

و أخيراً فهناك إحتمال آخر أن يكون المراد بالعلماء هم ذلك النفر القليل من الموحدين قبل بعثة النبى محمد صلى الله عليه و آله من قبيل عبدالمطلب وأبوطالب وقس بن ساعدة ولبيد بن ربيعة وأمثالهم.

صورة الحياة الميتة فى العصر الجاهلى

لقد قدم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة والعميقة المضامين صورة دقيقة حية عن الأوضاع التى عاشها العرب فى العصر الجاهلى بحيث يجد كل من تأملها نفسه فى خضم ذلك العصر ليرى بأُم عينه كل تلك الفوضى والقبائح والرذائل.

فقد عكس الإمام عليه السلام عظمة مقام النبى صلى الله عليه و آله وسمو منزلته من جانب حيث تتضح شدة النور و عمق خطفه

للابصار كلما كان الظلام دامسا والعتمة شديدة، الأمر الذى يكشف عن عظمة خدمات نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ونجاعة دينه فى خلق المجتمع. ولا غرو فان استبدال ذلك المجتمع- بالمواصفات المذكورة- إلى ذلك المجتمع الذى إلتف حول الرسول لم يكن يبدو أمراً ممكناً، وليس ذلك سوى للاعجاز والوحى وعظمة التعاليم الإسلامية التى تمكنت من انتشال ذلك المجتمع وطبعه بهذه الصفات العالية.

من جانب آخر فهى إشارة إلى تجديد الأفكار والأداب والسنن الجاهلية فى عصر النبى صلى الله عليه و آله والتى ظهرت فى عصر الخلافة الراشدة إثر انحراف الامّة عن تعاليم النبى صلى الله عليه و آله.

فالإمام عليه السلام يحذر الامّة فى زمانه من الأخطار التى تتهددها من جراء إحياء سنن الجاهلية والعادات والتقاليد البالية التى تفتك بالمجتمع. الجدير بالذكرهنا هو أنّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبة بعد إنصرافه من صفين حيث أراد الفات نظر أصحابه إلى العناصر التى أدت إلى تلك النتيجة باسلوب بليغ يعرف ب «إياك أعنى واسمعى باجارة».

لاشك أنّ عبارات الإمام عليه السلام تستبطن الدروس والعبر التى ينبغى أن نحتذيها نحن المسلمون فى العصر الحاضر الذى يتصف بالمدينة والتطور والتقدم، فهى تحذير جدى لنا؛ فعباراته تنطبق تماما على الأوضاع التى يشهدها عصرنا الراهن حيث غاصت الامّة اليوم فى هالة من الفتن وتزعزعت عرى الإيمان واليقين واندرست سبل معرفة الحق بفعل تفاقم سعة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۲

حجم الدعايات المسمومة وانتشار الرذيلة والفساد وتفرق الناس أيادى سبأ وكثرت الأهواء وتعذرت طرق النجاة وقد استفحل الضلال وإنعدام الهدى واستشرت الذنوب والمعاصى وخلى الميدان للشياطين والمستكربين.

نعم لقد شهد عصر الإمام عليه السلام تلك الغفلة فعادت الامّة وأقبلت على سنن الجاهلية، والعجيب أنّ الامّة آنذاك قد خلدت إلى السبات والكسل بحيث لم يعدّ يؤثر فيها صراخ حتى هذا الولى الربانى وأخذوا يتهافتون على احياء سنن الجاهلية حتى آل الأمر إلى تحول الحكومة الإسلامية إلى حكومة وراثية تلاقفها بنو امية وبنوالعباس، فلم تتعثر المسيرة الإسلامية آنذاك فحسيت، بل وجهت إليها ضربات موجعة جعلتها تلعق جراحها لحد الآن! ونرى هنا ضرورة تسليط الضوء على أوضاع الناس فى العصر الجاهلى من مختلف الجوانب ودراسة ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الشأن لنقف بوضوح على تفاصيل هذا الموضوع.

فجاهلية العرب- وهكذا الجاهلية التى كانت تعيشها سائر الأقوام- إنّما تشير إلى سلسلة من العقائد الباطلة والخرافات والأساطير والسنن الخاطئة والقبيحة المخجلة إلى أحيانا، جانب الأفعال العبثية والسلوكية العنيفة القائمة على الظلم والاضطهاد والانحرافات الفكرية من قبيل نحت الأوثان من الخشب والحجر والاعتكاف على عبادتها واللجوء إليها عند حدوث الخطوب والمصائب حيث جعلوها شفعائهم إلى الله بعد أن اعتقدوا بقدرتها المطلقة وأنّ الخير والشر بيدها.

و لم تقتصر أفعالهم الطائشة على وأد البنات كدفاع عن العرض والشرف أو أنّهن يجلبن عليهم الخزى والعار فحسب، بل كانوا يعمدون لقتل أولادهم تحت ذرائع شتى منها تقديمهم إياهم كقرابين إلى آلهتهم أو بدافع الفقر «وَكَذ لِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ»[۳۶۷] و «وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ»[۳۶۸] و «وَ إِذا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»[۳۶۹].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۳

و لم يعيشوا أى هاجس من قلق لفظاعة هذه الجرائم، بل أبعد من ذلك كانوا يتفاخرون بها على أنّها من العناصر المشرفة فى حياة الاسرة التى كانت تعمد لارتكاب مثل تلك الجنايات المهولة.

أمّا المراسم العبادية فى البيت فلم تكن سوى المكاء والتصدية والعرى التى كانت عليه النساء حين العبادة وهن يطفن حول الكعبة «وَما كانَ صلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إِلّا مُكاءاً وَتَصْدِيَةً»[۳۷۰] كانوا يتفاخرون بالحروب وسفك الدماء والسلب والنهب، كما لم يكونوا يقيموا أدنى وزن للمرأة فهى ليست سوى سلعة رخيصة فلا تتمتع بأدنى حقوق بل كانوا أحيانا يقامرون بها.

كانوا يرون الملائكة بنات الله- وكما أشرنا سابقاً فانّهم كانوا يرون فى البنت العار والفضيحة- «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ»[۳۷۱] و «أَمْ خَلَقْنا المَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ»[۳۷۲] أمّا على مستوى الخرافات والاساطير التى كانت سائدة لديهم فقد كانت عجيبة مذهلة ومنها ما وصفه القرآن الكريم «وَقالُوا ما فِى بُطُونِ هذِهِ الأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ»[۳۷۳].

إذا غضب أحدهم على إمرأته وأراد أن يوبخها كفاه وأن يخاطبها «أنت على كظهر أمى» فهم يعتقدون أنّ هذا القول يكفى أن تحرم عليه لأنّها عادت كامه دون إجراء حكم الطلاق عليها، الأمر الذى شجبه القرآن ولم يقره: «وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللّائِى تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ»[۳۷۴]، «إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلّا اللّائِى وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوراً»[۳۷۵] أمّا الطابع السائد الذى كان يميز العصر الجاهلى فانما يكمن فى شن الحروب والغارات التى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۴

تستبطن سفك الدماء وتأجيج الأحقاد والأضغان التى توارثتها الأقوام أبا عن جد، الأمر الذى شبهه القرآن بشفا حفرة من النار، فقال «وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ»[۳۷۶].

الخرافة الاخرى التى كانت تسود فى الأذهان هو الاعتقاد بالرابطة القائمة بين نزول المطر وبزوغ واختفاء بعض الكواكب، والتفؤل بالطيور والإيمان بالغول الصحراوى والعفاريت وما شابه ذلك؛ الأمر الذى عبر عنه القرآن الكريم فى أكثر من أية بالضلال المبين. «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ»[۳۷۷].

نعم هذه صورة مقتضبة من الحالة التى كانت عليها العرب فى الجاهلية- بل هذه مميزات سائر الأقوام فى الجاهلية التى تعددت أشكالها واتفقت مضامينها.

و من هنا يمكن الوقوف على عظمة الإسلام والقرآن وحامل رسالتها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، الأمر الذى توصل إليه أحد أعلام الغرب ويدعى توماس كارل فى أنّ الله هدى العرب من الظلمات إلى النور بالإسلام ومن امّة راكدة متقاعسة لاصوت فيها ولاحركة إلى أمّة ذات شهرة ومن الضعف والوهن إلى اليقظة والقوة، ومن الضعة إلى العزة ومن العجز إلى القدرة. فقد شع نور الإسلام على العالم من جهاته الأربع ولم يمضى عليه أكثر من قرن فبلغ المسلمون الهندالأندلس، بل استطاع الإسلام أن يبسط نوره على تصف المعمورة بهذه المدّة القصيرة.[۳۷۸]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۵

القسم الثالث: المنزلة السامية لآل محمد صلى الله عليه و آله

اشارة

و منها يعنى آل النبى عليه الصلاة والسلام

«هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقامَ انْحِناءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعادَ فَرائِصِهِ».

الشرح والتفسير

يصف الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة الأئمة من أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله بعبارات قصيرة عميقة المعانى، حيث يتطرق إلى مكانتهم بعد رسول الله صلى الله عليه و آله على ضوء ماورد فى الأحاديث النبوية الشريفة من قبيل حديث الثقلين

وسفينة نوح والنجوم.[۳۷۹]

فقد وصفهم فى عباراته الست الاولى بقوله عليه السلام:

«هم موضع سره، ولجأ[۳۸۰] أمره، وعيبة[۳۸۱] علمه، وموئل ۳۸۲] حكمه، وكهوف ۳۸۳] كتبه وجبال دينه»[۳۸۴]

أنّ كل عبارة من هذه العبارات تشير

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۶

إلى أمر معين رغم ما ذهب إليه بعض العلماء والشرّاح من ترادف العبارات وأنّها شبيهة لبعضها البعض الآخر.

فقد أشارت العبارة الاولى إلى حقيقة مؤادها أنّ الاسرار الإلهية مودعة لديهم. وبالبداهة أن يلم بجميع الأسرار من ينهض بمسؤولية زعامة الدين؛ حيث لا ينتظم أمرهم فى هداية الناس وتدبير شؤون حياتهم دون الانطواء على ذلك العلم، ولا سيما أنّ زعامتهم لا تختص بزمان دون آخر بل تتعلق بجميع البشرية على مدى العصور والدهور (وقد ذكرنا فى مبحث علم غيب الأنبياء والأوصياء المعصومين أنّ أحدى مقومات زعامتهم تستند إلى علمهم بالغيب وإلّا لانطوت زعامتهم على العيب والنقص).

ثم أشار فى العبارة الثانية إلى أنّهم ملجأ أمر الله. والسؤال الذى يبرز هنا هل يقتصر هذا الأمر على الأوامر التشريعية أم يشمل الأوامر التكوينية أيضا؟ يبدو من ظاهر العبارات السابقة واللاحقة أن الأوامر تقتصر على التشريعية منها حيث يجب على الامّة أن ترجع إلى أئمة العصمة فى تلقى أوامرهم وإمتثال تعاليهم.

أمّا العبارة الثالثة فقد اعتبرتهم عليه السلام عيبة علوم الله سبحانه، ولا يقتصر ذلك على الأسرار و الأوامر، بل يشمل جميع العلوم اللازمة لهداية الناس أو ذات الصلة بهذه الهداية فهى مودعة لديهم مخزونة عندهم. وفى العبارة الرابعة يتضح أنّهم المرجع فى الأحكام الإلهية التى يجب على الامّة الرجوع إليهم فى الاختلافات على المستوى الفكرى أو القضائى ليزيلوا عنهم الفرقة والاختلاف ويهدوهم سواء الصراط.

وإذا اعتبرنا «موئل حكمه» على وزن إرم جمع حكمة فانّ فارق هذه العبارة مع العبارات السابقة سيتضح تماماً، لأنّ الكلام هنا سيكون فى فلسفة وحكمة الأحكام الإلهية التى تؤلف جزءاً من علوم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

أمّا قوله عليه السلام «و كهوف كتبه» فيكشف اللثام عن هذه الحقيقة وهى أنّ مضامين جميع الكتب السماوية موجودة عندهم. وهذا يشبه إلى حدٍّ بعيد ما قاله على عليه السلام:

«أمّا والله لو ثنيت

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۷

لى الوسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم ... وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم ...».[۳۸۵]

و أخيراً فقد وصفهم عليه السلام بأنّهم جبال دينه، ولعل العبارة إشارة واضحة إلى ما أورده القرآن الكريم فى عدد من آياته الشريفة بشأن خصائص الجبال ودورها فى حفظ إستقرارونزول البركات والخيرات فقد صرّحت الآية ۱۵ من سورة النحل قائلة

«وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

فالواقع أنّ الجبال- كما ورد فى تفسير هذه الآية وسائر الآيات المشابهة- تقوم من جانب باحتواء الضغوط المسلطة على الأرض من باطنها وظاهرها، ومن جانب آخر فهى مصادر عظيمة للأنهار والأبار وعيون الماء.

و بالتالى فهى معين لا ينضب من المعادن النفيسة القيمة. ووجه الشبه هو أنّ أئمة العصمة عليه السلام مصدر لسكينة الأفكار ورى القلوب واغناء الامّة بما يختزنونه من معادن نفيسة.[۳۸۶] ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه إثر ذكره لهذه الصفات فيقول

«بهم أقام انحناء ظهره وأذهب إرتعاد[۳۸۷] فرائصه ۳۸۸]».

أمّا انحناء الظهر فهى كناية رائعة لشدة المعضلات التى طالت الدين من من قبل الأعداء العلماء والأصدقاء الجهلاء فانبرى لها هؤلاء

الكرام ليبقوا على الدين شامخاً لايناله تحريف المحرفين ولا فتن المبطلين. والتعبير «ارتعاد الفرائص» ارتعاد اللحمة التى تغطى القلب بين الجنب والكتف وهى كناية لطيفة عن الاضطراب والاختلال الذى يطيل الدين من قبل المدارس الالحادية والانحرافات الدينية والتى يقف بوجهها أئمة الهدى فيقضوا عليها فيعيدوا للدين صبغته الحقيقة الناصعة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۸

تأمّلان

۱- آل النبى صلى الله عليه و آله كهف الامّة الإسلامية

ما ورد فى عباراته عليه السلام يمثل الحقائف البعيدة عن أية مبالغة والتى تشهد عليها سيرة أئمة العصمة عليه السلام ولا سيما عصر أمير المؤمنين والإمام الباقر والصادق والرضا عليه السلام وكيف وقف هؤلاء العظام بوجه المدارس المنحرفة التى ظهرت إثر إتساع رقعة الإسلام وورود الأفكار المنحرفة للمناطق الإسلامية إلى جانب الخرافات والأساطير والعقائد الفاسدة والتفاسير الخاطئة المشبوهة التى أوردها الغلاة والقلاة للنيل من الإسلام المحمدى الأصيل.

فقد أفاد التاريخ أنّهم لم يعجزوا عن جواب أى سوال، بل كانوا يجيبون بما يثلج صدر الصديق ويغيظ العدو. من جانب آخر فقد شهد رحيل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله العواصف الهوجاء التى تكاد تغرق السفينة الإسلامية لولا هذه الصفوة الطاهرة، وقد تنوعت أدوارهم واتحدت أهدافهم فتارة يذود عن الدين بما يظهر من علمه ومعرفته وتبيينه لحقائق الإسلام، واخرى بدمه الشريف إن تطلب حفظ الدين ذلك وهذا ما تمثل بحركة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الميامين الذين ذادوا بمهجهم دون حياض الدين وبيضة الإسلام.

و لو تأملنا الانحرافات العقائدية والأفكار العجيبة التى سطرتها كتب الملل والنحل وقارناها مع المعارف والعقائد التى حمل رايتها أئمة أهل البيت عليه السلام- ونموذج ذلك نهج البلاغة والصحيفة السجادية «زبور آل محمد»- والروايات الوارادة عنهم عليه السلام فى الكتب من قبيل توحيد الصدوق والمصادر المشابهة لاتضحت لنا الحقيقة التى ذكرت سابقاً فى صفاتهم عليه السلام.

و أخيراً هؤلاء هم الذين وصفهم الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغه لكميل بن زياد فقال:

«اللّهم بلى لا- تخلو الأرض من قائم لله بحجة أمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته ... يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظرائهم يزرعوها فى قلوب أشباههم».[۳۸۹]

وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه و آله:

«إنّى مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۹۹

بيتى وأنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما».[۳۹۰]

۲- من هم آل النبى صلى الله عليه و آله؟

ما يفهم ممّا مرمعنا سابقاً أنّ المراد بأهل البيت الأئمة المعصومين عليهم السلام؛ لا ما ذهب إليه بعض المفسرين لنهج البلاغة من أنّ المراد بأهل البيت أولئك الذين حفظوا الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله مثل حمزة والعباس وجعفر. طبعا لا يخفى الدور الذى لعبه هؤلاء فى الذود عن بيضة الإسلام، غير أن مضمون العبارات السابقة يبدو أبعد من ذلك ولا يراد بهؤلاء سوى أئمة العصمة عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۱

القسم الرابع: لا يقاس بآل محمد أحد من الناس

اشارة

«زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبُورَ، لا يُقاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً. هُمْ أَساسُ الدِّينِ، وَعِمادُ الْيَقِينِ إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصائِصُ حَقِّ الْوِلايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِراثَةُ: الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ!».

الشرح والتفسير

يبدو أنّ الضمائر فى العبارات الثلاث الاولى بالاستناد إلى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين إنصرافه من صفين- تعود إلى القاسطين (أصحاب معاوية) والخوارج المارقين؛ كما ذهب البعض إلى أنّها تعود إلى المنافقين، أو جميع أولئك الذين خالفوا الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله.

على كل حال فقد شبههم عليه السلام تشبيه دقيق فقال عليه السلام:

«زرعوا الفجور[۳۹۱] وسقوه الغرور[۳۹۲] وحصدوا الثبور[۳۹۳]».

ثم يعود عليه السلام لبيان أوصاف آل محمد صلى الله عليه و آله بعبارات أكثر صراحة ووضوح ضمن إشارته- كعادته فى قلة الألفاظ وسعة المعانى- إلى منزلتهم الرفيعة وحقوقهم السليبة فيقول:

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۲

«لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الامّة أحد»

ودليل ذلك لا نقاش فيه، لأنّهم وعلى ضوء صريح الحديث النبوى الشريف حديث الثقلين الذى نقلته جميع مصادر الفريقين عدل القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أن ليس هنالك من الامّة أحد من قرن بالقرآن، أضف إلى ذلك فهناك الآيات القرآنية التى تؤيد هذا المعنى من قبيل آية التطهير التى تصرح بعصمتهم وآية المباهلة التى عدت البعض منهم كنفس رسول الله صلى الله عليه و آله وسائر الآيات والروايات.

و بغض النظر عمّا تقدم فان علومهم ومعارفهم التى رويت عنهم هى الاخرى لايمكن مقارنتها بعلوم الناس ومعارفهم.

فهل روى الاخرون عشر معشار ما ورد فى نهج البلاغه؟ وهل هناك من يقوى على الإتيان بدعاء من أدعية الصحيفة السجادية. وما بالك فى الأحكام الشاملة الواسعة التى رويت عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام بشأن جزئيات المسائل الدينية، والمناظرات التى عقدها الإمام الرضا عليه السلام مع سائر زعماء الأديان حول مختلف المسائل العقائدية والأبواب الفقهية؟ آنذاك يتحدث عن دليل العبارة السابقة:

«و لا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا» و

أى نعمة أعظم من تلك النعمة!

فلو لا تضحيات على عليه السلام لما ذاق الاخرون طعم الإسلام. فسيرة على عليه السلام منذ ليلة المبيت ومرورا بموقعة بدر وأحد والخندق وخيبر وغزوات الإسلام كلها شواهد على المعنى المذكور و قد بلغت منزلته من السمو والرفعة بحيث قال رسول الله صلى الله عليه و آله

«ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»

وفى عبارة اخرى

«لمبارزة على عليه السلام لعمرو بن عبدود أفضل من أعمال امّتى إلى يوم القيامة»[۳۹۴].

لقد فدى رسول الله صلى الله عليه و آله بنفسه حين بات على فراشه، وهو الذى قلع باب خيبر ودك حصونها حين عجز من سواه. وهو الذى وقف صامدا فى المواقف التى تنكص فيها الابطال وفى مقدمتها موقعة أحد حين إنفرج المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه و آله ولم يبق معه إلّاعلى بن أبى طالب عليه السلام حيث كان رسول الله صلى الله عليه و آله كلما حمل عليه العدو ناداه ردها يا بن أبى طالب.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۳

أضف إلى ذلك سائر مواقفه المشهورة فى تاريخ الإسلام سواء فى عصر النبى صلى الله عليه و آله أو ما تلاه من العصور ودافع فيها بعلمه وعمله عن الإسلام. أمّا فى عصر الخلافة الراشدة والعصر المظلم لبنى أمية وبنى العباس لم يكن سوى هولاء الأطهار من أهل البيت عليهم السلام الذين أضاءوا تلك الظلمات بنور علمهم ومعرفتهم حتى أنقذوا المسلمين من تلك الحملات الثقافية المسعورة التى تبنت إحياء سنن الجاهلية وإطفاء السنن الإلهية ولا نرى هذا الدور خافيا على أحد رغم الجهود المضنية التى، بذلها أعدائهم لاطفاء نورهم وطمس فضائلهم.

و الطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن نعمة وجود أهل البيت بشكل دائمى مستمر و خالد دون اقتصارهم على عصر دون آخر، ولاـ غرو فثمار الشجرة الإسلامية المباركة التى نقطضها إنّما زرعها الرسول الكريم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام: «لاـ يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الامّة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا». ثم يتعرض عليه السلام إلى أمرين آخرين ينبعان من الأمر السابق فيقول:

«هم أساس الدين وعماد اليقين»

. نعم فقد نزل الوحى فى بيتهم وتربوا فى أحضانه وما عندهم من علوم ومعارف إنّما أخذوها عن رسول الله صلى الله عليه و آله ولما كانت العلوم والأسرار الإلهية مودعة لديهم فهم أئمة الإيمان ودعاة اليقين. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«إليهم يفيىء الغالى، وبهم يلحق التالى»

وكيف لاـ يكونوا كذلك و هم الصراط المستقيم ۳۹۵] والامّة الوسطى ۳۹۶] وعندهم المعارف الإلهية الحقة والعقائد الإسلامية الأصيلة البعيدة عن كل إفراط وتفريط.

و لو تصفحنا تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية البعيدة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لرأينا الانحراف العقائدى الخطير من قبيل السقوط فى حبال الجبر والتفويض والتشبيه والالحاد فى أسماء الله وصفاته، بل غالى البعض فى أسماء الله وصفاته حتى قالوا بتعطيل الصفات الإلهيةأن ليس هناك من سبيل لمعرفته سبحانه (سواء المعرفة الإجمالية أو المعرفة التفصيلة)، وبالمقابل هناك الفرق التى هبطت بالذات الإلهية المقدسة إلى الحضيض فوصفته سبحانه بأنّه رجل أمرد صبيح الوجه عليه كساء أسود ملتحف به.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۴

أمّا بشأن مسألة الجبر والتفويض، فقد ذهبت الجبرية- فرقة من الفرق الضالة- إلى أنّ الإنسان كائن مسلوب الإرادة والاختيار وأنّه مجبر على أفعاله المقدرة عليه على ضوء القضاء والقدر الإلهى فانّ قدر له الكفر كفر وإن قدر له الإيمان آمن.

بينما وقفت المفوضة التى رأت للإنسان استقلالا تاماً إزاء الذات الإلهية المقدسة، فاعتقدت بانّ جميع الأفعال مفوضة للإنسان، وهكذا هوت فى وادى الشرك.

بينما تبنت مدرسة أهل البيت عليهم السلام إطروحة «الأمر بين الامرين» لتنفى مسألة الجبر والتفويض وتحذر المسلمين من الإفراط

والتفريط الذى يقود إلى الكفر والشرك، ومن هنا يتضح معنى كلام الإمام عليه السلام:

«إليهم يفيئى الغالى، وبهم يلحق التالى»

فالعبارة تشبيه لطيف كأن هنالك قافلة يقودها عدد من الرواد الماهرين، تقسم بعض الأفراد الذين يندفعون أكثر من غيرهم قدما فيضلون فى الصحراء، بينما يهن الآخرون ويتخلفون عن الركب فيصبحوا طعمة لذئاب الصحراء.

ثم يقول عليه السلام:

«و لهم خصائص الولاية»

. وتصدر الجمله بلهم تفيد إقتصار هذه المزية عليهم عليه السلام. وكيف لا يكونوا أصلح من الجميع وهم دعائم الدين واركان اليقين الذين يمثلون الإسلام الأصيل الذى لا يعرف الإفراط والتفريط، وهم النعمة الجارية على أفراد الامّة إلى يوم القيامة. ولذلك قال عليه السلام:

«و فيهم الوصية والوراثة».

نستنتج ممّا سبق أنّ وصية النبى صلى الله عليه و آله بهم واستخلافهم من بعده إنّما تستند لمامر معناً سابقاً، لا على أساس القرابة والنسب. ولا يخفى أنّ المراد بالوصية والوارثة هنا الخلافة والنبوة، بل حتى لو افترضنا أنّ الوراثة هنا هى وراثة علوم النبى صلى الله عليه و آله- كما ذهب إلى ذلك البعض- فانّ الأمر سيقود بالتالى إلى جدارتهم باحراز هذا المقام؛ لانّ خليفة النبى وإمام الخلق لابدّ أن يكون وارثاً لعلوم النبى صلى الله عليه و آله، وأنّ خليفته هو وصيه؛ فوراثة الأموال- كما نعلم- ليست بذات قيمة والوصية فى الامور الشخصية والاعتيادية لا تحظى بأية أهمية، ولاشك أنّ اولئك الذين سعوا جاهدين لتفسير الوصية والوراثة بمثل هذه المعانى إنّما يكشفون عن مدى تعصبهماستنادهم إلى العناد والأفكار المسبقة.

فليس هنالك من مسألة مهمّة تنسجم وقوله عليه السلام:

«أساس الدين وعماد اليقين

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۵

وخصائص حق الولاية»

سوى مسألة خلافة رسول الله صلى الله عليه و آله. وأخيراً يخاطب عليه السلام الامّة فى زمانه وكأنّهم قد تنكروا لبعض النعم ولا يسما عودة الحق السليب

«الآن إذا رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منقله».[۳۹۷]

يتضح ممّا قيل بشأن الوصية والوارثة أنّ المراد بالحق هنا هو الولاية والخلافة التى لا تليق سوى بأهل البيت عليهم السلام وأنّ محلهم من الخلافة محل القطب من الرحى

تأمّلان

۱- مكانة أهل البيت فى القرآن والرويات

لقد صرّحت أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بفضل أهل البيت عليهم السلام بما لا يبقى معه مجال للشك فى سمو مكانتهم وعلو منزلتهم. فآية التطهير واضحة فى طهارة أهل البيت عليهم السلام من كل رين وعصمتهم من كل رجس «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».[۳۹۸]

وآية المباهلة التى وصفت نفس على عليه السلام بأنّها نفس النبى صلى الله عليه و آله وأنّ أقرب المقربين لله ورسوله صلى الله عليه و

آله والمجابين الدعوة لديه هم الزهراء والحسن والحسين عليه السلام:

«قُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ...»[۳۹۹].

وآية التبليغ التى اعتبرت وظيفة النبى صلى الله عليه و آله فى إبلاغ ولاية على عليه السلام من أخطر الوظائف وأنّ عدم الابلاغ بمثابة عدم ابلاغ الرسالة: «يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ...»[۴۰۰]. إلى جانب ما لا يحصى من‌الآيات التى لا يسعنا الخوض فيها فى هذه العجالة، ويضاف إلى ذلك مصادر الفريقين والتى صرّحت بتواتر وصحة الأخبار الواردة فى فضائل أهل البيت عليهم السلام.[۴۰۱]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۶

أمّا الروايات الإسلامية الورادة فى الصحاح الستة فقد نقلت من فضائل أهل البيت ومناقبهم بما لا يمكن تصوره، بل أوجز بعض علماء العامة تلك الفضائل فى عدّة مجلدات ۴۰۲]، بينما ألفت عشرات المجلدات من علماء العامة فى جمع الروايات والأخبار الواردة بشأن فضائل أهل البيت.[۴۰۳]

غير أنّ الموسف ما قامت به الأيدى الآثيمة إبان الحكومات الظالمة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله والتى جهدت على طمس فضائلهم ومناقبهم لينأوا بالامّة بعيداً عن الخط الرسالى الأصيل المتمثل بأهل البيت عليهم السلام امناء الوحى وحماة العقيدة. فاولئك الذين صدوا أهل البيت عليهم السلام عن حقهم بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله هم الذين سعوا جاهدين لطمس فضائلهم، وأدهى من ذلك ما مارسه خلفاء بنى امية والعباس الذين كموا الأفواه عن التحدث بفضائلهم حتى عد ذلك جرما يعاقب عليه بالسجن أو الأعدام.

و لولا لطف الله وعنايته لما بقيت من آثار هم شيئاً ولا ختفت فضائلهم ومناقبهم ولا يسعنا هنا إلّاأن نورد ما ذكره شارح نهج البلاغه ابن أبى الحديد المعتزلى بهذا للشأن فقد قال:

فأمّا فضائله عليه السلام؛ فانّها قد بلغت من العظم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمج معه التعرض لذكرها، والتصدى لتفصيلها؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل: رأيتنى فيما أتعاط من وصف فضلك، كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، الذى لا يخفى على الناظر، فأيقنت أنى حيث إنتهى بى القول منسوب إلى الدعاء لك، ووكلت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وما أقول فى رجل أقر له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جحد مناقبه، ولا كتمان فضائله، فقد علمت أنّه استولى بنو امية على سلطان الإسلام فى شرق الأرض وغربها، وإجتهدوا بكل حيلة فى اطفاء نوره، والتحريض عليه، ووضع المعايب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا ماد حبه، بل حبسوهم‌قتلوهم، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة، أو يرفع له ذكراً، حتى حظروا

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۷

أن يسمى أحد باسمه؛ فما زاده ذلك إلّارفعة وسموا؛ وكان كالمسك كلما ستر إنتشر عرفه، وكلما كتم تضوع نشره؛ وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عين واحدة، أدركته عيون كثيرة.[۴۰۴]

وقد نقل مثل هذا المعنى فى بعض المصادر، حيث صرّح الشافعى: عجبا لرجل أخفى أعداؤه فضائله حسدا وأولياؤه خوفا فظهر بين هذا وذلك ما ملئ الخافقين.[۴۰۵]

وقد روى مثل هذا المضمون أيضا عن عامر بن عبدالله بن الزبير[۴۰۶].

۲- تبريرات واهية

جدير ذكره أنّ إبن أبى الحديد حين يصل عبارة الإمام عليه السلام «الآن إذا رجع الحق إلى أهله ...» فى شرحه لنهج البلاغة يقول:

لقد ذكر الإمام عليه السلام أن الحق رجع الآن إلى أهله؛ وهذا يقتضى أن يكون فيما قبل فى غير أهله، ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الامامية، ونقول:

انه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحق، لا على وجه النص، بل على وجه الأفضلية، فانّه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه و آله، وأحق بالخلافة من جميع المسلمين، لكنه ترك حقّه لما علمه من المصلحة، وما تفرس فيه هو والمسلمون من إضطراب الإسلام، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له وضغنهم عليه وجائز لمن كان أولى بشى فتركه ثم استرجعه أن يقول: قد رجع الأمر إلى أهله ۴۰۷].

حقاً أنّ الأحكام المسبقة هى التى تحول دون الاقرار بمفهوم هذه العبارة الواضحة، فلو أراد الإمام عليه السلام أن يقول: لم يودع الحق أهله قبل هذا والآن رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله فله أن يذهب إلى ما ذهب إليه، هذا من جانب ومن جانب آخر فاننا نعلم بأن القول: ان العرب تحسده وتكن له البغض والعداء إنّما هو قول أجوف لا أساس له. نعم كانت هذه الحالة تسود فئة قليلة ممن تبقى من أعقاب المشركين والكافرين، وبعبارة اخرى فانّ العداء كان يعيش فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۸

قلوب زعماء قريش وأحبار اليهود وكبار المنافقين الذين تلقوا من الإمام عليه السلام الضربات المهلكة والموجعة فى المعارك من قبيل بدر وخيبر وحنين، بينما كانت الامّة بابنائها تحب علياً عليه السلام ولذلك ورد فى الحديث النبوى المعروف الذى نقلته المصادر الإسلامية المعتبرة أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام:

«لا يبغضك إلّامنافق»[۴۰۸].

وجاء فى صحيح الترمذى- أحد الصحاح الستة المعتمدة لدى أبناء العامة- عن أبى سعيد الخدرى قال:

«إنا كنّا لنعرف المنافقين ببغضهم على بن أبى طالب»[۴۰۹].

فهل يرضى إبن أبى الحديد أن تكون الأكثرية الساحقة من المسلمين آنذاك منافقة؟ ومن هنا نرى مدى الفرح والسرور الذى عم أوساط المسلمين حين توليه الخلافة بما لا يمكن مقارنته وسائر الخلفاء، والحال أنّ أغلب معاصريه وممن مد له يد البيعة هم من صحابة النبى صلى الله عليه و آله أو أبنائهم.

و عليه فتبريره واهى لا يصمد إمام الحقائق والواقعيات. وأمّا قوله: إنّه كان أولى بالأمر وأحق لاعلى وجه النص، فهو الآخر كلام أجوف يجانب الحق وسنثبت بطلانه فى محله.[۴۱۰]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۹

الخطبة الثالثة

اشارة

و من خطبة له عليه السلام وهى المعروفة بالشقشقية وتشتمل على الشكوى من أمر الخلافة ثم ترجيح صبره عنها ثم مبايعة الناس له.

القسم الأول

اشارة

«أَما وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهِا فُلانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّى مِنْها مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى. يَنْحَدِرُ عَنِّى السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَىَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَها ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْها كَشْحاً. وَطَفِقْتُ أَرْتَئِى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْياءَ، يَهْرَمُ فِيها الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيها الصَّغِيرُ،

وَيَكْدَحُ فِيها مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى، وَفِي الْحَلْقِ شَجًا، أَرَى تُراثِي نَهْباً».

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هـذه الخطبـة من أهم خطب نهـج البلاغـة حيث تتكفل بشـرح مسألة الخلافة بعد رحيل رسول الله صـلى الله عليه و آله. وهنالك بعض الامور التى تضمنتها هذه الخطبة بما لم يرد شبيهها فى سائر خطب نهج البلاغة، ورغم قلة عباراتها، إلّاأنّها أوجزت عصر الخلافة الراشدة التى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۰

نهضت بالأمر بعيـد وفـاة رسول الله صـلى الله عليه و آله. إلى جـانب ذلـك هنـاك التحليلات الدقيقـة والرائعـة التى تلفت إليها إنتباه المحققين والباحثين. ونرى هنا أن نشير إلى بعض الامور قبل أن نخوض فى شرح وتفسير هذه الخطبة:

۱- اسم الخطبـة: لقـد اقتبس اسم الخطبـة من عبارتهـا الأـخيرة التى أطلقهـا الإمـام عليه السـلام حين قـاطع أحـدهم الإمام عليه السـلام فتوقف، فناشـده ابن عباس مواصـلة الخطبـة فقال له عليه السـلام: «تلك شقشـقة هدرت ثم قرت» وهكذا رفض عليه السـلام طلب ابن عبـاس، حيث تغير الجو الـذى كـان سائـداً لاطلاق الإمام عليه السـلام تلك العبارات الحماسـية الخطيرة، فقـد قام أحـد الأفراد من بين الناس وسلم الإمام عليه السلام كتابا (قيل ان فيه مسائل كان يريد الاجابة عنها) فانصرف ذهن الإمام عليه السلام إلى امور اخرى

۲- زمان صدور الخطبة: هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن زمان صدور هذه الخطبة. فيعتقد البعض- كالمحقق الخوئى- أنّ الإمام عليه السـلام وبالاسـتناد إلى مضامين الخطبة وطرق أسـنادها وروايتها انّه أوردها أواخر عمره الشريف بعيد موقعة الجمل وصفين والنهروان حين قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ۴۱۱]. والحق أنّ مضمون الخطبة يؤيد هذا الرأى.

۳- مكان الخطبة: لقد سـكت جمع من شرّاح نهج البلاغة عن مكان صدور الخطبة، بينما يعتقد البعض أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين ارتقى المنبر فى مسجد الكوفة، وقال ابن عباس:

لقد ألقى الإمام عليه السلام هذه الخطبة فى الرحبة[۴۱۲] حين وقع الكلام عن الخلافة.

۴- سـند الخطبـة: هناك بحث فى سـند الخطبـة أيضا. قال البعض: هـذه الخطبة من الخطب المتواترة بينما صـرّح البعض الآخر بعكس ذلـك ولم ينسب هـذه الخطبـة لعلى عليه السـلام وإنّه لم يشـكو قـط من الخلافـة وإنّمـا ذلك من وضع الشـريف الرضـى. أمّا الشارح المعروف ابن ميثم البحرانى فقد قال: الادعاء انّ المذكوران باطلان وفيهما إفراط وتفريط. فسند الخطبة لم يبلغ حد

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۱

التواتر، ولا أساس للزعم القائل أنّها من وضع الشريف الرضى، والحق آنهاصدرت من الإمام عليه السلام ۴۱۳].

و يبـدو أنّ الإشـكالات الواردة على الخطبـة لم تتأتى من ضـعفها أو ركاكتها أو تفاوتها من حيث الاعتبار مع سائر خطب نهج البلاغة، بل بالعكس وكما سيأتى خلال البحث أنّ الخطبة تشتمل على عدّة أسناد يتعذر وجود مثلها فى سائر بعض خطب نهج البلاغة.

أمّا السبب الوحيد الذى يمكن إسـناد الإشـكال إليه إنّما يكمن فى عدم إنسجام مضامين الخطبة والذهنية السائدة لبعض الأفراد الذين ينتمون إلى عدد من الفرق والمذاهب. فهولاء وبدلًا من اتهام ذهنيتهم وبلورتها على أساس مضمون الخطبة جهدوا فى القدح باسنادها بغية الإبقاء على ما يسود أذهانهم من أفكار منحرفة وعقائد باطلة. أمّا الاسناد التى ذكرت للخطبة من غير نهج البلاغة فهى كالاتى:

أ- قال ابن الجوزى فى تـذكرة الخواص: لقـد أورد الإمام على عليه السـلام هـذه الخطيـة حين صـعد المنبر جواباً لمن سأله: «ما الـذى أبطأبك إلى الآن»[۴۱۴]. وهذا يدل على أن ابن الجوزى كان يملك سندا آخر لهذه الخطبة؛ لان هذا السؤال لم يرد فى نهج البلاغة، وعليه فقد كان له طريقا آخر.

ب- قال الشارح المعروف ابن ميثم البحرانى: لقد عثرت على هذه الخطبة فى كتابين الفا قبل ولادة الشريف الرضى:

الأول كتاب الانصاف لأبى جعفر ابن قبة تلميذ الكعبى أحد كبار المعتزلة الذى توفى قبل ولادة الشريف الرضى. والثانى النسخة التى كتب عليها بخط أبو الحسن على بن محمد بن فرات وزير المقتدر بالله، وقد توفى لستين سنة ونيف قبل ولادة الشريف الرضى، ثم يضيف:

يقوى ظنى أنّ تلك النسخة كتبت منذمدة قبل ولادة ابن فرات ۴۱۵].

و قال ابن أبى الحديد: قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب دعابة وهزل، قال: فقلت له: أتقول أنّها منحولة! فقال: لا والله، وإنّى لاعلم أنّها كلامه، كما أعلم أنّك مصدق.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۲

قال: فقلت له: إنّ كثيراً من الناس يقولون أنّها من كلام الرضى رحمه الله تعالى. فقال: أنى للرضى ولغير الرضى هذا النفس وهذا الاسلوب! قد وقفنا على رسائل الرضى، وعرفنا طريقته وفنه فى الكلام المنثور، وما يقع مع هذا الكلام فى خل ولاخمر: ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة فى كتب صنفت قبل أن يخلق الرضى بمائتى سنة، ولقد وجدتها مسطورة.

بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الادب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضى. قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة فى تصانيف شيخنا أبى القاسم البلخى إمام البغداديين من المتعزلة، وكان فى دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضى بمدة طويلة.

ووجدت كثيرا منها فى كتاب أبى جعفر بن قبة أحد متكلمى الإمامية وهو الكتاب المشهور والمعروف بكتاب «الانصاف» وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبى القاسم البخلى رحمه الله تعالى ومات فى ذلك العصر قبل أن يكون الرضى رحمه الله تعالى موجوداً[۴۱۶].

أمّا العلّامة الأمينى فقد نقل هذه الخطبة فى المجلد السابع من كتابه الغدير على أنّها نقلت فى ثمانية وعشرين كتابا.

مضمون الخطبة

ذكرنا سابقاً أن الخطبة تتعرض بجميع نصوصها إلى مسألة الخلافة بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والمشاكل التى أفرزها عصر الخلفاء ممن سبقوه ثم يتطرق صراحة إلى أحقيته بالخلافة من الجميع معربا عن أسفه وابتئاسه لخروج الخلافة عن محورها الأصلى الذى خطط له الإسلام والنبى. وأخيراً يتحدث عن قضية مبايعة الامّة والأهداف الكامنة وراء قبول البيعة بعبارات قصيرة غاية الروعة والبيان.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۳

الشرح والتفسير

تحليل مهم لمسألة الخلافة

تشير الخطبة- كما ذكرنا سابقاً- إلى العواصف العنيفة والخطيرة التى هزت الامّة الإسلامية وحرفت خلافة رسول الله صلى الله عليه و آله بعيد وفاته عن مسارها السليم، كما تتعرض لاصلح الأفراد وأجدرهم بالأخذ بزمام شؤون الامّة وزعامتها على ضوء المنطق والدليل والبرهان، كما تعرج الخطبة على وخامة المعضلات التى أفرزها تقاعس المسلمين عن الالتزام بنصوص النبى صلى الله عليه و آله الواردة بشأن زعامة المسلمين.

فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بشكواه ممّا آلت إليه الخلافة فقال:

«أما والله لقد تقمصها[۴۱۷]

فلان وإنّه ليعلم أنّ محلى منها محل القطب من الرحا[۴۱۸]».

لا شك ولا إشكال فى أنّ الضمير فى «تقمصها» يعود إلى الخلافة، ولعل التعبير بالقميص إشارة إلى أمر وهو أنّ فلاناً قد استغل مسألة الخلافة كقميص يزين به نفسه، والحال أنّ هذه الرحا تتطلب محوراً قوياً يحفظ نظامها فى الحركة ويحول دون إنحراف مسارها وتعثر بفعل المطبات التى تواجهها وتسيرها بما يضمن مصالح الإسلام والمسلمين. أجل فالخلافة ليست قميصا، بل هى رحى الجامعة، وليس للخلافة من غنى عن المحور.

هى ليست ثوباً يرتدى. ثم يستدل عليه السلام بدليل واضح على المعنى المذكور ليكشف عن مدى علمه وسمو مقامه

«ينحدر[۴۱۹] عنى السيل ولا يرقى الى الطير».

فقوله عليه السلام

«ينحدر عنّى

السيل»

يعنى رفعة منزلته عليه السلام كأنّه فى ذروة جبل أو يقاع مشرف، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان، وقوله عليه السلام

«و لا يرقى إلىّ الطير»

هذه أعظم فى الرفعة والعلو من التى قبلها، لان السيل ينحدر عن الرابية والهضبة، وأمّا تعذر رقى الطير فر بما يكون للقلال الشاهقة جدا، بل ما هو أعلى من قلال الجبال، كأنه يقول: إنّى لعلو منزلتى كمن فى السماء التى يستحيل أن يرقى الطير إليها.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۴

والتشبيه المذكور ينسجم وما ورد فى القرآن الكريم بشأن دور الجبال فى إستقرار الأرض «وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»[۴۲۰]. أجل لولا هذه السلسلة العظيمة من الجبال لسلبت السكينة والاستقرار من الناس بفعل الضغوط الجوفية لباطن الأرض من جانب وتأثير جاذبية الشمس والقمر وجزر ومد القشرة الأرضية من جانب آخر وأخيراً هبوب العواصف، ولا نعدمت المياه التى تنهمر من السماء فتصب فى البحار والمحيطات وتشكل مصادر الأنهار والأبار والعيون. فوجود الإمام المعصوم والعالم العارف يشكل معين الخير البركة والسكينة لكل امّة.

إلى جانب كون تعبير الإمام عليه السلام يشير إلى تعذر سبر أغوار أفكار الإمام عليه السلام والوقوف على كنه شخصيته وذروة علمه ومعرفته، ولايتيسر ذلك إلّالمعلم الإمام نبى الإسلام محمد المصطفى صلى الله عليه و آله. حتى صحابة الإمام عليه السلام كانوا ينتهلون حسب إستعدادهم من منهله العذب ويحيطوا بظاهره على قدر معرفتهم وعلمهم ۴۲۱].

النقطة الاخرى الجديرة بالذكر تكمن فى الاستفادة من الأنهار فى حركة الرحى وتنبع هذه الأنهار من الجبال كما أنّها تفصل هذه الرحى عن الجبال. ولعل العبارة المذكورة إشارة إلى هذا المعنى، أى أنا المحور والرحى والقوة المحركة المليئة بالعلم والمعرفة. وكما أشرنا آنفا فان قمم الجبال تختزن بركات السماء كحبات ثلج ثم تفيض بها على الأرض الهامدة المتعطشة للماء، ويمكن أن تكون العبارة إشارة إلى قرب الإمام عليه السلام من الوحى والاغتراف من كوثر النبى صلى الله عليه و آله.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالسيل فى العبارة هو علم الإمام عليه السلام الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه و آله بقوله:

«أنا مدينة العلم وعلى بابها»[۴۲۲]

كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه فسر

«ماء معين»

الواردة فى الآية ۳۰ من سورة الملك «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ» بعلم الإمام عليه السلام ۴۲۳].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۵

و هنا تطرح بعض الأسئلة نفسها من قبيل:

الأول: لم مدح الإمام عليه السلام نفسه والحال ورد الذم على ذلك كقوله

«تزكية المرء لنفسه قبيح»

. وللإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك فارق بين مدح النفس والتعريف بها. فقد تكون الامّة أحيانا جاهلة بشخصية فرد؛ الأمر الذى لا يجعلها تستفيد منه ومن طاقاته كما ينبغى فالتعريف بالشخص هنا سواء من قبله أو من قبل الآخرين ليس فقط لا ضير فيه فحسب، بل هو عين الصواب والسبيل الصحيح للنجاة وهو بالضبط من قبيل تعريف الطبيب بمجال تخصصه الذى يضعه على الوصفة الطبية، الأمر الذى يهدف إلى إرشاد المرضى فى مراجعته ولا ينطوى على أى مديح للشخص.

السؤال الثانى: قوله عليه السلام:

«ينحدر عنّى السيل ولا يرقى إلىّ الطير»

هو زعم منه عليه السلام ليس أكثر فهل قام الدليل عليه؟

يبدو أنّ الإجابة على هذا هى أوضح منها على السؤال الأول؟ لان المقام العلمى الذى اختص به أمير المؤمنين على عليه السلام ليس بخاف على من له أدنى إطلاع بتأريخ الإسلام والمسلمين.

فنا هيك عن تواتر الأحاديث النبوية الجمة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه و آله فى فضل علمه وتصريحات العلماء الأعلام فى أنّه مصدر كافة العلوم والمعارف الإسلامية وزعيمها[۴۲۴]، إلى جانب تصديه لأعقد المسائل التى كان يعجز عنها من سبقه من الخلفاء فان أدنى مطالعة لرسائلهخطبه وقصار كلماته التى جمعت فى نهج البلاغة لكافية فى الوقوف على هذه الحقيقة.

فلو تصفح كل إنسان منصفٍ- مسلما كان أم غير مسلم- نهج البلاغة لخضع متواضعا لعظمة الإمام ولعاش عملياً مفهوم قوله عليه السلام:

«ينحدر عنّى السيل ولا يرقى إلىّ الطير».

السؤال الثالث: كيف يشكو عليه السلام الحوادث المرتبطة بالخلافة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله، ألا يتنافى ذلك ومفهوم الصبر والرضا والتسليم؟

تبدو الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة. فالصبر والرضا والتسليم موضوع، وتبيين

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۶

الحقائق ليدونها التاريخ ويلم بها أبناء الامّة فى الحاضر والمستقبل موضوع آخر، بحيث لايتضمن الأمر أية منافاة فحسب، بل هو من أوجب الواجبات، وما القضايا المتعلقة بالخلافة إلّانموذج حى من هذه النماذج. ففى الحقيقة والواقع أنّ مصالح المجتمع الإسلامى والاجيال الإسلامية القادمة هى التى تحتم تبيين هذه الحقائق كى لا تودع بوتقة النسيان.

ثم قال عليه السلام:

«فسدلت ۴۲۵] دونها ثوياً، وطويت عنها كشحاً[۴۲۶]».

تفيد هذه العبارة بوضوح أنّ رد فعل الإمام عليه السلام حيال تلك الحادثة لم يكن يتضمن الاستعداد والتاهب لخوض الصراع والاشتباك مع الآخرين، بل تجاهل بكل بسالة وزهد ذلك الأمر لاسباب سنتطرق إلى ذكرها.

ولكن من جانب آخر فان بعض الأفكار كانت تمارس ضغطها عليه لتجعله يتساءل: ما الذى ينبغى فعله تجاه هذا الانحراف الخطير وكيف ينهض بمسئوليته التاريخية بالنسبة لهذا الأمر؟ ومن هنا أردف قائلًا:

«وطفقت أرتئى بين أن أصول بيد جذاء[۴۲۷]، أو أصبر على

طخية[۴۲۸] عمياء».

فالأمام عليه السلام يكشف فى هذه العبارة عن حقيقة وهى: أننى لم أنس طرفة عين مسئوليتى تجاه الامّة والوظيفة التى وضعها الله ورسوله صلى الله عليه و آله على عاتقى، ولكن ليت شعرى ما أنا فاعل وهناك محذوران: المحذور الأول: هل أنهض بالأمر وأخوض الصراع مع الغاصبين، والحال لا أملك العدّة والعدد من جانب، ومن جانب آخر فان من شأن هذه النهضة أن تشق عصا المسلمين وتفرق صفوفهم وتثلج صدور الأعداء والمنافقين الذين يتربصون بالمسلمين مثل هذه الفرصة ليجهزوا على الإسلام.

المحذور الثانى: أنّ ألتزم الصبر والصمت حيال هذه الحادثة فى ظل هذه الأجواء الدامسة الظلام. والتعبير بالطخية العمياء ينطوى على روعة فى الدقة والبيان فالطخية تعنى الظلام،

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۷

وأحيانا يمكن إختراق الظلمة- إذا لم تكن شديدة- لمشاهدة شبح ما خلالها، غير أنّ هذه الظلمة من الشدة والعتمة بحيث أطلق عليها العمياء لتعذر رؤية أى شىء من خلالها. ثم يتحدث الإمام عليه السلام عن خصائص تلك الظلمة والفتنة ليوجزها فى عبارات ثلاث عميقة المعنى فيقول:

«يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح ۴۲۹] فيها مومن حتى يلقى ربه».

و يفهم من هذه العبارة أنّ المعاناة ستعم الجميع. فهى تشيب الصغير وتهرم الكبير بينما ستتضاعف معاناة المؤمنين بفعل تصاعد حدة المشاكل التى سيشهدها المجتمع الإسلامى والاخطار التى تهدد كيانه بما يجعلهم يعيشون هالة من الغم والحزن على مصير الإسلام. فلم تمض مدّة حتى تبلورت تلك الاخطار لتشهد ولادة العصر الاموى الذى تمكن خلال مدّة قياسية من القضاء على الصرح الإسلامى الذى شيده رسول الله صلى الله عليه و آله وصحبه بجهودهم المضنية ومساعيهم العظيمة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ليعلن عن موقفه تجاه القضية وعزمه على التحلى بالصبر:

«فرأيت أن الصبر على هاتا[۴۳۰] أحجى ۴۳۱]»

. ثم يصف عليه السلام طبيعة ذلك الصبر فيقول:

«فصبرت

وفى العين قذى ۴۳۲] وفى الحلق شجا».[۴۳۳]

فالعبارة صورة واضحة عن ذروة إستياء الإمام عليه السلام وتذمره فى تلك السنوات من المحنة والمصيبة، بحيث لم يكن يسعه أن يغمض عينه عن تلك الأحداث أو يفتحها، كما لم يكن يسعه أن يرفع صوته ويعلن عن مدى حرقته، وكيف لا يكون كذلك

«أرى تراثى نهبا».

تأمّلات

۱- لم آثر الإمام عليه السلام الصبر؟

يشهد التاريخ أنّ المنافقين وخصوم الدعوة كانوا يتربصون بالنبى صلى الله عليه و آله ورحيله عن دار

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۸

الدنيا لتتفتت وحدة المسلمين ويتصدع كيانهم ليتمهد أمامهم السبيل من الانقضاض على الدين وأهله وبالتالى كسر شوكته والقضاء عليه؛ فلو نهض الإمام عليه السلام بالأمر فى ظل هذه الظروف من أجل نيل حقّه أو بعبارة اخرى بغية اعادة المسلمين إلى المسار الإسلامى الصحيح لعصر النبى صلى الله عليه و آله وبالالتفات إلى القرارات التى اتخذت سلفا باقصاء الإمام عليه السلام عن الخلافة

فانّ قتالًا سينشب لتعم الفوضى والاضطراب فى صفوف المجتمع الإسلامى بما يمهدّ السبيل أمام المنافقين والمتربصين لنيل أطماعهم ومآربهم، والشاهد الحى على ذلك تمرد المرتدين عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله الذين هبوا للوقوف بوجه الحكومة الإسلامية، ولم يكتب لهم النجاح بفعل المقاومة التى أبدتها الامّة تجاههم.

فقد صرّحت بعض السير التاريخية بهذا المجال:

«لما توفى رسول الله صلى الله عليه و آله إرتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية»[۴۳۴].

هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فان نهوض الإمام عليه السلام بالأمر قد لا تبدو فيه بارقة أمل بالنصر بفعل غياب العدّة والعدد من أنصار الحق، ولعل قيام الإمام عليه السلام بالأمر لا يفسر من أغلب الجهال كانتصار للدين والعقيدة بل يعزوه إلى قضايا شخصية محضة.

غير أنّ الخسائر التى تكبدها المسلمون على مرور الزمان إثر انحراف مسار الخلافة عن محورها قد صورها الإمام عليه السلام بمثابة القذى فى العين والشجا فى الحلق. وهذا درس كبير لكافة المسلمين على مدى التاريخ وهو أنّ إحقاق الحق إذا استلزم توجيه ضربة إلى دعائم الدين وجب التحفظ عنه وعدم المبادرة إليه، لان حفظ الدين مقدم عى كل ماسواه، وليس هنالك من سبيل فى مثل هذه الحالة سوى التحلى بالصبر والتحمل. وقد ورد شبيه هذا المعنى فى الخطبة رقم ۶۰ حيث قال عليه السلام:

«فنظرت فاذا ليس لى معين إلّاأهل بيتى ... وأغضيت على القذى وشربت على الشجى».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۹

۲- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافة؟

لقد قال الإمام عليه السلام: «أرى تراثى نهبا» وهنا يبرز هذا السؤال: لم عبر الإمام عليه السلام عن الخلافة بالارث؟!

و تتضح الإجابة على هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهى أنّ الخلافة إرث معنوى وإلهى ينتقل من النبى صلى الله عليه و آله إلى أوصيائه المعصومين عليه السلام فهو ليس من قبيل الارث الشخصى والمادى والحكومة الظاهرية. وقد ورد شبيه هذا المعنى فى‌الآيات القرآنية بشأن «زكريا» الذى سأل الله من يرثه ويرث آل يعقوب «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»[۴۳۵].

و الحق أنّ هذا الارث يتعلق بجميع الامّة إلّاأنّ الإمام خليفة النبى صلى الله عليه و آله هو الذى ينهض به.

ونقرأ بشأن وراثة الكتاب السماوى: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا»[۴۳۶].

وعلى غرار ذلك ورد الحديث النبوى المشهور

«العلماء ورثة الأنبياء»[۴۳۷].

وشاهدنا على مامرّ معنا سيرة الإمام عليه السلام وحياته التى أفادت عدم تعلقه من قريب أو بعيد بمال الدنيا وحطامها والخلافة- إلّاأنّ ينهض بوظيفته فى إحقاق حق أو ازهاق باطل- التى لم تكن تعدل عنده عفطة عنز أو قيمة نعليه. لكن والحال هذه كيف يصف صبره على فقدان الخلافة بالقذى فى العين والشجى فى الحلق؟ لقد ذهب البعض إلى أنّ مراده بالثراث المنهوب هو فدك التى ورثها رسول الله صلى الله عليه و آله بنته الزهراء عليه السلام، وقد اعتبر ذلك أرثه لمال الزوجة بحكم مال الزوج ۴۳۸]، غير أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعدا لأنّ الخطبة بجميع مضامينها تعالج قضية الخلافة.

۳- الإمام عليه السلام جليس البيت

لا أحد يسعه إنكار الخسائر الفادحة التى تكبدها العالم الإسلامى إثر إقصاء على عليه السلام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۰

وجلوسه فى داره، فلو قصرنا نظرنا على البعد العلمى حين تصفحنا لنهج البلاغة الذى يمثل جزءا من خطبه ورسائله وكلماته القصار التى أوردها خلال تلك المدّة القصيرة من حكومته رغم ما انطوت عليه من أحداث مريرة وحروب دامية، لا كتشفنا بيسر مدى العلوم والمعارف والخيرات والبركات التى كانت ستعم العالم الإسلامى بل الدنيا برمتها لولا تلك المدّة المديدة- ۲۵ سنة- التى اضطر فيها الإمام عليه السلام للجلوس فى بيته. لا شك أنّ حرمان المجتمع من فيوض الإمام عليه السلام قد جر عليها الويلات والدمار. ولكن ما العمل يا ترى وقد سلبت الأمة هذا الفيض العظيم لتبدو خسائره واضحة على مدى التأريخ.

۴- لماذا تعرض الإمام عليه السلام لقضية الخلافة؟

يتساءل البعض: ألم يكن من الأفضل أن يسدل الإمام عليه السلام الستار على الماضى ولا يتطرق إلى مسألة الخلافة؛ الأمر الذى قد يثير الفرقة والتشتت فى صفوف المسلمين ويشق وحدتهم؟

و لا عجب فاننا نرى اليوم البعض ممن يردد هذا الكلاح، فما أن تطرح قضية الخلافة وأنّ الإمام أحق بها واولى من غيره حتى تتعالى الأصوات مطالبة بالصمت ونسيان الماضى تحت ذريعة الحفاظ على الوحدة الإسلامية وأننا نواجه اليوم أعداء الإسلام والمخاطر الكبرى ومن شأن إثارة هذه الأحاديث أن تضعف المسلمين فى مجابهة أعدائهم؛ بل هل من جدوى لمثل هذه الأحاديث والحال أن أتباع كل مذهب يواصلون مسيرتهم دون الإكتراث لهذا الصوت أو ذاك، وعليه فمن المستبعد أن تلعب هذه الامور أى دور على مستوى إخوة المسلمين ووحدتهم.

وللإجابة على هذا التساؤل لابدّ من التذكير بأمرين:

أ- إنّ الوقائع الموجودة لا يمكنها إخفاء الحقائق البتة. فهذه حقيقة قائمة وهى أنّ النبى صلى الله عليه و آله.

قد أكد فى أكثر من مناسبة على إستخلافه. فما الذى حدث لتشوه هذه الحقيقة وينصح بعدم إثارتها بعد تأكيدها من قبل النبى صلى الله عليه و آله وبناءاً على ما تقدم فانّ علياً عليه السلام الذى يتبنى الحق حيثما كان له الحق فى التصدى للوقائع القائمة التى لا تنسجم والحقيقة، فيتعرض للحقائق المرتبطة بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه و آله ليتسنى للمحققين أن يصدروا أحكامهم بهذا الشأن ولو بعد

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۱

قرون مديدة ليعرفوا الحق وأهله والباطل وأهله فيسلكوا سبيل الحق على ضوء دراساتهم وتحقيقاتهم. على كل حال لا يمكن منع إنسان عن بيان الحقيقة، ولو افترضنا قدرتنا على ذلك فاننا لا نمتلك الحق فى منعه، لما يتضمته المنع من خسائر فادحة، وذلك لأن الواقع القائم غالبا ما يختلف والحقيقة وقد يبتعد عنها مسافة شاسعة. فالوضع القائم لا يعنى أبداً أن يكون هو السائد على الدوام حيث يلهمنا الإسلام أن نسعى لا قتفاء ما ينبغى أن يكون، وممّا لا شك فيه أنّ مسألة الخلافة والامامة بعد النبى صلى الله عليه و آله لمن المباحث الدينية الرئيسية؛ سواء كانت جزءاً من أصول الدين كما يعتقد بذلك أتباع مدرسة أهل البيت عليه السلام، أو جزءاً من فروع الدين. مهما كان فهى مسألة مصيرية من وجهة النظر الدينية ولا تنطوى على أية صيغة شخصية، خلافاً لما يزعمه البعض من الجهال والغافلين فهى ليست مبحثاً تأريخياً يتعلق بالماضى قد أكل عليه الدهر وشرب؛ بل هى قضية تنطوى على عدّة معطيات مؤثرة فى حاضر المسلمين ومستقبلهم، كما لا يخفى أثرها فى العديد من المسائل الإسلامية المرتبطة باصول الدين وفروعه؛ وهذا هو الأمر الذى يقف وراء إثارة الإمام عليه السلام لمسألة الخلافة كراراً ومراراً.

ب- إنّ الأبحاث العقيمة والجدل الفارغ القائم على أساس التعصب والجمود هى التى تشكل الخطر الأساس على وحدة الامّة الإسلامية وشق صفوفها؛ أمّا الأبحاث العلمية والمنطقية التى يراعى فيها أطراف الحوار والبحث الحدود والموازين العلمية والمنطقية فليست بذات خطر على الوحدة الإسلامية فحسب، بل من شأنها أن تساعد فى إرسائها وتوثيق دعائمها. طبعا هذا ليس ضربا من الخيال الفكرى بل عشناه على مستوى الواقع والتجربة.

فقد أقيمت أخيراً ندوة فى إحدى المدن بمناسبة أسبوع الوحدة حضرها كبار العلماء والمفكرين من الفريقين نوقشت خلالها أغلب القضايا الخلافية وقد تمخضت عن عدّة نتائج طيبة حيث قربت وجهات النظر وضغطت حدة الخلافات، بما جعل الجميع يوقنون بأنّ مثل هذه الأبحاث والحوارات يمكنها أن تقضى على الفجوة بين المذاهب الإسلامية وتوطيد أواصر الاخوة بما يخدم وحدة المسلمين [۴۳۹].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۲

بل أبعد من ذلك أننا نرى الحوار بشأن الأديان السماوية هو الآخر من شأنه أن يتمخض عن نتائج مفيدة بما يقلل من هوة الخلاف، وليعلم أولئك الذين يقفون بوجه هذه الحوارات البناءة أنّهم يساهمون بشكل أو بآخر فى مضاعفة الخلافات وتعميق الفجوة بين الأديان والمذاهب.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۳

القسم الثانى: عصر الخليفة الثانى

اشارة

حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلانٍ بَعْدَهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْشَى:

«شَتَّانَ ما يَوْمِى عَلَى كُورِهاوَ يَوْمُ حَيَّانَ أَخِى جابِرِ

نفحات الولاية ؛ ج۱ ؛ ص۲۲۳

فَيا عَجَباً!! بَيْنا هُوَ يَسْتَقِيلُها فِى حَياتِهِ إِذْ عَقَدَها لِآخَرَ بَعْدَ وَفاتِهِ- لَشَدَّ ما تَشَطَّرا ضَرْعَيْها- فَصَيَّرَها فِى حَوْزَةٍ خَشْناءَ يَغْلُظُ كَلْمُها، وَيَخْشُنُ مَسُّها وَيَكْثُرُ الْعِثارُ فِيها وَالاعْتِذارُ مِنْها، فَصاحِبُها كَراكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَها خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَها تَقَحَّمَ، فَمُنِىَ النَّاسُ- لَعَمْرُ اللَّهِ- بِخَبْطٍ وَشِماسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِراضٍ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام على عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى عهد الخليفة الثانى فقال:

«حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده».[۴۴۰]

أدلى من مادة دلو وهى تستعمل فى سحب الماء من البئر بالحبل والدلو كما تستعمل بمعنى الجائزة والاجرة والرشوة فى الحكم، فقد قال القرآن بهذا المجال: «وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكّامِ»[۴۴۱].

قال ابن أبى الحديد المعتزلى: وعمر هو الذى شد بيعة أبى بكر، ورغم المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لما جرده، ودفع فى صدر المقداد، ووطىء فى السقيفة سعد بن عبادة، وقال: اقتلوا

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۴

سعداً، قتل الله سعداً. وحطم أنف الخباب بن المنذر الذى قال يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكك، و غذيقها المرجب.

و توعد من لجأ إلى دار فاطمة عليه السلام من الها شميين، وأخرجهم منها، ولولاه لما يثبت لأبى‌بكر أمر، ولا قامت له قائمة[۴۴۲].

و من هنا تتضح روعة تعبيره عليه السلام بأدلى ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومى على كورهاويوم حيان أخى جابر[۴۴۳]

حيث أراد الإمام عليه السلام أن يقول كنت أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه و آله وأعظمهم منزلة وحرمة بل كنت نفس رسول الله صلى الله عليه و آله غير أنّهم أقصونى بعده وأخذوا يتلاقفون الخلافة التى لا تصلح إلّالى فيرمون بها لمن يشاؤون.

وذهب البعض إلى أنّه أراد أن يقارن بين خلافته- من تمثله بهذا الشعر- وخلافة من سبقوه ممن كانوا فى نعمة ورخاء بينما حفل عهده لا- بتعاده عن عصر رسول الله صلى الله عليه و آله بالويلات و المصائب «بالطبع هذا إذا كان الأعشى أراد مقارنة حاله بحال حيان».[۴۴۴]

ثم يعبّر الإمام عليه السلام عن اندهاشه وذهوله لما يحصل

«فيا عجبا!! بينا هو يستقيلها فى حياته إذ عقدها لاخر بعد وفاته».

الواقع هو أنّ هذه إلعبارة إشارة إلى حديث معروف نقل عن أبى بكر خاطب به الناس أوائل خلافته حيث قال:

«أقيلونى فلست بخير كم»

. ورواه البعض الآخر

«و ليتكم ولست بخيركم».[۴۴۵]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۵

و كيفا كان مضمون الرواية فهى تشير إلى عدم رغبته بقبول الخلافة أو كما ذهب البعض لم يكن يكترث لها أو أنّه لم يكن يرى نفسه جديراً بالخلافة مع وجود على عليه السلام، ورغم ذلك فانّ هذا الكلام لا ينسجم وما فعله أواخر عمره؛ الأمر الذى أثار دهشة الإمام عليه السلام فى كيفية تفويض الخلافة دون الرجوع إلى آراء الامّة: ثم قال عليه السلام

«لشدّ ما تشطر ضرعيها»

الضرع بمعنى الثدى وتشطرا من مادة شطر بمعنى جزء من الشيء.

فالعبارة تشبيه رائع بالنسبة للافراد الذى يستفيدون من شيء على وجه التناوب فالمراد بتشطر ضرعيها: إنّهما إقتسما فائدتها ونفعها، والضمير للخلافة، وسمى القادمين معاً ضرعاً وسمى الآخرين معاً ضرعا لما كان لتجاورهما، ولكونها لا يحلبان إلّامعاً، كشيء واحد فالعبارة بصورة عامة تشير إلى مشروع معد ومبرمج مسبقاً ولم يكن من قبيل الصدفة أبداً.

إجابة على إستفسار

لقد قال البعض بأنّ أبابكر قال: أقيلونى فلست بخيركم، وقد ورد مثل هذا الكلام عن على عليه السلام فى نهج البلاغة بعد مقتل عثمان حيث قال:

«دعونى والتمسوا غيرى ... وان تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيراً لكم منى أميراً»

فما تقولون؟

للرد على ذلك نقول لابن أبى الحديد كلام بهذا الشأن ولنا كلام، فقد قال ابن أبى الحديد:

قالت الإماميـة هـذا غير لازم والفرق بين الموضـعين ظاهر لأنّ علياً عليه السـلام لم يقل: إنّى لا أصـلح، ولكنه كره الفتنـة، وأبوبكر قال كلاماً معناه: إنّى لا أصلح لها، لقوله

«لست بخيركم»

، ومن نفى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۶

عن نفسه صلاحيته للإمامة، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره- واعلم أنّ الكلام فى هذا الموضع مبنى على أن الأفضلية هل هى شرط فى الإمامـة أم لا؟ (فى إشـارة إلى أنّه يمكن القول بعـدم اشتراط الأفضـلية فى الإمامـة؛ الكلام الـذى لا يقره أى منطق وعقل ولا يـدعو سوىالخجل»[۴۴۶].

إلّا أنّنـا نرى القضـية أعمق من ذلك. فلو تأملنا الخطبـة رقم ۹۲ التى اسـتدلوا بهـا والتفتنـا إلى بعض عباراتها التى لم يستشـهد بها عند الاستدلال لا تضح لنا تماماً مراد الإمام عليه السلام. فقد صرّح ضمن الخطبة المذكورة قائلًا:

«فأنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول»

(إشارة إلى مـدى التغييرات التى طالت الأحكام الشـرعية والتعاليم النبويـة، عليه فلابـدّ لى من القيام ببعض الإصـلاحات الثوريـة والتى ستودى لاعتراض البعضى منكم وبالتالى نشوب المواجهة).

ثم أضاف عليه السلام:

«و ان الافاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت»

، ثم يشير عليه السلام إلى كبد الحقيقة فيقول:

«و اعلموا أنّى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب».

أمّا الشاهد على أنّ الإمام عليه السـلام يرى وجوب الأفضـلية كشـرط فى الخلافة ما أورده عليه السلام فى الخطبة ۱۷۳ من نهج البلاغة إذ قال عليه السلام:

«أيّها الناس إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه و أعلمهم بأمر الله فيه».[۴۴۷]

ونخلص ممّا سبق إلى أنّ المقارنة بين كلام الإمام على عليه السلام وأبى بكر هو «قياس مع الفارق» لانعدام أى تشابه بين الكلامين.

و نختتم هذا الكلام بما أورده إبن أبى الحديد حين حاول تبرير حديث الخليفة الأول حيث قال: واحتج بذلك من لم يشترط الأفضلية فى الإمامة.

و من رواهـا إعتـذر لأـبى بكر فقـال: إنّما قال: أقيلونى، ليثور ما فى نفوس الناس من بيعته، ويخبر ما عنـدهم من ولايته، فيعلم مريـدهم وكارههم، ومحبهم ومبغضهم. فلما رأى النفوس إليه ساكنة، والقلوب لبيعته مذعنة، استمر على امارته، وحكم حكم الخلفاء فى رعيته، ولم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۷

يكن منكراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته ۴۴۸].

و لا يخفى على أحـد خواء هده التبريرات، لأنّ إعتراف كل فرد ينبغى أن يحمل على معناه الواقعى، وصـرف اللفظ عن معناه الحقيقى إنّما يحتاج إلى قرينـة ليست متوفرة هنا. بعبارة اخرى إنّ هـذا الاعتراف قانونى يؤخذ به فى كل محكمة وليس من عذر لهذا الاعتراف فهو إقرار جائز عقلائياً.

ثم يصف الإمام عليه السلام شخصية الخليفة الثانى وما انطوت عليه من خصائص ومميزات فقال عليه السلام:

«فصيرها فى حوزة[۴۴۹] خشناء يغلظ كلمها[۴۵۰] ويخشن مسها ويكثر العثار[۴۵۱]

فيها، الاعتذار منها»

المراد بالحوزة هنا أخلاق الخليفة الثانى وصفاته فالواقع قد ذكر له أربعة صفات، الاولى خشونته وعنفه التى عبر عنها بقوله

«يغلظ كلمها»

فى إشارة إلى الجروح الروحية والجسمية التى يفرزها الاصطدام به. الصفة الثانية الشدة فى التعامل

«و يخشن مسها»

وعليه فالحوزة الخشناء قد فسرت بالعبارتين اللاحقتين التين أشارتا إلى العنف فى الكلام والعنف فى المعاملة. الصفة الثالثة هى كثرة الأخطاء والرابعة الاعتذار من تلك الأخطاء

«و يكثر العثار فيها الاعتذار منها».

أمّا بشأن كثرة أخطاء الخليفة الثانى ولا سيما أخطائه فى بيان الأحكام واقراره بتلك الأخطاء والاعتذار منها والعنف فى المعاملة فقد حفلت بها السير التاريخية بل أفرد لها علماء العامة عدداً من الكتب وسنكتفى لاحقا بالإشارة إلى نماذج منها.

ثم قال عليه السلام:

«فصاحبها كراكب الصعبة[۴۵۲] إن أشنق ۴۵۳] لها خرم ۴۵۴] وإن أسلس ۴۵۵] لها تقحم ۴۵۶]».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۸

فالإمام عليه السلام يشرح بهذه العبارة حاله وحال فريق من المؤمنين على عهد خلافة الخليفة الثانى، بحيث إذا أراد أحدهم أن يصطدم بالخليفة- واستناداً إلى صفاته المذكورة سابقاً- فقد يؤدى ذلك إلى بروز الاختلافات والمشاجرات بين أوساط المسلمين أو الاخطار التى سيتعرض إليها من جانب الخليفة، وان فضل الصمت برزت الاخطار التى تهدد الكيان الإسلامى والخلافة الإسلامية، فالواقع هناك خطران لا ينفصلان: خطر الاصطدام بالخليفةخطر فقدان المصالح الإسلامية ولهذا يشكو الإمام عليه السلام ما ألم به وبالمومنين آنذاكيعرض للمشاكل المتفاقمة التى أصابت المسلمين.

كما إحتمل بعضى شرّاح نهج البلاغة أنّ الضمير فى (صاحبها) يعود إلى مطلق الخلافة؛ أى أنّ طبيعة الخلافة تختزن دائما أحد هذين الخطرين، فلو أراد الحاكم- الخليفة- أن يتعامل بخرم مع كل شىء كانت هنالك ردود الفعل الحادة والعنيفة، ولو أراد التعامل على أساس الرفق واللين برز خطر السقوط فى وادى الانحراف والخطا وزوال القيم الإسلامية. لكن تشير القرائن إلّاأنّ المعنى الأول هو المراد بالعبارة وهذا ما يتضح بجلاء من خلال التأمل فى العبارات اللاحقة[۴۵۷]. ثم قال عليه السلام:

«فمنى ۴۵۸] الناس لعمر الله بخبط[۴۵۹] وشماس ۴۶۰] وتلون ۴۶۱] و

اعتراض ۴۶۲]».

فقد تضمنت العبارة إشارة إلى أربع ظواهر نفسية للُامّة فى عهد الخليفة الثانى كأنّها تقتبس من رئيس الحكومة، لانّ لسلوك الحاكم إنعكاس واسع على نفوس أبناء الامّة وقد قيل سابقاً

«الناس على دين ملوكهم».

الاولى: أنّ أتشطتهم وقراراتهم الطائشة سبب ظهور الفوضى فى المجتمع.

الثانية: أنّهم خارجون على القوانين الشرعية والنظم الاجتماعية.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۹

الثالثة: التلون المستمر وركوب الموجة والتخبط والانسلاخ من فئة والالتحاق باخرى وعدم امتلاك الهدف المعين فى الحياة.

الرابعة: الانحراف عن مسار الحق والسير على سبيل غير الهدى

و ممّا لا شك فيه- وكما سنتعرض إلى ذلك بالتفصيل لاحقا- أنّ السياسة الخارجية فى عصر الخليفة الثانى والفتوحات الإسلامية

والامتداد خارج الحجاز قد خلقت ذهنية للناس بشأن شكل الحكومة فى أنّها موفقة على جميع الأصعدة فيقل إهتمامهم بالمشاكل الداخلية التى يعانى منها المجتمع الإسلامى، والحال كما أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات أنّ طائفة من المسلمين قد شهدت حالة من التخبط على مستوى العقائد والعمل والقضايا الأخلاقية والابتعاد تدريجياً عن الإسلام الأصيل بفعل الأخطاء والاجتهادات فى مقابل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية؛ الأمر الذى أدى فى خاتمة المطاف إلى تلك الثورة العارمة على الخليفة الثالث وبما مهد السبيل أمام ظهور الحكومة الاستبدادية فى العصر الأُموى والعباسى التى تفتقر لادنى شبه بالحكومة الإسلامية على عهد النبى صلى الله عليه و آله.

والمفروغ منه أنّ هذه الحالة العشوائية لم تكن وليدة ساعتها، بل ظهرت إثر تصاعد حدة الأخطاء المتواصلة طيلة عصر الخلافة. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة».

فقد عانى عليه السلام من ذات الظروف والتحمل التى كانت أبان عهد الخليفة الأول، غير أنّ المحنة التى عاناها الإمام عليه السلام كانت أشد وأعظم بفعل تلك الظروف الاقهر والمدة الأطول.

قال بعض شرّاح نهج البلاغة إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى قضيتين كان لهما الأثر البالغ فى إستياء الإمام عليه السلام: الاولى ازدياد مدّة الابتعاد عن محور الخلافة، والثانية الاستياء والتذمر الذى أفرزته ظاهرة انشقاق الخلافة عن مسارها الأصلى فى عدم سيادة النظم الصحيحة بالنسبة لشؤون الناس الدينية. لكن على كل حال فقد كانت هناك المصالح المهمّة التى تتطلب سكوت الإمام عليه السلام والتضحية بالامور الثانوية من أجل الأهداف الاسمى فقد استمر هذا الوضع حتى إنتهى عصر الخليفة الثانى.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۳۰

تأمّلات

۱- نماذج الفضاضة الأخلاقية على عهد الخليفة الثانى

لقد الفت عدّة كتب- سواء كتب الحديث والتاريخ- من قبل علماء العامة بشأن الخليفة الثانى ولا سيما إبان خلافته التى تكشف عن مدى دقة عبارات الإمام عليه السلام فى وصف خصائصه. و ممّا لا شك فيه أنّ خروقاته فى هذا المجال كثيرة نكتفى ببعضى نماذجها:

۱- روى المرحوم العلّامة الأمينى فى المجلد السادس من كتاب الغدير عن مصادر العامة المعروفة من قبيل سنن الدارمى وتأريخ ابن عساكر وتفسير ابن كثير واتقان السيوطى والدر المنثور وفتح البارىء عدّة قصص مروعة بشأن الخليفة الثانى والرجل الذى يدعى «صبيغ العراقى». فالذى تفيده السير التاريخية أنّه كان رجل بحاثة كثيرا ما يسأل عن الآيات القرآنية، غير أنّ عمر كان يجابهه بكل عنف بما يدعو للدهشة والعجب ومن ذلك.

فعن سلمان بن يسار إنّ رجلًا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال: من أنت؟ قال أنا عبدالله صبيغ: فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه وقال: أنا عبدالله عمر. فجعل له ضرباً حتى دمى رأسه فقال: يا أميرالمؤمنين حسبك قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى. وعن نافع مولى عبدالله: إنّ صبيغ العراقى جعل يسأل عن أشياء من القرآن فى أجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه قال: أين الرجل فقال: فى الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك منى العقوبة الموجعة. فأتاه به فقال عمر: تسأل محدثة؟ فارسل عمر إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود له

قال: صبيغ إن كنت تريد قتلى فقتلنى قتلًا جميلًا، وإن كنت تريد أن تداوينى فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبى موسى الأشعرى، أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبوموسى إلى عمر: أن قد حسنت توبته، فكتب عمر: أن يأذن الناس بمجالسته. وعن السائب بن يزيد قال: أتى عمر بن الخطاب فقيل: يا أميرالمؤمنين! إنا لقينا رجلًا يسأل عن تأويل مشكل القرآن. فقال عمر: اللّهم مكنى منه، فبينما عمر ذات يوم جالساً يغدى الناس إذ جاء

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۳۱

الرجل وعليه ثياب وعمامة صفدى حتى إذا فرغ قال: يا اميرالمؤمنين والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فقال عمر أنت هو؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته فقال: والذى نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسك ألبسوه ثياباً واحملوه على قتب وأخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقم خطيب ثم يقول: إن صبيغاً ابتغى العلم فأخطأ فلم يزل وضيعاً فى قومه حتى هلك وكان سيد قومه.[۴۶۳] وأول من ضرب عمر بالدّرة أم فروة بنت أبى قحافة، مات أبوبكر فناح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة، فنهاهنّ عمر مراراً، وهنّ يعاودن، فأخرج أمّ فروة من بينهن، وعلاها بالدّرة، فهربن وتفرّقن.

كان يقال: درّة عمر أهيب من سيف الحجاج. وفى الصحيح أنّ نسوةً كنّ عند رسول الله صلى الله عليه و آله قد كثر لغطهنّ، فجاء عمر فهربْنَ هيبة له، فقال لهنّ: يا عُديّات أنفسهن! أتَهبْنَنى ولا تهبنَ رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ.[۴۶۴]

۲- العثار والاعتذار

قال ابن أبى الحديد: ومرّ يوماً بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاه، فجدع له ماء بعسل فلم يشربه، وقال: إنّ الله تعالى يقول: «أَذهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِى حَياتِكُمُ الدُّنْيا»

فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنّها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة، اقرأ ما قبلها:

«وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلى النّارِ أَذهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِى حَياتِكُمُ الدُّنْيا»

فقال عمر: كلّ الناس أفقه من عمر!

وقيل: إنّ عمر كان يعس بالليل، فسمع صوت رجل وامرأة فى بيت، فارتاب فتسوّر الحائط، فوجد امرأة ورجلًا، وعندهما زقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله، أكنتترى أنّ اللّه يسترك وأنت على معصيته! قال: يا أميرالمؤمنين، إن كنت أخطأت فى واحدة فقط أخطأت فى ثلاث، قال اللّه تعالى: «ولا تَجَسَّوا»، وقد تجسَّت. وقال: «وأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها»، وقد تسوّرت، وقال: «فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا»، وما سلّمت![۴۶۵]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۳۲

وأخرج الحافظان الدراقطنى وابن عساكر: إن رجلين أتيا عمر بن الخطاب وسألاه عن طلاق الامّة فقام معهما فمشى حتى أتى حلقة فى المسجد فيها رجل أصلع فقال: أيّها الأصلع! ما ترى فى طلاق الامّة؟ فرفع إليه رأسه ثم أومىء إليه بالسبابة والوسطى فقال لهما عمر: تطليقتان، فقال أحدهما: سبحان الله جئناك وأنت أميرالمؤمنين فمشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومىء إليك، وأتى عمر بن الخطاب بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها فتلقاها على فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر عمر برجمها فردها على وقال: قد كان ذلك. قال أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله قال: لاحد على معترف بعد بلاء، أنّه من قيد أو حبس أو تهدد فلا- إقرار له، فخلا- سبيلها ثم قال: عجزت النساء أن تلدن مثل على بن أبى طالب، لولا على لهلك عمر. وأخرج ابن مبارك قال: حدثنا الأشعث عن الشعبى عن مسروق قال: بلغ عمر أنّ امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف فى عدّتها فأرسل إليهما ففرق بينهما وعاقبهما وقال: لا ينكحها أبداً وجعل الصداق فى بيت المال وفشا ذلك بين الناس فبلغ علياً كرم الله وجهه فقال: ما بال الصداق وبيت المال؟ إنّهما جهلا فينبغى للإمام أن يردهما إلى السنة قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال لها الصداق بما استحل من فرجها، ويفرق

بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدّتها من الأول ثم تكمل العدّة من الآخر، ثم يكون خاطباً. فبلغ ذلك عمر فقال: يا أيّها الناس ردوا الجهالات إلى السنة.[۴۶۶]

۳- رد على سوال

لعل الصورة التى رسمها الإمام عليه السلام فى الخطبة عن مشاكل المسلمين والفوضى التى سادتهم على عهد الخليفة الثانى تتنافى والذهنية السائدة لدى البعض فى أن عهده كان مشرقاً حافلًا بالانتصارات والمكتسبات؛ الأمر الذى يثير السؤال الآتى: كيف يمكن التوفيق بين تلك الصورة والوقائع التى عكسها التاريخ الإسلامى؟

و الالتفات إلى هذه القضية من شأنه أن يقدم الجواب الشافى لهذا السؤال، فما لا شك فيه-

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۳۳

كما أشرنا سابقاً أنّ عهد الخليفة الثانى كان عصر الانتصارات والفتوحات على صعيد السياسة الخارجية للبلاد؛ لانّ المسلمين وعلى ضوء التعاليم الإسلامية والآيات القرآنية التى تدعو إلى الجهاد قد مارسوا هذه الفريضة بشكل واسع بحيث لم تمض مدّة حتى حققوا الفتوحات الإسلامية الباهرة خارج البلاد الإسلامية فتم لهم نيل ما لا يحصى من الغنائم المادية، الأمر الذى جعل هذه الفتوحات تغطى على ضعف الجبهة الداخلية والفوضى التى كانت سائدة آنذاك، وهو المعنى الذى نلمسه اليوم بوضوح فى السياسة المتبعة فى العصر الراهن، فقد يؤدى الانتصار الذى تحرزه الدولة على صعيد السياسة الخارجية إلى التغطية على كل شىء ولا- سيما المشاكل والمعضلات التى تعيشها على مستوى الداخل، ومن هنا نرى ساسة الاستكبار الذين يحاولون التغطية على مشاكلهم الداخلية باخماد فورتها من خلال اللجوء إلى عدّة أنشطة- بما فيها شن الحروب- خارجية.

وزبدة الكلام فانّ الإمام عليه السلام إنّما تحدث عن مدى العنف والاضطهاد والأخطاء الفادحة وسعة حجم المشاكل الداخلية إبان عهد الخليفة الثانى؛ الأمر الذى تم التعامل معه بمعزل عن مسألة الفتوحات.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۳۵

القسم الثالث: عصر الخليفة الثالث

اشارة

«حَتَّى إِذا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَها فِى جَماعَةٍ زَعَمَ أَنِّى أَحَدُهُمْ فَيا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِىَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظائِرِ لَكِنِّى أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طارُوا: فَصَغا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَنٍ، إِلَى أَنْ قامَ ثالِثُ الْقَوْمِ نافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا القسم من خطبته- إلى انتهاء عصر الخليفة الثانى والأحداث التى مهدت السبيل أمام عثمان للاستيلاء على الخلافة بعد أن أماط اللثام عن التفاصيل التاريخية والأسرار التى إنطوت عليها هذه القضية ويعلن موقفه من ذلك، ثم عرج على المشاكل والفتن التى عاشتها الامّة الإسلامية على عهد عثمان والانتفاضة الشعبية العارمة التى أدت إلى قتله بعبارات مقتضبة عميقة المعنى من خلال الكنايات والاستعارات والتشبيهات البلاغية الرائعة التى طبعت كلماته وخطبه عليه السلام.

فقد قال عليه السلام:

«حتى إذا مضى لسبيله جعلها فى جماعة زعم أنى أحدهم».

و لعل قوله عليه السلام

«زعم أنى أحدهم»

تشير إلى معنيين: الأول: أنّه جعلنى ظاهرياً أحد أعضاء هذه الشورى بينما كان يعلم باطنياً بالنتيجة التى ستتمخض عنها ومن يفوز بالأمر.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۳۶

الثانى: أنّه أراد أن يجعلنى ظاهرياً فى مصاف هؤلاء الخمسة، والحال كان يعلم باطنياً عدم إمكانية مقارنتى بأى منهم ۴۶۷].

و العبارة تشير إلى الزمان الذى جرح فيه عمر جرحاً بليغاً من قبل ذلك الرجل الذى يدعى فيروز والمكنى بأبى لؤلؤة بعد أن رأى نفسه على فراش الموت. فقد حضره جمع من الصحابة وأشاروا عليه باستخلاف من يرضاه، فما كان منه إلّاأن خطب خطبة- سنشير إلى مضامينها لاحقاً- واقترح الشورى وهم:

على عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص، على أن يجتمعوا لثلاثة أيام ويختاروا من بينهم الخليفة، فاجتمعوا لتتمخض نتيجة الاجتماع عن إختيار عثمان.

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذه الشورى قائلًا:

«فيالله وللشورى»[۴۶۸]

، ثم يتطرق عليه السلام إلى اولى نقاط ضعف هذه الشورى وهى أنّه متى كان هناك من شك وترديد فى أرجحيته على الخليفة الأول فضلا عن إقترانه بهذه النظائر

«متى اعترض الريب فى مع الأول منهم حتى صرت اقرن إلى هذه النظائر»

. فالعبارة تكشف عن قمة أسى الإمام عليه السلام على هضم الحقوق الذى تعرض له، ويشير إلى حقيقة وهى أنّهم ينبغى أن يختارونى لو أخذوا بنظر الاعتبار استحقاق الخلافة والجدارة والأحقية بها.

غير أنّ المؤسف له أنّه كانت هناك أهداف اخرى أدت إلى جعل من كان بمنزلة رسول الله صلى الله عليه و آله وباب مدينة علمه والعالم بالكتاب والسنة والعارف بأسرار المسائل الإسلامية وبطل التوحيد الذى تربى فى حجر النبى صلى الله عليه و آله فى مصاف عبدالرحمن بن عوف وسعد بن وقاص وامثالهما.

ثم أضاف عليه السلام:

«لكنى اسففت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا»[۴۶۹]

قالواقع هذه كناية بشأن

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۳۷

الطيور التى تطير عى هيئة اسراب فتحلق أحيانا وتنخضض اخرى إلى الأرض وفى الحركتين تكون معاً. ومن الواضح أنّ الأوضاع المزرية فى زمان الخلفاء- لا سيما إذا ابعد الخليفة وأقصى- تتطلب الابتعاد عن كافة أشكال الفرقة والتشتت حذراً من إستغلالها من قبل خصوم الدعوة والتأهب للاجهاض عليها. هنالك إحتمال آخر أيضا بشأن تفسير هذه العبارة فى أنّ مراده منها: أنى أدور حيث مدار الحق والهث خلفه لكنى طلبت الأمر وهو موسوم بالاصاغر منهم، كما طلبته أولًا وهو موسوم بأكابرهم، أى هو حقى فلا أستنكف من طلبه، إن كان المنازغ فيه جليل القدر أو صغير المنزلة ثم أشار عليه السلام إلى نتيجة تلك الشورى وأعمالها المريبة حيث تحرك أحدهم بدافع من حقده وضغينته بينما إندفع الآخر بوحى من قرابته ونسبه لينتهى الأمر إلى عثمان:

«فصغا[۴۷۰] رجل منهم لضغنه ۴۷۱] ومال الآخر لصهره، مع

هن ۴۷۲] وهن».

فقد قصد الإمام عليه السلام بالعبارة الاولى «سعد بن أبى وقاص» الذى كان ينتمى من طرف أمه إلى بنى أمية وقد قتل أخواله وأقربائه على يد على عليه السلام فى المعارك الإسلامية ضد الكفر والشرك، ولذلك لم يكن مستعداً لمبايعة على عليه السلام حتى فى خلافته.

و عمر بن سعد ذلك المجرم الجبار الذى قتل الحسين عليه السلام وصحبة فى كربلاء هو ابنه. وعليه فقد كانت ضغينته لعلى عليه السلام أشهر من نار على علم وهى التى جعلته لا يصوت لصالح الإمام عليه السلام، وهذا ما أدى إلى فوز عثمان بعد أن منحه رأيه بواسطة عبدالرحمن بن عوف. وقال البعض المراد به «طلحة» المفروغ من كراهيته للإمام عليه السلام وهو الذى أشعل إلى جانب الزبير حرب الجمل التى أدت حسب قول المؤرخين إلى قتل سبعة عشر ألف.

و قد قوى هذا الاحتمال ابن أبى الحديد، بينما يرى بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ طلحة وإن رشح للشورى من قبل عمر إلّاأنّه لم يكن فى المدينة ولم يوفق لحضور جلسة الشورى ۴۷۳].

أمّا الفرد الذى مال إلى صهره فهو عبدالرحمن بن عوف زوج ام كلثوم بنت عثمان.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۳۸

وقوله عليه السلام:

«مع هن وهن»[۴۷۴]

، استنادا إلى أنّ المفردة «هن» كناية عن أعمال قبيحة يكره ذكرها، فالعبارة يمكن أن تكون إشارة إلى الاغراض الاخرى التى كان يطمع بها عبدالرحمن بن عوف من خلال تصويته لصالح عثمان من قبيل مد إليه إلى بيت مال المسلمين أو التسلط على الناس أو الاستيلاء على الخلافة بعد عثمان أو جميع هذه الامور. فالذى نستفيده من هذا الكلام أنّ الشورى قد عقدت فى أجواء متوترة، والشئ المغيب فيها إنّما كان المصالح الإسلامية، وعليه فمن الطبيعى الأتؤدى لضمان مصالح المسلمين، وقد أثبتت الحوادث التى وقعت على عهد عثمان مدى الخسائر الفادحة التى تكبدها المسلمون.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى النتيجة النهائية للشورى فقال:

«إلى أن قام ثالث القوم نافجا[۴۷۵]

حضنيه ۴۷۶] بين نثيله ۴۷۷] ومعتلفه ۴۷۸]»

. ولم يقتصر هذا الأمر على عثمان بل سار معه فى هذا النهج قرابته وبطانته

«و قام معه بنو أبيه يخضمون ۴۷۹] مال الله خضمة الابل نبتة الربيع».

أمّا التعبير بنبتة الربيع للإشارة إلى أنّها نبتة سائغة وطعمة سهلة للحيوان فيتنا ولها بكل شره وولع. والعبارة

«يخضمون مال الله ...»

- وبالالتفات إلى المعنى اللغوى لخضم- تفيد أنّ بنى امية قد اقتحمت الميدان بكل ثقلها لتنهب بيت المال فتبتلع منه ما شاءت. وقال ابن أبى الحديد لقد سلط الخليفة الثالث- عثمان- بنى امية على رقاب الناس وأغدق عليهم الأموال فقد أعطى عبد الله بن خالد أربعمأة ألف درهم، وأعطى عبدالله بن أبى سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقية بالمغرب، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، واعطى الحارث بن الحكم- زوج بنت، عائشة- مائة ألف من بيت المال، واعطى طلحه ثلاثمأة واثنين وعشرين ألف، والزبير خمسمأة وثمانية وتسعين دينارا، حتى بلغ ما أغدقه من

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۳۹

بيت المال مئة وستة وعشرين مليون وسبعمأة دينار.

و الأعجب من ذلك الدنانير التى أغدقها على بنى أمية فقد منح مروان بن الحكم خمسمأة الف دينار، ويعلى بن امية خمسمأة الف دينار، وعبد الرحمن بن عوف مليونين وخمسمأة وستين الف دينار والمجموع أربعة ملايين وثلاثمأئة وعشرة دنانير[۴۸۰]. وهنا يتضح عمق المعنى لقوله عليه السلام:

«يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع»

. وبالطبع فان هذا الوضع لم يكن ليستمر لمدّة طويلة حيث لا يسع المسلمون تحمل مثل هذه الظروف ولذلك لم تمض مدّة حتى انطلقت تلك النهضة ضد عثمان لتطيح به فى خاتمة المطاف وتقتله بمرأى ومسمع من الامّة دون أن يهب أحد من المسلمين لنصرته وهذا بعينه ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين قال:

«إلى أن انتكث ۴۸۱] عليه فتله ۴۸۲] وأجهز[۴۸۳] عليه عمله، وكبت ۴۸۴] به بطنته ۴۸۵]».

و الواقع أنّ الإمام عليه السلام رسم بثلاث عبارات صورة واضحة كاملة عن وضع الخليفة الثالث و انتهاء أمره وقتله. فقد صور فى العبارة الاولى إزالته لكافة مظاهر القدسية والزهد التى عرفها عنه الناس ليقفوا على مدى تكالبه على الدنيا.

كما يصور فى العبارة الثانية سوء أعماله التى وجهت له الضربة القاصمة، وأخيراً تخمته وامتلاء جوفه بالطعام بالشكل الذى لم يتمكن معه من الوقوف على قدميه حتى كب على وجهه على الأرض. فقد بين الإمام على عليه السلام بهذه العبارات الدروس والعبر التى ينبغى أن يقتدى بها ساسة البلدان ويضعوها نصب أعينهم بحيث إذا إستغلوا مكانتهم وأقبلوا يتهافتون على الدنيا فانّ ذلك سيؤدى إلى زوال سوابقهم الحسنة بما يعبىء الرأى العام ضدهم وبالتالى الاطاحة بهم وبحكومتهم.

جدير بالذكر أنّ العوامل التى بلورة ظهور وانبثاق خلافة عثمان هى ذاتها التى أدّت إلى القضاء عليه، فقد دفع حب المال والثروة بعض الأفراد من قبيل سعد بن أبى وقاص

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۰

وعبدالرحمن بن عوف وطلحة (بناء اعلى كونه حاضرا فى الشورى) لأن يضموا أصواتهم لعثمان واختياره للخلافة، وهكذا إتسعت هذه المسألة واستفحلت حتى فقد عثمان مكانته لدى الرأى العام والذى أدى بالتالى إلى ثورة الامّة وإطاحتها به. أمّا بعض شرّاح نهج البلاغة فقد ذهبوا إلى أنّ المراد بقوله «إنتكث عليه فتله» انهيار الاجراءات والتدابير التى مارسها لتوطيد حكومته، ولعل تفويضه بعض الأعمال والمناصب لبطانته وقرابته قد كانت ضمن تلك الإجراءات المتخذة، لكن نفس هذا الأمر قد أعطى نتائج معكوسة أسهمت فى تقويض حكومة عثمان.

تأمّلات

۱- كيفية انتخاب خليفة الثانى والثالث

نعلم أنّ الخليفة الثانى قد نصب من قبل أبى بكر الذى عهد إليه بالخلافة فى وصيته حين نزل به الموت. فقد جاء فى بعض التواريخ أنّ أبابكر أحضر عثمان- وهو يجود بنفسه- فأمره أن يكتب عهدا، وقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبوبكر إلى المسلمين، ثم أمّا بعد، ثم اغمى عليه، فكتب عثمان:

«اما بعد فانى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب‌لم آلكم خيراً».[۴۸۶]

و أفاق أبوبكر فقال: إقرأ فقرأه، فكبر أبوبكر وسرب وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت فى غشيتى! قال عثمان: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله ۴۸۷].

يتضح بجلاء من هذا الخبر أن عثمان قد خاط هذا القميص- الخلافة- لقامة عمر، ولو افترض عدم إفاقة أبى بكر لنشرت هذه الوصية على أنّها وصية أبى بكر. وعليه فلمهنالك من مجال للتعجب فى إقتراح عمر لتلك الشورى وبذلك التركيب الذى سوف لن يؤدى إلّاإلى استخلاف عثمان.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۱

و هو ذات الاسلوب الذى إتبعه الخليفة الثانى فى السقيفة حين مهد السبيل أمام خلافة أبى بكر، لكى يسارع هذا الأخير فيعوضه عمّا قدمه له. ويفهم ضمنيا أنّ الحيلولة دون إختلاف الامّة وفرقتها هى التى تقف وراء تعجيل أبى بكر وعثمان فى تعيين الخليفة. فاذا كان الأمر كذلك، فما بالك برسول الله صلى الله عليه و آله؟! ألم يكن من الواجب على النبى صلى الله عليه و آله أن يتكهن بهذا الأمر بالنسبة لُامّته مع وجود تلك النزاعات والصراعات التى كشفت عن نفسها فى السقيفة؟

كيف يمكن الاعتقاد بأنّ النبى صلى الله عليه و آله قد فوض للُامّة مسألة إنتخاب الخليفة، بينما لا يرعى هذا الأمر فى خلافة الثانى والثالث، حتى أنّ خوف الفتنة منع من تفويض الأمر للُامّة؟! هذه هى الاسئلة التى ينبغى لكل محقق الرد عليها.

۲- الشورى وحكومة عثمان

وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لما طعنه أبولؤلؤه، وعلم أنّه ميت، استشار فيمن يولّيه الأمر بعده، فأشير عليه بابنه عبداللَّه، فقال: لاها اللَّه إذا! لايليها رجلان من وَلَد الخطاب! حسب عمر ما حُمِّل! حسب عمراً احتقب، لاها اللَّه! لا أتحملها حياً وميتاً! ثم قال: إنّ رسول اللَّه مات وهو راض عن هذه الستة من قريش: على، وعثمان وطلحة، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف؛ وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستَخلف فقد استخلف من هو خير منّى يعنى أبابكر وإن أترك فقد ترك من هو خير منّى يعنى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ثم قال: ادعوهم لى، فدعوهم، فدخلوا عليه وهو مُلقى على فراشه يجود بنفسه.

فنظر إليهم، فقال: أكلّكم يطمع فى الخلافة بعدى! فوجموا، فقال لهم ثانية، فأجابة الزّبير وقال: وما الذى يُبعدنا منها! وليتها أنت فقمت بها، ولسْنا دونك فى قريش ولافى السابقة ولا فى القرابة.

قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: واللَّه لولا علمه أنّ عمر يموت فى مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة، ولا أن تنفّس منه بلفظه.

فقال عمر: أفلا- أخبركم عن أنفسكم! قال: قل، فإنا لو استعفيناك لم تُعفنا. فقال: امّا أنت يا زبير فوعق لقس، مؤمن الرضا كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضت

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۲

إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مدٍ من شعير! أفرأيت إن أفضت إليك، فليت شعرى، من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب! وما كان اللَّه ليجمع لك أمر هذه الامّة، وأنت على هذه الصفة.

ثم أقبل على طلحة وكان له مبغضاً منذ قال لأبى بكر يوم وفاته ما قال فى عمر فقال له:

أقول أم أسكت: قال: قل، فإنّك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أمّا إنّى أعرفك منذ أصيبتْ إصبعك يوم أحُد وائبا بالذى حدث لك، ولقد مات رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ساخطاً عليك بالكلمة التى قلتها يوم أنزِلت آية الحجاب.

ثم أقبل على على عليه السلام، فقال: للَّه أنت لولا دُعابة فيك! امّا واللَّه لئن وليتهم لتحملنّهم على الحق الواضح، والمحجّة البيضاء.

ثم أقبل على عثمان، فقال: هيهاً إليك! كأنّى بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبّها إياك، فحملت بنى أمية وبنى أبى مُعيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفىء، فسارت إليك عصابة من ذوبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً. واللَّه لئن فعلوا لتفعلنّ فعلت ليفعلنّ، ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولى؛ فإنّه كائن.

ثم قال: ادعوا إلى أبا طلحة الأنصارى، فدعوه له فقال: انظر يا أبا طلحة، إذ عدتم من حُفْرتى، فكن فى خمسين رجلًا من الأنصار حاملى سيوفكم، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله، واجمعهم فى بيت، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة، فانظر الثلاثة التى فيها عبدالرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرّت الثلاثة الاخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمرٍ، فاضرب أعناق الستّة، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم. فلما دُفن عمر، جَمَعَم أبو طلحة، ووقف على باب البيت بالسيف فى خمسين من الأنصار، حاملى سيوفهم، ثم تكلّم القوم وتنازعوا، فأوّل ما عمل طلحة أنّه أشدهم على نفسه أنّه قد وهب حقّه من الشورى لعثمان، وذلك لعامه أنّ الناس لا يعدلون به عليّاً وعثمان، وأنّ الخلافة لا تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب على عليه السلام، بهبة أمر لا انتفاع له به، ولا تمكُّن له منه.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۳

فقال الزبير فى معارضته: وأنا أشهدكم على نفسى أنّى قد وهبتُ حقّى من الشورى لعلىّ، وإنما فعل ذلك لأنّه لما رأى عليًّا قد ضعف وانخزل بهبَةِ طلحة حقَّه لعثمان، دخلته حميَّة النَّسب، لأنّه ابن عمة أميرالمؤمنين عليه السلام، وهى صفيّة بنت عبدالمطلب، وأبوطالب خالُه. وإنّما مال طلحة إلى عثمان لانحرافه عن على عليه السلام، باعتبار أنّه تيمى وابن عم أبى بكر، وقد كان حصل فى نفوس بنى هاشم من بنى تيم حنق شديد لأجل الخلافة، وكذلك صار فى صدور تيم على بنى هاشم.

فممّا لا شك فيه هنالك عدّة اسئلة لابدّ من طرحها بشأن هذه الشورى ومنها:

أولًا: لو كانت الضابطة فى الخلافة تكمن فى آراء الامّة فلم لا يرجع إليها؟ وإن كانت الخلافة قائمة على أساس التعيين فما معنى الشورى المركبة من ستة أعضاء وما بال إهمال سائر الشخصيات المعروفة وعدم إشراكها فى الشورى

ثانياً: لقد قيل أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش، فكيف التوفيق بين هذا وما صرّح بأن رسول الله صلى الله عليه و آله مات وهو ساخط على طلحة بالثلمة التى قالها يوم انزلت آية الحجاب ۴۸۸]؟

ثالثاً: لو افترض عدم تمكنهم من القيام بوظيفتهم فكيف يؤمر بضرب أعناقهم؟

رابعاً: لو كانت الشورى حقا فما معنى الوصية بعثمان وذكره صراحة؟ ولو كان يخشى على الامّة الإسلامية من خلافته للزم عدم جعله أحد أعضاء تلك الشورى ليأتى آخر غيره؟

خامساً: إذا إنقسمت الشورى إلى قسمين فلم لا ترجح الكفة التى فيها على عليه السلام والذى قال له عمر: أمّا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والحجة البيضاء. وليس له من إشكال عليه سوى قوله «لولا دعابة فيك».

سادساً: وهل للدعابة من أثر سلبى على الخلافة وهل يرقى هذا الإشكال إلى الإشكال على عثمان بانّه إذا ولى الخلافة وسيسلط بنى امية على رقاب المسلمين فيتخذون عباد الله

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۴

خولًا وماله دولًا؟

هذه هى الاسئلة والإستفسارات التى ليست لها من إجابة.

۳- أسباب الخروج على عثمان

و يجب أن نذكُر فى هذا الموضع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قُتِل.

و أصح ما ذكر فى ذلك ما أورده أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى فى «التاريخ»[۴۸۹].

و خلاصة ذلك أنّ عثمان أحدث أحداثاً مشهورة نَقِمَها النّاس عليه، من تأمير بنى أميّة، ولا سيّما الفساق منهم وأربابُ‌السَّفه وقلّة

الدّين، واخراج مال الفيء إليهم، وما جرى فى أمر عمّار وأبىذر وعبداللّه بن مسعود، وغير ذلك من الامور التى جرت فى أواخر خلافته. ثم اتفق إنّ الوليد بن عُقبه لمّا كان عامله على الكوفة وشهد عليه بشرب الخمر، صرفه وولىّ سعيد بن العاص مكانه، فقدم سعيد الكوفة، استخلص من أهلها قوماً يسمرون عنده، فقال سعيد يوماً:

إنّ السواد بستان لقُريش وبنى أميهٔ. فقال الأشتر النخعى: وتزعم أنّ السواد الذى أفاءه اللّه على المسلمين بأسيافنا بستان لك لقومك! فقال صاحب شرطته: أتردّ على الأمير مقالته! وأغلظ له، فقال الأشتر لمن كان حوله من النَّخع وغيرهم من أشراف الكوفة: ألا تسمعون! فوثبوا عليه بحضرة سعيد فوطئوه وطأ عنيفاً، وجرّول برجله، فغلظ ذلك على سعيد، أبعد سُمّاره فلم يأذن بعد لهم، فجعلوا يشتمون سعيداً فى مجالسهم، ثم تعدّوا ذلك إلى عثمان فى أمرهم، فكتب إليه أن يسيرهم إلى الشام؛ لئلّا يفسدوا أهل الكوفه، وكتب إلى معاوية وهو وإلى الشام: إنّ نفراً من أهل الكوفة قد همّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتهم إليك، فانهم؛ فإن آنست منهم رشداً فأحسن إليهم، وارددهم إلى بلادهم.

ثم إن سعيد بن العاص قدم على عثمان سنهٔ إحدى عشرة من خلافته. فلما دخل المدينهٔ اجتمع قومٌ من الصحابهٔ، فذكروا سعيداً وأعماله، وذكروا قرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين، وعابوا أفعال عثمان، فأرسلو إليه عامر بن عبد القيس وكان متألها[۴۹۰]، واسم أبيه

نفحات الولايهٔ، ج۱، ص: ۲۴۵

عبداللّه، وهو من تميم، ثم من بنى العنبر فدخل على عثمان، فقال له: إنّ ناساً من الصحابهٔ اجتمعوا ونظروا فى أعمالك، فوجدوك قد ركبت اموراً عظاماً، فاتق اللّه وتب إليه.

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبداللّه بن سعد بن أبى سرح، وإلى معاويهٔ وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبيداللّه بن عامر وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم فشاورهم، وقال: إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلىّ أن أعزل عمّالى، وأن أرجع عن جميع مايكرهون إلى مايحبون، فاجتهدوا رأيكم.

فقال عبداللّه بن عامر: أرى لك ياأميرالمؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلّوا لك، ولا تكون همهٔ أحدهم إلّافى نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته.

فقال عثمان: إنّ هذا لهو الرأى لولا مافيه.

ثم كاتب عمّاله واستقدمهم، فلما قدموا عليه جمعهم، وقال: ما شكايهٔ الناس منكم؟ إنّى لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا الأمر إلّابى. فقالو له: واللّه ما صدق من رفع إليك ولا بر، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا. فقال عثمان: فأشيروا علىّ، فقال سعيد بن العاص:

هذه امور مصنوعهٔ تلقى فى السر فيتحدث بها الناس، ودواء ذلك السيف.

وروى محمد بن عمر الواقدى رحمهٔ اللّه تعالى، قال: لما أجلب الناس على عثمان، وكثرت الفالهٔ فيه، خرج ناس من مصر؛ منهم عبدالرحمن عديس البوى، وكنانهٔ بن بشر الليثى، وسودان بن حمران السكونى، وقتيرهٔ بن وهب السكسكى؛ وعليهم جميعاً أبوحرب الغافقى، وكانوا فى ألفين. وخرج ناس من الكوفهٔ، منهم زيد بن صوحان العبدى، ومالك الأشتر النخعى، وزياد بن النضر الحارثى، وعبداللّه بن الأصم الغامدى، فى ألفين. وخرج ناس من أهل البصرهٔ. منهم حكيم بن جبلهٔ العبدى، وجماعهٔ من أمرائهم، وعليهم حرقوص بن زهير السعدى؛ وذلك فى شوال من سنهٔ خمس وثلاثين، وأظهروا أنّهم يريدون الحج. فلما كانوا من المدينهٔ على ثلاث، تقدم أهل البصرهٔ، فنزلوا ذاخشب وكان هواهم فى طلحهٔ. وتقدم أهل الكوفهٔ، فنزلوا الأعوص وكان هواهم فى الزبير. وجاء أهل مصر فنزلوا المروهٔ وكان هواهم فى على عليه السلام. ودخل ناس منهم إلى المدينهٔ يخبرون ما فى قلوب الناس لعثمان، فلقوا جماعهٔ من المهاجرين والأنصار، ولقوا أزواج النبى صلى اللّه عليه وآله، وقالوا: إنّما نريد الحج، ونستعفى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۶

من عمالنا.

وخرج عثمان يوم الجمعة، فصلى بالناس، وقام على المنبر، فقال: ياهؤلاء، اللّه اللّه؛ فواللّه إن أهل المدينة يعلمون أنّكم ملعونون على لسان محمد صلى اللّه عليه، فامحوا الخطأ بالصواب.

وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه؛ فأدخل داره؛ واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان؛ منهم سعد بن أبى وقاص، والحسن بن على عليه السلام، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة؛ فأرسل إليهم عثمان: عزمت عليكم أن تنصرفوا؛ فانصرفوا.

وأقبل على وطلحة والزبير، فدخلوا على عثمان يعودنه من صرعته، ويشكون إليه ما يجدون لأجله؛ وعند عثمان نفر من بين أمية، منهم مروان بن الحكم، فقالوا لعلى عليه السلام:

أهلكتنا وصنعت هذا الذى صنعت! واللّه إن بلغت هذا الأمر الذى تريده لتمرن عليك الدنيا؛ فقام مغضباً، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم.

وروى المدائنى، قال: كان عثمان محصوراً محاطاًبه، وهو يصلى بالناس فى المسجد، وأهل مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خلفه، وهم أدق فى عينه من التراب.

وروى الكلبى والواقدى والمدائنى: أن محمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة كانا بمصر يحرضان الناس على عثمان، فسار محمد بن أبى بكر مع من سار إلى عثمان، وأرقام محمد بن أبى حذيفة بمصر، ثم غلب عليها لما سار عبداللّه بن سعد بن أبى سرح عامل عثمان عنها إلى المدينة فى أثر المصريين، بإذن عثمان له، فلما كان بأيلة، بلغه أن المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنّه مقتول، وأن محمد بن أبى حذيفة قد غلب على مصر، فعاد عبداللّه إلى مصر، فمنع عنها، فأتى فلسطين، فأقام بها حتى قتل عثمان.[۴۹۱]

۴- هل سار جميع الصحابة على نهج النبى صلى الله عليه و آله

المعروف بين أوساط الاخوة من أبناء العامة أنّ لصحابة رسول الله صلى الله عليه و آله- دون إستثناء- قدسية وعدالة وأنّ أحدا منهم لم يؤتى بما يخالف ما أمر به الله فى الكتاب والسنة، بينما تعتقد الشيعة من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أنّ الصحابة ليست سواسية ولها رأى بكل صحابى بما

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۷

ينسجم وسلوكه سواء على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله أو بعد وفاته.

و لاشك أنّ الاعتقاد السائد لدى الاخوة السنة بشأن الصحابة قد قادهم إلى مشاكل كثيرة؛ وذلك لانّ هنالك من الصحابة ممن إختلفوا فيما بينم إلى حد الاقتتال. فيكف يمكن تبرير تلك العقيدة التى تتضمن عدالتهم وقدسيتهم. على سبيل المثال موقعة صفين التى قام فيها معاوية ضد إمام زمانه بما أدى إلى اراقة تلك الدماء، فهل هناك مورخ نزيه يمكنه توجيه ذلك العمل؟! أو الدماء التى سفكت فى معركة الجمل التى قادها طلحة والزبير ضد الإمام على عليه السلام بعد أن نكثا بيعته حتى قيل أن عدد القتلى بلغ أكثر من سبعة عشر الف قتيل، فهل لهما من عدالة بعد تلك الفجائع التى ارتكبت بحق المسلمين وخروجها على الإمام عليه السلام؟!

أمّا بشأن عثمان وكما مرّ معنا وعلى ضوء إجماع كافة مؤرخى الإسلام فانّنا نصطدم بموضوعين مهمين: الأول اغداقه المناصب الحساسة على بنى امية وتسليطهم على رقاب المسلمين ومن أولئك الذين عرفوا بفسقهم ومجونهم حتى تعالت عليهم أصوات المسلمين من كل حدب وصوب، والآخر نهب أموال بيت المال واغداقها دون حساب على هذا وذاك بالشكل الذى آثار حفيظة الامّة وأجج مشاعرها للغضب والثورة عليه.

فهل من إنسجام بين هذه الأعمال والخطوط العامة للقداسة وتنزيه الصحابة؟! فلو كان هنالك من تبرير لمثل هذه الأعمال فهل ستبقى

هنالك من أعمال يمكن إدانتها؟!

لقد ذكرنى هذا الكلام بقصة عجيبة وقعت لى ولا يسعنى نسيانها أبدا. فقد تشرفت احدى السنوات بزيارة مكة لاداء العمرة وقد سنحت لى الفرصة لان ألتقى بعض علماء العامة- ولا سيما أثناء الليالى فى المسجد الحرام وبين صلاتى المغرب والعشاء التى كانت فرصة مناسبة- فى احدى الليالى (طبعا كان البعض منهم من مشاهير علماء العامة).

و فى المسجد الحرام وسعينا لان نبقى على الأبحاث تعيش أجواء المنطق والعلم والاستدلال والبرهان وابعادها عن عناصر العداء والكراهية وجرح المشاعر. وقد جرنا الكلام إلى الحديث عن «تنزيه الصحابة وعدالتهم» فكانوا يعتقدون جميعهم بعدم إمكانية جرأة أحد على توجيه أدنى تهمة إليهم. فسألت أحدهم: «لو شهدت صفين حيث معسكر على عليه السلام معسكر معاوية، فمع من كنت تقاتل»؟ فاجاب من فوره: مع معسكر على عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۸

فقلت: لو أعطاك علياً عليه السلام سيفاً وقال لك: «خذ هذا واقتل معاوية فهل كنت تمتثل أمره؟» هنا أجاب إجابة عجيبة لا أظنكم تتصورنها، فقد قال:

«كنت أقتله ولا أذكره بسوء»

نعم قضية تنزيه الصحابة قصة ذات شجون ولا يسعنى الخوض فى كافة تفاصيلها.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۴۹

القسم الرابع

اشارة

«فَما راعَنِى إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنانِ، وَشُقَّ عِطْفاىَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِى كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحانَهُ يَقُولُ: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلا فَساداً، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، بَلَى! وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوها وَوَعَوْها، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيا فِى أَعْيُنِهِمْ وَراقَهُمْ زِبْرِجُها».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى عصر خلافته ولا سيما أبان البيعة التى شهدت حضوراً خارقاً للُامّة فى مبا يعته والوقوف إلى جانبه، البيعة الفريدة التى لم يعرف التأريخ الإسلامى لها من نظير، غير أنّ عدداً كثيراً لما جوبه بعدالة الإمام عليه السلام وتنمره فى الحق قد إنفرجوا عنه وهبوا لمخالفته وبالتالى أججوا نيران الحرب «الجمل وصفين والنهروان» وشقوا صفوف المسلمين وحالوا دون تتويج جهود الإمام عليه السلام ومساعيه فى النهوض بالمجتمع الإسلامى والأخذ بيده إلى السمو والتكامل.

فقد وصف عليه السلام بادىء ذى بدء كيفية إقبال الناس عليه وهجومهم من أجل البيعة قائلًا:

«فما راعنى ۴۹۲] إلّاوالناس كعرف ۴۹۳] الضبع ۴۹۴] إلىّ ينثالون ۴۹۵] علىّ من كل جانب»

فالتعبير بعرف

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۰

الضبع إشارة إلى الازدحام الشديد للناس واندفاعهم لمبايعة الإمام عليه السلام فهو مثل يضرب للكثرة والازدحام.

أمّا قلقه من الهجوم المفاجيء للناس من أجل البيعة فلعله يعزى إلى أنّ مثل هذه البيعة الحماسية من شأنها أن تقلد الإمام عليه السلام مسؤولية جديدة ولا سيما أنّه كان يتوقع نقض البيعة من قبل اولئك الذين يتهافتون على الدنيا وحطامها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بوضوح فى الخطبة ۹۲ حيث قال:

«دعونى والتمسوا غيرى، فانا مستقبلون أمراله وجوه وألوان، لاتقوم له القلوب، ولا تثبت عيه العقول، وان الافاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا أنّى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً، خيرلكم منى أميرا».

أضف إلى ذلك كان يشعر بالقلق من جهة اخرى وهى أن تشير إليه أصابع الاتهام من قبل المنافقين وخصوم الدعوة بقتل عثمان. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى عمق ذلك الازدحام والانهيال عليه بالبيعة فقال عليه السلام:

«حتى لقد وطىء الحسنان، وشق عطفاى، مجتمعين حولى كربيضة الغنم».

و يرى أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد بالحسنين هما الإمام الحسن والحسين عليهما السلام. فقد كان الإمامان عليهما السلام فى عنفوان شبابهما إلّاأنّ الهجوم الشعبى العام قد جعلهما فى موقع حرج فى الحفاظ على والدهما. بينما ذكر بعض الشرّاح احتمالين آخرين؛ الأول أن يكون المراد اصبعى الرجل البارزين- كما روى ذلك عن الشريف الرضى رحمه الله- نقلا عن بعض اللغويين (أبى عمر) و قد استدلوا على ذلك باشعار العرب، إلّاأنّ هذا المعنى يبدو مستبعداً لانّ وطىء اصبعى الرجل قضية عادية تحصل عند أدنى زحام ولا يمكنها أن تعكس ذلك الهجوم العظيم.

والأبعد من ذلك التفسير الثالث الذى أورده البعض على أنّ المراد بها عظمى اليد وذلك

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۱

لتعذر وطىء إصبعى اليد عادة سواء عظمى العضد أو الساعد، ولا يوطئان إلّاحين يقع الإنسان على الأرض.

أمّا تشبيهم بربيضة الغنم فهو لا يرمز إلى جهل الناس كما فسره بعض الشارحين، بل يتضمن إشارة إلى ما أوردناه سابقاً حيث يرمز إلى لو إذ الغنم بالراعى كلواذها بالمرعى حين تتعرض لهجوم الذئاب.

فالمسلمون الذين تفرقوا هنا وهناك إثر الهجوم الذى تعرضوا له من قبل ذؤبان عصر الخليفة الثالث وتفككت عرى الوحدة بينهم قد رأوا فى الإمام عليه السلام حلقة الوصل فاندفعوا إليه بلهفة ليتجمهروا حوله ويشعروا بالسكينة والاستقرار. غير أنّ المؤسف هو أنّ الاندفاع لم يكتب له الدوام حين عرضوا للاختبار لتفشل فيه طوائف من المسلمين، وهذا ما صوره الإمام على عليه السلام إذ قال:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت ۴۹۶] اخرى وقسط[۴۹۷] آخرون».

و قد أجمع أغلب شرّاح نهج البلاغة على أنّ المراد بهم أصحاب الجمل والنهروان وصفين فقد ذكروا أنّ أصحاب معركة الجمل (هم طلحة والزبير الذين استغلا وجود عائشة لتأليب الناس ضد أمير المؤمنين) الذين نقضوا البيعة هم «الناكثين» فقد بايعا علياً عليه السلام وهما يطمعان بالخلاصة فلما لم يتمّ لهما ذلك قدما البصرة وبثا بذور الشقاق والفرقة.

و «المارقين» هم أصحاب النهروان ويراد بهم الخوارج الذى خرجوا على الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله بعد قضية التحكيم فى صفين. وهم من وصفوا بالمروق عن الدين كمروق السهم من الرمية. فى إشارة إلى أنّهم قد كانوا على الحق إلّاأنّ تعصبهم الأعمى وجهلهم وحبهم لذاتهم قد أمرقهم من ذلك الحق. و «القاسطين» هم أهل الشام جيش معاوية، حيث وردت مفردة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۲

القسط بمعنى العدل إلى جانب ورودها بمعنى الظلم والطغيان والفسق.

و الجدير بالذكر هنا أنّ هذه التسميات لهذه الفئات الثلاث- وعلى ضوء المصادر الإسلامية- ممّا صرّحت بها الأحاديث النبوية الشريفة.

فقد روى الحاكم النيسابورى فى مستدرك الصحيحين عن أبى أيوب الأنصارى أنّه قال: «أمر رسول الله صلى الله عليه و آله على بن أبى طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»[۴۹۸].

كما ورد هذا المعنى فى تلخيص المستدرك للذهبى ۴۹۹]. ووردت هذه الرواية فى كتاب اسد الغابة فى شرح سيرة الإمام على عليه السلام ۵۰۰].

بينما وردت هذه الرواية مفصلة فى تاريخ بغداد، حيث جاء عن أبى أيوب الانصارى أنّه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه و آله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فى ركاب على عليه السلام. أمّا الناكثين فقد قاتلناهم وهم- أصحاب الجمل- طلحة والزبير، وأمّا القاسطين فهم من عدنا الآن من عندهم؛ أى معاوية وعمرو بن العاص (لقد قال ذلك حين عاد من صفين) وأمّا المارقين فهم أصحاب النهروان، والله لا أعلم أين هم إلّاأننى أعلم بأناسنقاتلهم»[۵۰۱]

و الحق انّ هذا جواب قاطع لُاولئك الجهال الذين لم تحسم لديهم الحروب التى وقعت إبان خلافة على عليه السلام.

نعم فاولئك الذين تهافتوا فى بادى الأمر على على عليه السلام من أجل البيعة لم يطيقوا تحمل عدالته وشدته فى الحق؛ ولا سيما ممارسته للعدالة التى أوشكت أن تموت بعد تلك المدّة الطويلة التى شهدت إنعدامها وقد تمثل ابسط مظاهرها فى التطاول على بيت المال وسلبه ونهبه الذى أقدم عليه الكثيرون فانى لهم بتحملها، ولذلك لم تصمد معه إلّاثلة معدودة التزمت بعهودها بينما إنفرج عنه الأعم الأغلب ممن بايعوه؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى خطبته فقال:

«كأنّهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: «تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۳

فِى الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».[۵۰۲]

ثم أضاف عليه السلام:

«والله لقد سمعوها ووعوها[۵۰۳] ولكنهم حليت الدنيا فى أعينهم، وراقهم ۵۰۴]

زبرجها[۵۰۵]»[۵۰۶].

فالإمام عليه السلام يشبههم فى البداية بالجهال الذين دفعهم جهلهم لمخالفته، ثم ينتقل فى المرحلة اللاحقة ليصفهم بأنّهم سمعوا هذه الأخبار والحقائق ووعوها وهى ليست خافية عليهم، إلّاأنّ حب الدنيا والتكالب على حطامها والاغترار بزبرجها- ولا سيما بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى التى جرت عليهم ما لا يحصى من الغنائم النفيسة والتعود على الحياة الوادعة المرفهةخاصة تلك التى ظهرت أبان خلافة عثمان- جعلتهم يؤثرون الدنيا على الدين ويبيعون الحقيقة بالخرافة ويضحون بالدار الآخرة ويزهدون فيها.

فالعبارات التى أوردها الإمام عليه السلام هى فى الواقع عصارة التحليلات بشأن نشوب المعارك الثلاث فى عهد الإمام عليه السلام؛ الأمر الذى يعتبر درسا لجميع المسلمين على مدى التاريخ فى أنّهم يعيشون الفرقة والتشتت وتمزق عرى الوحدة كلما أقبلوا على الدنيا واغتروا بزخارفها وزبرجها، فليس لهم من سبيل سوى الورع والتقوى والزهد بغية الثبات على الطريق.

ونشاهد اليوم بكل وضوح أنّ الاختلافات السائدة فى أوساط المسلمين إنّما تعزى لما بينه الإمام عليه السلام وأو جزته الآية القرآنية الشريفة: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۴

فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين».

فالعلو فى الأرض والفساد والتكالب على الدنيا وحطامها هما أساس الفرقة والاختلاف و التشتت فى المجتمعات الإسلامية.

تأمّلات

۱- البيعة الشعبية لأمير المؤمنين عليه السلام

إنّها البيعة التى لا يمكن مقارنتها بتلك التى حدثت مع الخلفاء الثلاث.

كانت بيعة عفوية شعبية عامة بعيدة عن البرمجة والتخطيط، بل نابعة من أعماق الامّة المستضعفة التى ذاقت الظلم والاضطهاد، فهى ليست كبيعة السقيفة التى مثل إتخاذ القرار فيها بعض الأفراد لترى الامّة نفسها أمام نتيجة حسمت سابقاً، وهى ليست كبيعة عمر التى اسندت بطولتها لفرد واحد هو الخليفة الأول، وأخيراً ليست كبيعة عثمان التى استندت للشورى السداسية وعلى ضوء التركيبة التى شكلها عمر.

بل هى بيعة واقعية وحقيقية جردت ماسواها من إنتحال هذا الاسم بعد أن برمجت وخططت بهذه الكيفية.

فقد ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الثوار الذين أودوا بحياة عثمان إتجهوا صوب الإمام على عليه السلام ليبايعوه على الخلافة، فلم يجبهم فلما أصروا عليه، خاطبهم قائلًا:

«أنا لكم وزيراً خير منى اميراً».

حيث كان يعلم عليه السلام بأنّ سبقت هؤلاء فى البيعة سيثير تهمة مفادها أنّ عثمان قتل مع سبق الاصرار والترصد طبق خطة مدروسة.

أضف إلى ذلك فلو بايعوه، لزعم البعض أنّ قتلة عثمان فقط هم الذين بسطوا له أيديهم بالبيعة، وناهيك عمّا تقدم فانّ الإمام عليه السلام كان يتوسم فيهم عدم القدرة على إحتمال الحق؛ نعم فالحق ثقيل وبيىء، إلّاأنّ الإمام عليه السلام فوجىء بتقاطر المهاجرين والانصار الذين اصروا عليه بقبول الخلافة.

فلم يكن له من سبيل سوى قبولها، فارتقى المنبر عليه السلام لتندفع إليه الامّة زرافات ووحدانا وهى تعلن بيعتها له، ولم يشذ منها سوى النزر اليسير من قبيل سعد بن أبى وقاص وعبدالله

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۵

بن عمر ولم يجبر هم الإمام عليه السلام على مبايعته ۵۰۷].

إننا نعتقد وعلى ضوء المصادر الإسلامية المعتبرة أنّ النبى صلى الله عليه و آله قد إستخلف علياً عليه السلام بأمر الله، ولم يقتصر ذلك على «غدير خم» بل أكده النبى صلى الله عليه و آله فى عدّة مواضع ومناسبات، ورغم مخالفة البعض- لاسباب لايسعنا المجال إلى الخوض فى تفاصيلها- بعد رحيل النبى صلى الله عليه و آله مع ذلك فما أن قتل عثمان حتى تدفقت الامّة بشكل عجيب على الإمام عليه السلام وهى تعلن عن تظامنها ودعمها واسنادها للإمام عليه السلام؛ الدعم الذى لم تشهده النظم الديمقراطية طيلة تجاربها، بل قل نظيرها سوى بعض النماذج التى حصلت على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله كبيعة الشجرة.

و ممّا لا شك فيه أنّ تلك البيعة إنّما كانت تنبع من معرفة الامّة بمنزلة على عليه السلام وسعة علومه ومعارفه ومدى ورعه وتقواه وزهده وادارته الناجعة التى لم يكن فيها من مكان للتيارات والتحزبات، فقد كانت من العفوية والإنسيابية بحيث سلبت زمام المبادرة من الخصوم لتجعلهم يعيشون حالة الدهشة امام عمل تم ولا- سبيل إلى الرجعة منه، ولو تركوا الامّة وحالها وتخلوا عن مؤامراتهم وغدرهم لنهض ذلك المجتمع نهضات ولعاش الاطروحة التى حملها له القرآن والمتمثلة بقيام مجتمع الحرية والعدالة.

و سنرى لاحقا أنّ هذه العناصر المشبوهة العثمانية التى تطاولت على بيت أموال المسلمين وردت الميدان السياسى لتعبث الناس وتتلاعب بمشاعرها الدينية وتقودها فى خاتمة المطاف إلى إشعال نيران الجمل وصفين والنهروان وتسدد تلك الضربات الموجعة للإسلام والمسيرة الإسلامية.

۲- مصدر الانحرافات الاجتماعية

يعتبر الإمام عليه السلام- فى هذه الخطبة- أنّ العامل الأصلى الذى يقف وراء الانحراف عن الحق فى عصره (و فى كل العصور) إنّما يكمن فى حب الدنيا والاغترار بزخرفها وزبرجها الذى أجج نار حروب الجمل وصفين والنهروان، ثم يؤكد عليه السلام على الآية الشريفة التى تصرح بأن الآخرة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۶

من نصيب اولئك الذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا. فهذه العبارات القصيرة إنّما تكشف عن حقائق مهمّة تلمس آثارها على مدى التاريخ.

فالاطماع هى أساس الحروب والنزاعات الدموية، والاهواء والفساد فى الأرض هو العنصر الرئيسى الذى يقف وراء الفوضى والهرج والمرج ومن هنا فاذا لم تجابه هذه العادات الشيطانية بالإيمان والاعتقاد الراسخ فلا مناص من نشوب هذه الحروب الفتاكة وانعدام العدالة وسيادة الفوضى والقلق والاضطراب، بل ستبرز هناك العناصر التى تتلاعب بالقيم الإنسانية والمفاهيم الأخلاقية وسائر الاصول من قبيل الحرية وحقوق الإنسان لتسخرها من أجل تحقيق أهدافها وأطماعها.

والذى يجدر ذكره أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن أولئك الذين تتضارب عقائدهم مع أعمالهم، ويبدو أنّهم مسلمون حيث سمعواالآيات القرآنية ومنها «تلك الدار الآخرة ...».

و آمنوا بها، غير أنّ دعائم إيمانهم قد تزعزعت وتفككت بفعل دوافعهم التى شدتهم إلى الدنيا والتكالب على زخارفها والاغترار بزبرجها، وهذه هى النتيجة الطبيعية لكل اولئك الذين يؤثرون دنياهم على دينهم.

۳- المعارك الثلاث على عهد الإمام على عليه السلام

لقد تضمنت خطبته عليه السلام إشارة إلى المعارك الثلاث: الجمل، وصفين والنهروان التى اشعلت من قبل الناكثين والقاسطين والمارقين. وسنشير هنا إلى هذه المعارك بصورة مختصرة:

أ- معركة الجمل

لم تمر على بيعة امير المؤمنين عليه السلام أكثر من ثلاثة أشهر حتى ضاقت طوائف من المستكبرين ذرعا بعدالة الإمام عليه السلام ولم تطق تحمله فهبت لمخالفته. معاوية من جانبه أعلن فى الشام عن عدم استعداده لمبايعة على عليه السلام ثم تأهب للقتال. فكتب الإمام عليه السلام رسائل إلى ولاته على الكوفةالبصرة ومصر ليجهزوا الجيش من أجل مقاتله معاوية ... فى هذه الاثناء هم طلحةالزبير بالسفر إلى مكة بذريعة أداء العمرة.

فالتقيا فى مكة عائشة التى كانت متذمرة من مبايعة على عليه السلام فانضمت إليهما واتجهوا إلى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۷

البصرة لنصرة عثمان. وبالطبع فانّ كافة القرائن تشير إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا يطالبون بدم عثمان، ولم يكن لهم من تعصب للإسلام؛ قتلة عثمان لم يكونوا فى البصرة، أضف إلى ذلك فان نصرة عثمان لا تستلزم مخالفة أمير المؤمنين على عليه السلام، ناهيك عن أنّ طلحة من قادة الثورة على عثمان.

و واضح أنّ هدف هؤلاء من نقض بيعتهم لعلى عليه السلام هو عدم حصولهم على المناصب التى كانوا يحلمون بها. وأخيراً تمكن طلحة والزبير مع عائشة فى شهر ربيع الثانى عام ۳۶ ه بالمكر و الخداع من الاستيلاء على البصرة ثم أخذوا لأنفسهم البيعة من الناس حيث سددوا أولى ضرباتهم لوحدة الامّة الإسلامية.

الإمام عليه السلام بدوره لما كان عالماً بهذا الأمر أنفذ جيشه الذى جهزه لقتال معاوية نحو البصرة ثم كتب رسالة لعامله على الكوفة «أبو موسى الأشعرى» يطلب منه تعزيز الجيش- ورغم أنّ أبا موسى لم يرد بالا يجاب على رسالة الإمام إلّاأنّه انفذ جيشاً قوامه تسعة

آلاف مقاتل إلى الكوفة- وفى جمادى الآخرة التحم الجيشان، وطبق نقل «تاريخ اليعقوبى» فانّ المعركة استغرقت أربع ساعات هزم فيها جيش طلحة والزبير، فانبرت عائشة لتعبئة أهل البصرة فركبت الجمل ومن هنا سميت هذه المعركة بمعركة الجمل؛ وقد أبدى الجيش الذى تمحور حول الجمل مقاومة عنيفة.

فنادى الإمام عليه السلام: «إعقروا الجمل» فلما عقر الجمل إنتهت المعركة حيث قتل طلحة والزبير (فقد قتل طلحة فى الميدان على يد مروان، بينما فر الزبير ليقتل خارج ميدان المعركة) فسرح الإمام عليه السلام عائشة بكل إحترام على أنّها زوج النبى صلى الله عليه و آله إلى المدينة.

و قيل أنّ عدد القتلى فى الجمل قد بلغ عشرة آلاف وقيل سبعة عشر ألفاً، وهكذا حسمت المعركة لصالح الإمام عليه السلام واخمدت تلك الفتنة.[۵۰۸]

ب- معركة صفين

عاد الإمام عليه السلام إلى الكوفة بعد الجمل، فكتب لمعاوية كتابا طالبه بالبيعة. فلم يجبه معاوية

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۸

وأخذ يدعو الناس للطلب بدم عثمان حتى أمر البعض بان يعلنوا على الناس أنّ قاتل عثمان هو على بن أبى طالب عليه السلام.

و بعد مضى مدّة كتب رسالة لعلى عليه السلام يعلن فيه الحرب بعد أن جيش جيوش الشام.

فجهز الإمام عليه السلام أهل الكوفة لينفذ جيشه إلى صفين وقد أجابه أغلب الناس إلّاالقليل منهم.

فجعل الإمام عليه السلام جيشه طوائف وجعل لكل طائفة أمير. وصل الإمام عليه السلام صفين لثمان بقين من محرم عام ۳۷ ه ليلتقى جيش معاوية هناك. حاول بعض أصحاب الإمام عليه السلام البدو بالقتال، فكتب معاوية رسالة للإمام عليه السلام يناشده عدم التعجيل بالقتال.

الإمام عليه السلام من جانبه كان يسعى جاهدا للحيلولة دون نشوب القتال فكان يرسل الرسائل و الأفراد يناشده جيش معاوية الالتحاق بصفوف المسلمين حتى مرت عدّة شهور ولم يأذن الإمام عليه السلام بالقتال رغم اصرار أصحابه عليه. إلّاأنّ كل هذه الامور لم تكن تجدى نفعاً، حتى نشبت المعركة فى شهر ذى الحجة عام ۳۷ ه ووقع بين الطرفين قتال شديد، ثم توقف القتال بحلول شهر محرم الحرام، ثم أخذ الإمام عليه السلام يرسل رسائله ويبعث بأصحابه، وما ان انتهى شهر محرم حتى نشب القتال ثانية حتى زحف جيش الإمام ومنى جيش الشام بالفشل.

و أخيراً شعر معاوية بهزيمة جيشه فعمد إلى الجيش بحمل المصاحف، فحدث انشقاق فى جيش الإمام عليه السلام بعد أن تعالت أصوات المنافقين بالكف عن القتال ثم انتهى الأمر إلى التحكيم الذى فرض على الإمام.

فاختاروا أبا موسى الأشعرى المعروف بسذاجته ممثلا عن الإمام عليه السلام وعمرو بن العاص عن معاوية بعد أن أتفقا على أن يخلع كل صاحبه.

فقام أبو موسى الأشعرى وخاطب الناس أنّى خلعت علياً عليه السلام كما أخلع خاتمى، بينما خدعه عمرو بن العاص ولم يخلع معاوية.

وهكذا ضاعت أعظم فرصة كادت أن تقضى على بنى امية و تغير وجه التاريخ فندم جيش الإمام عليه السلام حيث لا ينفع الندم.

ج- معركة النهروان

يفهم من أحداث معركة صفين أنّ الخوارج فئة أفرزتها تلك المعركة بعد مسألة التحكيم.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۵۹

حيث أصروا على الإمام عليه السلام بقبول التحكيم فلما قاد إلى تلك النتيجة ندموا ندماً شديداً ليعتبروا التحكيم مخالفة صريحة للقرآن وأنّه الكفر بعينه، وقد بلغت بهم الوقاحة أن طالبوا الإمام عليه السلام بالتوبة وإلّا هبوا لقتاله. فلما رأى الإمام عليه السلام

الاختلاف قد دب بين جيشه (ولاحظ عناصر النفاق التى كانت تحاول إثارة الفتنة) أصدر أمره بالعودة إلى الكوفة.

فلما عاد الجيش إلى الكوفة، انشق منه اثنا عشر ألف من الأفراد المتعصبين ليلجأوا إلى الحروراء- قرية تبعد ميلين عن الكوفة- ومن هنا اطلق عليهم إسم الخوارج الحرورية، وأخيراً استعدوا للقتال بعد أن تجمعوا فى النهروان قرب الحروراء.

و الغريب فى الأمر كان البعض منهم من أصحاب البرانس من الحفاظ. إلّاأنّهم كانوا يعرفون بالجهل والتعصب والالتزام بظواهر الدين دون باطنه ومن هنا استحقوا إسم «المارقين».

سعى الإمام عليه السلام بادىء ذى بدء إلى نصحهم والاعذار إليهم فبعث لهم الواحد تلو الآخر، فكان من ذلك أن استجاب عدد منهم وهم ينادون «التوبة التوبة يا أمير المؤمنين» حيث قيل إنّ ثمانية آلاف منهم قد رجعوا وتابوا (تفيد الروايات أنّ الإمام عليه السلام قد جعل راية فى الميدان وأمر التوابين بالانضواء تحتها)، مع ذلك لم ياذن الإمام عليه السلام بمقاتلتهم أملا بعودة من تبقى منهم.

حتى بعث لهم من يحاججهم فقتلوه ثم نشب القتال، فقاتل عليه السلام قتالًا شديداً بعد أن أخبر أصحابه بأن مصارعهم دون النطفة ولن ينجو منهم عشرة ولن يهلك من جيشه عشرة. فكان الأمر كما أخبر عليه السلام.[۵۰۹]

وقعت هذه الحرب فى اليوم التاسع من شهر صفر عام ۳۸ أو ۳۹ هجرى، ولم تدم اكثر من ساعة.[۵۱۰]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۱

القسم الخامس: قبول البيعة والخلافة

اشارة

«أَما وَالَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَما أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَماءِ أَلَّا يُقارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِها، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِى مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ».

الشرح والتفسير

يبيّن الإمام عليه السلام الأسباب التى دعته إلى قبول البيعة والأهداف التى يتوخاها من الخلافة، كما يشير إلى أنّ هذه الخلافة والامرة لا تعدل عنده شىء لولا تلك الأهداف الكبرى

فقال عليه السلام

«أمّا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة،[۵۱۱] لولا حضور الحاضر[۵۱۲]، وقيام الحجة

بوجود الناصر، وما أخذ الله على العماء أن لا يقاروا[۵۱۳] على كظة[۵۱۴] ظالم، ولا سغب [۵۱۵]

مظلموم، لا لقيت حبلها على غاربها[۵۱۶]، ولسقيت آخرها بكأس أولها».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۲

فقوله عليه السلام

«والذى فلق الحبة»

إشارة لما ورد فى القرآن الكريم بشأن الذات الإلهية المقدسة «فالق الحب والنوى»[۵۱۷] التى تتضمن أهم خلق الله سبحانه ألا وهو خلق الحياة. وقوله عليه السلام

«برء النسمة»

إشارة لخلق الإنسان والروح الذى أشار له القرآن الكريم بقوله «فتبارك الله احسن الخالقين»[۵۱۸] فهو يتضمن القسم باهم أعمال

خالق الوجود للدلالة على أهمية الأمر الذى يريد التحدث عنه.

و قوله عليه السلام

«لولا حضور الحاضر»

فى إشارة إلى حضور الحاضرين بالبيعة له، وإن ذهب البعض إلى أنّ المراد بالحاضر ذات البيعة والذى لا يختلف كثيرا والمعنى الأول.

أمّا القول بأنّ المراد حضور الله أو حضور الزمان الذى تنبئ به الرسول الكريم صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام فهو مستبعد جداً، وإن أورده بعض الفضلاء كتفسير لتلك العبارة. على كل حال فان هذه العبارة تتحد فى المعنى مع قوله عليه السلام:

«و قيام الحجة بوجود الناصر»

لتشير كلاهما لاتمام الحجة عليه عليه السلام فى أن ينهض بالأمر بعد توفر العدّة من الأصحاب والبيعة امّا قوله عليه السلام

«لالقيت حلها على غاربها»

فهو كناية عن الانصراف عن الشىء، حيث جرت العادة أن يطرح زمام الناقة على ظهرها إذا لم يكن هناك من حاجة إليها فى عمل.

و قوله عليه السلام:

«لسقيت آخرها بكأس أولها»

كناية عن الصبر على الأمر وتركه كما صبر عليه ازاء الخلفاء الثلاثة[۵۱۹]. إلّاأنّ الإمام عليه السلام يرى نفسه ملزما بالنهوض بالأمر والتصدى للخلافة لسببين: أحدهما وجود الناصر الذى يتمّ الحجة عليه بالقيام من جانب، والثانى العهد الذى أخذه الله على العلماء بالقيام بالأمر إذا ما غيبت العدالة واستفحل الظلم وضيعت الحقوق

«لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۳

فالواقع أنّ كلام الإمام عليه السلام تحذير لكافة علماء فى ممارسة مسؤوليتهم فى تشكيل الحكومة وبسط العدل والقسط فى ربوع المجتمع وعدم السكوت والتخاذل فى حالة توفر هذه الأسباب.

ويخطىء كل أولئك الذين يرون وظيفتهم إنّما تقتصر على إقامة الشعائر العبادية كالصوم والصلاة والحج والزكاة إلى جانب الإتيان بالمستحبات. فبسط العدل والقسط والدفاع عن المظلوم والقيام بوجه الظالم تعدّ من جوهر الوظائف الإسلامية لهؤلاء العلماء.

ثم يقول عليه السلام:

«و لا لفيتم ۵۲۰] دينا كم هذه أزهد عندى من عفطة[۵۲۱] عنز».

وبالالتفات إلى ما ورد فى صحاح اللغة من أن العفطة تعنى الماء الذى يترشح من أنف الشاة (أو العنز حين العطسة) تتضح مدى تفاهة الدنيا- التى تحظى بفائق الأهمية لدى أهلها- عند على عليه السلام، فما قيمة العنز فضلا عن ماء أنفها والحق ان مثل هذه التعبيرات قد تبدو غريبة بالنسبة لُاولئك الذين لا يعرفون شخصية على عليه السلام؛ إلّاأنّ هذه الغرابة ربّما تزول بأدنى نظرة إلى سيرته عليه السلام وحياته التى عاشها.

قال السيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبة.

«قالوا وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً- قيل أنّ فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها- فاقبل ينظر فيه (فلما فرغ من قرائته) قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت.

فقال: «هيهات يا بن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرّت» قال ابن عباس فو الله ما اسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث يريد».

أمّا التعبير بأهل السواد فهو إشارة إلى المناطق الغنية بالزرع والأشجار التى تبدو من بعيد سوداء، لأنّ اللون الأخضر يتركز من بعيد ليميل إلى السواد، ولما كان هل الحجاز ألفوا الأرض اليابسة الخالية التى يصطلح عليها بالبياض فانّهم إذا ما انطلقوا نحو العراق المخضر بفضل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۴

نهريه دجلة والفرات وتلوح أشجاره وزرعه من بعيد يبدو أسوداً فيصطلحون عليه بأرض السواد كما يطلقوا على أهله اسم أهل السواد.

أمّا مضمون الكتاب والمسائل التى فيه فقد تطرق إليها بعض شرّاح. نهج البلاغة وسنعرض لها فى البحث القادم.

وقد روى ابن أبى الحديد بهذا الشأن عن استاذه مصدق بن شبيب أنّه قال: قرأت على الشيخ أبى محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما إنتهيت إلى هذا الموضع، قال لى: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقى فى نفس ابن عمّك أمر لم يبلغه فوالله مارجع عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بقى فى نفسه أحد لم يذكره إلّارسول الله صلى الله عليه و آله.

قال مصدق: وكان ابن الخشات صاحب دعابة وهزل، قال: فقلت له: أتقول إنها منحولة.

فقال: لا والله وإنى لاعلم أنّها كلامه، كما أعلم أنّك مصدق.[۵۲۲]

قال الشريف الرضى رحمه الله: قوله عليه السلام

«كراكب الصعبة إن اشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم» يريد أنّه إذا شدد عليها فى جذب الزمام وهى تنازعه رأسها خرم أنفها وإن ارخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها يقال «أشنق الناقة» إذا جذب رأسها بالزمام فرفعها و «شنقها» أيضا، ذكر ذلك «ابن السكيت» فى اصلاح المنطق» وإنّما قال «اشنق لها» ولم يقل «اشنقها» لانّه جعله فى مقابلة قوله «أسلس لها» فكانه عليه السلام قال: إن رفع رأسها بمعنى أمسكه عليها بالزمام).

تأمّلات

۱- الرد على سؤال

قد يقال: تعتقد الإمامية واتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أنّ الإمام ينصب من قبل اللّه تعالى بواسطة النبىالأكرم صلى الله عليه و آله، لاعلى أساس إنتخابه من قبل الامّة، بينما صرّح الإمام عليه السلام فى هذه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۵

الخطبة قائلًا: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر و ... لالقيت حبلها على غاربها» فكيف التوفيق بينهما؟

و نقول فى الردّ على هذا السؤال أنّ للامامة والخلافة واقع ومقام ظهور وبروز فواقعها أنّها تعين من قيل الله بواسطة نبيّه صلى الله عليه و آله، أمّا ظهورها وبروزها والتصرف فى شؤون المسلمين والمجتمع الإسلامى إنّما يتوقف على الامّة ونهوض أبنائها فى توفير الدعم والاسناد؛ الأمر الذى لا يتأتى إلّامن خلال بيعة الامّة.

و من هنا أصبح الإمام عليه السلام جليس الدار إبان خلافة الخلفاء الثلاثة- طيلة خمس وعشرين سنة- ولم يتدخل فى شؤون الخلافة، والحال لم تكن هنالك من ثلمة فى إمامته المنصوص عليها من جانب الله بواسطة النبى صلى الله عليه و آله ويصدق هذا الكلام على بعض أئمة العصمة والطهارة، فقد إقترح أبومسلم الخلافة على الإمام الصادق عليه السلام، ولعلمه عليه السلام بالمؤامرة لم يجبه.

بل كان البعض يطالب الأئمة بالقيام وتولى الخلافة. فيجيبون باننا لا نملك ما يكفى من الأنصار[۵۲۳].

۲- المسائل التى تضمنها الكتاب

روى المرحوم «الشارح البحرانى» فى كتابه عن أبى الحسن الكيدرى أنّ الكتاب الذى سلم إلى على عليه السلام آخر الخطبة كان يقسم عشرة أسئلة هى:

۱- الذى خرج من بطن وليس له بولد؟

قال عليه السلام: يونس عليه السلام الذى خرج من بطن الحوت.

۲- ما كان قليله مباح وكثيره حرام؟

قال عليه السلام: نهر طالوت.

۳- العبادة التى يعاقب على الإتيان بها أو تركها؟

قال عليه السلام: الصلاة فى السكر.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۶

۴- الطائر الذى ليس له أصل (أم)؟

قال عليه السلام: الطائر الذى خلقه عيسى عليه السلام باذن الله.

۵- رجل مدين الف درهم وله الف درهم وضمنه آخر وكان له الف درهم، وقد مضى عليه عام، فالزكاة على أى من المالين؟

قال عليه السلام: إذا فعل الضامن ذلك باذن المدين فلا زكاة عليه، وإن فعله بدون إذنه وجبت عليه الزكاة.

۶- حج جماعة فنزلوا بيتاً فى مكة وأغلق أحدهم باب البيت فكان فيه طيور فماتت عطشا، فعلى من تجب الكفارة؟

قال عليه السلام: على من أغلق الباب ولم يخرج الطيور ولم يسقيها.

۷- شهد أربعة على رجل بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه (لأنّه كان محصناً) فرجمه أحدهم وساعده جماعة وامتنع الثلاث. ثم رجع عن شهادته (وأقر بكذبه) ولم يمت المتهم. ثم مات وبعد موته رجع الثلاث عن شهادتهم. على من تجب دينه؟

قال عليه السلام: على ذلك الرجل والجماعة الذين ساعدوه ۵۲۴].

۸- هل تقبل شهادة يهوديين لثالث باعتناق الإسلام؟

قال عليه السلام: لا تقبل شهادتهما؛ لأنّهم يحرفون كلام الله ويجوزون الشهادة بالباطل.

۹- هل تقبل شهادة نصرانيين لنصرانى أو يهودى أو مجوسى بالإسلام؟

قال عليه السلام: تقبل لقوله سبحانه: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنّا نَصارى [۵۲۵].

۱۰- قطع شخص يد آخر، فشهد أربعة عند الإمام قطعت يده وقد زنا بمحصنة، فاراد الإمام أن يرجمه فتوفى قبل الرجم، فما حكمه؟

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۷

قال عليه السلام: تجب الدية على من قطع يده، لكن ان شهدوا أنّه سرق بحد النصاب فلا تجب الدية على القاطع ۵۲۶]. طبعا ما ذكر هو مضمون رواية مرسلة رويت عن الكيدرى ولم تثبت صحة سند الحديث، ولذلك هناك أبحاث كثيرة من وجهة النظر الفقيهة بشأن بعض الفروع المذكورة فى هذا الحديث.

۳- مميزات الخطبة الشقشقية

إنّ نظرة عامة إلى خطب نهج البلاغة تفيد أنّ الخطبة الشقشقية هى من الخطب التى قل نظيرها إن لم نقل لا نظير لها فى نهج البلاغة؛ الأمر الذى يثبت أنّ الإمام عليه السلام قد أوردها فى ظروف خاصة للحيلولة دون نسيان الحقائق المتعلقة بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه و آله لتخلد فى التاريخ ومن هنا أطلق عباراته بصراحة تامة. فقد أوضح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عدّة امور منها:

۱- أحقيته وجدارته بالخلافة التى بينها بوضوح وهذه هى الحقيقة التى إتفق عليها تقريباً كافة المحققين المسلمين وغير المسلمين،

حتى إعترف معاوية أعدى أعداء الإمام عليه السلام با فضليته ۵۲۷].

۲- مظلوميته عليه السلام رغم أحقيته وكفائته.

۳- يفيد كلام الإمام عليه السلام عدم وجود مرجع واضح لانتخاب أى من الخلفاء الثلاثة، اضافة إلى المعايير المتعددة التى حكمت ذلك الانتخاب، فقد كانت خلافة أحدهم تستند إلى رأى واحد، وآخر لنصف من شورى سداسية وثالث لعدد من الآراء.

۴- ابتعاد الامّة فى عصر الخلفاء عن تعاليم النبى الأكرام صلى الله عليه و آله وتفاقم الازمات على مرور الزمان، بحيث كانت من أبلغ الصعوبات التى واجهت الإمام عليه السلام حين تولى الخلافة تكمن فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۸

إعادة الامّة إلى القيم الإسلامية التى كانت سائدة على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله.

۵- أنّ التهافت على الدنيا والاغترار بزخرفها هو العامل الذى يقف وراء الفوضى والاضطراب والحروب التى نشبت على عهد الإمام على عليه السلام.

۶- أنّ ما حصل للإمام على عليه السلام هو البيعة الحقيقة بعينها، غير أنّ عدالة على عليه السلام وشدته فى الحق أثارت حفيظة بعض زعماء المجتمع لينقضوا البيعة ويقسط ويمرق آخرون.

۷- لم يكن للإمام عليه السلام أية رغبة بالخلافة ولم يراها هدفا قط، بل هى وسيلة لاحقاق الحقابطال الباطل وبسط العدل والقسط.

۸- كانت الانتفاضات التى حدثت فى زمان عثمان والتى أدت بالتالى إلى قتله طبيعية جداً ونتيجة لسلوكه وبطانته من بنى امية الذين سلطهم على رقاب المسلمين فجعلهم عمالًا وولاة على بعض المناطق فعبثوا ببيت المال واسرفوا فى تبذيره حتى ثارت الامّة بعد أن انطلقت شرارة الرفض من المناطق البعيدة عن مركز الخلافة كمصر والبصرة والكوفة.

۹- كانت المعارك الثلاث- الجمل وصفين والنهروان- قد فرضت على الإمام عليه السلام من قبل الأفراد الذين لم يطيقوا عدله عليه السلام إلى جانب أولئك الذين يبحثون عن الجاه والمنصب.

۱۰- عدم انسجام عقيدة تنزيه الصحابة وعدالتهم لمجرّد صحبتهم مع أى من المعايير والوقائع التاريخية؛ وهو الاعتقاد الذى يقود إلى التناقض، فاصحاب فتنة الجمل هما إثنان من الصحابة وصاحب صفين من الصحابة أيضا بينما كانت طائفة من الصحابة من مشعلى نار النهروان وقد خرج جميع هولاء على إمام زمانهم فاختاروا سبيل البغى وشق عصا الامّة الإسلامية وبث الفرقة والاختلاف فى صفوفها. فكيف والحال هذه نقول على عليه السلام.

على الحق وطلحة والزبير ومعاوية كذلك؟! أمّا الاستدلال بالاجتهاد فى هذه الامور فهو توجيه يفتقر إلى المنطق ومدعاة حتى لارتكاب الكبائر.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۶۹

الخطبة الرابعة

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

و هى من أفصح كلامه عليه السلام وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم ويقال:

«إنّه خطبها بعد قتل طلحة والزبير»

نظرة إلى الخطبة

يمكن أن تكون هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها قد وردت بعد أحداث معركة الجمل وقتل طلحة والزبير فهى تتحدث عن وقائع المعركة والدروس والعبر التى ينبغى أن يتعلمها المسلمون. حيث يمكن خلاصة الخطبة فى محاور رئيسية ثلاث:

۱- التصريح بهذه الحقيقة وهى هداية الامّة من الظلمات بواسطة أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله حتى بلغت ذروة تكاملها ورقيها، وعليه فعليها أن تعيرهم آذانا صاغية وتتفاعل مع مواعظهم ونصائحهم.

۲- إنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بالخيانة ونقض العهود والتمرد، إلّاأنّ جلباب الدين لم يدعه يكشف تلك الحقائق.

۳- يشير الإمام عليه السلام فى المقطع الأخير من الخطبة إلى أنّ اليوم لم يعدّ يوم التستر على الحقائق؛ لابدّ من إعلان هذه الحقائق وإلّا يخشى على الامّة من الضلال وهذا بذاته ما يجعل الإمام عليه السلام يعيش هاجس القلق.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۷۱

القسم الأول: التحلى بالوعى واليقظة

اشارة

«بِنا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْماءِ، وَتَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْياءِ، وَبِنا أَفْجَرْتُمْ عَنِ السِّرارِ وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْواعِيَةَ، وَكَيْفَ يُراعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ؟ رُبِطَ جَنانٌ لَمْ يُفارِقْهُ الْخَفَقانُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى بداية الخطبة إلى النعم الجمة التى تمتع بها المسلمون- ولا سيما فى صدر الإسلام- فى ظل الإسلام، حيث وضح هذا الأمر بثلاث عبارات قصيرة ذات تشبيهات رائعة فقال عليه السلام:

«بنا إهتديتم [۵۲۸] فى الظلماء[۵۲۹] وتسنمتم [۵۳۰] ذروة[۵۳۱] العلياء، وبنا افجرتم [۵۳۲] عن السرار[۵۳۳]»

. فالإمام عليه السلام يشير فى العبارة الأول إلى ظروف الجاهلية التى خيم فيها الظلام والجهل والفساد والجريمة على كافة الأماكن حتى تبددت هذه الظلمات بظهور النبى صلى الله عليه و آله

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۷۲

وانبثاق الدعوة الإسلامية ليهتدى الناس إلى الصراط المستقيم ويتجهون نحو الهدف المنشود.

ويشبه فى العبارة الثانية حركة الرقى والتكامل والازدهار بالجمل ذى السنام (حيث اقتبست المفردة تسنتم من مادة سنام أعلى قمة فى الجمل) فقال عليه السلام لقد بلغتم هذه الذروة وقطعتم مسيرة الرقى والتكامل فى ظل الإسلام؛ الحقيقة التى إذعن لها جميع مؤرخى الشرق والغرب فى كتبهم التى تعرضوا فيها للمدنية الإسلامية وحضارتها. ثم شبه فى العبارة الثالثة أوضاع المجتمع الجاهلى بليالى الشهر الظلماء والمحاق (حيث تعنى السرار الليالى التى لايبزغ فيها القمر أبداً) فقال عليه السلام: «و بنا أفجرتم عن السرار». والواقع هو أنّ هذه التعبيرات إنّما تنبع من القرآن الذى شبه الإسلام والإيمان والوحى بالنور، فقال: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ»[۵۳۴] وقال فى موضع آخر: «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ»[۵۳۵] وقال: «وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ»[۵۳۶]- ثم يذم عليه السلام الأفراد الذين صخت آذانهم عن سماع الحق بينما يثنى على غيرهم من ذوى الاسماع فقال عليه السلام:

«وقر سمع لم يفقه الواعية»

. تستعمل مفردة «الوقر» بشأن الصمم كما تستعمل فى ثقل السمع، والمراد بالواعية الأصوات المرتفعة، وهى إشارة لآيات القرآن التى

تقرع الاسماع بشأن المسائل المهمّة العقائدية والعملية والأخلاقية وكذلك السنة النبوية الشريفة. أمّا التعبير «لم يفقه» بدلًا من «لم يسمع» تفيد عدم جدوى السمع مالم يصحبه الإدراك والفهم. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«وكيف يراعى النباة[۵۳۷] من أصمته

الصيحة»[۵۳۸]

. والمراد كيف يصغى لى ويستمع قولى من لايراعى أو امر اللَّه ونبيّه صلى الله عليه و آله فقد شبه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۷۳

ذلك بمن أصمته الصيحة القوية فانه محال أن يراعى بعد ذلك الصوت الضعيف. ولما كانت هنالك الفئة الاخرى المتعصبة للحق فقد قال عليه السلام:

«ربط جنان ۵۳۹] لم يفارق الخفقان ۵۴۰].

ملاحظة

الهداية فى ظل أهل البيت عليهم السلام

ما مر معنا فى هذا القسم من الخطبة هو إشارة إلى واقعة تأريخية مهمّة تتضح من خلال مقارنة عصر العرب الجاهلية بعصر التطور والازدهار الذى أعقب بزوغ شمس الإسلام، كيف كان عرب الجاهلية من حيث العقائد الدينية والقضايا المتعلقة بالمبدأ والمعاد والنظام الاجتماعى ونظام الاسرة والأخلاق والتقوى والأوضاع الاقتصادية وكيف أصبحت هذه الامور أبان انبثاق الدعوة الإسلامية ونزول القرآن الكريم. والحق أن التفاوت بينهما إلى درجة من المدى والعمق بحيث لايمكن سوى نعته بالمعجزة الكبرى وإلّا تعذر تصور ذلك التفاوت. فما صوره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة لم يكن سوى الظلام المطلق الذى القى بظلاله على جميع المجتمع، ولم يكد ينبثق الإسلام حتى تبددت هذه الظلمة بفجر الإسلام ليأخذ بيد المجتمع إلى العلم والمعرفة والثقافة والحضارة والمدنية. ولم تكن سوى إشارة قصيرة ولا يمكن الالمام بتفاصيلها إلّابالرجوع إلى الكتب التى ألفت بشأن الحضارة الإسلامية. كما وردت بعض التفاصيل فى سائر خطبه عليه السلام فى نهج البلاغة.

نفحات الولاية ؛ ج۱ ؛ ص۲۷۳

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۷۵

القسم الثانى: كنت أتوقع غدركم، ولكن ...

اشارة

«ما زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَواقِبَ الْغَدْرِ وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ، حَتَّى سَتَرَنِى عَنْكُمْ جِلْبابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِى جَوادِّ الْمَضَلَّةِ، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلا تُمِيهُونَ».

الشرح والتفسير

لقد خاطب الإمام على عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة- سليلى أصحاب الجمل من تبقى منهم قائلًا:

«مازلت انتظر بكم عواقب الغدر، واتوسمكم ۵۴۱] بحلية المغترين ۵۴۲]»

. فقد روى أنّه لما بويع عليّ عليه السلام كتب إلى معاوية: أمّا بعد فإنّ الناس قتلوا عثمان عن غير مشورة منّى وبايعونى عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابى فبايع لى، وأوفد إلىّ أشراف أهل الشام قبلك.

فلما قدم رسوله على معاوية، وقرأ كتابه، بعث رجلًا من بنى عميس، وكتب معه كتاباً إلى الزبير بن العوام، وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله الزبير أميرالمؤمنين من معاوية بن أبى سفيان:

سلام عليك، أمّا بعد، فإنّى قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبى طالب، فإنّه لا شىء بعد هذين

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۷۶

المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيدالله من بعدك، فأظهر الطلب بدم ثمان، واذْعُوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوئكما! فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سُرّ به، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه، فلم يشكّا فى النصح لهما من قبل معاوية، وأجمعا عند ذلك على خلاف على عليه السلام.

جاء الزبير وطلحة إلى على عليه السلام بعد البيعة بأيام، فقالا له: يا أميرالمؤمنين، قد رأيت ما كنّا فيه من الجفوة فى ولاية عثمان كلّها، وعلمت رأى عثمان كان فى بنى أمية، وقد ولّاك اللّه الخلافة من بعده، فولّنا بعض أعمالك، فقال لهما: ارضيا بقسْم الله لكما، حتى أرى رأيى، واعلما أنّى لا أشرك فى أمانتى إلّامن أرضى بدينه وأمانته من أصحابى، ومن قد عرفت دخيلته، فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس، فاستأذناه فى العمرة.

طلب طلحة والزبير من على عليه السلام أن يولّيهما المصرين: البصرة والكوفة، فقال حتى أنظر. ثم استشار المغيرة بن شعبة، فقال له: أرى أن تولّيهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ماترى؟ قال: يا أميرالمؤمنين، إنّ الكوفة والبصرة عَيْن الخلافة، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولستُ آمنهما إن ولّيتَهُما أن يُحْدِثا أمراً. فأخذ على عليه السلام برأى ابن عباس.

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكّة لم يلقيا أحدا إلّاوقالا له: ليس لعلى فى أعناقنا بيعة، وإنّما بايعناه مكرَهين. فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أبعدهما اللّه وأغرب دارهما، امّا واللّه لقد علمتُ أنّهما سيقتُلان أنفسهما أخبث مقتل، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم، واللّه ما العُمرةَ يريدان، ولقد أتيانى بوجهى فاجرِيْن، ورجعا بوجهى غادرين ناكثين، واللّه لا يلقياننى بعد اليوم إلّافى كتيبة خشناء، يقتلان فيها أنفسهما، فبُعْداً لهما وسحقاً.[۵۴۳]

ثم أضاف عليه السلام أنّ لباس الدين وجلبابه هو الذى يجعلنى أغض الطرف عنكم (ولا أهتك سريرتكم):

«حتى سترنى عنكم جلباب ۵۴۴] الدين، وبصرنيكم صدق النيّة»

. والواقع هو أنّ عبارة الإمام عليه السلام إجابة عن سؤالين هما: أولًا: لو كان الإمام عليه السلام يتوقع نقضهم للعهد ويتوسم

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۷۷

ذلك فيهم فلم لم يعلن ذلك على الملأ؟ وثانياً: من أين له هذا العلم بباطن هؤلاء؟ فقد رد الإمام عليه السلام على السؤال بقوله: «سترنى عنكم جلباب الدين» ورد على السؤال الثانى بقوله «وبصرنيكم صدق النية». بينما ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى تفسير العبارة الاولى بانّكم لم تعرفونى، وما ذلك إلّالسوء فهمكم للدين، أو أن تدينى منعكم من معرفتى؛ إلّاأنّ هذا المعنى يبدو مستبعداً لما ينطوى عليه من تكلف إلى جانب عدم إنسجامه والعبارات السابقة، فالمعنى الأول هو الأنسب. ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول:

«أقمت لكم على سنن الحق فى جواد[۵۴۵]

المضلة[۵۴۶] حيث تلتقون ولادليل، وتحتقرون ولاتميهون»[۵۴۷]

يشبه الإمام على عليه السلام الناس فى عصر عثمان ولا سيما أواخر عمره بالرحالة الذين ضلوا الطريق وساروا على غير هدى فهم

يتضوون عطشاً وهم يحفرون الأرض موضعاً موضعاً من أجل الوصول إلى الماء فلا يحصلون عليه؛ فيهب الإمام عليه السلام لنجدتهم فيهديهم إلى الصراط المستقيم فينتهلون من منهله العذب. ثم يلفت إنتباههم إلى عظم الفتن الدينية والدنيوية التى كانت ستلتهمهم فى ذلك العصر المظلم لولا وجوده عليه السلام.

تأمّلان

۱- البصيرة

لقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضية مهمّة وهى أنّ صفاء النفس وصدق النية من العناصر التى تكمن وراء البصيرة والفراسة. فالمؤمنون الأصفياء الباطن يرون ما لايرى غيرهم، وهى الحقيقة التى صرّح بها القرآن الكريم وأكدتها الروايات الإسلامية. فقد جاء فى القرآن: «ان تتقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً»[۵۴۸]. وورد فى الحديث المعروف عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إتقوا فراسة المؤمن فانّه ينظر بنور اللّه»[۵۴۹] وقال الإمام الرضا عليه السلام:

«ما من مؤمن إلّاوله فراسة ينظر

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۷۸

بنور اللّه على قدر إيمانه ومبلغ إستبصاره وعلمه وقد جمع اللّه للائمة منّا ما فرقه فى جميع المؤمنين وقال عز وجل فى كتابه: إن فى ذلك لآيات للمتوسمين. وإن أول المتوسمين رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله ثم أميرالمؤمنين عليه السلام وبعده الحسن والحسين عليهما السلام والائمة عليهم السلام من ولد الحسين إلى يوم القيامة»[۵۵۰]

جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام جواباً لمن سأله: كيف تعلمون بباطن الناس وتخبرون عمّا فى أنفسهم. والحق ليس هنالك من حجاب مضروب على حقائق العالم، وليس ذلك سوى حجاب الهوى والهوس الشيطانى الذى يغشى بصيرتنا فيحول دون رؤيتنا للحقائق، ولو إستشعرنا قلوبنا الورع والتقوى والإيمان واليقين فان هذه الحجب سترفع ونرى كل شىء على حقيقته، فقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لولا أنّ الشياطين يحومون إلى قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت»[۵۵۱].

۲- ستر عيوب الناس

غالبا ما يتصف الأفراد بالعيوب الخفية التى قد يطلع عليها الإنسان من خلال الطرق العادية أو إستناداً إلى الفراسة والإيمان؛ فاذا إطلع عليها فانّ الواجب يحتم عليه- ولاسيما إذا إطلع ذلك ولاة الامّة وقادة المجتمع- أن يسعى جاهداً لسترها وعدم هتك حجابها مادامت لاتشكل خطرا يتهدد المجتمع؛ وذلك لأن هتك سريرة الآخرين وكشف عيوبهم يجردهم من حرمتهم من جانب ويفسح المجال أمامهم لارتكاب المعاصى والجرأة على مقارفتها من جانب آخر؛ فالفرد يبقى محتاطاً مادام عيبه مستور، فانّ هتك وافتضح أمره فلا يراع شيئاً، وناهيك عن كل ذلك فان هتك العيوب مدعاة لاشاعة الفاحشة فى المجتمع وتلوث الآخرين بارتكاب الذنب. ومن هنا ورد التأكيد فى الروايات والأحاديث على كتم السر على أنّه حق من حقوق المؤمنين على بعضهم البعض الآخر. فقد جاء فى الحديث:

«واكتم سره وعيبه واظهر منه الحسن»[۵۵۲]

. وعن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال:

«من ستر على مؤمن عورة يخافها ستر اللّه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۷۹

عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة»[۵۵۳]

فقد أشار الإمام على عليه السلام إلى هذه الوصية الإسلامية وأعلن طاعته وامتثاله لها، وبالطبع فقد قلنا إنّما يكون ذلك مالم تقود تلك العيوب التى يراد سترها إلى بعض المشاكل الاجتماعية التى تهدد كيان المجتمع، وإلّا فالوظيفة تقتضى إعلان الحقائق. ولكن لاينبغى التذرع بهذا الاستثناء من أجل هتك عيوب الناس وأسرارهم.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۸۱

القسم الثالث: اليوم أكشف الحجاب

اشارة

«الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْماءَ ذاتَ الْبَيانِ! عَزَبَ رَأْىُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّى! مَا شَكَكْتُ فِى الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلالِ الْيَوْمَ تَواقَفْنا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْباطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِماءٍ لَمْ يَظْمَأْ».

الشرح والتفسير

لقد تضمن هذا القسم من الخطبة عدّة عبارات أشارت لعدة امور مهمّة، ويبدو أنّ هنالك عدّة جمل تخللت هذه العبارات قد أسقطها السيد الرضى رحمه الله حين التلخيص، فقد كانت عادة السيد فى إختيار مقتطفات من الخطب وحذف بعض العبارات، على كل حال فانّ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام هنا هو قوله:

«اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان»

. والعجماء البهيمة التى لاتنطق لها، إلّاأنّها تطلق أحيانا على الحوادث والقضايا الصماء التى ليست لها قابلية على النطق. ومن هنا يرى أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد بالعجماء الحوادث التى تنطوى على العبر والدروس التى حدثت على عهد الإمام عليه السلام أو العهود الماضية وكل حادثة مع غموضها وخفائها فكأنّها تنطق لأولى الألباب. فالإمام عليه السلام يتعرض لبيان عبرها ودروسها التى ينبغى أن يتعظ بها المسلمون. كما ذهب البعض إلى أنّ المرادبها صفاته الكمالية عليه السلام أو الأوامر الإلهية فكأنّها هى الاخرى صامتة والإمام عليه السلام يكشف عن منطقها. ثم قال عليه السلام فى العبارة الثانية:

«عزب رأى إمرئ تخلف عنى، ما شككت فى الحق مذ اريته»

فى الواقع يبدو صدر وذيل هذه العبارة من قبيل العلة والمعلول أو الدليل والمدعى، وإذا أخذ بنظر الاعتبار تربية الإمام عليه السلام فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۸۲

حضن النبى صلى الله عليه و آله على الحق والاستقامة وبفضله كاتب الوحى وشاهد المعاجز والأعظم من ذلك كونه باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه و آله إلى جانب علمه بالشهود إضافة لعلمه بالظاهر فانّ كلامه عليه السلام لايعرف معنى للاغراق والمبالغة قط. واحتمل بعض الشرّاح أنّ جملة «عزب رأى إمرئ ...» من قبيل الدعاء؛ أى بعدا وترحا لمن تخلف عن أوامرى. ويبدو المعنى الأول أنسب، أمّا العبارة الثالثة فقد أورد فيها الإمام عليه السلام رداً على سؤال قد يقتدح فى ذهن البعض بعد موقعة الجمل وهو: لم كان الإمام عليه السلام قلقاً من أحداث تلك الموقعة؟ فالإمام عليه السلام يجيب بانّ هذا القلق ليس على نفسه قط، بل خشية من تسرب الشك والريب إلى قلوب عوام الناس بفعل إقتحام الميدان من قبل زوج النبى صلى الله عليه و آله وبعض الصحابة من قبيل طلحة والزبير وارتفاع الأصوات المطالبة بدم عثمان؛ كالقلق الذى عاشه موسى عليه السلام حين واجهه السحرة بسحرهم خشية غلبتهم واضلال الناس

«لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال»

. وهى إشارة إلىالآيات التى وردت فى سورة طه بشأن موسى عليه السلام والسحرة «قالُوا يا مُوسى إِمّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَ نَّها تَسْعى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى [۵۵۴]. أمّا فى العبارة الرابعة فيحذر من تبقى من مثيرى فتنة الجمل فى أننا وإيّاكم قد وقفنا على مفترق طرق نتجه فيه إلى الحق بينما تتجهون نحو الباطل

«اليوم توافقنا[۵۵۵] على سبيل الحق والباطل»

. كأنّ الإمام عليه السلام يقول لهم، افتحوا أعينكم وانظروا إلى ما أنتم عليه فانكم إنّما خرجتم على إمام زمانكم! لقد نكثتم البيعة ولم تقيموا حرمة للمواثيق! لقد شققتم عصا المسلمين وفرقتم صفوفهم! وسفكتم دماءاً غزيرة! وقلدتم أنفسكم مسؤولية كبرى ستطيل وقوفكم أمام اللّه يوم القيامة! ارجعوا إلى رشدكم واعيدوا النظرا فى أوضاعكم!. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بقوله:

«من وثق بماء لم يظلمأ»

مراده عليه السلام أنّ من كان له واعظ وقائد موثوق لايتسلل إليه الشك والترديد والوساوس الشيطانية والقلق والاضطراب وإنعدام الثقة؛ وذلك لأنه يرى نفسه على جرف ماء المعرفة الفرات العذب ويلوذ بامامه عند الفزع فيأتمر بأوامره

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۸۳

والاستضاءة بنور علمه. وأنتم كذلك لو عرفتم زعيمكم ووثقتم به فاعلموا أنّكم سائرون على الحق وآمنون من كافة أشكال الشكوك و الأهواء النفسية والوساوس الشيطانية.

الصراع بين الحق والباطل

لقد شبه الإمام عليه السلام الحق والباطل بطريقين سلك فريق أحدهما والآخر الثانى، وإذا أردنا تفسير هاتين المفردتين باختصار، فلابدّ أن نقول بانّ الحق هو الواقع والباطل هو الخيال والسراب الذى يحسبه الظمآن ماء. ومن هنا فان الذات الإلهية المقدسة التى تعدّ أعظم من كل واقع اكتسبت أول اسم وهو الحق، وغيره على الحق بقدر إرتباطه به وكلما ابتعد عنه فهو على الباطل. فعالم الإمكان لانتمائه للّهفهو حق، وهو باطل لامتزاجه ببعض جوانب العدم. فالعالم ميدان لصراع الحق والباطل وقد صور القرآن الكريم أبعاد هذا الصراع وعاقبتهنتائجه بمثال رائع فى سورة الرعد حيث قال: «أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءاً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذ لِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالباطِلَ فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفاءاً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرضِ كَذ لِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثالَ»[۵۵۶].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۸۵

الخطبة الخامسة

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

لما قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وخاطبه العباس وابوسفيان بن حرب فى أن يبايعا له بالخلافة (و ذلك بعد أن تمت البيعة لأبى بكر فى السقيفة وفيها ينهى عن الفتنة ويبين عن خُلقه وعلمه)[۵۵۷].

نظرة إلى الخطبة

هـذه واحـدة من الخطب التى نقلت عن الإمام عليه السـلام فى أنّها خطبها قبل خلافته. والـذى يسـتفاد من هـذه الخطبة والمقدمة التى أوردها الشـريف الرضـى (ره) عليها أن أباسـفيان والعباس إنطلقا إلى على عليه السـلام بعد وفاة رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله (و لعل أباسـفيان دفع العبـاس إلى ذلك) واقترحا على الإمام عليه السـلام النهوض بالأمر والبيعـة له على أنه خليفـة رسول الله صـلى الله عليه و آله. إلّاأنّ الإمام عليه السـلام الـذى كان يحرص على بيضة الإسـلام واسـتناداً إلى علمه التام بالظروف التى كانت تهدد الدين آنذاك وضـرورة قبر المؤ امرات والفتن فى مهـدها ليس فقـط لم يجبهم لتلك البيعـة نحسب، بل حـذرهما بكل صـرامة من مغبـة هـذا العمل ونصحهما بالابتعاد عنه. ولما كان عليه السلام

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۸۶

عالما ببعض المغرضـين أو الجهال الذين قد يشـكلون على سـكوته فقد رد عليه السلام على هذا الإشكال، ثم إختتم كلامه ببيان مدى عشقه للموت وانطوائه على العلم الذى لايسع الآخرين سماعه فضلا عن احتماله. ولم يأذن له فى الكشف عن أسراره.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۸۷

القسم الأول: احذروا مثيرى الفتن

اشارة

«أَيُّهـا النَّاسُ شُـقُّوا أَمْواجَ الْفِتَنِ بِسُـفُنِ النَّجـاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنافَرَةِ، وَضَـعُوا تِيجانَ الْمُفاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَناحٍ، أَوِ اسْتَسْـلَمَ فَأَرَاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا. وَمُجْتَنِى الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِيناعِها كالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ».

الشرح والتفسير

إنّ سـبب هذه الخطبة هو: لما قبض رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله واشـتغل على عليه السـلام بغسله ودفنه وبويع أبوبكر فى سقيفة بنى ساعـدة، خلا الزبير وأبوسـفيان بالعباس عم النبى صـلى الله عليه و آله وقال: امّا واللّه إنى لأرى عجاجة لايطفئها إلّاالدم، يا لعبد مناف، فيم أبوبكر من أمركم، مابال هذا فى أقل حى من قريش. ثم قال لعلى عليه السلام أبسط يدك أبايعك، فو اللّه إن شئت لأملأنها على أبى فضـيل- يعنى أبابكر- خيلًا ورجلًا، فامتنع على عليه السـلام حيث كان يعلم الإمام عليه السلام بأنّه لاينشد سوى الفساد والفتنة ومن هنا خطب هذه الخطبة.[۵۵۸] واورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى كتـابه الكامـل أنّ علياً عليه السـلام ردّ على أبى سـفيان بانّك تريد الفتنة ولاتضـمر للإسلام سوى الشر فلا حاجة لنا بنصحك.[۵۵۹] ومن هنا تتضح أجواء الخطبة وسـهولة تفسير ماورد فيها من عبارات.

فقد أشار عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبة إلى أربعة مواضيع مهمّة. فقال عليه السلام:

«أيّها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرجوا[۵۶۰] عن طريق المنافرة[۵۶۱]، وضعوا تيجان المفاخرة».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۸۸

قوله عليه السـلام أيّها الناس يفيد حضور عدد كبير من الناس فضـلًا عن ذانك الفردين. ويؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة بهذا الشأن. والنقطة الجديرة بالذكر أنّ الإمام عليه السـلام شـبه الفتن بالأمواج العاتية الكاسـحة والتى يوصـى بمجابهتها من خلال الاعتصام بسـفن النجـاة. والمراد بسـفن النجـاة تلك السـفن العملاقـة التى تشق عباب البحر ولاتصـمد أمامها الرياح العواتى فتبلغ بركابها شاطئ الأمان، ويراد بهم هنا الزعماء الربانيين ولاسـيما أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله ۵۶۲]، أى إسمعوا وأطيعوا لما نقول لا لما تريدون، وللتأكيد على هذا المعنى فقد شـبه عليه السـلام التفاخر القبلى والفئوى بالطريق الخطير المرعب الذى ينبغى إجتنابه (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ المعنى الأصـلى للمنافرة هو أن يذكر كل واحد من الرجلين مفاخره وفضائله، ثم يتحاكما إلى ثالث)- فالواقع هو أنّ الإمام

عليه السلام أراد بهذا الكلام القيم أن يركز على العامل الأصلى لآلام البشرية ومعاناتها، التى تفرزها على الدوام الحروب الدموية والاختلافات والنزاعات والاقتتالات التى تستند إلى التفاخر؛ فاذا ما حطم هذا الصنم أمكن حل كافة مشاكل المجتمعات البشرية وعاد إلى الدنيا الأمن والصلح والسلام. طبعا صحيح أنّ طلاب القدرة والمنصب إنّما يتقنعون بالدفاع عن حقوق المجتمع وحفظ القيم والمثل، ولكن ليس هنا لك من يشك فى أنّهم إنّما يتظاهرون بهذه الشعارات من أجل تحقيق أغراضهم ومآربهم بغية التفاخر على الآخرين. ثم قال عليه السلام:

«أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فاراح»[۵۶۳]

. فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطة أساسية هى أنّ القيام بالحق تتطلب بعض الشرائط؛ فلو توفرت هذه الشرائط لما ترددت فى القيام بالأمر، أمّا إذا لم تتوفر فالعقل والمنطق والدين لايحكم بأنّ القيام ليس بمجدٍ فحسب، بل من شأنه أن يثير الفرقه والاختلاف والاذى والمعاناة للآخرين كما يؤدى إلى القضاء على القوى الناهضة بالحق، وهذا أصل من الاصول الثابتة التى ينبغى رعايتها فى كافة الانشطة الاجتماعية ولاسيما فى النهضات والثورات السياسية. أمّا النقطة الاخرى التى تطرق إليها الإمام عليه السلام فانّما تكمن فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۸۹

مسألة الخلافة والأخذ بزمام امور الامّة التى جعلها البعض شماعة ليجيزوا حتى الوسائل غير المشروعة من أجل الوصول إليها فقال عليه السلام:

«هذا ماء آجن ۵۶۴]، ولقمة يغص ۵۶۵] بها آكلها»

. فحياة الإنسان متقومة بالماء والغذاء، ولكن أى ماء وغذاء؟ طبعا الماء النقى والغذاء الزكى، فالإمام عليه السلام شبه هنا طبيعة الحكومة بالماء المتعفن والغذاء الغصة. والحق كما صوره الإمام عليه السلام، فالإنسان كلما إقترب من حياة الحكام والساسة إكتشف مدى عظم مشاكلهم وشدة إستيائهم ووخامة أوضاعهم، فليس لهم من هدوء ولاسكينة كما ليس لهم من أمن أو إستقرار. وليس لهم سوى المظاهر الكاذبة الفارغة التى لاتنطلى سوى على بعض السذج. وبالطبع فان أولياء اللّه يسارعون لاحتواء هذه المشاكل ويتحملون كافة الصعاب والمعضلات كما يضحون بهدوءهم واستقرارهم خدمة لدين اللّه وعباده. كما ذهب البعض إلى أنّ اسم الإشارة (هذا) يشير إلى نوع الحكومة التى إقترحها أبوسفيان. على كل حال صحيح أن الحكومة كالماء الذى يعدّ قوام حياة الامم، إلّاأنّها كانت ومازالت مطمع أهل الدنيا الذين هبوا بكل قوة لمنازعة أولياء اللّه على تلك الحكومة فلوثوا هذا الماء كما جعلوا طعام الحياة غصصاً؛ الأمر الذى جعل الأولياء يترفعون عنها ويعلنوها صراحة

«لولا حضور الحاضر وقيام الحجة ... لألقيت حبلها على غاربها ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندى من عفطة عنز»

. امّا فى النقطة الرابعة فيشير إلى أحد أبعاد هذه المسألة وهو أن من أراد القيام بالأمر لتشكيل الحكومة الإسلامية فلابدّ أن تكون المقدمات والظروف معدة لذلك أو أن يتولى هو تهيئة هذه الظروف وإلّا فليست هنالك من قيمة أو أثر لهذا القيام ولايتمخض سوى عن الهزيمة والفشل- فقد قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن:

«و مجتنى الثمرة لغير وقت إيناعها[۵۶۶] كالزارع بغير ارضه»

. وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ الضمير فى (بغير أرضه) يعود إلى الزارع ومفهوم العبارة: كمن زرع فى غير أرضه ولاينتفع بذلك الزرع بل يعود ثمره على الآخرين؛ إلّاأنّ

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹۰

ضعف هذا التفسير يبدو واضحاً من خلال كلام الإمام عليه السلام الذى قرن ذلك بجنى الثمار غير الناضجة. وهنا لابدّ من القول بانّ هذه العبارات قد تناولت الاصول الأساسية والدروس القيمة المعتمدة فى تشكيل الحكومات الإلهية؛ الأمر الذى يدعو دعاة الحق وعشاق العدالة لعدم الانفعال بالعواطف والاحاسيس العابرة والاقتصار على الدراسات المحدودة من أجل ممارسة أنشطتهم وعليهم أن

يتربصوا بكل اناة وتحسب للوقوف على توقر الشروط وتأهب القوى وإن إحتاج هذا الأمر لمدّة من الزمان، على غرار المزارعين الذين لايقصدون قطف الثمار غير الناضجة رغم حاجته القصوى لهذه الثمار من أجل توفير قوته أو تسويقها وبيعها بغية تغطية حاجاته الأساسية، أضف إلى ذلك فانّ المزارع الماهر لايغرس بذوره فى أرض ليست خصبة أبدا، بل يتأنى قبل ذلك بحرث الأرض وسقيها بالماء ثم ينثر بذره.

سكوت الإمام عليه السلام بعد النبى صلى الله عليه و آله

يتساءل الكثيرون لماذا لم ينهض الإمام على عليه السلام بالأمر بدلًا من السكوت رغم كونه الأجدر والأحق بخلافة رسولاللّه صلى الله عليه و آله إلى جانب تأكيدات النبى صلى الله عليه و آله على إستخلافه بما يثبت أنّ الخلافة من حقوقه المسلمة بل من حقوق الامّة الإسلامية؟

و يبدو أنّ الإجابة على هذا السؤال قد وردت فى العبارات القصيرة البعيدة المعنى فى هذه الخطبة، حيث ذكر بعض الأسباب التى دعته لعدم القيام والنهوض بالأمر. أولها عدم إنطواء الأفراد- كابى سفيان- على حسن النية فى اقتراح النهوض بالأمر والتصدى للخلافة، أو أنّهم- كالعباس- كانوا ممن دفعوا من أصحاب الاغراض السيئة؛ الأمر الذى جعل الإمام عليه السلام يتعامل مع هذه الاقتراحات كفتن وبلا بل تستهدف القضاء على المسيرة ولم يكن معه الا القليل، وهذا ما صرّح به الإمام عليه السلام:

«فنظرت فاذا ليس لى معين إلّاأهل بيتى، فضننت بهم عن الموت، وأغضيت على القذى وشربت على الشجا، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمر أمرّ من طعم العلقم»[۵۶۷]

وناهيك عن كل ذلك فانّ الخلافة والحكومة لم تكن هدفا بالنسبة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹۱

للإمام عليه السلام حيث كان يراها الإمام عليه السلام كالماء الآسن المتعفن والطعام المنغص؛ بل يراها وسيلة لاحقاق الحق وإبطال الباطل «قال عبداللّه بن عباس: دخلت على أميرالمؤمنين عليه السلام بذى قار وهو يخصف نعله. فقال لى: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها! فقال عليه السلام: واللّه لهى أحب إلى من إمرتكم، إلّاأن اقيم حقا، أو أدفع باطلًا»[۵۶۸]. إلّاأنّ الإمام عليه السلام حين يرى هذا القيام لايؤدى إلى تحقيق الهدف، بل بالعكس إنّما يثير الخلاف والشقاق والفرقة فى صفوف المسلمين ولعله يتيح الفرصة للمنافقين الذين يتربصون بالاسلام الدوائر فلا يرى هناك من سبيل سوى الصمت والسكوت. وقد أورد ابن أبى الحديد أن فاطمة عليها السلام حدثت الإمام عليه السلام بالنهوض بالأمر، فلما ارتفع صوت المؤذن «أشهد أنّ محمداً رسولاللّه» إلتفت إليها قائلًا: أيسرك زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا. قال: فلابدّ من الصبر والسكوت ۵۶۹]. وبغض النظر عمّا تقدم فان كل عمل- ولاسيما النهضات الاجتماعية الإسلامية- يتطلب بعض المقدمات ولابدّ من توفر كافة الشروط اللازمة، وإلّا فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل والخذلان وهدر طاقات الامّة وتبديد قواها، وهذا الأمر أشبه بقطف الثمار غير الناضجة أو نثر البذور فى الأرض المالحة. ومن هنا كان الإمام عليه السلام قيامه يكمن فى السكوت والصمت.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹۳

القسم الثانى: ترى ماالعمل مع المتربصين؟!

اشارة

«فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي! وَاللَّهِ لابْنُ أَبِي طالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ».

الشرح والتفسير

يتعرض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى الحجج والذرائع الواهية المتضاربة التى يردها الجهال والحساد على الإمام عليه السلام. فيقول الإمام عليه السلام إنّ هذه القلوب العمى والبصائر الخافتة لا تنفك تعترض على فى كل موقف اتخذه، فان اتحدث عن أحقيتى بالخلافة وعدم صلاحية الآخرين لها، فالبى دعوة الامّة يتخرصون بأنّى حريص على الحكومة، وأنّ آثرت الصمت والسكوت صوروه خوفا من الموت: «فان أقل يقولوا: حرص على الملك وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت». نعم فهذا هو الاسلوب الرخيص الذى ينتهجه الجهال والمتخرصين ليعترضوا على أولياء اللّه فى كل حركة وسكنة وموقف يمارسونه، وهم لايتحفظون حتى عن التناقض والتضارب فى هذا المجال، فان قاموا أشكلوا عليهم وإن قعدوا أشكلوا كذلك. ومن هنا فان المؤمنين لايعيرون هذه التناقضات أية آذان صاغية. ويبدو أنّ هذا هو الأمر الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث المروى عنه أنّه قال:

«إنّ رضى الناس لا يملك

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۹۴

وألسنتهم لا تضبط»[۵۷۰]

. كما ورد شبيه هذا المعنى فى الخطبة ۱۷۲ من نهج البلاغة: «و قد قال قائل: إنّك على هذا الأمر يابن أبى طالب حريص، فقلت: بل أنتم واللّه لأحرص وأبعد، أنا أخص وأقرب، وإنّما حليت حقاً لى وأنتم تحولون بينى وبينه، وتضربون وجهى دونه، فلما قرعته بالحجة فى أعلا الحاضرين هب كأنّه بهت لايدرى ما يجيبنى به» ثم يواصل كلامه عليه السلام فى إطار ردّه على من فسّر سكوته بالخوف من الموت متعجباً من ذلك وهو الذى ثبت حين نكصت الأبطال فى بدر وأحد وحنين والاحزاب وخيبر التى أثبتت مدى ولهه وشغفه بالشهادة وله الرضيع بثدى امه:

«هيهات بعد اللتيا والتى! واللّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى امه»

. غير أن سكوتى يستند إلى علم بخفايا الامور لاتطيقون سماعه

«بل إندمجت ۵۷۱] على مكنون علم لو بحت ۵۷۲] به لاضطربتم إضطراب الارشية[۵۷۳] فى الطوى ۵۷۴]

البعيدة».

تأمّلات

۱- سوابق الإمام عليه السلام

يشير الإمام عليه السلام باختصار إلى الشجاعة والبسالة التى أبداها فى الغزوات والمعارك الإسلامية وفى بعض المواضع الخطيرة كمبيته على فراش رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وما إلى ذلك ليذكر أولئك المرضى الذين يشكلون عليه بأنّه لايخشى أية حادثة مروعة وقدخرج مرفوع الرأس من كل تلك الاختيارات والتمحيصات، وعليه فسكوتى لايقوى دليلًا على ضعفى قط؛ وليس

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۹۵

وراء هذا السكوت سوى مصالح الإسلام والمسلمين، ثم يستشهد على ذلك بالمثل العربى المعروف فيقول «بعد اللتيا والتى».

و قصة هذا المثل أنّ رجلًا تزوج من إمرأة كانت قصيرة القامة وصغيرة وسيئة الخلق فذاق منها الأمرين حتى طلقها. ثم تزوج من إمرأة طويلة القامة فآذته كسابقتها حتى اضطر لطلاقها، فلما عرضى عليه الزواج قال: «بعد اللتيا والتى لا أتزوج أبداً» فصار ذلك مثلًا يضرب

من أجل الحوادث الكبيرة والصغيرة، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّه إجتاز كل تلك الحوادث والخطوب فهل من سبيل إلى الخوف والخشية.

۲- لم أخاف الموت؟!

القضية الاخرى التى أشار إليها الإمام عليه السلام قوله:

«لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى امه»

. فالثدى ولبن الام أساس حياة الطفل، ومن هنا فان هذا الطفل يعيش حالة من الجزع والانين والصراخ إذا ما جرد من هذا الثدى وكأنّه سلب الدنيا برمتها، فاذا عاد إليه سكن وقر وشعر بالفرح والسرور وكأنّه نال الدنيا بما فيها؛ إلّاأنّ هذه العلاقة مهما كانت فهى تستند إلى الغريزة؛ أمّا علاقة الإمام عليه السلام والعرفاء بالموت ولقاء اللّه (و لا سيما الشهادة فى سبيل اللّه) فهى علاقة قائمة على أساس العقل والمنطق والعشق. فهم لايرون الموت سوى إنطلاقة الحياة الجديدة فى ذلك العالم الأوسع والأشمل. يرون الموت نافذة على عالم البقاء والخلود والخلاص من هذا السجن وتحطيم قيوده وأغلاله والتحليق نحو العالم العلوى ومجاورة الرحمن. فهل من عاقل يتردد فى التحرر من قضيان السجن والخلاص من هذه القيود والانحلال ۵۷۵]. نعم إنّما يخشى الموت من يراه فاتحة لكل شىء وبداية للعذاب الذى ينتظره بفعل ما قارفه من رذائل وفواحش. فأنى للإمام عليه السلام بالخوف من الموت وهو ما عليه من المعارف والعلوم والسمو والرفعة؟ ومن هنا يقسم عليه السلام بانّه آنس بالموت من الطفل بثدى امه. كما قال فى موضع آخر:

«فواللّه ما ابالى دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى [۵۷۶]

. بل هذا ماجسده عمليا حين ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه فصرخ قائلًا:

«فزت وربّ الكعبة»[۵۷۷].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹۶

۳- لم السكوت؟

قال الإمام عليه السلام:

«بل انطويت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم إضطراب الارشية فى الطوى البعيدة»

. ومن الواضح أنّ الآبار كلما كانت أعمق كان اضطراب الحبال فيها أكثر. ولكن ماهو المراد بهذه الأسرار والعلم الذى إنطوى عليه الإمام عليه السلام؟ يبدو أنّ هنالك احتمالات كثيرة أوردها شرّاح نهج البلاغة بهذا الشأن. فمنهم من فسّره بوصية النبى صلى الله عليه و آله له بالسكوت وعدم النهوض بالأمر والاشتباك مع الجماعة. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعواقب الامور ومصالح ومفاسد المجتمع الإسلامى والذى دعاه لاتخاذ موقف السكوت. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعالم الآخرة؛ أى أنى لأعلم بمسائل الآخرة بما لو بحت لكم به لما وسعكم الاستقرار ولعشتم الاضطراب. وهناك من فسّره بالقضاء والقدر الذى قدر لهذه الامّة. ولكن لايبدو أى من هذه التفاسير منسجم ومضامين الخطبة وماورد قبلها وبعدها من عبارات، ونرى الصحيح بأن تفسر هذه العبارة بالأحداث والتغييرات التى وقعت إبان الصحابة وادعياء الإسلام بعد وفاة رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله واولئك الذين كانت تراهم الامّة على الحق وهم باطل وضلال، واولئك الذين اندفعوا بالأمس خلف رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وشهروا سيوفهم بوجه الكفر والشرك بينما تخندقوا اليوم فى صفوف المنافقين وقد باعوا دينهم بدنياهم ولو عرفهم الناس لتعجبوا وذهلوا.

«بل اندمجت على مكنون علم لوبحت به لاضطريتم اضطراب الارشية فى الطوى البعيدة»

. فمن يصدق أنّ طلحة والزبير الذين قاتلا فى ركاب رسولاللَّه صلى الله عليه و آله سيشعلان يوما نار حرب الجمل؟ ومن يصدق أن أحد أزواج النبى صلى الله عليه و آله وأم المؤمنين- عائشة- ستكون يوماً وسيلة بيد المنافقين فتقود معركة يروح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف شخص؟ وعدد لا يحصى من قبيل هذه الأسئله. فإذا كان الأمر كذلك فكيف استند إلى مثل هؤلاء الأفراد وأنهض بالأمر.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹۷

الخطبة السادسة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما أشير عليه بَالّا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال

وفيه يبيّن عن صفته بأنّه عليه السلام لا يخدع ۵۷۸].

نظرة إلى الخطبة

حين نكث طلحة والزبير البيعة وقصدا عائشة فى البصرة واستوليا عليها، إعتقد البعض بأنّ الإمام عليه السلام لن يصطدم بهما وسيتركهما ريثماً يوطد دعائم خلافته فلا تمرّ مدّة حتى يعلنا إستسلامها. فالإمام عليه السلام يستهل خطبته بأنّ هذا الكلام خطأ محض وأنى لن أقف مكتوف الايدى لتشتد قوة العدو فيباغتنى. ثم يبيّن عليه السلام عزمه الراسخ على مقاتلة هؤلاء والزحف إليهم بجنده المطيع، ثم يعلن أنّ هذا هو الاسلوب الذى سيتبعه إلى آخر حياته. وأخيراً يختتم الخطبة بالإشارة إلى هذه الحقيقة فى أنّ هذه المخالفة والاعتراض ليست بالشىء الجديد وأنّ جذورها تمتد إلى زمان رحيل رسولاللَّه صلى الله عليه و آله ومازالت مستمرة ليومنا هذا.

«وَاللَّه لا أكُونُ كَالضبع تنام على طول اللدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكنى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹۸

المريب أبدا، حتى يأتى على يومى. فواللَّه مازلت مدفوعا عن حقى، مستأثرا علىّ، منذ قبض اللَّه نبيه صلى اللَّه عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا.»[۵۷۹]

الشرح والتفسير

الحيطة والحذر تجاه الأعداء

لقد رد الإمام عليه السلام على اولئك الذين يقترحون عدم مطاردة طلحة والزبير الذين نقضا بيعتهما، فقال عليه السلام:

«واللَّه لاأكون كالضبع ۵۸۰] تنام على طول اللدم ۵۸۱] حتى يصل إليها طالبها،

ويختلها[۵۸۲] راصدها[۵۸۳]

ويبدو أنّ المثل يضرب بالضبع على أنّه حيوان أبله يمكن صيده بكل سهولة؛ حيث يقوم الصياد بدق قطعة من الحجر أو العصا أمام عش الضبع فاذا نام تقدم إليه الصياد ليصيده بسهولة. وقد سطرت الخرافات والأساطير بهذا الشأن ومن ذلك أن يخاطب الصياد الضبع

فيقول له: يا ضبع نم فى عشك، ثم يكرر ذلك عدّة مرات، فيتجه الضبع إلى أقصى غاره وينام. فينادى الصياد: الضبع ليس فى العش، الضبع نائم، ثم يدخل عليه العش فيربطه بحبل ويخرجه من عشه ومن هنا شبه الأفراد الذين يعيشون الغفلة تجاه العدو بالضبع. أمّا الوقائع التأريخية آنداك فهى تشير إلى سذاجة الاقتراح القاضى بعدم مطاردة طلحة والزبير؛ وذلك لأن خطتهما كانت تستهدف السيطرة على البصرة والكوفة ثم يبايعهما معاوية ويأخذ لهما البيعة من أهل الشام فتخضع أغلب المناطق الإسلامية لسيطرتهما فلايبقى لعلى عليه السلام سوى المدينة. أضف إلى ذلك فان هؤلاء إستطاعوا أن يؤلبوا أكثر عدد ممكن من الناس من خلال

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹۹

الشعار الذى يطالب بدم عثمان حتى رسخ فى أذهان الناس أنّ قاتل عثمان هو على عليه السلام. ومن الواضح أنّ تلك الخطة كادت أن ترد الميدان عمليا لولا مبادرة الإمام عليه السلام وتسريعه بمواجهة الفتنة حتى استطاع أن يقبر تلك المؤامرة فى مهدها فتمكن من إنقاذ البصرة والكوفة بل والعراق بأجمعه، ولولا المعارضة التى أبداها الجهال تجاه الإمام عليه السلام فى إطار تعامله مع ظلمة الشام لاراح المسلمين وإلى الأبد من شرهم ولعاد العالم الإسلامى برمته وحدة واحدة؛ غير أنّ المؤسف له- وكما أشير إلى ذلك فى ذيل الخطبة الشقشقية- تعالت أصوات الجهال المغرضين الذين انطلت عليهم الدعايات ليوقفوا تلك المعركة التى كان النصر فيها للإمام عليه السلام قاب قوسين أو أدنى. ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول: «ولكنى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصى المريب أبداً، حتى يأتى على يومى».

طبيعى أنّ المجتمع لايتبنى الحق بجميع أفراده؛ فهناك ضعاف الإيمان وعبدة الاهواء وأصحاب الجاه والمناصب الذين لايروق لهم إمام عادل حيث يهدد منافعهم اللامشروعة فيلجأون إلى أساليب الدعاية والخداع والكذب والزيف وإثارة الشائعات؛ الأمر الذى يدعو الساسة والحكام إلى الاجهاض على هذه العناصر الفاسدة وإجتثاثها من المجتمع بصفتها غدة سرطانية يمكنها أن تلوث المجتمع، أو السعى للحد من نشاطهم وفعاليتهم ألم تكن مخاطرهم شديدة، كما ينبغى على دعاة الحق أن يكونوا على أهبة الاستعداد على الدوام للانقضاض على هذه العناصر والقضاء عليها. وأخيراً يصف الإمام عليه السلام هذه المعوقات بأنّها ليست جديدة وإنّما لها جذورها التى تمتد إلى زمان رحيل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «فو اللَّه مازلت مدفوعاً عن حقى، مستأثراً علىّ، منذ قبض اللَّه نبيّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا» فى إشارة إلى قضية طلحة والزبير فى إنّها تأتى فى إطار حلقة مستمرة منذ وفاة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومازالت قائمة حتى اليوم. امّا تعبيره بمدفوعاً ومستأثراً فهى إشارة إلى المقاومة التى أبداها الأعداء حيال الإمام عليه السلام لزحزحته عن حقّه وتقديم الآخرين عليه، لأنهم لايطيقون عدله وشدته. أمّا قوله عليه السلام:

«حتى يوم الناس هذا»

- بالالتفات إلى إضافة اليوم إلى الناس- يمكن أن يكون إشارة إلى ذلك اليوم الذى كنت فيه وحيدا وقد غصبوا حقى، واليوم قدهب البعض لمخافتى رغم وجود هذه الامّة التى بايعتنى. والجدير بالذكر أن المرحوم الشيخ المفيد أورد فى إرشاده

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۰

عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «هذا طلحة والزبير ليسا من أهل النبوة ولا من ذرية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حين رأيا أنّ اللَّه قد رد علينا حقنا بعد أعصر فلم يصبرا حولًا واحداً ولا شهراً كاملًا حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقى ويفرقا جماعة المسلمين عنّى»[۵۸۴].

تأمّل: رسالة إلى جميع المسؤولين

لقد لقّن الإمام عليه السلام بهذه العبارات التأريخية كافة الزعماء من أهل اليقظة والإيمان وساسة البلدان الإسلامية درساً بليغاً فى

التأهب لمواجهة الأعداء، ولاينبغى التخلى عن الفرصة بكل سهولة وعدم الاستسلام للحلول والاقتراحات التى يتقدم بها من يؤثر السكون ويخلد إلى الراحة والدعة. فقد شبه الإمام عليه السلام من ينخدع بهذه الاقتراحات ويفقد زمام المبادرة فى تلك اللحظات الحساسة بالضبع، ويكمن وجه الشبه فى عدّة امور منها:

۱- أنّ الضبع يشعر بوجود العدو إلّاأنّه ينام لسماع بعضى الأصوات التى يرددها؛ النوم الذى يؤدى به فى خاتمة المطاف إلى الأسر والموت.

۲- أنّ الضبع يصطاد فى غاره.

۳- لايبدى الضبع أدنى مقاومة للذب عن نفسه وإنّما يقع فى مخالبه بكل سهولة.

فالأفراد الذين لايتعاملون بحزم تجاه العدو ويبدون حالة من الضعف والوهن إزائه فهم كالضباع التى تنام فى مخادعها وتستسلم للقتل دون مقاومة.

و أخيراً فلايعنى هذا أن يقدم الإنسان على عمل دون التأنى والتامل والاستشارة والوقوف على كافة جوانبه؛ بل لابدّ من إستشارة ذوى الحجى والشجاعة واتخاذ القرار قبل فوات الأوان والأقدام فى الوقت المناسب.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۱

الخطبة السابعة

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

يذم فيها اتباع الشيطان

أتباع الشيطان

«اتَّخَذُوا الشَّيْطانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْراكاً، فَباضَ وَفَرَّخَ فِى صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِى حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطانُ فِى سُلْطانِهِ وَنَطَقَ بِالْباطِلِ عَلَى لِسانِهِ».[۵۸۵]

الشرح والتفسير

إنّ الخطبة رغم قصرها تصور بدقة أتباع الشيطان وكيفية نفوذهم إليهم، ومن ثم تبين الآثار الوخيمة والعواقب المشئومة والطرق التى يسلكها الشيطان فى التغلغل إلى الإنسان والالقاء به فى شباكه وحبائله، فيتلاعب به كيفما يشاء. والحق أنّها تخدير جدى لاتباع الحق فى ضرورة توفى الحيطة والحذر من تسلل الشيطان والوقوف بوجهه حال الشعور بأدنى آثاره. والخطبة وإن تحدثت عن بعض الأفراد من قبيل طلحة والزبير أو معاوية وأهل الشام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۲

أو أصحاب النهروان الذين سقطوا فى فخ الشيطان، إلّاأنّها لاتقتصر عليهم البتة، بل هى رسالة واضحة (لكافة الأفراد من أجل مراقبة الشيطان وعدم فسح المجال أمامه.

فقد تكفّلت الخطبة بتبيين المراحل التى يعقبها تسلل الشيطان فى أتباعه، حيث شرحها الإمام عليه السلام بما عرف عنه من فصاحة وبلاغة وتشبيه رائع بحيث لايمكن تقديم صورة فنية أروع من تلك التى رسمها الإمام عليه السلام. فقد أشار فى المرحلة الاولى إلى أنّ هذا التسلل والنفوذ إلى الإنسان إختيارى ولايمت بصلة إلى الاجبار. فالإنسان هو الذى يعطيه الضوء الأخضر ويدعه يلجه ويتصرف

بوجوده حتى يجعله ملاكاً ومعياراً لنشاطاته وفعالياته

«إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً»

. فملاك من مادة ملك بمعنى أساس الشيء ودعامته، كأن يقال القلب ملاك البدن، أى أن أساس وقوام البدن هو القلب وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح على لسان آياته «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّما سُلْطانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»[۵۸۶]. بناءاً على هذا فالعبارة المذكورة كالآيات القرآنية بمثابة رد على أولئك الذين يتساءلون عن سلطة الشيطان على بنى آدم فيقولون: كيف سلط اللّه سبحانه هذا المخلوق الخطير على الإنسان ثم طالبه بعدم إتباعه.

فالعبارة تقول أنّ الشيطان لايخترق الجدران غيلة، بل يأتى من الباب ويطرقها فان فتح له ولج وإلّا عاد من حيث أتى. صحيح أنّه يصر على طرق الباب دون الشعور بالكلل والملل، لكن بالمقابل هنالك الملائكة الذين يهبون لنجدة الإنسان ويحذروه من مغبة فتح الباب.

ثم أشار فى المرحلة الثانية إلى الانتخاب الذى يتولاه الشيطان بعد ذلك الانتخاب حيث يصطفى هؤلاء كاعوان وشركاء «واتخذهم له اشراكاً»[۵۸۷] ثم وضح عليه السلام ذلك بقوله: «فباض وفرخ فى صدورهم»[۵۸۸]. فالإمام عليه السلام يشبه صدور تبعة الشيطان بعش إبليس الذى يبيض فيه ويفرخ. ثم قال عليه السلام: «و دب ودرج فى حجورهم». صرّح بعض شرّاح نهج البلاغة بان دب من مادة الدبيب بمعنى الحركة البطيئة الضعيفة، والدرج الحركة الأقوى منها كحركات الطفل فى حضن

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۳

امه. ولعل التعبير بدرج إشارة إلى حقيقة وهى أنّ الأفكار والعادات الشيطانية ليست طارئة ومفاجئة على الإنسان؛ بل تتجذر فيه بصورة تدريجية؛ كما عبر عنه فى حذر المؤمنين منها حيث يتسنى له اقتياد الإنسان خطوة خطوة نحو الفساد والضلال والكفر.[۵۸۹]

فقال:

«فنظر باعينهم، ونطق بالسنتهم»

. أى أنّ هذه البيوض والفراخ الشيطانية ستنمو وتترعرع حتى تتبدل إلى شياطين تتحد معهم بحيث تنفذ فى جميع أعضائهم وجوارحهم حتى يعيشون الأزدواج فى شخصياتهم، فهم من جانب إنسان، ومن آخر شيطان، ظاهرهم إنسانى أمّا باطنهم شيطانى. عيونهم وآذانهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم أدوات تأتمر بأوامر الشيطان، فمن الطبيعى أن يروا جميع الاشياء بصيغة شيطانية كما أنّ آذانهم تطرب لسماع الانغام الشيطانية. أمّا فى المرحلة الرابعة فيتناول عليه السلام النتيجة النهائية لهذه المسيرة التدريجية المنحرفة فيقول:

«فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل»[۵۹۰]

ويشبه هذا الكلام ما أورده الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغة

«إلّا وأنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها»[۵۹۱]

. ثم قال عليه السلام فى المرحلة الأخيرة

«فعل من قد شركه الشيطان فى سلطانه، ونطق

بالباطل على لسانه»[۵۹۲]

. إشارة إلى أنّ أعمال هؤلاء تدل بوضوح على أنّ الشيطان استحوذ عليهم فتصرف فيهم كيف يشاء. فحديثهم حديث الشيطان ونظرهم نظر الشيطان وبالنتيجة فان بصمات الشيطان متجسمة فيهم، والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد فى هذه المرحلة أن يعرف هؤلاء الأفراد من خلال أعمالهم الشيطانية. ويبدو أنّ مراده عليه السلام بعض الأفراد كطلحة والزبير وانصارهما وأصحاب معاوية والخوارج ومن كان على شالكتهم، رغم أنّ الكتب المعروفة لشرح نهج البلاغة وأسانيدها لم تتعرض إلى الأفراد أو الطوائف المرادة بكلام الإمام عليه السلام. مع

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۴

ذلك فالكلام دقيق وعميق ولايختص بطائفة معينة، بل يشمل كل من وضع رجله على مسار الشيطان وخضع لسيطرته وامتثل أوامره.

تأمّل: خطط الشياطين

شائك وشامل هو البحث بشأن الشيطان وفلسفة خلقه وكيفية نفوذه إلى الإنسان وطول عمره وقصته مع آدم وجنوده وأعوانه من الجن والانس وما إلى ذلك من الامور التى لايسع المجال شرحها والغوص فى أعماقها. وسنكتفى ببعض الإشارات التى يمكنها أن تغنى البحث بما ينسجم وما ورد فى الخطبة المذكورة.

فالذى تفيده الآيات القرآنية أنّ الشيطان لم يخلق كموجود شرير منذ بداية الخليقة، بل خلق طاهرا حتى اصطف مع الملائكة (و إن لم يكن ملكاً). غير أنّ حب الذات والكبر دفعه للتمرد على أمر اللَّه والامتناع عن السجود لآدم عليه السلام، فلم يرتكب المعصية فحسب، بل إتّهم علم البارئ سبحانه وحكمته ليهوى فى وادى الشرك والضلال. لقد سأل اللَّه النظرة إلى يوم القيامة فأجابه اللَّه بالنظرة إلى يوم الوقت المعلوم ليتم تمحيص العباد، أو بعبارة اخرى فكما أنّ وجود الشهوات المركبة فى الإنسان البشرية ومقاومة العقل والإيمان تجاه القوى المخالفة إنّما تضاعف قدرة الإنسان فى مسار الطاعة للَّه؛ فانّ الوساوس الشيطانية الخارجية ومجابهتها من قبل الإنسان إنّما تقوده إلى السمو والتكامل؛ وذلك لأن وجود العدو إنّما يشكل العامل الذى يقف وراء حركة الإنسان وقوته وتطوره وتكامله. إلّاأنّ هذا لايعنى أنّ للشيطان نفوذ إجبارى فى الإنسان، بل الإنسان هو الذى يمهد لهذا النفوذ، فقد صرّح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلًا: «إِنَّ عِبادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ»[۵۹۳]، وقال فى موضع آخر «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[۵۹۴] كما صرّحت إحدى الآيات القرآنية على لسان الشيطان أنّه قال: «وَما كانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ».[۵۹۵]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۵

الجدير بالذكر أنّ اللَّه سبحانه قد خلق جنودا للقضاء على وساوس الشيطان ومخططاته، ومنها العقل والفطرة والأنبياء والملائكة التى تتولى حفظ المؤمنين وطرد الوساوس الشيطانية عنهم. فكل من سار على درب هذه الجنود حظى بدعمها وإسنادها وأبعد عنه وساوس الشيطان، ومن سار على درب الشياطين وأقام على العناد واللجاجة رفعوا أيديهم عنه.

القضية الاخرى الجديرة بالاهتمام هى أنّ الشيطان يسعى للنفوذ فى أعماق النفس البشرية ليؤثر من هناك على أعماله، كما اشير لهذا فى الخطبة المذكورة وكأنه باض وفرخ فى الصدور فتكاملت الفروخ شياطين إتحدت معه حتى عاد نظره وسمعه وقوله ويده ورجله شيطانياً.

وقد ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام فى غرر الحكم أنّه قال:

«احذروا عدوا نفذ فى الصدور خفياً ونفث فى الاذان نجياً»

كما ورد شبيه هذا المعنى- مع فارق طفيف- فى الخطبة ۸۳ من نهج البلاغة. كما قال عليه السلام فى الخطبة ۱۲۱ من نهج البلاغة:

«إنّ الشيطان يسنى لكم طرقه ويريد أن يحل لكم دينكم عقدة عقدة»

. على كل حال فان الغرض من الخطبة هو تحذير الإنسان من عدوه اللدود الشيطان الذى تعود جذور عدائه منذ خلق آدم عليه السلام. وضرورة التوكل على اللَّه والاتكاء على العقل والفطرة والوجدان والاستضاءة بارشادات الأنبياء وتعاليمهم والاستمداد من الملائكة بغية حفظ الإنسان لنفسه من وساوس الشيطان.

وأخيراً فالنقطة التى أرى ضرورة التعرض لها وعلى ضوء صريح بعض الآيات القرآنية أنّ الشياطين ليست منحصرة بابليس وجنوده

السريين، بل هناك مجموعة من الانس التى تشملها الشياطين، فأعمالهم هى أعمال الشياطين بعينها «وَكَذ لِكَ جَعَلْنا لِكَلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَياطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً»[۵۹۶].

نعم لابد من الحذار من وساوسهم.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۷

الخطبةالثامنة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

يعنى به الزّبير فى حال إقتضت ذلك ويدعوه فى الدخول فى البيعة، ثانيا.

نظرة إلى الخطبة

دخل الزبير وطلحة على على عليه السلام، فاستأذناه فى العمرة، فقال: ما العمرة تريدان، فحلفا له باللَّه أنّهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإنّما تريدان الغدرة ونكث البيعة، فحلفا باللَّه ما الخلاف عليه ولا نكث بيعة يريدان، وما رأيهما غير العمرة. قال لهما: فأعيدا البيعة لى ثانية، فأعاداها بأشد مايكون من الإيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: واللَّه لاترونهما إلّافى فتنة يقتتلان فيها. قالوا: يا أميرالمؤمنين، فمر بردهما عليك، قال: ليقضى اللَّه أمراً كان مفعولًا.[۵۹۷] أمّا الزبير فقد حاول أن يتذرع بما يبرر له نكث البيعة، ويقول ليس لعلى فى عنقى بيعة حيث بايعته مكرها. فالقى الإمام عليه السلام هذه الخطبة (جدير بالذكر أنّ البعض قد نسب هذا الكلام للإمام الحسن عليه السلام وقد القاها بأمر من أبيه فى يوم الجمل بعد خطبة عبداللَّه بن الزبير، لكن لايستبعد أن يكون الإمام عليه السلام قد أورده مسبقا رداً على إدعاءات الزبير ثم استشهد بها الإمامالحسن عليه السلام فى الجمل.[۵۹۸]

«يزعم أنّه قد بايع بيده، ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعة، وادعى الوليجة، فليأت عليها بأمر يعرف، وإلّا فليدخل فيما خرج منه».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۸

الشرح والتفسير

عذر أقبح من ذنب

كما أوردنا آنفا فانّ الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبة كرد على الزبير الذى حاول تبرير نكثه للبيعة بأنّه بايع مكرها بيده دون قلبه؛ لأن معاوية بعث له بكتاب قال فيه: أمّا بعد، فانّى قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب فدونك الكوفة والبصرة، لايسبقك إليها ابن أبى طالب فانه لاشىء بعد هذين المصرين.[۵۹۹]

فما كان من طلحة والزبير الذين كانا يطمعان بالمناصب إلّاأنّ نكثا بيعتهما للإمام على عليه السلام.

أمّا الإمام عليه السلام فقد رد على زعم الزبير رداً حقوقياً يحظى بكافة التبعات المتعارفة اليوم فى القوانين القضائية، فقد قال عليه السلام:

«يزعم أنّه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعة، وادعى الوليجة»[۶۰۰]

فالواقع أنّ كلامه مركب من إقرار وإدعاء، فاقراره مسموع ومقبول، أمّا إدعائه فيحتاج إلى إقامة دليل. ولذلك طالبه الإمام عليه السلام

باقامة الدليل (ليثبت أن بيعته قد حصلت من خلال الاكراه) وإلّا وجب عليه الالتزام بلوازم البيعة: «

فليأت عليها بأمر يعرف، وإلّا فليدخل فيما خرج منه

» لقد رأى أغلب الناس الزبير وطلحة قد دخلا على الإمام عليه السلام وبايعاه طائعين؛ فقد كانا من أوائل من بايعه فى المسجد، فالبيعة ملزمة، ومن إدعى خلاف ذلك عليه أن يأتى بالدليل، أضف إلى ذلك فالكل يعلم بعدم وجود الاكراه والإجبار فى بيعة على عليه السلام، فقد كان هنالك من لم يبايع، ولم يضطرهم الإمام عليه السلام إلى البيعة، وعليه فليس هنالك من مبرر لنكث البيعة. وكما ذكرنا سابقاً فانّ هذا من الاصول الأساسية فى كافة المحافل الحقوقية والقضائية، فى أنّ من أبرم عقداً راغباً بالظاهر فقد وجب عليه الالتزام به ولايقبل منه إدعاء الاكراهالاجبار وعدم تأييد القلب لما فعله باليد، وإلّا لأمكن لكل واحد أن يقوض ما أبرمه بهذه الذريعة. فالمشترى والبائع والزوج والواقف و ... إذا أبرم عقدا ولم يرى فيه من مصلحة لاحقا أمكنه أن يدعى بأنّه أبرمه لساناً ولم يكن قلباً موافقاً عليه. وإذا كان الأمر

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۰۹

كذلك فقد عرضت كافة النظم والعقود والمواثيق الفردية والدولية للتصدع والانهيار وهذا مالا يقره عقل أو منطق؛ والحق أنّ الزبير كان يعلم جيدا بهذا الأمر إلّاأنّه استهدف تضليل الرأى العام الذى قد يسأله لم نكثت البيعة؟

جدير بالذكر أنّ كل هذا نابع من كون العرب آنذاك كانت تولى البيعة أهمية فائقة ولم تكن تتساهل فى نقضها وعدم الالتزام بها، وترى ذلك خطيئة كبيرة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۱

الخطبة التاسعة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى صِفَته وَصِفَة خُصومه ويقال إنّها فى أصحاب الْجَمَلْ

«وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ وَلَسْنا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ وَلا نُسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ».[۶۰۱]

الشرح والتفسير

ضجة فارغة

يستفاد من كلامه عليه السلام أنّه أورده بعد انتهاء معركة الجمل كاشارة للضجة الفارغة التى إفتعلها طلحة والزبير ورهطهما فى بداية موقعة الجمل، غير أنّه لم يجدهم نفعا حيث هزم «طلحة والزبير» شر هزيمة حتى قتلا. فقد قال عليه السلام:

«و قد ارعدوا وابرقوا، ومع هذين الأمرين الفشل».

فهو تشبيه رائع بالسحب التى تتخللها ظاهرة الرعد والبرق كبشارة للناس بالأمطار التى تجلب عليهم الخير والبركة، إلّاأنّها سرعان ما تتبدد دون أن تحمل قطرة من المطر. ثم قال عليه السلام:

«ولسنا نرعد حتى نوقع، ولانسيل حتى نمطر»

يريد عليه السلام أننا لن نرعد

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۲

ونزبد مالم نسدد ضربات موجعة إلى العدو، ولسنا من أهل الضجيج حتى نقتحم الميدان ونقهر الخصم. فالواقع هو أنّ العبارتين رغم قصرهما تشيران إلى مدرستين لكل منهما أسسهما فى الأنشطة الاجتماعية والعسكرية والسياسية؛ مدرسة تتبنى الكلام والضجيج حين ترد الميدان؛ إلّا أنّها لاتستبطن سوى الضعف والعجز والفشل حين العمل. أمّا المدرسة الاخرى فهى المعروفة بالسلوك والعمل، قليل كلامها كثير عملها. هى مدرسة صامتة هادئة إلّاأنّها بطلة باسلة فى الميدان وبالطبع فانّ الأنبياء والأولياء وأتباع الحق ينتمون للمدرسة الثانية، بينما ينتمى أتباع الباطل وجنود الشيطان إلى المدرسة الاولى

و هنا نقطة مهمّة يجب الالتفات إليها وهى أنّ الرعد والبرق قبل المطر ثم يأتى السيل، غير أنّ هناك البعض الذى يرعد ويبرق دون المطر، والأسوأ من ذلك البعض الآخر الذى يتوعد بالسيول رغم إنعدام قطرة مطر، أى أنّهم يتشدقون بالنصر والغلبة والنجاح حتى بعد الهزائم المنكرة التى يمنون بها، فالطائفة الاولى كاذبة فى مزاعمها وإدعاءاتها، أمّا الثانية باطلة عديمة الحياء. فالذى تفيده بعض الروايات أنّ الإمام على عليه السلام بعث برسله يدعون إلى الالتزام بالبيعة و عدم شق الصف الإسلامى والعودة إلى إحضان الحكومة الإسلامية، فعادوا يحملون رسائل الحرب حيث تضمنت رسائلهم التهديد بشن الحرب، فردّ الإمام عليه السلام ذلك الرد الحاسم «فانّ أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من الباطل، وناصرا للحق! ومن العجب بعثهم إلى أن ابرز للطعان وأن أصبر للجلاد، هبلتهم الهبول، لقد كنت وما اهدد بالحرب، ولا ارهب بالضرب، وإنى لعلى يقين من ربّى، وغير شبهة من دينى»[۶۰۲].

تأمّلان

۱- رجل العمل

ما تضمنه كلامه عليه السلام- كما أشرنا سابقاً- بعض الصفات البارزة لأساليب الإدارة لأولياء اللّه، فهم ليسوا من أهل الكلام والضجيج، بل بالعكس كلامهم العمل والتنفيذ. وقد تجسد

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۳

نموذج ذلك فى معركة بدر حين ذهل أبوسفيان للنفر القليل الذى كان مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله فبعث عمير ليرى هل هناك من جند خلف الميدان، فعاد إلى أبى‌سفيان وقال له:

«مالهم من كمين ولامدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت النافع امّا ترونهم خرساً لايتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعى، مالهم ملجأ إلّاسيوفهم، ما أراهم يولون حتى يقتلوا ولايقتلون حتى يقتلوا بعددهم فار تأوا رأيكم. فقال له أبوجهل: كذبت وجبنت.»[۶۰۳]

بالتالى أثبتت موقعة بدر أنّ الحق ماذهب إليه عمير لا ما قاله أبوجهل. وبالطبع فليس هناك من منافاة بين هذا الكلام والاستفادة من الأساليب النفسية فى ميدان الحرب والرجز وممارسة الحماس وامطار العدو بوابل التبليغات وزرع الرعب فى صفوفه. فالمشكلة إنّما تكمن فى خلاصة كل شىء فى الكلام والتهديد والوعيد. فالعمل هو الأساس والمحور والكلام ترجمة لذلك العمل. فنموذج الفريق الأول طلحة والزبير ورهطهما، ونموذج الفريق الثانى على عليه السلام واتباعه. فقد وردت عبارات واضحة للإمام عليه السلام- فى الخطبة ۱۲۴ من نهج‌البلاغة- بهذا الشأن، ففى الوقت الذى يحث اتباعه وجنده على الثبات فى الميدان والشدة فى الضرب يوصيهم قائلًا:

«اميتوا الاصوات فانه أطرد للفشل».

۲- الفارق بين الدعاية والاعلام الفعال

لعل الفارق بين هذين الأمرين صعب التمييز على البعض، حيث ورد النهى عن القول بلاعمل واتخاذ الصمت والهدوء كمفهوم صحيح

من جانب: ومن جانب آخر فانّ الأحاديث التى تستبطن الأساليب التبليغيـة التى تشد قوى الحق من الناحية النفسيـة وتضـعف معنويات العـدو قـد عـدت من الوسائل الحربيـة اللازمـة، إلى جانب الحث على الرجز والحماس فى ميـدان المعركـة والـذى تجسـد فى غزوات رسول اللّه صـلى الله عليه و آله ومعـارك أميرالمؤمنين على عليه السـلام وسائر الأئمّـة المعصومين عليه السـلام كالرجز الـذى شـهدته كربلاء، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الواقع هنالك فارق واضح بين هذين الأمرين. فالنهى إنّما جاء بشأن الكلام الفارغ الذى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۴

ينطوى على الرعـد والبرق الكاذب والذى تصـطلح عليه بالبلف حيث تفيد القرائن والشواهد بعدم وجود أى عمل خلف ذلك الكلام. ولا شك أنّ مثل هذا البلف والكلام الفارغ أنّما هو ديدن الشيطان واتباعه من الأفراد عديمى المنطق. أمّا الترغيب والترهيب الذى يتبع ذلـك والعمل والنشاط الـذى يخرج الكلام من دائرته ليزج به فى ميـدان العمل الـذى ينتهجه الفريق الثانى فانّه ليس فقط غير مـذموم فحسب، بل إنّما يأتى فى نطاق الحرب النفسية التى تفعل فعلها فى الواقع. وبالطبع فان التذكير بهذه النقطة ضرورى وهى أنّ الانهماك بالرجز والخطابة أثناء المعركة إنّما يشغل قسما من طاقات الإنسان ويحد من الأثر المطلوب لصولاته وحملاته، ومن هنا ورد النهى عن ذلك.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۵

الخطبة العاشرة

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

يريد الشيطان أو يكنى به عن قوم

نظرة إلى الخطبة

تشير هـذه الخطبـة إلى موقعـة الجمل والحوادث الاليمـة التى تخللتها؛ حيث يصف الإمام عليه السـلام اعوان طلحة والزبير بانهم جنود الشيطان، ثم يشير إلى خصائصه فى الميدان، كما يتطرق إلى تبيين خطته المستقبلية بهذا الشأن فى عبارات قصيرة وقارعة مشوبة بتوعد العدو مع تكهن بما ستؤول إليه هذه المعركة.

«أَلا وَإِنَّ الشَّيْطانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ وَاسْـتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ وَإِنَّ مَعِى لَبَصِـيرَتِى: ما لَبَسْتُ عَلَى نَفْسِـى، وَلا لُبِّسَ عَلَىَّ. وَايْمُ اللَّهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنا ماتِحُهُ! لا يَصْدُرُونَ عَنْهُ وَلا يَعُودُونَ إِلَيْهِ».[۶۰۴]

الشرح والتفسير

تحذير المسلمين ثانية

كما ذكرنا سابقاً فانّ خطبة الإمام عليه السلام تعالج القضايا المرتبطة بموقعة الجمل، واستنادا إلى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۶

العلاقـة الوثيقـة بين هـذه الخطبـة والخطبـة الثانيـة والعشـرين وأبعـد من ذلك إرتباطها بالخطبة ۱۷۳، والواقع هو أنّ هـذه الخطبـة قد استوعبت فى تلك الخطبة وأصبحت جزءاً منها، فلا يبقى هنالك من مجال للشك والترديد فى أنّ الهدف من هذه الخطبة هو الإشارة

لموقعة الجمل، وكأنّى باولئك الذين فسّروها بالإشارة إلى موقعة صفين وأهل الشام قد أهملوا تلك العلاقة.

فالمحور الأول لهذه الخطبة هو تشبيه أعوان طلحة والزبير بجنود الشيطان فقال عليه السلام:

«ألا وان الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله».

و كيف لايكونوا جنود الشيطان وقد نقضوا عهدهم مع الإمام عليه السلام وقد دفعهم الحرص على المناصب لبث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الامّة الإسلامية واشعال فتيل الحرب الذى أودى بحياة الكثيرين حتى احترقوا بتلك النيران. امّا التعبير بالحزب فهو إشارة إلى الانسجام بين أهداف هؤلاء وأهداف الشيطان، وأمّا التعبير بالخيل والرجل فهو إشارة لتنوع الجنود.

القرآن الكريم من جانبه أشار إلى حزب الشيطان بقوله: «

إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ»[۶۰۵]

، ويشير فى موضع آخر إلى حزبه من الراجلة والخيالة الذين يختبر بهم بنى آدم

«وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»[۶۰۶]

. ولاشك أن تتابع هذه التنبيهات إنّما تستهدف تحلى المؤمنين باليقظة والوعى والحذار من الوقوع فى حبائل الشيطان والانضمام إلى حزبه والالتحاق بجنوده، غير أنّ هذا المصير المشؤوم قد طال طلحة والزبير وأعوانها ومن سار على نهجهما قد دفعهم حب الجاه والمنصب لأن يكون لقمة سائغة للشيطان.

ثم تناول عليه السلام المحور الثانى الذى بين فيه سماته وعمق بصيرته بما لايجعل للشبهة والشك من سبيل إليه

«و إنّ معى لبصيرتى ما لبست على نفسى، ولا لبس على»

. الحق أنّ مصدر ضلال أى فرد إنّما يمكن فى أحد ثلاث: الأول ألا يمتلك البصيرة والمعرفة اللازمة بالعمل الذى يقدم عليه، فيرد الميدان جهلا فيتصرف بما لايرضى اللَّه. والثانى قد يتمتع بالمعرفة إلّاأنّ حجب هوى النفس وحب الذات إنّما تحول دون رؤيته للحق وتسوقه للخطأ والزلل، وما أكثر الأفراد الذين يعلمون ببشاعة الذنب إلّاأنّهم يصطنعون لأنفسهم الاعذار الناشئة من

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۷

وساوس النفس والدوافع الشيطانية التى تسول لأنفسهم عد تلك الذنوب من الفرائض، وكما صورهم القرآن الكريم

«وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَ نَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۶۰۷]

. والثالث أن يمنع شياطين الجن والانس الاذن بالنفوذ إلى قلبه ويشوهوا عليه الحقيقة. ولم يكن لأىمن هذه المحاور الثلاث من سبيل إلى الإمام عليه السلام؛ وذلك لأنّه أوصد كافة الأبواب الباطنية والظاهرية للخطأ والانحراف بوجه الوساوس والأهواء وتحلى بتقوى وورع وبصيرة جعلته يرى الحقيقة كما هى.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد يقول عليه السلام:

«إنّ معى لبصيرتى»

، أنّ البصيرة التى كانت معى فى زمن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى كافة الأحداث المهمّة التى وقعت على عهده مازالت معى ولم تتغير. والعبارة إشارة إلى الآية الشريفة

«قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي»[۶۰۸]

. بينما يرى البعض الآخر أن قوله عليه السلام:

«ما لبست على نفسى، ولا

لبس على»

هو تفسير لقوله

«و إنّ معى لبصيرتى»

إلّاأنّ ما ذكر سابقاً أنسب.

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام قال: ما لبست على نفسى، ثم قال: ولا لبس على؛ الأمر الذى يكشف عن ترتيب طبيعى ينبغى فيه ألاـ يخدع الإنسان من قبل نفسه أولًا ثم يأمن مكر الآخرين وخداعهم. ثم خاض فى المحور الثالث ليكشف عمّا ستؤول إليه نتيجة موقعة الجمل محذرا خصومه بشدة

«و آيم ۶۰۹] اللَّه لُافرطن ۶۱۰] لهم حوضا أنا ماتحه ۶۱۱]! لايصدرون عنه ولا

يعودون إليه»

. والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام شبه ميدان القتال بالحوض الذى يريد ملأه بالماء بحيث لايبقى معه من مجال؛ أراد عليه السلام لأملأن لهم حياض الحرب التى هى دربتى وأنا مجرب لها، ثم يشير عليه السلام إلى النتيجة التى سيؤول إليها أهل الجمل وهى لن تكون سوى القتل وإزهاق

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۸

الأنفس، وإن كان هنالك من سبيل إلى الفرار فانّ الفار لن يعود إلى الميدان ثانية.

و هنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ قوله عليه السلام: «لأفرطن» لا تعنى أنّى سأفرط فى هذا السبيل، بل المراد أنّى سأبذل قصارى جهدى لسد جميع الطرق على العدو (لابدّ من الدقة هنا). وهذا بعينه ما جعل عائشة تعتبر من تلك المعركة ولم تشترك فى المعارك اللاحقة.

تأمّل: جند الشيطان

ما نستفيده من الخطبة المذكورة أنّ الشيطان لايمارس وظيفته فى الاغواء والاضلال لوحده؛ بل له جنوده وأعوانه والذين عبر عنهم فى الخطبة بالخيالة والرجالة (خيل ورجل) كماله اتباعه وانصاره الذين عبر عنهم بالحزب، وكما ذكرنا فان القرآن هو الذى أورد هذين التعبيرين (لابدّ من الالتفات إلى الخيل تعنى أحيانا الفارس وهذا هو المراد فى العبارة لأنفس الفرس). وبالطبع لايراد بحزب الشيطان ورجالته ما يتعارف اليوم فى المجتمعات المعاصرة وتشكيلات الجيوش؛ إلّاأننا نعلم بأنّ له مساعدوه من بنى جنسه ومن جنس بنى آدم الذين ينشطون فى إغواء الناس وإضلالهم، بل حتى الأحزاب القائمة اليوم والجنود الذين أصبحوا آلة بيد السلطان الظالمة والمستبدة إنّما هى جنود الشيطان وأحزابه. فما كان من الجنود أشد وأقوى فهو من خيله وما كان أضعف وأصغر فهو من رجله. بل هناك من يرى نفسه فى صفوف حزب اللَّه وهو فى زمرة حزب الشيطان. امّا أتباع الحق فان عليهم أن يتكلوا على اللَّه وينضووا تحت ولايته ليكونوا مصداقا لقوله:

«اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ»

ليحظوا بعناية اللَّه ولطفه ويفوزوا بمضمون

«إلهى لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين أبداً»

. أمّا شرط الوصول إلى هذا المقام فهو ما ذكره الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة، أى لابدّ من التحلى بالبصيرة والمعرفة والحذر من خداع النفس، إلى جانب الحذر من الوقوع فريسة لحبائل خداع الآخرين ومكرهم.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۱۹

الخطبة الحادية عشر

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل

«تَزُولُ الْجِبالُ وَلا تَزُلْ! عَضَّ عَلَى ناجِذِكَ. أَعِرِ اللَّهَ جُمْجُمَتَكَ. تِدْ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ. ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحانَهُ».

نظرة إلى الخطبة

ما تفيده الروايات هو أنّ أميرالمؤمنين على عليه السلام كان شديد الحرص على عدم نشوب معركة الجمل بغية الحيلولة دون سفك دماء المسلمين، كما ورد أنّه سلم الراية يوم الجمل ابنه محمد بن الحنفية، فاستغل الفرصة من الصباح حتى الظهر ليدعوهم إلى الصلح والصلاح والالتزام بالبيعة، ثم خاطب عائشة قائلًا: اتق اللَّه وعود إلى بيتك فقد أمركن اللَّه سبحانه

«وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ»

. ثم التفت إلى طلحة والزبير وقال لهم: صنتم نسائكم وابرزتم زوج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ثم خرجتم تطالبون بدم عثمان بعد أن آلت الخلافة إلى الشورى (و قد انتخب الناس أميرالمؤمنين وقد مددتما إليه يد البيعة). ثم قال للزبير أتذكر كنّا نتحدث يوما فى المدينة فسألك رسولاللَّه صلى الله عليه و آله: أتحب على؟ فقلت: كيف لاأحبه وهو قرابتى وإنّى لأحبه فى اللَّه. فقال لك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فاعلم إنّك ستقاتله وأنت له ظالم! فقلت أعوذ باللَّه من ذلك اليوم. ثم واصل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۰

الإمام على عليه السلام نصحهم ووعظهم حتى قال اللّهم إشهد أنّى نصحت لهم وأمهلتهم، ثم تناول القرآن وقال من يحاججهم بالقرآن فيقرأ عليهم الآية

«وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما»[۶۱۲]

وهو مقطوع يمينه وشماله ومقتول؟ فتناوله مسلم المجاشعى فاقترب من العدو وحمل القرآن بيمينه وتلى عليهم الآية، فحملوا عليه وقطعوا يمينه، فتناول القرآن بشماله فقطعوها أيضاً، فاخذ القرآن بأسنانه فقتلوه. فقال على عليه السلام: احل لى الآن قتالهم عن آخرهم.

ثم إلتفت إلى محمد بن الحنفية وخاطبه بتلك الكلمات.[۶۱۳] على كل حال فان الإمام عليه السلام يسلط الضوء على الفنون القتالية المهمّة والمسائل ذات الاثر من الناحية النفسية والجسدية فى الجندى المسلم والتى تعده للتأهب والاستبسال فى ساحة المعركة. والكلام يشتمل على سبع جمل: تضمنت الجملة الاولى الأوامر الكلية بشأن المقاومة والصمود فى ميدان الحرب، بينما أشارت الجمل الخمس الاخرى إلى الجزئيات والامور التى تلعب دوراً فى الصمود وتحقيق النصر. أمّا الجملة السابعة والأخيرة فهى تؤكد على الإتكال على اللَّه وأنّ النصر من عنده سبحانه ليمكن من خلال ذلك وبقوة الإيمان تحمل المشاق والصعاب والتحلى بالروحية العالية من أجل الصمود أمام العدو ومقاتلته.

الشرح والتفسير

كن كالجبل

كما اشرنا سابقاً فانّ الخطبة تعالج مجريات موقعة الجمل حيث أعطى الإمام عليه السلام الراية ولده الشجاع محمد بن الحنفية، وقد أوصاه عدّة وصايا مهمّة بشأن القتال وتحقيق النصر منها:

أنّه قال:

«تزول الجبال ولا تزل»[۶۱۴]

. فالواقع إنّ أهم مسألة فى ميدان القتال هى الاستقامة والصمود التى لايمكن تحقيق النصر بدونها، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام فى بداية الأمر. ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لمضمون الرواية المعروفة «المؤمن كالجبل الراسخ لاتحركه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۱

العواصف» كما ورد عن النبى الاكرم صلى الله عليه و آله انّه قال:

«المؤمن أشد فى دينه من الجبال الراسية وذلك انّ الجبل قد ينحت منه والمؤمن لايقدر أحد على أن ينحت من دينه شيئا»[۶۱۵]

، ثم تناول عليه السلام ما من شأنه أن يؤثر فى مسيرة المعركة فقال:

«عض على ناجذك»

. فالناجذ قد يعنى أقصى الضرس، كما فسّر بسن العقل، وقيل بل جميع الإنسان. وقيل أنّ العض على النواجذ يتضمن فائدتين: الاولى أنّه يزيل الخوف والقلق والاضطراب ومن هنا يعض الإنسان على أسنانه فى مواطن الخوف ليهدأ وتسكن فورته، والثانية أنّهم ذكروا أنّ العاض على نواجذه ينبو السيف عن دماغه، لأنّ عظام الرأس تشتد وتصلب؛ وقد جاء فى كلامه عليه السلام هذا مشروحاً فى موضع آخر وهو قوله عليه السلام:

«وعضوا على النواجذ، فإنّه أنبى للصوارم عن الهام»[۶۱۶]

. أمّا فى الجملة الثالثة فقد قال عليه السلام:

«أعر اللَّه جمجمتك»

تعنى إستعد للتضحية والفداء والشهادة فى سبيل اللَّه فان هذا الاستعداد أساس الشجاعة والاستبسال. هذا وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ فى العبارة إشعار له أنّه لايقتل فى تلك الحرب، لأنّ العارية مردودة، ولو قال له: بع اللَّه جمجمتك، لكان ذلك إشعار له بالشهادة. ثم قال عليه السلام فى الجملة الرابعة:

«تد فى الأرض قدمك»

. فى إشارة واضحة إلى الثبات فى المعركة ورباطة الجأش فى مقابل العدو وعدم التفكير قط بالانسحاب أو الفرار من الميدان؛ الأمر الذى أوصى به القرآن الكريم المؤمنين من قبل:

«يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا»[۶۱۷]. ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة الاولى هو أنّ الجملة الاولى تحدثت عن عدم التزلزل فى الفكر والمعنويات بينما أشارت العبارة الأخيرة إلى عدم التزلزل الظاهرى والبدنى وعدم الانسحاب والتراجع وفى الجملة الخامسة قال عليه السلام:

«ارم ببصرك أقصى القوم»

فمثل هذه النظرة تجعله يحيط بالميدان والعدو والسيطرة على حركة الجنود بحيث يتعرف على نقاط الضعف والقوة فيصيب فى الدفاع والهجوم والكر والفر. ثم قال عليه السلام:

«و غض بصرك».

ليس هنالك من تناقض بين قوله «ارم ببصرك» قوله «غض بصرك» وذلك لأنه فى الاولى أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه، ويحدق إلى أقاصى القوم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۲

ببصره، فعل الشجاع المقدام غير المكترث ولاالمبالى، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره ولا يرتفع طرفه ولا يمتد عنقه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف. وفى الثانية أمره أن يغض بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لئلا يبرق بصره ويدهش ويستشعر خوفا. والشاهد على ذلك ما أورده عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغة بهذا الشأن إذ قال:

«و غضوا الأبصار فانه أربط للجأش واسكن للقلوب»[۶۱۸]

. أمّا فى الجملة السابعة والأخيرة فقد أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة وأساسية تنطوى على أبعاد روحية معنوية تطمئن النفوس وتحدوها بالتطلع إلى اللَّه

«و اعلم أن النصر من عند اللَّه سبحانه»

فالنصر لايستند إلى الأسباب والمقدمات الظاهرية، بل المهم إرادة اللَّه سبحانه ونصره، فتوكل على اللَّه وثق به واسأله الغلبة فهو القادر على كل شىء وهو الرحمن الرحيم بعباده المؤمنين المجاهدين «وَما النَّصْرُ إِلّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[۶۱۹]. والطريف فى الأمر أن القرآن الكريم تحدث عن نصرة الملائكة إلّاأنّه حث المؤمنين بالتضرع إلى اللَّه بنزول النصر لا الملائكة

«بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وماجعله اللَّه إلا بشرى لكم وتطمئن قلوبكم به وما النصر إلّامن عند اللَّه العزيز الحكيم».

تأمّلان

۱- محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره

هو أحد أبناء أميرالمؤمنين على عليه السلام و «حنفية» لقب أمه واسمها خولة بنت أحد أشراف قبيلة «بنى حنيفة» وقد اسرت فى أحد المعارك الإسلامية وأرادوا بيعها، فأعتقها عليه السلام وتزوجها. ورث محمد الشجاعة من على عليه السلام وقيل كان يشق الدرع بيده لقوته. ومن هنا سلمه عليه السلام الراية يوم الجمل، كما أسند إليه مع محمد بن أبى بكر وهاشم المرقال ميسرة جيشه فى صفين. وكان شديد التواضع للحسن والحسين عليهما السلام.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۳

دفع أميرالمؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلى محمد ابنه عليه السلام، وقد استوت الصفوف، وقال له:

احمل، فتوقّف قليلًا، فقال له: احمل، فقال يا أميرالمؤمنين، أماترى السّهام كأنّها شابيبُ المطر! فدفع فى صدره، فقال: أدرككَ عِرْق من أمّك، ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصره. قيل لمحمد لِمَ يُغرِّرُ بك أبوك فى الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟

فقال: إنّهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيْه بيمينه.

إتهم البعض محمد بن الحنفية بأنه إدعى الإمامة بعد الإمام الحسين عليه السلام، بل قيل إدعى المهدوية، إلا أن الشيخ المفيد أبطل ذلك وقال لم يدع الإمامة (بل نسب الآخرون ذلك إليه وهم من إدعى الإمامة والمهدوية من الكيسانية. توفى بن الحنفية عام ۸۱ ه- و اختلف فى محل دفنه، فقيل توفى فى الطائف ودفن فيها. وقيل فى البقيع، كما قيل فى الجبل الرضوى قرب المدينة.

أمّا إحد الشواهد الحية على رفعة مكانته وعلو منزلته فهو أنّ الإمام الحسين عليه السلام حين أراد الخروج من المدينة إلى مكة جعله خليفته ووصيه فى المدينة ليطلعه على الأخبار، كما أودعه وصيته طبق لنقل أرباب المقاتل.

۲- الشرط المهم فى النصر على الأعداء

تفيد الآيات القرآنية والروايات الإسلامية أنّ العنصر الرئيسى الذى يقف وراء النصر والغلبة إنّما يكمن فى الصبر والمقاومة والثبات. فالقرآن يصف الفئة القليلة الصابرة بانها هى المنتصرة فى مقابل الفئة المعادية الكثيرة العدد والعدة: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَ نَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ»[۶۲۰]. كما ورد تأكيده عليه السلام على الصبر فى سائر خطبه فى نهج البلاغة ومن ذلك قوله عليه السلام: «و عليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ولا خير فى جسد لا رأس معه ولا فى إيمان لا صبر معه»[۶۲۱].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۴

و هو المعنى الذى ورد التأكيد عليه كرارا فى الخطبة التى نحن بصددها، فقد قال عليه السلام كإشارة لمواطن الصبر «تزول الجبال ولا تزل» وقال: «تد فى الأرض قدمك»، وهكذا سائر عباراته من قبيل العض على النواجذ واعارة اللّه الجمجمة والإيمان بانّ النصرة والغلبة من اللّه سبحانه، حيث من شأن كل هذه الامور أن تلهم الإنسان الصمود والثبات والمقاومة التى تستبطن النصر، وهذا بعينه ما جعل المسلمين ينتصرون على خصومهم حتى فى المعارك التى لم تكن متكافئة، وهذا ما ينبغى أن يؤمن به ويستشعره جيلنا الإسلامى الجديد ليحقق الانتصارات الباهرة على الأعداء.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۵

الخطبة الثانية عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما أظفره الله بأصحاب الجمل وَقَدْ قالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحابِهِ: وَدِدْتُ أَنَّ أَخِى فُلاناً كانَ شاهِدَنا لِيَرَى ما نَصَرَكَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَعْدائِكَ «فَقالَ عليه السلام: لَهُ أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنا؟ فَقالَ:

نَعَمْ. قالَ فَقَدْ شَهِدَنا، وَلَقَدْ شَهِدَنا فِى عَسْكَرِنا هَذا أَقْوامٌ فِى أَصْلابِ الرِّجالِ وَأَرْحامِ النِّساءِ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمانُ».[۶۲۲]

نظرة إلى الخطبة

يتضح ممّا قاله السيد الرضى بشأن الخطبة أنّها متعلقة باحداث الجمل والنصر المبين الذى حققه الإمام عليه السلام حيث إلتفت إليه أحد أصحابه وكان شديد الحب لأخيه فقال له: ليت أخى كان معنا ليشهد ما نحن فيه من النصر والغلبة على هؤلاء البغاة. فاورد الإمام عليه السلام هذه الكلمات الرائعة ليطمئنه بالحضور المعنوى لأخيه وكل من سار على نهجه عليه السلام من حماة العقيدة، فالإسلام يرى الرابطة الدينية تفوق كافة الروابط العرقية والسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك. فقد تظافرت الروايات الإسلامية التى صرّحت بأنّ من أحبّ عمل قوم حشر فيه معهم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۶

و الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم. وبعبارة اخرى فان الإمام عليه السلام أشار فى هذه الخطبة إلى أنّه قد شهده فى عسكره وشركه فى نصره كافة الأفراد الذين يقيمون اليوم فى كافة أصقاع العالم والذين لم يشهدوا- لأسباب- ميادين القتال إلّاأنّهم وبسبب تعاطفهم العقائدى وكذلك الأفراد الذين مازالوا نطف فى أصلاب الرجال وقرارات الفساد.

الشرح والتفسير

اللحمة العقائدية

يتضح ممّا مر معنا أنّ الإمام عليه السلام اورد هذا الكلام فى إطار ردّه على أحد أصحابه الذى أعرب عن تمنيه فى أن يكون أخيه قد حضر معه فى تلك المعركة ويشهد النصر المؤزر الذى من اللّه به على جيش الإمام عليه السلام فالتفت إليه الإمام عليه السلام:

«فقال له: أهوى أخيك معنا؟»،

«فقال:

نعم»، فرد عليه الإمام عليه السلام:

«فقد شهدنا، ولقد شهدنا فى عسكرنا هذا أقوام فى اصلاب الرجال وارحام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان».[۶۲۳]

أجل من كان على عقيدتنا أينما كان فهو معنا وإن لم يكتب لهم اللّه الحضور الفعلى فى الميدان.

أمّا قوله عليه السلام سيرعف بهم الزمان فهى إشارة إلى أنّ الدم وان جرى مستتراً فى عروق الإنسان إلّا أنّه يظهر فى أية لحظة وينتشر بكل سهولة، فهؤلاء مستترون فى باطن هذا العالم إلّاأنّهم سيظهرون تدريجيا طبق التصنيف الزمانى الإلهى ومن خصائصهم «و يقوى بهم الإيمان» فهم يتحركون باتجاه الحق؛ الأمر الذى يسهم فى تقوية أواصر الدين والإيمان. هذا وقد كثر الكلام بين شرّاح نهج البلاغة بشأن طريقة هذا الشهود والحضور للغائبين فهل هو حضور روحى؟

أى هل أرواحهم حاضرة فى ذلك المكان قبل أن تخلق الأبدان، أم هو حضور بالقوة؟ أىهم حاضرون وان غابوا عن الميدان ظاهريا؟ يبدو أنّ مراد الإمام عليه السلام بهذا الحضور هو شركتهم فى الثواب والحسنات والنتائج؛ أى أنّ هؤلاء الذين قلوبهم معنا وهم على خطتا وحركتنا (حزب اللّه) فهم شركاءنا فى الأجر والثواب، وعليه فلهم حضورهم الروحى الفعلى فى كافة ميادين صراع الحق ضد الباطل. فالواقع هو أنّ المسار واحد والحركة واحدة والجميع كتلة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۷

واحدة إن تعا نقت عقائدهم وأهدافهم وليس للزمان أن يفصل بعضهم عن البعض الآخر.

وهذا يصدق أيضاً على خط الباطل، فالكل سائر على طريق الشيطان ويحمل نفس العقائد الفاسدة ويعيش حالة الظلم والعدوان ومقارفة الذنوب والمعاصى فالمتأخر شريك للمتقدم فى الجزاء والعقاب.

تأمّل: الرابطة الحق

ما ورد فى الخطبة يكشف عن حقيقة معنوية ليس للمعادلات الدنيوية المادية من سبيل إلى الوقوف على كنهها والاحاطة بها. فالإمام عليه السلام يرى أنّ أهم رابطة تحكم المؤمنين هى رابطة الدين والعقيدة التى لاتضاهيها رابطة (من قبيل رابطة الدم والجنس واللون والعرق واللغة والحزب والطائفة والقبيلة وما إلى ذلك) فهى أروع وأقوى وأعظم، ومن شأن هذه الرابطة أن تشمل كافة الأزمنة والأمكنة وجميع أفراد البشر فى الماضى والحاضر والمستقبل ليصهرها فى بوتقة الهية واحدة. فقد قال عليه السلام «لقد شهدنا، ولقد شهدنا فى عسكرنا هذا أقوام فى أصلاب الرجال وارحام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان» فالمعركة ليست صراع شخصى من أجل السيطرة، بل هى معركة بين الحق والباطل، وهما صفان متقابلان خالدان حتى ينفخ فى الصور، وأنّ المؤمنين سيهبون لمجابهة الباطل والذود عن الحق مازالت هنالك آثار للباطل، وكل من كان على الحق فهو شريك فى كل ما يترتب على هذه المجابهة من أجر وثواب. والدليل واضح على ذلك حيث الحقيقة واحدة لاينشد أتباع الحق سواها فهم يتحركون بهذا الاتجاه ويشهرون سيوفهم من أجل تحقيق هذا الهدف. وعلى أساس هذا الاصل الأساسى تكون قد حلت أكثر المسائل الواردة فى القرآن

والأحاديث والتى قد تبدو مستغربة للبعض. فقد صرّح القرآن الكريم بشأن قوم ثمود قائلًا: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّئها»[۶۲۴]. بينما صرّحت التواريخ أنّ الذى عقر الناقة كان واحداً منهم، فى حين نسب اللَّه العقر للجميع بفعل تضامنهم العقائدى معه فشملوا جميعاً بالعذاب. وهذا هو

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۸

المفهوم الذى أوضحه الإمام عليه السلام بقوله:

«أيّها الناس انّما يجمع الناس الرضى والسخط وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد منهم فعمهم اللَّه بالعذاب لما عموه بالرضا»[۶۲۵]

وقوله عليه السلام:

«الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم وعلى كل راض بالاثم ذنبان؛ ذنب الرضى به وذنب العمل به».

وورد فى زيارة الأربعين لجابر بن عبداللَّه الانصارى أنّه انكب على قبر الحسين عليه السلام وجعل يزوره بهذه العبارت: «أشهد أنّك أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف‌نهيت عن المنكر وجاهدت فى اللَّه حق جهاده حتى أتاك اليقين، والذى بعث محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دختلم فيه» فلما سمعه صاحبه عطية تعجب من قوله قائلا: كيف ذاك ولم نهبط وادياً وقد قاتل القوم دون الحسين عليه السلام فطاحت رؤوسهم وترملت نسائهم ويتمت أولادهم فقال جابر: سمعت حبيبى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: من أحبّ قوماً حشر معهم ومن أحبَّ عمل قوم اشرك فى عملهم، أمّا والذى بعث محمدا صلى الله عليه و آله بالنبوة لنيتنا نية الحسين عليه السلام وأصحابه»[۶۲۶] القرآن من جانبه خاطب كراراً يهود المدينة على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ووبخهم على الأعمال التى أتى به أصحابهم على عهد نبى اللَّه موسى عليه السلام؛ بينما كانت هنالك عدّة قرون بين القومين، فجعلهم القرآن كاولئك لانتهاجهم مسيرتهم ورضاهم باعمالهم، ومن ذلك قوله «قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِى بِالبَيِّناتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»[۶۲۷]. وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى ذيل هذه الآية أن اللَّه إعتبر هؤلاء- ممن عاصر النبى صلى الله عليه و آله من اليهود- قتلة الأنبياء السابقين رغم عدم ارتكابهم لجريمة القتل ولكن حيث كانوا على عقيدة أولئك القتلة وراضين بفعلهم فقد عدهم قتلة»[۶۲۸]. وقد روى المحدث الكبير عدّة روايات فى المجلد الحادى عشر من وسائل الشيعة بهذا المضمون فى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.[۶۲۹]

ومن شأن هذا اللون من التفكير أن يفتح أمامنا آفاقا واسعه ويجعلنا نقف على مضمون الآيات والروايات ويساعدنا فى سلوك طريق الحق.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۹

الخطبة الثالثة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل.

«كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ؛ رَغا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلاقُكُمْ دِقاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفاقٌ، وَماؤُكُمْ زُعاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّى بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْها الْعَذابَ مِنْ فَوْقِها وَمِنْ تَحْتِها، وَغَرِقَ مَنْ فِى ضِمْنِها».[۶۳۰]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كبعض الخطب السابقة واللاحقة واردة بشأن موقعة الجمل، وقد ذم الإمام على عليه السلام أهل البصرة الذين أسلسلوا قيادهم لطلحة والزبير وفرقوا صفوف المسلمين، ثم توعدهم بعذاب اللَّه سبحانه، ليعتبر من إعتبر فلا يقارف أعمالهم.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۳۰

الشرح والتفسير

خصائص أهل الجمل

لقد أشار عليه السلام فى هذه الخطبة إلى الصفات الذميمة التى إتصف بها مؤججى البصرة ليجمعها فى سبع صفات. فقد قال عليه السلام فى البداية

«كنتم جند المرأة»

. صحيح أن مؤججى نار الجمل هما طلحة والزبير، كما تشير الشواهد التأريخية إلى الدور المشبوه الذى لعبه معاوية فى هذا الشأن، ولكن الذى لاشك فيه أنّ حضور عائشة وكونها زوج النبى صلى الله عليه و آله كان الدافع الأعظم الذى ساق الناس لقتال الإمام عليه السلام والانخراط فى صفوف أصحاب الجمل، ولا سيما أن كنيتها بأم المؤمنين كان له أبلغ الأثر فى نخوة الناس للدفاع عن امهم، ومن هنا خاطب الإمام عليه السلام أهل البصرة.

بجند المرأة. الصفة الثانية لهم:

«و اتباع البهيمة»

، ثم يوضح عليه السلام سبب استحقاقهم لهذه الصفة إثر تحزبهم واجابتهم حين كانت ترغى وهروبهم وتشتتهم حين عقرت

«رغا[۶۳۱] فاجبتم،

وعقر[۶۳۲] فهربتم»

. فقد صرّح بعض المؤرخين أنّ جمل عائشة- فى معركة الجمل- كان بمثابة راية عسكر البصرة، حيث كان الجنود يلتفون حوله ويضربون دونه حتى قتلوا كما تقتل الرجال تحت راياتها. وجاء فى بعض الروايات أن سبعين ألفاقد أخذوا بزمام الجمل وكانوا يقتلون الواحد تلو الآخر، وكان أكثر من إلتف حول الجمل والدفاع عنه من قبيلتى بنى ضبة والأزد، لقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والايدى تطيح من المعاصم وأفتاب البطن تند لق من الاجواف وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لاتتحلحل ولا تتزلزل، حتى لقد صرخ على عليه السلام بأعلى صوته: «ويلكم أعقروا الجمل، فانه شيطان» ثم قال: إعقروه والا فنيت العرب.

لايزال السيف قائما وراكعا حتى يهوى هذا البصير إلى الأرض، فعمدوا له حتى عقروه فسقط و له رغاء شديد، فلما برك كانت الهزيمة. كما ورد فى بعض الروايات أنّ أميرالمؤمنين أمر بحرق الجمل وذر رماده فى الرياح وقال: لعنه اللَّه من دابة ما أشبهه بعجل السامرى، ثم تلى «وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً»[۶۳۳] والطريف فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۳۱

موقعة الجمل أن عائشة أخذت كفا من حصى فحصبت به أصحاب الإمام عليه السلام وصاحت بأعلى صوتها: شاهت الوجوه كما صنع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم بدر. فقال لها قائل: ومارميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى [۶۳۴] فقد كان حصب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله للمشركين أحد العوامل الاعجازية التى أدت إلى إنهيار عسكر الكفر، بينما انتهت معركة الجمل بهزيمة منكرة منى بها أعداء الإمام عليه السلام. أمّا الصفة الثالثة والرابعة والخامسة فهى تعالج أوضاعهم الأخلاقية حيث قال عليه السلام: «أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق» دقاق من مادة دقت بمعنى الدنيئة هنا، يصف بها أهل البصرة من عبدة الأهواء الذين نكثوا البيعة والتحقوا بصفوف الأعداء، أمّا نفاقهم فهو ناشئ من كون ظاهرهم هو الإسلام والدفاع عن زوج النبى صلى الله عليه و آله وباطنهم

القيام ضد الحكومة الإسلامية ووصى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و التخندق فى صفوف أهل الشام. ثم أشار عليه السلام إلى صفتهم السادسة «و ماؤكم زعاق». ومن المعلوم إن مثل هذا الماء وإضافة إلى ملوحته ومرارته فانه ينطوى على كل عناصر التلوث بسبب مجاورته لشاطئ البحر؛ فهو مضر بالنسبة لسلامة البدن، وهو يا لتالى مضر بروح الإنسان وفكره بفعل الرابطة القائمة بين الروح والبدن. وعليه فان ذم ماؤهم هو فى الواقع نوع ذم لأخلاقهم. ثم تطرق إلى صفتهم السابعة فقال:

«و المقيم بين أظهركم ۶۳۵] مرتهن بذنبه والشاخص ۶۳۶] عنكم متدارك برحمة من ربّه»

. والعبارة إشارة إلى ما ورد فى عدّة روايات، ومنها الحديث المعروف الذى نقله المرحوم الكلينى فى الكافى عن أبى الحسن الإمام الهادى عليه السلام حين قال لأحد أصحابه ويدعى جعفر:

مالى أراك تغشى عبدالرحمن بن يعقوب (و كان منحرفاً فى عقائده)، ألا تعلم أنّه ينسب اللّه إلى صفات المخلوقين ثم نصحه عليه السلام بتركهم ومجالسة أعدائهم أو العكس، فرد جعفر على الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۲

فليقل ما يقل فى إشارة إلى أنّه لا يتفق معه فى العقيدة فلا يضره. فقال عليه السلام: «أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعا»[۶۳۷] ومن هنا وجبت الهجرة على المسلمين فى صدر الإسلام حين عم الفساد كل شىء- ولا سيما الفساد العقائدى- ولم يسعهم القضاء عليه، بل كان يخشى تأثرهم به. وقوله عليه السلام: «مرتهن بذنبه» إشارة إلى أنّ الذنب يأسر الإنسان وكأنه يجعله رهينة فلا يطلقه، وهو مستوحى من قول القرآن الكريم «كل نفس بما كسبت رهينة»[۶۳۸] والذى نخلص إليه من هذه العبارة هو التأثير الذى يلعبه المحيط والوسط على أخلاق الناس، فاما يغير هذا الإنسان المحيط الفاسد والملوث أو يهجره. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى العذاب الدنيوى الذى ينتظر أهل البصرة فقال: «كانى بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث اللّه عليها العذاب من فوقها ومن تحتها، وغرق من فى ضمنها». وأمّا إخباره عليه السلام أنّ البصرة تغرق عدا المسجد الجامع بها، «فقد رأيت من يذكر أن كتب الملاحم تدل على أنّ البصرة تهلك بالماء الأسود ينفجر من أرضها، فتغرق ويبقى مسجدها. والصحيح أنّ المخبر به قد وقع، فان البصرة غرقت مرتين، مرة فى أيّام القادر باللّه ۶۳۹] ومرة فى أيام القائم بأمر اللّه ۶۴۰] غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلّامسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب ما أخير به أميرالمؤمنين عليه السلام، جاءها الماء من بحر فارس ۶۴۱] من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها وغرق كل ما فى ضمنها، وهلك كثير من أهلها»[۶۴۲] أخبارهاتين الحادثتين معروفة عند أهل البصرة يتناقله خلفهم عن سلفهم.

ثم نقل السيد الرضى آخر هذه الخطبة ثلاث روايات بشأن العبارات الواردة فى آخرها:

الرواية الاولى

«و آيم اللّه لتغرقن بلدتكم حتى كأنى انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۳

الرواية الثانية:

«كجؤجؤ طير فى لجة بحر».

الرواية الثالثة:

«بلادكم أنتن بلاد اللّه تربة: أقربها من الماء، وأبعدها من السماء، وبها تسعةأعشار الشر، المحتبس فيها بذنبه، والخارج بعفو اللّه. كأنّى أنظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء، حتى ما يرى منها الاشرف المسجد، كانه جؤجؤ طير فى لجة بحر».

لابدّ من الالتفات إلى عدم وجود تفاوت يذكر بين ماورد فى الخطبة المذكورة والرواية الاولى فكلاهما قد استهلت بالقسم وتحدثتا علانية عن غرق هذه المدينة، ثم اضافت تشبيه آخر لماورد سابقاً بشأن المسجد بالقول

«و ايم اللّه لتغرقن بلد تكم حتى كانّى انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة»[۶۴۳].

أمّا فى الرواية الثانية فهناك تفاوت طفيف جداً حيث استبدل تشبيه جؤجؤ السفينه بقولها «كجؤجؤ طير فى لجة[۶۴۴] بحر».

بينما هنالك تفاوت كبير بين الخطبة الثالثة والخطبة الأصلية. فقد أشير فى هذه الرواية إلى ثلاث امور فى ذم أهل البصرة

«بلادكم أنتن بلاد اللّه تربة اقربها من الماء، وأبعدها من السماء»

والصفة الثانية «و بها تسعة أعشار الشر» ولعل هذا الأمر ينبع من الخصائص الأخلاقية لناس تلك المنطقة أو بسبب كونها ميناءاً يكون مركزاً لتردد مختلف الأفراد وهجوم الثقافات الأجنبية والتلوث الخلقى الذى يفرض عليها من الخارج. ولذلك كانت هذه المنطقة مسرحاً للأحداث الأليمة للقرون الإسلامية الاولى أمّا الصفة الثالثة فهى

«المحتبس فيها بذنبه، الخارج بعفو اللّه».[۶۴۵]

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى شبيه ماورد فى الروايات المذكورة بقوله:

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۳۴

«كانّى انظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء، حتى ما يرى منها الاشرف ۶۴۶] المسجد، كانه

جؤجؤ طير فى لجة بحر».

ويبدو أن اختلاف العبارات يستند إلى رواة الحديث الذين قد نقلوا بعضها من حيث المعنى، أو أنّهم أخطأوا فى تدوين الحديث، ويبعد الاحتمال على أنّ الإمام عليه السلام قد كرر هذا الكلام فى أكثر من موضع وقال فيه ما يناسبه.

تأمّلات

۱- نبوءة النبى صلى الله عليه و آله بشأن موقعة الجمل

الجدير بالذكر أن عدة روايات صرحت بإخبار النبى صلى الله عليه و آله عن يوم الجمل وخروج عائشة وتحذيره لها. ومن ذلك لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيّداً يحمل هَوْدَجها، فجاءهم يعلَى بن أمية ببعيره المسمى عَسْكراً، وكان عظيم الخلق شديداً، فلما رأتْه أعجبها، وأنشأ الجمَّال يحدّثها بقوته وشدته، ويقول فى أثناء كلامه: «عسكر»، فلما سمعت هذه اللفظة، واسترجعتْ، وقالت: ردّوه لا حاجة لى فيه، وذكرت حيث سئلت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه، وأمرَت أن يطلب لها غيرهُ فلم يوجد لها ما يشبهه، فغيِّر لها بجلال غير جلاله، وقيل لها: قد أصبْنا لكِ أعظم منه خلقا، وأشدّ قوة، وأتيتْ به فرضيت.

وأرسلت إلى حفصة تسألها الخروج والمسير معها، فبلغ ذلك عبداللّه بن عمر، فأتّى أخته فعزم عليها فأقامت وحطَّتِ الرّحال بعد ما همّت.

كتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهى بمكة، أمّا بعد: فإنّك ظعينة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وقد أمرك أن تقرِّى فى بيتك، فإنْ فعلتِ فهو خير لك، فإن أبيتِ إلّاأن تأخذى مِنْسأتك، وتُلقى جلبابك، وتبدى للناس شعيراتك، قاتلتك حتى أردك إلى بيتك، والموضع الذى يرضاه لك ربّك.

فكتبت إليه فى الجواب: أمّا بعد، فإنّك أول العرب شَبّ الفتنة، ودعا إلى الفرقة وخالف

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۳۵

الأئمة، وسعى فى قتل الخليفة، وقد علمت أنّك لن تعجز اللّه حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءنى كتابُك، وفهمت ما فيه؛ وسيكفينيك اللّه؛ وكلّ من أصبح مماثلًا لك فى ضلالك وغيّك، إن شاء اللّه.

وقال أبومحنف: لما انتهت عائشة فى مسيرها إلى الحوأب، وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة، نبحتها الكلاب؛ حتى نفرت صِعاب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألا ترون، ما أكثر كلاب الحوأب، وما أشد نُباحها! فأمسكت زمام بعيرها، وقالت: وإنّها لكلاب الحوأب! ردّونى ردّونى؛ فإنى سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه يقول ... وذكرت الخبر، فقال لها قائل: مهلًا يرحمك اللَّه! فقد جُزْنا ماء الحوأب؛ فقالت: فهل من شاهد؟ فلفّقوا لها خمسين أعرابياً، جعلوا لهم جُعْلا فحلفوا لها: إن هذا ليس بماء الحوأب، فسارت لوجهها.[۶۴۷]

والعجيب أن مثل هذه الروايات كانت سببا لتردد عائشة، بينما لم تكن كل تلك الروايات الصحاح عن رسول الله صلى الله عليه و آله وقد روت أكثرها سببا لترددها وإنصرافها. وهذا لعمرى من العجائب. كما يفهم من هذه الحكايات أنها سرعان ما كانت تخدع وتغير رأيها.

۲- ذم أهل البصرة

ما ورد من ذم للبصرة فى الخطبة المذكورة يتعلق بعضه بتأثير المناخ وموقع المدينة وأوضاعها الإجتماعية (حيث كانت ميناءا وموضعا لإستقطاب أنواع الثقافات والأفكار والأخلاق الملوثة والتى كانت هناك ومازالت فى مثيلاتها) إلا أنّ البعض الآخر يرتبط بروحية وصفات سكنتها، والذى لا يلزم أن يكون كذلك فى كل عصر ومصر، بل هو إشارة لاولئك الناس فى ذلك العصر والزمان والذين كانوا يستسلمون لمحظظات طلحة والزبير القبيحة فينقضوا البيعة ويريقوا تلك الدماء. وعليه فلا منع من أن يسود تلك المنطقة الأخيار فى سائر العصور. ولذلك وردت بعض الأخيار التى تقيد مدح هذه المنطقة، ومن ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام حين إخباره منه ... فقرّاؤهم أفضل القرّاء وزهّادهم أفضل الزّهاد وعبّادهم

نفحات الولاية ؛ ج۱ ؛ ص۳۳۵

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۳۶

أفضل العبّاد وتجارهم أصدق التجار ... ونساؤهم خير النساء.[۶۴۸]

فلا منافاة أبدا أن يجد قوم ويجتهدوا فى طريق تهذيب النفس وتزكيتها فيتطهروا من الرذائل الأخلاقية وينطلقوا صوب السمو والكمال، سيما إن كانت رذائلهم الأخلاقية من قبيل معركة الجمل وما ترتب عليها من نتائج هزّتهم وأعادتهم إلى رشدهم.

۳- المحيط والاخلاق

تتضح مسألتان من عبارات الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة:

الاولى الأثر الذى يلعبه المحيط الطبيعى والجغرافى فى خلق ومزاج الإنسان، حيث قال عليه السلام:

«ماؤكم زعاق ... بلادكم انتن بلادالله تربة أقربها من الماء وابعدها من السماء». والاخرى تأثير المحيط الاجتماعى فى أخلاق الناس: «و المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه».

ولكن من المسلم به أنّ هذا التأثير يقتصر على تمهيد السبيل وتوفير الأرضية ولا يرقى لأن يكون علة تامة قط؛ ولذلك هناك الأفراد الأخيار الذين يعيشون فى هذه الأوساط. بل على العكس فهنا لك الأفراد المعروفون بالفساد والانحراف والسيرة الخبيثة والشريرة وهم يعيشون فى المناطق التى تتمتع بالمناخ المناسب من أجل تعالى الأخلاق وبلورة المزاج.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۳۷

الخطبة الرابعة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام فى مثل ذلك

«أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْماءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّماءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لِآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ».[۶۴۹]

نظرة إلى الخطبة

هذه خطبة اخرى أوردها الإمام عليه السلام بعد الجمل ولعلها تشكل مع سابقتها خطبة واحدة ثم فصلها الشريف الرضى رحمه الله. على كل حال فانّ الإمام عليه السلام يعرض بالذم ثانية لأهل البصرة ويتحدث عن خوائهم الفكرى الذى جعلهم يتحولون إلى إلعوبة بيد المنافقين من اصحاب المطامع، وأخيراً يحذرهم عليه السلام من مغبة مواصلة هذا الطريق الضال.

الشرح والتفسير

ذم أهل البصرة ثانية

كما أشرنا سابقاً فان هذا الكلام هو قسم آخر من تلك الخطبة التى أوردها الإمام عليه السلام فى ذم

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۸

أهل البصرة بعد موقعة الجمل حيث ضمته عليه السلام سبع صفات قبيحة إتصفوا بها. فقد وصفهم فى العبارة الاولى والثانية

«أرضكم قريبة من الماء، بعيدة من السماء»

. يمكن أن تكون العبارتان إشارة إلى الجوانب المادية فى أنّ هذه المنطقة قريبة من ماء البحر والشط وهى بعيدة عن السماء، أو إشارة إلى الجوانب المعنوية كأن يكون المراد أن أرض قلوبكم ورغم قربها من ماء الحياة بفعل وجود الإمام، إلّاأنّها بعيدة عن سماء رحمة اللَّه ومغفرته. أو أن تكون هذه العبارة واردة فى المسائل المادية والعبارة الاخرى فى المسائل المعنوية هناك نقاش وبحث بين الشرّاح فى هذا الشأن، غير أنّ ظاهر العبارة- بالالتفات إلى المعنى الحقيقى للأرض والسماء- فانّ المراد المعنى الأول، فليس هنالك من خلاف فى أنّ أرضهم قريبة من الماء ولها المشاكل التى تنطوى عليها الحياة عند ساحل البحر، ولا سيما البصرة التى يمر بها ذلك الشط الكبير ويصب فى البحر ممّا يجعلها عرضة لظاهرة المد والجزر؛ أمّا كيفية إبتعادها عن السماء، فقد ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أن أبعد موضع فى الأرض عن السماء «الابلة» وذلك موافق لقوله عليه السلام- ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدل النهار والبقاع، والبلاد تختلف فى ذلك. وقد دلت الارصاد والآلات النجومية على أنّ أبعد موضع فى المعمورة عن دائرة معدل النهار هو الابلة والابلة هى قصبة البصرة. وهذا الموضع من خصائص أميرالمؤمنين عليه السلام لأنّه أخبر عن أمر لاتعرفه العرب، لاتهتدى إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء، وهذا من أسراره وغرائبه البديعة.

ولكن لايبدو هذا الكلام مقبولا لدى العلماء المعاصرين، لأن البصرة كسائر الموانئ العالمية المساوية لسطح ماء البحر، ونعلم أنّ مياه بحيرات العالم متصلة مع بعضها وتقع فى مستوى واحد؛ والحال هنالك عدّة مناطق على سطح الكرة الأرضية وهى أوطئ من سطح البحار. لكن يحتمل ألا- تكون المقارنة بالنسبة لجميع المناطق على سطح الكرة الأرضية، بل مع بعض البلدان والمناطق الإسلامية المتعارفة آنذاك.

ثم قال عليه السلام فى العبارة الثالثة والرابعة

«خفت عقولكم، وسفهت حلومكم»

والدليل الواضح على هذا ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطب السابقة من انقيادهم السهل واستسلامهم لأهواء

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۳۹

طلحة والزبير وتقديمهم التضحيات الجسام ذودا عن جمل عائشة وبالتالى هزيمتهم وفضيحتهم المنكرة التى جرت عليهم الندم والحسرة. عقول جمع عقل وحلوم جمع حلم، ويبدو أن (الحُلُم والحِلم) من آثار العقل بعبارة اخرى فانّ العقل هو القوة المدركة لدى الإنسان والفكر واعلم واجالة الرأى فى الأعمال من نتائجه، ولما كانت عقول أهل البصرة خفيفة فانّ أفكارهم كانت ضعيفة تثار بسرعة إثر الدعايات السيئة التى يمارسها ذوى الأهواء والمطامع. ومن هنا قال الإمام عليه السلام فى العبارة الخامسة والسادسة والسابعة: «فأنتم غرض ۶۵۰] لنا بل ۶۵۱]، واكلة لأكل، وفريسة[۶۵۲] لصائل ۶۵۳]».

و من البد يهى أن يقع الأفراد السذج من ذوى الأفكار السطحية الهشة لقمة سائغة فى شباك صيادى الدين والإيمان والمتعطشين إلى الشراء والمال والجاه والمنصب؛ ومن هنا فانّ العنصر الذى يمكنه ضمان المجتمعات الإنسانية إزاء هؤلاء المكرة المخادعين، إنّما يكمن فى رفع المستوى الثقافى لدى الرأى العام وايقاف الامّة على مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية؛ الأمر الذى أكده الإسلام، وهذا هو أحد الأهداف التى تستبطنها خطب صلاة الجمعة. فلو إستدرك أهل البصرة وعادوا إلى أنفسهم وأفكارهم وألموا بشرائط الزمان والمكان لما أصبحوا العوبة بيد طلحة والزبير الذين نقضنا بيعة الإمام عليه السلام وتظاهرا عليه وألبوا الناس على قتاله فسالت تلك الدماء وحتى إنتهى الأمر إلى قتلهما. والسؤال المطروح هنا: هل هناك معنى واحد للعبارات الثلاث «فأنتم غرض لنابل» «و اكلة لآكل» «و فريسة لصائل» أم لها معانى متعددة؟ لايبعد أن تكون كل عبارة إشارة إلى جانب من جوانب المسألة. فالعبارة الاولى تبيّن الاستهداف من بعيد فى أنّ الساسة يسعون لرميكم بسهامكم وايقاعكم فى شباكهم ولو من بعيد. والعبارة الثالثة تبيّن هذا الاستهداف من قريب بينما تبين العبارة الثانية النتيجة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۴۰

النهائية لهذا الاستهداف والصيد. وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الذم إنّما يرد بشأن اولئك الذين أصبحوا آلة رخيصة بيد المنافقين، وإلّا فالبصرة آنداك وما تبعه من أزمان قد حفلت بالأفراد الأخيار الذين أثنى عليهم الإمام عليه السلام كما ورد فى شرح الخطبة السابقة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۴۱

الخطبة الخامسة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فيما رده على المسلمين من قطائع ۶۵۴] عثمان

«وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّساءُ وَمُلِكَ بِهِ الْإِماءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِى الْعَدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ».[۶۵۵]

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب التى أوردها الإمام عليه السلام بعد أن بايعه الناس فى المدينة حيث توعد فيها كافة الأفراد الذين تطاولوا على بيت المال إبان عهد عثمان إلى جانب بطانته وقرابته ممن حذا حذوهم، ويطالبهم باعادتها إلى بيت المال وإلّا سيقف بوجههم بكل قوة.

وهكذا يضع الإمام عليه السلام حداً لأطماع الطامعين، ثم يختتمها بعبارات قصيرة بعيدة المعنى بشأن العدالة وقيمتها فى المجتمع.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۲

الشرح والتفسير

القسم على إعادة الأموال المغصوبة

كما يفهم من مضمون الخطبة فانّها وردت فى بداية الخلافة الظاهرية لأميرالمؤمنين على عليه السلام. وقال ابن أبى الحديد إنّ هذه الخطبة ذكرها الكلبى مروية مرفوعة إلى أبى صالح عن ابن عباس رحمه الله أنّ علياً عليه السلام خطبها فى اليوم الثانى من بيعته بالمدينة. والحق أنّ هذه الكلمات كانت كالماء البارد الذى سكب على ألسنة اللهب والنار المتقدة فى صدور الامّة؛ فقد سادت السكينة والهدوء قلوب أولئك الذين كانوا يأنون من إنعدام العدالة على زمن عثمان إلى جانب اولئك الذين شعروا بها جس القلق على النظام الإسلامى وقوانينه الحقة، فاستبشروا بعودة الإسلام الأصيل والحكومة الإسلامية التى كانت تتطلع لها الفطرة الإسلامية، ولولا هذه السياسة التى أعلنها الإمام عليه السلام بهذه العبارات لما هدأت المدينة ولتكررت هجمات أبناء الامّة على دار عثمان ولسفكت الدماء واهدرت الأموال. فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقسم بارجاع كافة الأموال التى نهبت من بيت المال مهما فعل بها

«و اللّه لو وجدته قد تزوج به النساء، ملك به الاماء، لرددته»

. ثم أضاف عليه السلام مذكرا بأنّ إجراء العدالة قد يثير غضب البعض إلّا أنّ ذلك خطأ فادح، لأن العدل أساس راحة المجتمع ومن ضاق صدره من العدل فانّه سيكون أضيق إذا ماساد الجور والظلم

«فان فى العدل سعة ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق»

. فقد بيّن الإمام عليه السلام فى البداية عزمه الراسخ على إعادة الأموال التى اخذت ظلماً وعدواناً من بيت المال وإن تزوج بتلك الأموال أو تملك بها الإماء، فلابدّ أن تعاد إلى بيت مال المسلمين، لتعلم الامّة بأنّ القانون الذى سادها سابقاً لم يكن قانون الإسلام فهو ليس النموذج الإسلامى الذى يحتذى به فى المسيرة السياسية. ثم عزز هذا العزم بالمنطق والدليل «فانّ فى العدل سعة». و أخيراً يعرض بالنصح لُاولئك الذين مد أيديهم إلى بيت المال وظنوا بأنّ عزم الإمام عليه السلام هذا سيتضمن ضررهم، فى أنّ الأمر بالعكس سيكون بنفعهم؛ لأن من ضاق عليه العدل فالظلم عليه أضيق، فالعدالة تمنحه الأموال الحلال ولا تسلبه سوى الأموال المحرمة اللامشروعة، ولكن إذا لم يستجب للعدل وعاش الظلم والجور، فانّه سيخاطر بجميع أمواله المحللة منهاالمحرمة. صحيح أنّ الظلم ممكن أن يجر نفعاً على الظالم خلال مدّة قصيرة، إلّاأنّه

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۳

ليس كذلك على المدى البعيد، وقد أثبت التأريخ كيفية تحطم الظلمة بنفس هذه القوانين الظالمة التى شرعوها وفرضوها على الناس بقوة الحديد والنار؛ حتى خانهم أقرب مقربيهم وطعنوهم من خلفهم. قال الكلبى: ثم أمر عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان فى داره؛ تقوى به على المسلمين فقبض، و أمر بقبض نجائب كانت فى داره من إبل الصدقة، فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين، وبالكف عن جميع أمواله التى وجدت فى داره وفى غير داره، وأمر أن ترتجع الأموال التى أجاز بها عثمان حيث اصيبت أو أصيب أصحابها. فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بأيلة من أرض الشام، أتاها حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانع فاصنع، إذ قشرك ابن أبى طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاها. هذا وقد إختلفت أقوال المفسرين وشرّاح نهج البلاغة بشأن مراده بقوله «من ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق» وأحد التفاسير هو ما ذكرناه سابقاً. التفسير الآخر هو أن بسط العدالة فيه رضى اللّه وخلقه والانسجام مع نظام الوجود، بينما يوجب الظلم

غضب اللّه وخلقه ويؤدى إلى ضيق الدنيا والآخرة. وتفسير آخر هو أنّ سلب الإنسان شيء بالعدل قد يشق عليه، إلّاأنّ سلبه ظلماً سيكون عليه أشق وأصعب. وأخيراً أنّ الوالى إذا ضاقت عليه تدبيرات اموره فى مظنة أن يمنع ويصد عن جوره.

وإذا لم يطق الإنسان العدل والانصاف فأنّى له بتحمل الظلم والجور. ولانرى من ضير فى جمع كل هذه التفاسير كمراد لمفهوم تلك العبارة.

تأمّلات

۱- معطيات العدالة فى المجتمعات البشرية

لقد ورد التأكيد كراراً فى نهج البلاغة على مسألة العدل والانصاف، بل المعروف أنّ الإمام على عليه السلام من كبار باسطى العدل فى المجتمع الإنسانى، حتى أسماه المفكر المسيحى المشهور جورج جرداق الإمام على صوت العدالة الإنسانية. وقد تظافرت الروايات الإسلامية- وعلى غرار كلمات الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة- الواردة بهذا الشأن وبعبارات غاية فى الروعة واللطافة، منها ما ورد عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنّه قال:

«العدل أحلى من

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۴

الماء يصيبه الظمآن»[۶۵۶]

. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«العدل أحلى من الشهد وألين من

الزبد وأطيب ريحاً من المسك»[۶۵۷]

. وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«العدل أساس به قوام

العالم»[۶۵۸]

، كما قال عليه السلام:

«ما عمرت البلدان بمثل العدل»[۶۵۹]

. فالحق أنّ أساس العالم قد شيد على العدل، والعدل بمفهومه الجامع يعنى وضع الأشياء فى مواضعها، فالسماء والأرض والمجرات والمنظومات الشمسية إنّما تتحرك حسب القانون والنظام والمواضع المخصصة لها، كما أن الالكترونات والبروتونات وسائر أجزاء الذرة ومداراتها إنّما تتحرك هى الاخرى ضمن مواقعها المحددة لها. وإنّ أدنى خروج عن حالة الاعتدال والاتزان فى بنية الإنسان أو أى من أجهزته فان ذلك سيؤدى إلى مرضه أو موته، وهذا ما يصدق تماماً على عالم الحيوان والنبات، وقد أثبت العلماء أن استقرار الحياة على وجه الكرة الأرضية إنّما هو نتيجة لمجموعة معقدة من الأنظمة التى تحكمها بحيث تضعف هذه الحياة وربما تضمحل وتنهار إذا ما تغيرت هذه الأنظمة، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوى المعروف

«بالعدل قامت السموات والأرض»[۶۶۰]

. وهنا نتساءل هل يسع الإنسان الذى يعدّ جزءاً صغيراً من هذا العالم العملاق أن يمارس حياته بعيداً عن النظام والعدالة؟ وهل يسعه أن ينشق عن هذه المسيرة ويواصل حياته بمعزل عن الآخرين؟ نعم قد يستطيع الظلم تلبية مصالح فرد أو بلد خلال مدّة قصيرة، إلّاأنّ آثاره المميتة على المدى البعيد ليست بخافية على أحد.

۲- اسراف عثمان

ورد فى التواريخ أنّه أعاد الحكم بن أبى العاص، بعد أن كان رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، قد سَيَّره ثم لم يرده أبوبكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتْها بعد وفاة أبيها صلوات اللَّه

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۵

عليه، تارةً بالميراث، وتارة بالنِّحْلة فدُفِعت عنها.

وأعطى عبدالله بن أبى سرْح جميع ما جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيّة بالمغرب؛ وهى من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أنْ يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أباسفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، فى المال، فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوّجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدى عثمان وبكى فقال عثمان: أتبكى أن وصلت رحمى! وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسَّمها كلَّها فى بنى أميّة. وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضا بعد صَرْه زيد بن أرقم عن خزنه.

وانضم إلى هذه الامور اخرى نقمها عليه المسلمون، كتسيير أبى ذر رحمه اللَّه تعالى إلى الرّبذة؛ وضَرَب عبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر فى إقامة الحدود، وردّ المظالم، وكفّ الأيدى العادية والانتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين.[۶۶۱]

ومن هنا يتضح أمران: الأول: علة قيام الناس ضد عثمان، والثانى السبب الذى دفع ببعض الأفراد من قبيل طلحة والزبير ومعاوية وسائر كبار مكة والمدينة. أو لايمكن خلاصة ذلك فيما ورد فى خطبته عليه السلام من قوله:

«واللَّه لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته، فان فى العدل سعة- ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق».

۳- الإجابة عن سؤال مهم

يتساءل البعض ألم يكن من الأفضل أن يتجاوز الإمام عليه السلام الماضى- عفا اللَّه عمّا سلف- ويستأنف فى زمان خلافته مسيرة العدالة ليجتث جذور الحقد والبغضاء من صدور العناصر الانتهازية والنفعية؟ ويمكن العثور على جواب هذا السؤال فى كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، فقد

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۶

ورد فى بعض الروايات والقسم الآخر من هذه الخطبة أنّه قال عليه السلام:

«الا- أن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال اعطاه من مال اللَّه فهو مردود فى بيت المال فان الحق القديم لا يبطله شىء ولو وجدته ...»[۶۶۲].

ومن البديهى أنّ الناس لو رأوا ناهبى بيت المال يتقلبون فى البلاد بكل حرية ويسخرون عملياً من جرحهم لمشاعر الآخرين وأنّ العدالة ليست بصدد الماضى فانّهم لن يطيقوا مثل هذه العدالة ولا يرونها تنسجم وأى منطق وعقل حيث ينعم لصوص الأمس بالحرية والراحة بينما لا- تطال العدالة سوى لصوص اليوم؛ فهذا الازدواج من شأنه أن يدخل اليأس فى قلوب الناس من بسط العدالة. الفقه الإسلامى هو الآخر نص على وجوب عودة الأموال المغصوبة إلى أصحابها وليس هنالك من فارق بين الأمس واليوم، أمّا مسألة تقادم الزمان المطروحة هذا اليوم فبغض النظر عن اهمالها فى الفقه الإسلامى، فانّها إنّما ترتبط بالدعاوى لا بالأموال المغصوبة.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۷

الخطبة السادسة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما بويع فى المدينة وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم وفيها يقسمهم إلى اقسام

القسم الأول

اشارة

«ذِمَّتِى بِما أَقُولُ رَهِينَةٌ. وَأَنا بِهِ زَعِيمٌ إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهاتِ أَلا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عادَتْ كَهَيْئَتِها يَوْمَ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه و آله. وَالَّذِى بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُساطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ وَأَعْلاكُمْ، أَسْفَلَكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سابِقُونَ كانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كانُوا سَبَقُوا. وَاللَّهِ ما كَتَمْتُ وَشْمَةً، وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذا الْمَقامِ وَهَذا الْيَوْمِ».[۶۶۳]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة من اولى خطبه عليه السلام بعد مقتل عثمان وتوليه عليه السلام الخلافة فى المدينة، ويبدو تفسيرها

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۴۸

سهلًا بالالتفات إلى موقعها وزمان صدورها، وهى تدور حول أربعة محاور:

المحور الأول: الفات انتباه الامّة إلى الامتحان الذى ستمر به وتشبيه ذلك الزمان بزمان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله واننهضته كنهضة النبى صلى الله عليه و آله التى طفرت بالامّة من عصر الجاهلية والظلمة إلى عصر الهداية والنور، وإن كان إحتمال هذه النهضة صعب ثقيل على البعض وكون الامتحان شاق. فالانحرافات التى أعقبت رحيل النبى صلى الله عليه و آله والتى أدت إلى التميز فى عطاء بيت المال وسلب ونهب ثروات الامّة واغداق المناصب الحساسة على من تبقى من رجالات الجاهلية إنّما تتطلب ثورة إصلاحية قام بها الإمام على عليه السلام. ثم يذكر الإمام عليه السلام الناس بضرورة العودة إلى الإسلام الأصيل والاعتبار بعاقبة ومصير الأقوام الماضية.

المحور الثانى: يقارن عليه السلام بين المعصية والذنب والورع والتقوى ثم يبيّن كل منهما وكيف تصعب السيطرة على المعاصى بينما يتيسر نهج التقوى ويحذر الامّة من المخاطر التى تتربص بمصيرها.

المحور الثالث: إشارة مقتضبة عميقة المعنى لمسألة الحق والباطل محذراً الامّة من عدم الاستيحاش من الحق رغم قلة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه، والعمل بالحق الذى لا يقود سوى للغلبة والنصرة الإلهية.

المحور الرابع: الذى يشمل سلسلة من النصائح والمواعظ التى تعدّ كل واحدة منها ركن مهم من الأركان التى ينبغى الالتفات إليها فى الحياة من قبيل الوعظ بالابتعاد عن الإفراط والتفريط والتمسك بالقرآن والسنّة وضرورة معرفة الذات والدعوة إلى الآخاء والاتحاد وإصلاح ذات البين والتوبة من المعاصى والوثوق بأنّ البركة والخير منه سبحانه.

الشرح والتفسير

اليقظة والوعى فى الامتحان

تعتبر هذه الخطبة- كما أشرنا سابقاً وعلى ضوء ما صرّح به بعض شرّاح نهج البلاغة مثل ابن أبى الحديد- من الخطب المهمّة التى أوردها عليه السلام لما تمت له البيعة بالخلافة، فحذر الامّة ممّا ينتظرها وأبان لها المخاطر والانحرافات التى تتربص بها.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۴۹

فقد قال بادئ ذى بدء:

«ذمتى بما أقول رهينة وأنابه زعيم»[۶۶۴]

فى إشارة إلى صدق القول وحقانيته ووجود الضمانات القائمة عليه، ولذلك ينبغى عليكم تلقيه دون نقاش إلى جانب الالتزام به والعمل بمقتضاه. امّا المغزى الذى ينطوى عليه هذا التعبير فإنّما يكمن فى إلفات نظر السامع إلى أهمية وخطورة المضمون الذى يختزنه الكلام والتعامل مع أهدافه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل هذا المضمون فى أن من استشعر الورع والتقوى وخشى العواقب نأى بنفسه بعيداً عن الشبهات ومامن شأنه تعريضه لتلك العواقب

«ان من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات ۶۶۵] حجزته ۶۶۶] التقوى عن تقحم الشبهات»

. ارجعوا إلى التأريخ وتأملوا ما أصاب الأقوام الماضية من عقوبات بفعل الانحراف عن الحق والتلوث بالمعاصى والذنوب واستفحال الهوى والشهوات وحب الذات! ارجعوا إلى زمان انبثاق الدعوة وقيام النبى صلى الله عليه و آله وتدارسوا المؤامرات التى حاكتها الأقوام الجاهلية ضده ثم انظروا كيف كانت عواقبهم ومصائرهم لتتضح لكم معالم الطريق فتجوبوا الظلمة بنور التقوى والهداية؛ الكهف الحصين الذى يأمنكم من الضربات الموجعة التى يمكن أن تسددها لكم النفس الامارة وتزينها الشياطين. ثم يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن الواقع الخطير الذى يعيشونه ويطلعهم على صعوبة الامتحان

«ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث اللَّه نبيه صلى الله عليه و آله»

. اعلموا أنّ أمامكم امتحان لا ـ ينحج فيه سوى من استشعر نفسه كمال التقوى والاخلاص. فالإمام عليه السلام يميط اللثام عن هذه الحقيقة فى أنّ الامّة فى عصر الخليفة الثالث ولا سيما أواخر عمره قد عاشت البذخ فى بيت المال والمناصب التى فوضت لغير أهلها من الأفراد الصالحين والمفاسد التى اجتاحت المجتمع الإسلامى والاختلافات التى عصفت بوحدتها وكأنّها عادت القهقرى إلى عهد الجاهلية وكأن بيعته كبيعة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله التى تطالبه بنهضة تجديدة كتلك التى أسسها النبى صلى الله عليه و آله؛ تلك النهضة المعطاء التى صهرت الامّة فى الإسلام الأصيل.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۰

ومن الطبيعى أن تهب بعض الفئات التى تعرض مصالحهم اللامشروعة للخطر لابداء ردود الفعل واظهار المقاومة؛ الأمر الذى يعقد الامتحان بما يجعل الحاكم الخبير كالإمام على عليه السلام يوقظ الامّة وينبهها إلى الأخطار المتربصة بها وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ البعض فسّر البلية بالبلاء والمشاكل، فى حين نراها تعنى الامتحان والاختبار ويؤيد ذلك سائر عباراته الواردة فى الخطبة. ثم خاض عليه السلام فى تفاصيل هذا الامتحان الإلهى الكبير ليوضحه بمثالين، فقد ذكر أولًا

«والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة[۶۶۷] ولتغربلن غربلة»[۶۶۸]

وهذه هى الطبيعة التى تسود كل نهضة ربانية فى غربلة المجتمع حين تتويج مسيرتها بالنصر. فهناك إقصاء لأصحاب السطوة الخونة واستبدالهم بالمجموعة الصالحة المستضعفة، وهذا بعينه ما مارسه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعيد انتصار ثورته المباركة. فقد نحى أبو سفيان ومن لف لفه من طغمة الفساد ليفسح المجال لصهيب والخباب وبلال. أضف إلى ذلك فقد نحيت الشخصيات المستبدة

التى استندت إلى منطق القوة على عهد عثمان بعد بيعة أمير المؤمنين على عليه السلام لتخلفها القوى الشعبية المخلصة.

وثانياً

«ولتساطن سوط[۶۶۹] القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم»

. نعم فطبيعة كل ثورة أن تضع فى النهضات الربانية التى تنبثق فى المجتمعات الفاسدة فانّها تطيح بالمفسدين وترفع المستضعفين ليمارسوا دورهم فى السلطة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«وليسبقن سابقون كانوا قصروا، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا»

والعبارة الثانية إشارة إلى بعض الأفراد كطلحة والزبير الذين كانا يوماً فى الصفوف الاولى بينما دفعتهم بعض العوامل للتراجع عن تلك الصفوف، بينما تشير العبارة الاولى إلى بعض الأفراد كصحب الإمام عليه السلام وأتباعه الذين أصبحوا يوماً جلساء الدار، بينما سنحت لهم الفرصة على عهد الإمام ليتقدموا ويسبقوا كما احتمل البعض أن يكون المراد المستقبل الذى سيشهد تردى الأوضاع فيتقدم بنو أمية ويتصدرون الامور ويتأخر السابقون

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۱

فى الإسلام فتعود الجاهلية بأقطابها ليتسلموا زمام الامور، ولكن لما كانت هذه الخطبة قد أوردت إثر مبايعة الإمام عليه السلام مباشرة فان المعنى الأول يبدو هو الأنسب. ثم يؤكد الإمام عليه السلام هذا الأمر بقسم آخر

«واللَّه ما كتمت وشمة[۶۷۰] ولا كذبت كذبة، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم».

وما كل هذه الامور إلّاليفيق الناس ولا يستسلمون للمؤامرات كمؤامرة الجمل وصفين والنهروان ويعلموا أنّهم أمام امتحان صعب فيلتفتوا إلى أنفسهم، إلّاأنّ المؤسف له هو أنّهم لم يعيروا نصح الإمام عليه السلام أية آذان صاغية ولم يتدبروا الأمر فكان من ذلك أن فشلوا فى الامتحان أيما فشل.

يبدو أنّ مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو المغيبات التى أطلعه عليها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وكما ذكرنا فى حينه- فى مبحث علم غيب النبى صلى الله عليه و آله والإمام- أنّ الأئمة المعصومين هم قادة الامّة على مدى العصور والدهور ولا يمكن لهذه القيادة إلّاتنطوى على علم الغيب والاحاطة بأسرار الماضى والمستقبل؛ وذلك لأنّ هناك رابطة وثيقة بين حوادث اليوم والأمس والغد، ومن هنا كانوا يطلعون أصحابهم على جانب ممّا ينتظرهم فى المستقبل أو يعلنوا ذلك للناس ليكونوا أكثر حزماً ووعياً فى التعامل مع الأحداث وينأوا بأنفسهم بعيداً عن حبال الشيطان وشراكه. وهذا ما نلمسه بوضوح كراراً ومراراً فى سيرة الإمام على عليه السلام وكيف أنّه حذر الامّة ولفت انتباهها إلى الأخطار التى تتربص بها. ومن الطبيعى أن يتعظ البعض ويتمرد البعض الآخر.

تأمّلان

۱- التأريخ يعيد نفسه

من المعروف أن الأحداث التأريخية سلسلة من الوقائع المتكررة التى تتخذ أشكال مختلفة، ومن هنا فان الأفراد الذين يتأملون بعمق الماضى التأريخى يتمكنون من التعامل بمعرفة أفضل مع الحوادث الراهنة والآتية، ومن هنا رأينا القرآن الكريم مشحوناً بقصص

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۲

الأنبياء والأقوام السالفة التى تعكس بجلاء أحداث اليوم والمستقبل. الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة- أشار إلى هذه النقطة المهمّة:

«ان من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات»

ثم قال عليه السلام:

«الا وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث اللّه نبيه صلى الله عليه و آله»

. ذات الفئات المناهضة للحق، والانحرافات والضلال والمؤامرات والفتن. فافيقوا وانطلقوا خلف إمامكم مخافة ان تضلوا- ولو أمعنا النظر وقارنا حوادث عصر الإمام عليه السلام بعصر النبى صلى الله عليه و آله لوجدنا شبهاً كبيراً، وليس هذا إلّاأنّ المنافقين ومن تبقى من عصر الجاهلية سعوا وبشتى الطرق للقضاء تدريجياً على تعاليم النبى صلى الله عليه و آله؛ ولا سيما أنّهم سعوا لاختراق مراكز القوة لممارسة دور أكبر فى تشويه الثقافة الإسلامية واستبدالها بثقافة جاهلية؛ الأمر الذى لمسنا آثاره بوضوح فى العصر الأموى.

فالحق أنّ بعض الظواهر الإسلامية كانت قائمة فى عصر الخليفة الثالث، إلّاأنّ هذه الظواهر لم يبقى منها إلّاقشورها فى العصر الاموى. على غرار الشعائر الإسلامية كالصوم والصلاة والحج التى كانت سائدة على عهد بنى امية ولكن أية صلاة وصوم وحج؟!

۲- بيان الحقيقة أم رعاية المصلحة

كثير هم الذين يعتقدون بأنّ المصلحة تكمن فى كتمان الحقائق عن الناس، حذراً من ابداء ردود الفعل الطائشة، والحال ليست مصلحة الزعماء ومصالح عموم الامّة- باستثناء بعض الحالات الخاصة- سوى اطلاع الناس على الحقائق وفسح المجال أمامهم لاقتحام الميدان عن علم ومعرفة. فالتعتيم الخبرى وتغييب الامّة عن الأحداث يمثل الاسلوب الذى يعتمده الطغاة والجبابرة الذين لا يفكرون سوى فى تحقيق أطماعهم ومآربهم، على العكس من الزعماء الربانيين وأئمة المسلمين الذين يكرسون جهودهم لنجاة الامّة من مشاكلها المادية والمعنوية، فهم يسعون باخلاص لكشف الحقائق والواقعيات لأنّهم يستنصرون الامّة ويرومون دعمها واسنادها. والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام لا- يكتم الوقائع عن الامّة- كما ورد فى هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة- فحسب، بل يطلعها حتى على الحوادث المستقبلية التى سمعها من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فيقول لهم لا أبخل عليكم حتى بالأخبار عن الكلمة الواحدة التى من شأنها أن تنبهكم إلى الأخطار المحدقة بكم حرصاً على عدم الاغترار بوساوس الشيطان والوقوع فى شباكه.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۳

القسم الثانى: الذنوب شماس كالخيل

«أَلا- وَإِنَّ الْخَطايا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْها أَهْلُها، وَخُلِعَتْ لُجُمُها، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِى النَّارِ، أَلا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطايا ذُلُلٌ، حُمِلَ عَلَيْها أَهْلُها وَأُعْطُوا أَزِمَّتَها فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْباطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّما وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّما أَدْبَرَ شَىْءٌ فَأَقْبَلَ».

قال السيد الشريف: وأقول: إنّ فى هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإنّ حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به. وفيه- مع الحال التى وصفنا- زوائد من الفصاحة لا- يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّامن ضرب فى هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلّاالعالمون».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام البحث السابق بشأن الأوضاع المتأزمة بعد بيعة الإمام عليه السلام والتى تمثل ثورة تصحيحية فى العالم الإسلامى، حيث يتطرق إلى نقطة غاية فى الأهمية من خلال تشبيه رائع، وهى ضرورة السيطرة على الذنب منذ بدايته حيث إذا ترك له العنان وتمادى فى مقارفة شبيهه، جذبه إليه وسيطر على كيانه وسلبه زمام المبادرة وأوقعه فى واد سحيق فقد وصف عليه السلام

الذنوب والمعاصى بالخيول الجامحة التى يصعب السيطرة عليها

«ألا وإن الخطايا خيل شمس ۶۷۱]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۴

حمل عليها أهلها، وخلعت نجمها، فتقحمت بهم فى النار»

ياله من تشبيه رائع، فركوب الفرس الجامح خطير، وتشتد الخطورة إذا فقد لجامها الذى يلجم عنانها، ثم تتضاعف هذه الخطورة أكثر من ذى قبل إذا كان هذا الجموح فى أرض تشتمل على بعض المطيات. وهذا هو التصوير الواقعى للذنب، فارتكاب الذنب يقود الإنسان إلى ذنب آخر وهكذا، على سبيل المثال قد يرتكب الإنسان خيانة فيكتمها، وإذا استجوب حال مالا يحصى من الأكاذيب للتغطية على خيانته كما يقسم كاذباً أو يلجأ إلى اتهام الآخرين، فاذا لم يجد ذلك نفعاً ربما لا يتورع عن سفك دم من يعلم بخيانته، بغية عدم افتضاح أمره وهكذا يصبح أرضية خصبة لمقارفة ما شاء من الذنوب؛ ولا غرو فقد أصبح كالخيل الشموس التى خلع لجامها فهى تقذف بصاحبها إلى الهاوية.

ثم ذهب عليه السلام إلى الصورة المعاكسة التى شبه فيها التقوى بالخيل الذلول فأوصلت راكبهاالموضع الذى يريد

«ألا وإن التقوى مطايا ذلل ۶۷۲] حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمتها، فأوردتهم الجنّة»

نعم فالأعمال الصالحة سلسلة متعاقبة الحلقات، فالعمل الصالح يكون سبباً لآخر وهكذا الإتيان بسائر الأعمال الصالحة. على سبيل المثال إذا ربّى أحدهم ولده تربية صالحة فسيعده للإتيان بالخيرات والبركات، وسيكون له تأثيره البالغ فى وسطه بما يحث رفاقه وأصحابه على القيام بمثل هذه الأعمال، وهكذا يسير المجتمع نحو السعادة والصلاح والفلاح. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبر عن الذنوب بالخيل الشمس وعن التقوى بالمطايا الذل، فالخيل من مادة خيال، فيطلق «المختال» على الفرد المغرور والمتكبر الذى يعيش الخيالات، ومن هنا اصطلح على الفرس بالخيل لأنّه عادة ما يدعو راكبه إلى الغرور والفخر.

على العكس من المطايا جمع مطية من مادة المطو على وزن العطف بمعنى الجد والنجاة فى السير؛ وبناءً عى هذا فان المطية دابة هنيئة سريعة تسير قدماً نحو الإمام عليه السلام بكل هدوء دون أن تجمح بصاحبها وتقحمه فى المتاهات- ومن هنا تتضح ذروة فصاحته وبلاغته فى كلماته عليه السلام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۵

حتى تلك الكلمات القصيرة والعبارات الصغيرة. ثم يحذر الإمام عليه السلام من صعوبة الامتحان الإلهى فى ظل حكومته وطيلة حياتهم مواصلًا البحث السابق بشأن الذنب والتقوى فقال عليه السلام:

«حق وباطل، ولكل أهل».

أجل فالحياة البشرية ومنذ بدء الخليقة كانت وما زالت مسرحاً للصراع بين هذين الاتجاهين ويختصر الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى مسألة حساسة وهى أنّ الباطل إذا قدر له أن يحكم فلا عجب فى ذلك فهذا ما حصل منذ قديم الزمان:

«فلئن أمر الباطل لقديماً فعل»

. وإن قل الحق وأتباعه فلا داعى للقلق ولعله يزداد فيهزم الكفر فى عقر داره

«ولئن قل الحق فلربما ولعل»

أنّ قصة الصراع بين الحق والباطل وما تخلله من وسائل وأدوات وما تمخض عنه من نتائج طيلة التأريخ الإنسانى قصة ذات شجون وسنتطرق إلى هذه التفاصيل فى الأبحاث القادمة بما يتناسب وسائر الخطب الواردة بهذا المجال.

أمّا القضية الجديرة بالذكر والتى حظت باهتمام الإمام عليه السلام هى ضرورة عدم الاستيحاش من الحق لقلة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه؛ لأنّ التأريخ يشهد على الدوام بكثرة أتباع الباطل وقلة أتباع الحق، وكثيراً ما كانت تحسم المعارك والصراعات

لصالح الحق؛ وهذا ما صرّح به القرآن الكريم على لسان طالوت: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ»[۶۷۳]. وهو المعنى الذى أشارت إليه الآيـة القرآنية الكريمة بالقول: «قُلْ لا يَسْتَوِى الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ»[۶۷۴]. كما ورد هذا المعنى فى الخطبة ۱- ۲ من نهج البلاغة

«أيّها الناس لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلة أهله»

. امّـا المسألـة التى ينبغى الالتفـات إليهـا هى أنّ هـذه الكثرة ليست دليلًا على الأحقيـة ولا النصـر، بل يرى المنطق القرآنى والروائى بل ومنطق الربانيين أنّ الملاك إنّما يكمن فى الكيفيـة لا الكميـة، ومن هنا فان زوال حكومات الباطل يستتبع زوال كافة آثارها فلا يبقى لها سوى الخزى والعار، بينما تبقى آثار حكومات الحق باقية خالدة.

على كل حال فان الصراع بين الحق والباطل وكثرة جند الباطل إنّما هى فى الواقع امتحان إلهى يهدف إلى تمحيص طلاب الحق.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۶

والنقطة الثانية التى يؤكد عليها الإمام عليه السلام قوله:

«ولقلما أدبر شيء فاقبل»

. طبعاً يؤمن جميع المسـلمين- من سـنّة وشـيعة وسائرالفرق- أنّ الحق سينتصر يوماً حين ظهور المهدى الموعود (عج) وسيدحر الباطل وإلى الأبد وستسود العالم برمته حكومة العدل الإلهى.

وعلى ضوء بعض الروايات فقد نقلت ذيل هذه الخطبة عبارة عن الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام على عليه السلام انّه قال:

«وبنا فتح لا بكم ومنا نختم لا بكم»

. وقـد صرّح ابن أبى الحديد بعد ذكره لهذه العبارة قائلًا: إشارة إلى المهدى الذى يظهر فى آخر الزمان، وأكثر المحدثين على أنّه من ولد فاطمة عليها السلام وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه»[۶۷۵].

نعم العبارة ترشد إلى عدم فقدان الفرصة والآن وقد تمهدت جميع السبل من أجل بسط العدالة وإقامة حكومة الحق فى ربوع المجتمع الإسلامى فالحذار من وساوس شياطين الانس والجن ومؤامرات اولئك الذين تبددت مصالحهم اللامشروعة وخابت ظنونهم وآمالهم، فاذا ضاعت هـذه الفرصـة فان عودتها لا تبـدو سـهلة، وهـذا مادلت عليه حياة الإمام عليه السـلام حيث لم تتعظ الامّة بوصاياه ومواعظه ففقدت زمام المبادرة وأضاعت الفرصة؛ فقد أوشك جيش الشام على الانهيار المطلق وأصـبح القضاء على طاغية بنى أمية يكون قاب قوسـين أو أدنى فعمـد ابن العـاص لتلك الخدعـة التى انطلقت على الامّـة، فأبقت على تلك الحكومـة الجائرة لتخلف من بعـدها بنى مروان وبنى العباس والحجاج و ...

الطريـف فى الأـمر مـا أورده السـيد الرضـى بشـأن الخطبـة إذ قـال: إنّ فى هـذا الكلاـم الأـدنى من مواقـع الاحسـان مـا لاـ تبلغه مواقع الاستحسان، وإنّ حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به.

وفيه- مع الحـال التى وصـفنا- زوائـد من الفصاحـة لاـ يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّامن ضـرب فى هـذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق

«وما يعقلها إلّا العالمون».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۷

القسم الثالث: سبيل النجاة

اشارة

«شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمامَهُ! ساعٍ سَرِيعٌ نَجا، وَطالِبٌ بَطِيءٌ رَجا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى. الْيَمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجادَّةُ، عَلَيْها باقِي الْكِتابِ وَآثارُ النُّبُوَّةِ، وَمِنْها مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْها مَصِيرُ الْعاقِبَةِ هَلَكَ. مَنِ ادَّعَى، وَخابَ مَنِ افْتَرى مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ. كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ، وَلا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرائِكُمْ، وَ لا يَحْمَدْ حامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلا يَلُمْ لائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ».

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من التحدث عن صعوبة الامتحان بعد بيعته وحذر الامّة من وبال الذنوب والمعاصى مشيراً إلى الحق والباطل، عرج هنا بالإشارة إلى سبيل النجاة من مخالب الهوى والهوس وبلوغ السعادة ونيل الفلاح، ليكشف عن الحقائق الواردة بهذا المجال. فقد صنف الناس فى مسيرتهم إلى السعادة والنجاة إلى ثلاث طوائف، فمن شغل بالجنّة والنار

«وآمن بهما اعتزل كل ما يصده عن ذلك»

وانهمك بالتفكير بالعاقبة (على ثلاث)، منهم من حث السير وبلغ الهدف سريعاً فهو ناجى. ومنهم من تباطأ فى السير فهو مؤمل للنجاة أيضاً.

أمّا الأخير من قصر فى السير فهوى فى النار

«شغل من الجنّة والنار أمامه! ساع سريع نجا، وطالب بطىء رجا، ومقصر فى النار هوى».

يرى البعض أنّ هذه الطوائف هى تلك التى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة فاطر بقوله:

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۸

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالخَيْراتِ بِإِذنِ اللَّهِ»[۶۷۶]. وقيل بل هم من أشارت لهم الآية القرآنية الشريفة فى سورة الواقعة: «وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً* فَأَصْحابُ المَيْمَنَةِ* ما أَصْحابُ المَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ المَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ المَشْأَمَةِ* وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ* أُولئِكَ المُقَرَّبُونَ»[۶۷۷]. على كل حال فان هذه الطوائف الثلاث مطروحة على الدوام فى المجتمع الإنسانى وإذا ما اشتد الامتحان (كالذى عليه الحال إبان خلافة الإمام على عليه السلام) تمايزت هذه الطوائف عن بعضها البعض؛ فهناك طائفة (وإن كانت غالباً قليلة) تتبع الحق دون أدنى ترديد أو تراجع وهى تحث الخطى سريعة نحو الهدف. وطائفة اخرى أضعف ايماناً من سابقتها فهى تقدم رجلًا وتؤخر اخرى فأحياناً تحث الخطى وتسير بوثوق نحو الهدف فتعمل الصالحات بينما تتأخر أحياناً فتقارف الطالحات فتخلط العمل الصالح بالسيء إلّاأنّها تؤمل بأن يشملها لطف اللّه وفضله فيبلغ بها الهدف المطلوب.

وأخيراً الطائفة الثالثة التى فارقت الإيمان والتقوى وغلبت عليها الشقوة وهوى النفس فضاعوا وضيّعوا أنفسهم حتى وقعوا فى الهاوية. فالعبارة المذكورة تبيّن بوضوح أنّ الإيمان بالمعاد فقط من شأنه أن يصون الإنسان من الفساد والانحراف والذنب. وتتناسب هذه الصيانة والحصانة من الذنب طردياً ودرجة الإيمان. وقد ذهب البعض إلى أنّ العبارة:

«شغل من الجنّة والنار أمامه»

جملة خبرية تفيد معنى الإنشاء؛ أى أنّ من يرى الجنّة والنار أمامه عليه أن يغض الطرف عن زخارف الدنيا وزبرجها! ولكن ليس هنالك من ضير فى تفسير هذه الجملة بصورة الأخبار- على نحو الجملة الخبرية- أى أن مثل هؤلاء المؤمنون سيغضون طرفهم عن زخارف الدنيا. ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خصائص الطوائف الثلاث، أخذ يدعو الامّة إلى انتهاج السبيل القويم والابتعاد عن سبل الانحراف مبيناً علامات كل منهما فقال:

«اليمين والشمال مضلة[۶۷۸] والطرق الوسطى هى الجادة».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵۹

فالعبارة إشارة للمسألة المعروفة لدينا بأنّ السبل المنحرفة التى تقود الإنسان إلى الضلال.

ولعل المراد باليمين والشمال هو الإفراط والتفريط الذين لا يوصلان إلى الهدف الذى لا سبيل إليه سوى الصراط المستقيم الذى يمثل الاعتدال بين الإفراط والتفريط، ومن هنا صرّح القرآن الكريم بقوله: «وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً»[۶۷۹]. وقد صرّح كبار علماء الأخلاق بأن كافة الصفات الفضلى إنّما هى الاعتدال بين الصفات الرذيلة التى تقع على طرفى الإفراط والتفريط.

وذهب بعض مفسّرى نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالطريق الوسطى مسألة الإمامة وولاية الأئمة المعصومين التى يقود الإفراط والتفريط فيها إلى الضلال. ولا نرى من ضير فى ان تختزن هذه العبارة كافة المعانى فتشمل قضية الولاية كما تشمل سائر المسائل العقائدية والعملية والأخلاقية.

أمّا بشأن معرفة اللَّه فقد وقعت طائفة فى مصيدة التشبيه فتشبهت الخالق بمخلوقاته، بينما ذهبت اخرى إلى تعطيل معرفته على أن ذات الخالق وصفاته متعذرة على البشر حتى المعرفة الإجمالية، وهناك الحد الوسط بين التشبيه والتعطيل والذى يعنى معرفة اللَّه عن طريق أفعاله دون كنه الذات. وبالنسبة لأفعال العباد فليس الجبر صحيحاً ولا التفويض، والطريق الوسط هو الأمر بين الأمرين، وهكذا القول بشأن الولاية لا الغلو صحيح ولا التقصير، وهذا ما يصدق على الأخلاقيات والأعمال، فمثلًا فى الانفاق الصحيح هو الحد الوسط بين البخل والاسراف.

والطريف أنّ الفرق التى وقفت بوجه الإمام عليه السلام لم تخرج من تلك الحالتين، ففرقة الخوارج سلكت الافراط، بينما انتهج أهل الشام التفريط، وقد ضلت الفئتان فى معرفة الإمام عليه السلام. ثم خاض عليه السلام فى خصائص الجادة الوسطى المعتدلة

«عليها باقى الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنّة، وإليها مصير العاقبة»

. هناك تفسيران لقوله عليه السلام:

«عليها باقى الكتاب»

: أحدهما المراد القرآن الكريم؛ الكتاب الخالد والذى انفرد بالمعارف والقوانين والأحكام التى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶۰

يتعذر العثور عليها فى ما سواه. والآخر المراد بالكتاب الخالد الإمام المعصوم الحافظ لكتاب اللَّه، وهو عدل القرآن كما صرّح بذلك حديث الثقلين المعروف، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب، ولا سيما أن آثار النبوة التى أعقبت العبارة يمكن تفسيرها بالآثار الباقية لدى الأئمة.

كما أوردت عدّة تفاسير بهذا الشأن لا تبدو صائبة.

وقوله عليه السلام:

«منها منفذ السنّة»

فبالالتفات إلى كلمة منفذ يبدو أنّ المراد هو أنّ الطريق الوسطى فقط التى يمكن من خلالها الوقوف على السنة النبوية والتعرف على جوهر الدعوة، ومن هنا يتضح الفارق فى هذه الملل الاربعة.

فقد أشار عليه السلام إلى أنّ الكتاب على هذه الجادة، ثم قال عليه السلام وعليها آثار النبوة، ثم أضاف ومنها منفذ السنة، وأخيراً قال وإليها مصير العاقبة من خلال هذه الجادة لا غير؛ كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم «وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[۶۸۰].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى مصير من يزعم الإمامة وولاية الناس بالباطل، حيث يصفهم فى أربع عبارات: الاولى هلاك من يدعى الإمامة بغير حق فهو ضال مضل

«هلك من ادعى»

والثانية أنّ من يطلب هذا المقام كذباً وافتراءً على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يظفر بما طلب

«وخاب ۶۸۱] من افترى».

والثالثة هلاك من يقف بوجه الحق:

«من أبدى صفحته ۶۸۲] للحق هلك».

والأخيرة يكفى الإنسان جهل أنّه لا يعرف قدره فيتمدد أكثر من حجمه

«وكفى بالمرء جهلًا الا يعرف قدره»

. طبعاً هناك إحتمال قائم فى ألا تكون هذه العبارات الأربع تعالج مسألة الإمامة التى تعرضت لها هذه الخطبة؛ بل تشمل معنا أوسع وهو كل ادعاء باطل سواء فى مجال الإمامة أو سائر المجالات.

فالواقع هى تحذير لأهل الباطل من مغبة التمادى فى غيهم بما لا يجلب عليهم سوى البؤس والشقاء والهلاك.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶۱

أمّا قوله عليه السلام:

«من أبدى صفحته للحق هلك»

فقد فسره بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ من أبدى صفحته لنصرة الحق غلبه أهل الجهل، لأنّهم العامة، وفيهم الكثرة، فهلك.

فهذا الكلام وان كان واقعياً إلّاأنّه لا يمكن أن يكون تفسيراً للعبارة المذكورة وذلك لأنّه لا ينسجم والعبارات السابقة بشأن أدعياء الباطل، كما لا يتفق والعبارة اللاحقة بشأن الأفراد الجهال الذين لا يعرفون قدر أنفسهم. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام هذه العبارات يعرض بالنصح والموعظة التى من شأنها تخليصهم من مخالب المنافقين وأدعياء الباطل، فقد دعاهم فى البداية إلى التحلى بالورع والتقوى التى تعدّ الركن الركين لكل حركة وعمل صالح، فقال عليه السلام:

«لا يهلك على التقوى سنخ ۶۸۳] اصل، ولا يظمأ عليها زرع قوم»

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد شبه- بهذه العبارة العميقة المعنى- التقوى بالأرض الخصبة ذات المناخ المناسب التى لا تجف فيها جذور الأشجار ولا يموت فيها الزرع من قلة الماء؛ أرض خصبة صالحة للزراعة ذات أنهار وآبار تمد الزرع بما يحتاج، ففى الحقيقة أنّ كافة الأعمال كالبذور والحبوب التى ينبغى أن تنثر فى أرض خصبة وتسقى بالمياه؛ وليست هذه الأرض والمياه سوى التقوى، ثم قال فى الموعظة الثانية:

«فاستتروا فى بيوتكم»

فالإمام عليه السلام وبنظرته الثاقبة يعلم بأنّ حكومته ستضيق الخناق على اولئك الذين عملوا إبان عهد عثمان على سلب ونهب بيت مال المسلمين ونشروا الظلم فى ربوع المجتمع الإسلامى، وعليه فهم سوف لن يسكتوا وسيسعون إلى تأليب الناس واستقطاب الجهال، وهذا هو الوقت الذى يتطلب من الإنسان أن يلزم بيته لا حين العمل والجهاد.

وعلى حد قول بعض شرّاح نهج البلاغة فان أفضل حركة فى المجتمع الذى يضره العدل والحق هى السكون والصمت والسكوت.

والموعظة الثالثة بشأن الأخاء والوحدة بين صفوف أتباع الحق ونبذ كافة مظاهر الفرقة والشقاق بهدف ملاحقة الباطل والقضاء عليه، فقد قال عليه السلام:

«وأصلحوا ذات بينكم»

. وأخيراً

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶۲

يعرض بالنصح لمن اتسخ قلبه بالذنوب على عهد الحكومة السابقة أن يغسلها بماء التوبة

«والتوبة من وراءكم ۶۸۴]».

ثم يقول عليه السلام:

«ولا يحمد حامد إلّاربّه ولا يلم لائم إلّانفسه»

إشارة إلى أنّ كافة النعم من عند اللّه وما يصيب الإنسان من توفيق وسعادة فبلطفه وفضله، وعليه فلا ينبغى الاغترار بالطاعة، كما أنّ مرجع الذنوب والمعاصى تقصير الإنسان فلا ينبغى أن يلوم الإنسان إلّانفسه ولا ينسب أخطائه إلى الآخرين أو يبررها بالقضاء والقدر، بل عليه أن يسارع إلى التوبة.

تأمّلان

١- الجاهل من جهل قدر نفسه

إنّ أغلب المشاكل الاجتماعية إنّما تنبع من الطموحات الطائشة، أو تجاوز الإنسان لحدوده الطبيعية والطمع بالمنصب الذى لا يستحقه أو لا يمتلك الجدارة اللازمة للنهوض به؛ ولا شك أنّ كل هذا إنّما تفرزه قضية مهمّة تكمن فى جهل الإنسان بقدره وعدم تقييمه له بصورة صحيحة، وما ذلك إلّالحب الذات والمبالغة فى نقاط القوة وعدم الالتفات إلى نقاط الضعف.

ولا شك أنّ اضرار هذا الأمر لا تقتصر على الإنسان لوحده فحسب، بل تنسحب على المجتمع بأسره، ولربما استطاع الفرد أن يشغل منصباً فيقوم بوظيفته على أحسن وجه بما يضمن له السعادة وإلى المجتمع الرفاه والأمن، غير أنّه وإثر جهله بنفسه وطمعه بما لا يستحقه يبدد طاقاته عبثاً ويكبد نفسه والمجتمع مالا- يحصى من الخسائر والأضرار. ويااليت الجميع كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم أعادوا النظر فى هذا الأمر الحيوى واقصوا عن أنفسهم الحجب التى تحول دون معرفتهم لذواتهم ليجدوا من أجل تحقيق أهدافهم وسعادة مجتمعاتهم. ومن هنا ورد التأكيد كراراً فى نهج البلاغة على هذه المسألة، ومن ذلك ما ورد فى الخطبة ١٠٣

«العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلًا الا يعرف قدره»

. كما ورد فى الرسالة ٣١ من نهج

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣۶٣

البلاغة التى يعظ فيها ولده الحسن عليه السلام أنّه قال:

«ومن اقتصر على قدره كان ابقى له»

وجاء فى الكلمة ١۴٩ من قصار الحكم

«هلك امرء لم يعرف قدره».

كما ورد فى الرواية أنّ شخصاً قال للإمام الكاظم عليه السلام مررت بالسوق فاذا هو يقول أنا من شيعة محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله وهو يبيع الثياب بأكثر من ثمنها. فقال الإمام عليه السلام:

«ما جهل ولا ضاع امرء عرف قدر نفسه».[۶٨۵]

هناك إحتمال آخر بالمراد من معرفة قدر النفس فى العبارة المذكورة وهو ألا ينسى الإنسان طبيعة خلقته فيقتصر بها على الجانب المادى المتعلق بالجسم دون الاهتمام بالمسائل المعنوية فيبيع نفسه ببعض الامور المادية التى تفتقر إلى القيمة الحقيقية. فالإنسان يتمتع بالروح التى تنتمى إلى عالم السمو والرفعة، أنّه خليفة اللّه فى الأرض. أنّه كائن ملكوتى لا موجود ترأبى وإن تقولب مدّة معينة فى هذا القفص المادى من أجل نيل الكمال. وعليه فالعالم من عرف نفسه ووقف على قدرها ومنزلتها، ويلتفت إلى تكريم اللّه سبحانه له على من سواه، والجاهل من جهل قدر نفسه فقذف بها فى مستنقع الأهواء والشهوات. بالكن بالالتفات إلى قوله

«من اقتصر على قدره كان ابقى له»

وكذلك العبارة المعروفة لدى العلماء استنباطاً من الأحاديث المشهورة

«العالم من عرف قدره ولم يتجاوز حده»

يبدو أنّ الأنسب هو المعنى الأول، ويؤيده مضمون الخطبة الذى يتناول قصة طلحة والزبير وآمالهم الزائفة.

۲- الاعتدال هو الصراط المستقيم

إنّ أدنى نظرة إلى عالم الخلقة تفيد أنّ بقاء العالم إنّما يستند إلى مسألة الاعتدال والتوازن فى القوى. فالمنظومات السماوية العظيمة إنّما حفظت بتوازن القوة الجاذبة مع القوة الدافعة، فلو تقدمت أحداهما على الاخرى أو ابتعدت لما بقى أثر لتلك المنظومات، ولو اقتربتا وتصادمتا لأدّيا إلى انفجار هائل يقود إلى إنعدامها. والقانون المذكور الذى يحكم ذلك العالم الكبير كما يصدق على العالم الصغير أى عالم الإنسان، حيث تكون سلامة حياته ورمز بقائها مرهونة بحالة الاتزان التى تسود مختلف قواه الروحية والجسدية، من قبيل العناصر الداخلة فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶۴

تركيب الدم وتوازن حركات الأعصاب السمبثاوية والباراسمبثاوية وضربات القلب ووزن الجسم وضغط الدم وتوازن أجهزة الجسم كالجهاز التنفسى والجهاز الهضمى وبالتالى فانّ كافة أجهزته تمارس وظائفها بكل اعتدال واتزان بما يحفظ سلامة الإنسان ويكفل بقائه، ولو انحرفت هذه الأجهزة ذرة عن خط الاتزان وجنحت نحو الإفراط او التفريط لانعكس ذلك سلباً على سلامة جسم الإنسان وروحه.

القرآن من جانبه أثنى على الامّة الإسلامية بصفتها الامّة الوسط، ومن هنا جعلها حجة على سائر الامم. وهذه هى المسألة التى أكدها الإمام عليه السلام فى أنّ الجادة الوسطى هى الطريق وعليها باقى الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنّة. وإليها مصير العاقبة. أمّا فى المجال الاقتصادى فانّ الإفراط والتفريط قد أدى إلى ظهور النزعة الرأسمالية المقيتة التى بالغت فى الملكية الشخصية بينما بالغت النزعة الاشتراكية فى الملكية العامة ليعيش المجتمع ذلك التمايز الطبقى الفاحش بوجود الطبقات المرفهة الثرية والاخرى المعدمة الفقيرة.

وأمّا على المستويات الاخرى العقائدية والسياسية والاجتماعية- فانّ الإفراط والتفريط هو الذى يقف وراء كل هذا البؤس والشقاء الذى تعيشه البشرية.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶۵

الخطبة السابعة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى صفة من يتصدى للحكم بين الامّة وليس لذلك بأهل وفيها:

أبغض الخلائق إلى اللّه صنفان:

القسم الأول

اشارة

«الصنف الأول: إنَّ أَبْغَضَ الْخَلائِقِ إِلَى اللَّهِ رَجُلانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ فَهُوَ جائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلامِ بِدْعَةٍ، وَدُعاءِ ضَلالَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كانَ قَبْلَهُ مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَياتِهِ وَبَعْدَ وَفاتِهِ، حَمَّالٌ خَطايا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ».[۶۸۶]

نظرة إلى الخطبة

وردت الخطبة- كما يتضح من عنوانها- فى صفات من يتصدى للقضاء وهو ليس له بأهل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶۶

فيسوق الامّة إلى الضلال والهاوية.

فقد صنف الإمام عليه السلام هؤلاء الأفراد إلى صنفين:

الصنف الأول: من يشق طريق الضلال عن علم ويحكم هوى النفس ويبتدع فى الدين فهو ضال لنفسه مضل لغيره.

الصنف الثانى: الجاهل المتشبه بالعالم ويجهل بجهله فهو يعيش الجهل المركب؛ وليس له ذرة مما يؤهله للتصدى للقضاء، فهو فريسة للخطأ والزلل والشبهات، يخرج الحق بالباطل ويريق دماء الأبرياء بغير حلها ويهدر الأموال لغير أصحابها. ويحتمل أن يكون المراد بالصنف الأول حكام الظلم والجور والبدعة والضلالة، والصنف الثانى القضاة الجهال. وعليه فكلمة الحكم الواردة فى الخطبة ذات معنى عام واسع تشمل القضاء والحكومة.

ويختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى اللَّه من هؤلاء الأفراد الذين ولوا ظهورهم للقرآن وحسبوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وبناءً على ما تقدم فالخطبة على ثلاثة أقسام، يختص الأول والثانى منها بوصف هذين الصنفين والثالث بالشكوى إلى اللَّه منهم ومن كان على شاكلتهم.

الشرح والتفسير

أبغض الخلائق

استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصنيف أبغض الخلائق إلى صنفين

«إنّ أبغض الخلائق إلى اللَّه رجلان»

ومن البديهى أنّ للحب والبغض بالنسبة للَّهمفهوم يختلف عمّا هو عليه بالنسبة للانسان؛ لأنّ الحب والبغض من قبيل الحالات والتغيرات التى تطرأ على روح الإنسان إثر رغبته واشمئزازه تجاه بعض الأشياء؛ بينما يكتسب الحب بالنسبة للَّهمعنى الشمول بالرحمة والبغض معنى الطرد منها. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى صفات الصنف الأول؛ أى أصحاب الأهواء من الحكام، فيشير قبل أى شىء إلى أصل بؤسهم وشقائهم، فقال عليه السلام:

«رجل وكله اللَّه إلى نفسه»

. فروح الإنسان حية بالتوكل على اللَّه والوثوق بما عنده؛ أى أنّه يسعى سعيه ويبذل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶۷

قصارى جهده من أجل النهوض بعمله وتطوير حياته، مع ذلك لابدّ أن يعلم بأنّ الذات الإلهية هى مصدر كل خير وبركة ونعمة وعطاء. إلّاأنّ الغرور والكبر وحب الذات قد يجعل الإنسان غافلًا عن هذه الحقيقة فيرى نفسه مستقلًا فى مقابل اللَّه فتتشوه بنظره جميع الأشياء.

هـذا الانقطـاع عن اللّه هو ايكـال الإنسان إلى نفسه؛ وهو أساس بؤس الإنسان وشـقائه. ومن هنا ترى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله لا ينفك عن التضرع إلى ربّه منادياً:

«اللّهم ... لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين أبداً»[۶۸۷]

وهو ذات المعنى الذى صرّح به أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«إلهى كفى بى عزا أن أكون لك عبداً، وكفى بى فخراً أن تكون لى ربّاً»[۶۸۸]

كما ورد ذلك عن المعصوم عليه السلام قوله:

«إنّك ان وكّلتنى إلى نفسى تقربنى من الشر

وتباعدنى من الخير»[۶۸۹].

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان السبب الرئيسى لشقوة هؤلاء حتى يتطرق إلى افرازات ذلك الشقاء ليوجزها فى ثمانية ارتبطت مع بعضها برباط العلة والمعلول فقال عليه السلام:

«فهو حائر عن قصد السبيل»

والمراد بقصـد السبيل هو الحد الوسط الفاصل بين الإفراط والتفريط والذى يوصل الإنسان إلى اللّه؛ الأمر الذى أشار له القرآن الكريم بالقول

«وَعلى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ»[۶۹۰]

ومن البـديهى أنّ الإنسـان إنّمـا يسـتطيع تمييز السبيل- الـذى صورته الروايات بأنّه أرفع من الشـعرة وأحـد من السـيف- من بين آلاف السـبل الانحرافية إذا شـملته الألطاف والعنايات الإلهية؛ امّا إذا انفصل عن اللّه ووكل إلى نفسه فانه سيعيش الحيرة والقلق التى تنتهى به إلى الضلال والسقوط فى الهاوية.

الافراز الثانى

«مشغوف بكلام بدعة»

ومن هنا ينطلق نحو الافراز الثالث

«ودعاء ضلالة»

. شـغف من مادة شـغاف على وزن كلاف بمعنى المولع بالشىء حتى بلغ حبه شغاف قلبه، وهو غلافه؛ وهو التعبير الذى أورده القرآن الكريم بشأن حب زليخا لنبى اللّه يوسف عليه السلام على لسان طائفة من نساء مصر

«قد شغفها حباً»

، فالعبارة إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء الأفراد

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۶۸

من ذوى حبّ الذات يتعلقون بشدة بأحاديثهم المبتدعة؛ التعلق الذى يؤدى إلى دعوة الآخرين إلى الضلال والانحراف.

القرآن أيضـاً يقول: «وَمـا دُعاءُ الكافِرِينَ إِلّا فِى ضَـلالٍ»[۶۹۱]، وسـنتطرق فى الأبحاث القادمـة- تأملات- إلى حقيقـة البدعة ودوافعها ونتائجها. أمّا الوصف الرابع

«فهو فتنة لمن افتتن به».

وفى الصفة الخامسة والسادسة

«ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به فى حياته وبعد وفاته»

. المراد بمن كان قبله الأنبياء وأوصيائهم بالحق؛ فى إشارة إلى اتضاح سبيل الهداية مسبقاً بما لا يدع من مجال لسلوك طريق الضلال؛

مع ذلك فقد ولى ظهره لسبيل الهداية والقى بنفسه فى ظلمات الضلال. والأنكى من ذلك أنّ اضلال هؤلاء الأفراد للآخرين لا يقتصر على حياتهم فهم مدعاة للضلالة حتى بعد وفاتهم، فهم شركاء فى هذه الضلالة، حيث ورد فى الحديث النبوى المشهور:

«من سنّ سنّة حسنة عمل بها من بعده كان له أجره ومثل اجورهم من غير أن ينقص من اجورهم شيئاً، ومن سنّ سنّة سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزره ومثل أوزارهم من غير ان ينقص من اوزراهم شيئاً»[۶۹۲].

فالعبارة تحذير حاد لُاولئك الذين يحثون الخطى نحو البدع ويشيدون صروح الضلالة، فى أنّ شقائهم وبؤسهم سوف لن يقتصر على حياتهم بل قد يتجاوز حتى مماتهم بآلاف السنين وعليهم أن يدفعوا كفارة تلك البدع ويستعدوا لتحمل تبعاتها. كما ورد عن الإمام على عليه السلام تحذير شديد آخر فى الخطبة ۱۶۴ حيث قال:

«وإنّ شر الناس عند اللّه إمام جائر ضل وضل به فأمات سنة مأخوذة واحيى بدعة متروكة»

وأمّا الوصفان الأخيران المترتبان على الصفات السابقة فهما

«حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته»

فالعبارة ليست كلاماً تعبدياً؛ بل هى منطقية تماماً. وذلك لأنّ أية معونة ومساعدة فى ارتكاب الذنب تعدّ شركة فيه؛ ولما كان أتباع هؤلاء المضلين يقارفون الذنوب بمحض إرادتهم فلا ينقص من ذنبهم شيئاً، وهذا ما أشار له القرآن الكريم صراحة فى الآية ۲۵ من سورة النحل إذ قال «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۶۹

يَوْمَ القِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ».[۶۹۳] والتعبير الآخر الذى اعتمده القرآن بشأن ارتهان الإنسان بذنبه هو تعبير غاية فى الروعة والدقة «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»[۶۹۴].

فكما أنّ المحجوز لا يطلق من العذاب مالم يكفر عن ذنوبه؛ كما أنّ التعبير باكمال بالنسبة لذنوب الآخرين هو الآخر تعبير عميق، كأن الذنوب (كما يفهم من كلمة وزر) حمل عظيم بثقل صاحبها ومن أسس لها وتصده عن القرب الإلهى وتلقى به فى قعر جهنم. ومن هنا تتضح مدى خطورة الوادى الذى يسقط فيه من وكله اللّه إلى نفسه، وأى مصير مشؤوم ينتظره.

تأمّلان

۱- ما البدعة ومن المبتدع؟

لقد ورد الذم فى هذه الخطبة للبدعة والمبتدع الذى يسوق الناس إلى الضلال؛ كما تضافرت الروايات الإسلامية- إلى جانب سائر خطب نهج البلاغة- التى تذم البدعة وأصحابها، ومن ذلك ما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله انّه قال:

«كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار»[۶۹۵]

. كما ورد عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أبى اللّه لصاحب البدعة بالتوبة قيل يا رسول اللّه وكيف ذاك؟ قال: إنّه قد اشرب قلبه حبها»[۶۹۶].

والبدعة فى اللغة بمعنى الإتيان بشىء لا سابقة له، امّا فقهاء الإسلام فقد عرفوها باضافة شىء إلى الدين أو نقصانه دون قيام دليل معتبر على ذلك؛ ولما كانت المعارف والأحكام الإلهية واجبة الثبوت عن طريق الوحى والأدلة المعتبرة، فان البدعة من الكبائر، وهى أساس

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۷۰

الفساد والانحراف، ولو لم تمنع البدع لأضاف الأفراد بعقولهم القاصرة إلى الدين ما شاءوا وانقصوا منه ما أرادوا، فلا يبقى من الدين شيئاً وتمحى آثاره؛ ولا شك أنّ قانون تحريم البدع هو الذى صان القرآن والإسلام وحفظه من تلاعب الجهال وأصحاب الأهواء.

والـذى ينبغى أن نخلص إليه ممّا سـبق وعلى ضوء التعاريف الفهقيـة هو أنّ البدعـة لا تشـمل الاختراعات والابـداعات العلمية والفنون الطبيعيـة والطبيـة والصـناعية، كما لا تشـمل التجديـد فى الثقافة والأدب والسـنن والعادات والتقاليد. فالبدعة ما أحلت حراماً أو حرمت حلالًا وأضافتدين اللَّه أو انقصت منه ممّا ليس فيه دون قيام دليل معتبر على تلك الاضافـة أو النقصان، أو الإتيان بدين جديد ودعوة النـاس إليه دون الاسـتناد إلى الوحى أو الـدليل، هـذه هى البدعـة، وهى من الكبائر التى توعـد اللَّه عليها بالعـذاب. ومن هنا نقف على خواء الوهابيـة الـتى اعترضت حتى على ركوب الدراجـة على أنّهـا مركب الشـيطان أو مـا قـام به بعض الاتبـاع ممن عمـد إلى خطوط الهواتف فقطعها على أنّها بدعـة فمما لاشك فيه أنّ مثل هـذه الأعمال تعـدّ ممارسات حمقاء ليس لها أدنى صـلة بمفهوم البدعـة كما صورهـا الفقهـاء، ومما يؤسف له أنّ تأريـخ هـذه الحركـة ملىء بمثل هـذه الممارسات الشائنـة. ويماثلهم اولئك الـذين سـلكوا سبيل الإفراط تجاه هـذه الحركـة ليقولوا بعـدم وجود أيـة ثوابت فى الـدين؛ الأمر الـذى يهدد كافة قيم الدين ومثله ويعرضـها للزوال، حيث يمهـدون السبيل أمام هـذا وذلك للدس فى الدين ما شاءوا. ونختتم بحثنا هذا بما قاله أمير المؤمنين عليه السـلام- فى كلماته القصار، الكلمة ۱۲۳:

«طوبى لمن ذل فى نفسه ... وعزل عن الناس شره ووسعته السنة ولم ينسب إلى البدعة»

. فقد ورد السـنة فى الإمام مقابل البدعة، فمن أطاع اللَّه واسـتن بسـنة رسوله صلى الله عليه و آله فارق البدعة، أمّا من عصى اللَّه وفارق سنة نبيّه صلى الله عليه و آله فهو على البدعة، وهو ضال لنفسه مضل لغيره.

۲- أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين

تقتصـر أغلب الـذنوب على المسؤوليـة الفردية وإن كانت من قبيل الكبائر كالأفعال المنافية للعفة وشـرب الخمر وسائر المحرمات، غير أنّ أخطر الـذنوب هى تلك التى تدعو الآخرين لمقارفتها بحيث يبوء صاحبها بوزر تلك الذنوب من دون أن ينقص من أوزار اولئك شيئاً، وهـذا ما يصـدق على أئمـة الظلم والفساد من أهل البـدع الآمرون بالمنكر والناهون عن المعروف. وأحياناً تطالهم تبعة الذنب بل وتطال نسلهم لقرون بعد مماتهم، وعلى الآثم أن يدفع

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۷۱

ثمن ذنوب هؤلاء بأجمعها (كما أنّ العمل الصالح كذلك قد تشمله بركاته لقرون).

وقـد صور القرآن الكريم وضع هؤلاء الاثمـة بقوله «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيامَةِ عَمّا كانُوا يَفْتَرُونَ»[۶۹۷].

وأعظم خطر تختزنه هـذه الـذنوب فى الغالب عـدم صـدق التوبـة عليها؛ وذلك لأنّ من شـروط التوبـة إزالة آثار الذنب؛ فأنى للإنسان بإزالة آثار مثل هذه الذنوب التى قد تتخذ أبعاداً واسعة لتشمل منطقة بأكملها، أو موت الكثير من الأفراد على هذه الذنوب التى ساقهم لارتكابها، أو ظهور الجيل الجديد الذى يعمل بهذه الذنوب بعد وفاته؟

بالتالى لابدّ لهذا الإنسان من التأنى فى حركته، حذراًمن مقارفة مثل هذه الذنوب التى لا سبيل للتخلص من تبعاتها

«حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۷۳

القسم الثانى: الجاهل المتشبه بالعالم

اشارة

«الصنف الثانی: وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا، مُوضِعٌ فِی جُهَّالِ الْأُمَّةِ، عادٍ فِی أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ عَم بِما فِی عَقْدِ الْهُدْنَةِ؛ قَدْ سَمَّاهُ أَشْباهُ النَّاسِ عالِماً وَلَیْسَ بِهِ، بَکَّرَ فاسْتَکْثَرَ مِنْ جَمْعٍ؛ ما قَلَّ مِنْهُ خَیْرٌ مِمَّا کَثُرَ، حَتَّی إِذا ارْتَوَی مِنْ ماءٍ آجِنٍ، وَاکْتَثَرَ مِنْ غَیْرِ طائِلٍ، جَلَسَ بَیْنَ النَّاسِ قاضِیاً ضامِناً لِتَخْلِیصِ ما الْتَبَسَ عَلَی غَیْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَی الْمُبْهَماتِ هَیَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْیِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهاتِ فِی مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْکَبُوتِ: لا یَدْرِی أَصابَ أَمْ أَخْطَأَ: فَإِنْ أَصابَ خافَ أَنْ یَکُونَ قَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ رَجا أَنْ یَکُونَ قَدْ أَصابَ- جاهِلٌ خَبَّاطُ جَهالاتٍ، عاشٍ رَکَّابُ عَشَواتٍ، لَمْ یَعَضَّ عَلَی الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قاطِعٍ، یَذْرُو الرِّواياتِ ذَرْوَ الرِّیحِ الْهَشِیمَ. لا مَلِیٌّ وَاللَّهِ بِإِصْدارِ ما وَرَدَ عَلَیْهِ وَلا أَهْلٌ لِما قُرِّظَ بِهِ، لا یَحْسَبُ الْعِلْمَ فِی شَیْءٍ مِمَّا أَنْکَرَهُ، وَلا یَرَی أَنَّ مِنْ وَراءِ ما بَلَغَ مَذْهَباً لِغَیْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَیْهِ أَمْرٌ اکْتَتَمَ بِهِ لِما یَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضائِهِ الدِّماءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوارِیثُ».

الشرح والتفسیر

بعد أن فرغ الإمام علیه السلام من بیان الصنف الأول بشکل جامع، تطرق إلی صفات الصنف الثانی لیتحدث عن ذلک الشخص الذی یغط فی هالة من الجهل والتخبط فی حین یری نفسه عالماً دون الاستناد إلی رکن وثیق من علم أو عالم. فیبین بادئ ذی بدء خمس صفات لمثل هؤلاء الأفراد. الاولی

«ورجل قمش جهلًا»

فاستناداً إلی ما أورده أرباب اللغة بشأن مفردة

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۳۷۴

القمش التی تعنی جمع الأشیاء المتناثرة دون تناسب وکذلک بمعنی الأشیاء التی لا قیمة لها، فان الذی یفهم من کلام الإمام علیه السلام أنّ هؤلاء الجهال المتشبهون بالعلماء إنّما یتجهون صوب خواء من العلم الذی یفتقر إلی القیمة کما یفتقر إلی النسبة المنطقیة. وقد علق المرحوم العلّامة الخوئی فی شرحه لهذا الکلام علی أنّهم یحصلون علی المعلومات من فم هذا وذاک ومن الروایات الضعیفة غیر المعتبرة وعن طریق القیاس والاستحسان والمصادر من هذا القبیل (ذات الحجم الکبیر والقیمة القلیلة أو المعدومة).

الصفة الثانیة أنّه یهرع بسرعة فی أوساط الجهال من عوام الامّة لیجمع له بعض الأنصار:

«موضع ۶۹۸] فی جهال الأمة»

ومن الطبیعی ألا یهب لنصرة هؤلاء ویتمحور حولهم سوی تلک الطائفة من الجهال، ولیس لهؤلاء من مکان بین العقال. فهدفهم هو لفت انتباه الجهال إلیهم والنفوذ فی أوساطهم لأنّهم یعیشون الیأس من اقتحام دنیا العقلاء.

الصفة الثالثة

«عاد[۶۹۹] فی أغباش الفتنة»

بالالتفات إلی أنّ بعض أرباب اللغة[۷۰۰] قد عنی غبش من مادة أغباش بشدّة الظلمة أو ظلمة آخر اللیل التی تعتبر أفضل فترة للسارقین واللصوص، یتضح أنّ مثل هؤلاء الأفراد یفکرون دائماً فی الاصطیاد من ماء الفتن. فهم یهربون دائماً من النور والضیاء ویلوذون بالظلمة وعتمة اللیل کفرصة مناسبة من أجل خداع الجهال؛ ولا غرو فلو تبددت ظلمة الفتنة وبزغت شمس العلم والمعرفة لانکشف النقاب عن صورتهم الحقیقیة ولافتضحوا أمام القاصی والدانی.

وأشار علیه السلام إلی الصفة الرابعة من صفات تعاسة هؤلاء الأفراد

«عم بما فی عقد الهدنة»[۷۰۱]

. ومن الواضح أنّه لیس المراد بالهدنة هنا الصلح بین المسلمین وغیر المسلمین، لأنّ الکلام وبشهادة العبارات اللاحقة وارد بشأن القاضی بین الناس. وبناءً علی هذا فالمراد بالهدنة الصلح بین الناس وحل المنازعات بالطرق السلمیة؛ وبعبارة اخری فانّ الهدنة هنا تقابل

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۳۷۵

الفتنة التی ذکرت فی العبارة السابقة. وبصورة عامة فانّ مثل هؤلاء الأفراد إنّما ینشدون تعمیق هوة الاختلافات وتشدیها لیتسنی لهم تحقیق أطماعهم ومآربهم الخبیثة، والحال لو علموا أنّ الصلح والسلام بین الناس إنّما یعود بالنفع علی جمیع الأفراد، ولیس هنالک من ینتفع بالنزاع والشقاق، لما اتجهوا إلی مثل هذه الامور. نعم ان هؤلاء الأفراد عمی عن مشاهدة الحقیقة فضلًا عن ادراکها.

وقال علیه السلام فی صفتهم الخامسة

«قد سماه اشباه الناس عالماً ولیس به»

یبدو أنّ قوة الجاذبیة التی تربط ذرات هذا العالم فی الأرض والسماء بحیث یمیل کل موجود وینجذب إلی شبهه، فانّ هذه القوة تحکم هذه الفئات والأفراد أیضاً. وما أروع تعبیره علیه السلام عن أتباع من تشبه بالعلماء بأشباه الناس، فی إشارة واضحة إلی أنّ أشباه الناس هم خدمة أشباه العلماء.

ومن البدیهی أنّ شباهة هؤلاء بالناس کشباهة أئمتهم الجهال بالعلماء إنّما هی شباهة صوریة لیس أکثر، وغالباً ما یستعمل هذا التعبیر بشأن الموارد ذات الشبه الصوری کقوله علیه السلام فی الخطبة ۲۷ من نهج البلاغة

«یا أشباه الرجال ولا رجال».

وما أن فرغ الإمام علیه السلام من بیان صفاتهم حتی تطرق إلی جانب من أفعالهم القبیحة النابعة بصورة مباشرة من تلک الصفات ونقاط الضعف التی تحکم کیانهم، فقال علیه السلام:

«بکر[۷۰۲] فاستکثر من جمع؛ ما قل منه خیر ممّا کثر»[۷۰۳]

. یمکن ان تکون هذه العبارة إشارة إلی الإمکانات المادیة والدنیویة التی تؤدی کثرتها إلی الغفلة والتکبر والانهماک الدائم بالمادیات والابتعاد عن المعنویات؛ وغلباً مایکون قلیلها أفضل من کثیرها وأنّ الکفاف والعفاف أقرب إلی السعادة والفلاح من التکاثر والتفاخر. أو إشارة إلی فضول الکلام والمسائل العلمیة التی لا طائل من وراءها علی حساب الاصول والمبادئ وذهب البعض إلی أنّ المراد بها الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة، ولکن یبدو هذا الاحتمال مستبعداً؛ لأنّ القلیل من هذه الآراء والعقائد فیه الضرر

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۳۷۶

أیضاً، وإن کان هذا التفسیر لا ینسجم وبعض العبارات القادمة. ثم قال علیه السلام:

«حتی إذا ارتوی من ماء آجن ۷۰۴] واکتثر من غیر طائل ۷۰۵]، جلس بین الناس قاضیاً ضامناً لتخلیص ما التبس علی غیره».

أجل أنّ هذا الفرد الجاهل والضال المتشبه بالعالم الذی یتمتع برصید علمی مشوه مفعم بالأخطاء وله روح ونفس ولعة بعالم المادة شغفة بزخارف الدنیا وزبرجها، إنّما وضع نفسه فی موضع لا یتصدره سوی نبی أو وصی، کما ورد ذلک فی الحدیث المعروف عن الإمام علی علیه السلام حین خاطب شریح القاضی قائلًا:

«یا شریح قد جلست مجلساً لا یجلسه إلّانبی أو وصی نبی أو شقی»[۷۰۶]

، والأدهی من ذلک یزعم أنّ هنالک حقائق، ولا غرو فهذه هی المزاعم والادعاءات الفارغة التی یتشدق بها کافة الجهال المتشبهین بالعلماء.

والآن بعد أن تصدی هذا الجاهل للقضاء فما عساه أن یفعل، قال الإمام علیه السلام بهذا الشأن:

«فان نزلت به احدی المبهمات هیا لها حشوا رثامن رأیه، ثم قطع به».

الحشو بمعنی الکلام الزائد الذی لا فائدة فیه، والرث بمعنی الخلق القدیم ضد الجدید، فقوله علیه السلام: «حشوا رثامن رأیه» کأنّها إشارة إلی أنّه لیس من أهل الخلاقیة والمبادرة، کما لیس له ذهنیة متفتحة، وأخیراً لایمکنه أن یجمع الأدلة المقیدة التی تعینه علی اصدار الحکم. فلیس له رصید سوی حفنة من الأفکار الزائدة التی لا طائل من وراءها وهی رثة قدیمة أکل الدهر علیها وشرب، وهذا

هو اسلوبه وديدنه ويقينه فى الحكم.

ومن الطبيعى أن لا- تؤدى هذه المقدمات الباطلة والفاسدة إلى أى يقين، فهو يخدع الناس متظاهراً لهم باليقين، وعلى فرض كونه وصل إلى اليقين فانه ليس معذوراً عند اللّه لأنّه سلك الخطأ والتقصير فى المقدمات. فالمشاكل القضائية كسائر المشاكل العلمية والاجتماعية والسياسية إنّما تعالج دائماً عن طريق دراسة المقدمات الصحيحة والمنطقية؛ فذلك الذى ليست لديه أدنى معرفة بهذه المقدمات الصحيحة وقد تعلقت أفكاره بالمسائل الباطلة فانّه ليس

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۷۷

فقط لا- يتوصل إلى النتيجة الصائبة فحسب، بل سيغط فى هالة من الحيرة والتخبط والضلال كما سيسوق الآخرين إلى الضلال؛ والانكى من ذلك أنّه كلما تقدم أكثر فى هذا المجال ابتعد اكثر عن الوقائع والحقائق.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه «فهو من لبس الشبهات فى مثل نسج العنكبوت ۷۰۷]». وقد اختلفت أقوال الشرّاح بشأن التشبيه الذى استعمله الإمام عليه السلام فى هذه العبارة، فاوردوا بعض التفاسير التى لا تخلو من التكلف والتقدير والتغيير فى العبارة- أمّا التفسير الذى يبدو مناسباً هو أنّ الإمام عليه السلام شبه هؤلاء الأفراد الجهال المغرورين ضعيفى الفكر بالعنكبوت حيث ينسج لنفسه خيوطاً تكون حرزاً لبيته كما تكون فخاً لصيده، امّا بيته فهو أوهن البيوت ولا- يمكن الوثوق به أبداً، كما أنّ فخه لا- يطيل سوى الحشرات الضعيفة العاجزة.

نعم هذا الجاهل أيضاً ليس لفخه من دور سوى صيد أمثاله من الجهال الحمقى. وعليه فهو كالعنكبوت وأفكاره كخيوطه وهمية ضعيفة وحيدة يقتصر على المغفلين عديمى العلم والمعرفة.

«لا يدرى أصاب أم أخطأ، فان أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وان أخطأ رجا أن يكون قد أصاب»

. هذا هو حال الأفراد الجهال الذين يتصدون إلى المناصب الهامّة التى لا يمتلكون الجدارة لممارستها. فهم على شك وترديد دائماً، حتى أنّ اتجهة صوب الصواب فحيث لا- يؤمن بذلك فهو متزلزل يطلق سهمه فى الظلام دائماً عله يصيب الهدف. ويتصور بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الجملة الأخيرة تتناقض والعبارة

«ثم قطع به»

لأنّ تلك العبارة تحدثت عن القطع واليقين بينما تتحدث هذه العبارة عن الشك والترديد. والحال أنّ العبارة

«ثم قطع به»

تعنى الحكم القاطع لا- قطع القاضى ويقينه، فالواقع أنّه يحكم فقط ويتخذ لنفسه صيغة القطع، بينما يفيض باطنه بعاصفة من الشك والترديد. نعم مصيبته الكبرى فى دينه، فان أصاب الواقع مصادفة شعر بالتزلزل لأنّه لا يملك الإيمان واليقين، وان هذا التزلزل يؤرقه ولا يجعله قادراً على اتخاذ القرار؛ وان أخطأ فان سبيل الرجوع مغلق بوجهه لأنّه ليس واقفاً على خطأه. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى صفة اخرى ليصور حال هؤلاء الأفراد بتعبيرات قارعة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۷۸

وتشبيهات غاية فى البلاغة والجمال فقال عليه السلام:

«جاهل خباط[۷۰۸] جهالات»

، فهو كالأعمى فى الظلمات المليئة بالمخاطر

«عاش ركاب عشوات»[۷۰۹]

فالإمام عليه السلام لا يكتفى بوصفه بالجاهل، بل يؤكد ذلك ليصفه بأنّه يغط دائماً فى هالة من الجهل، كما لا يكتفى الإمام عليه السلام بعشوته وعماه بل يصوره بانه يمتطى الظلمة والعتمة ويحث السير دون أن يعلم أين يسير وإلى أين سينتهى به هذا المسير.

المفردة عاش من مادة عشا، فسرت بالعمى المطلق، كما فسرت يضعف الرؤية وقيل أيضا يراد به عشوة الليل، ومهما كانت فانّ المراد هو أن صاحبها لا يستطيع رؤية ما حوله من الأشياء، فاذا ما تحرك سقط فى الهاوية، بل قادته حركته إلى الجحيم، وهذا هو حال من يتصدى للقضاء بين الناس دون الاستناد إلى العلم والمعرفة ويزج بنفسه فى هذا الطريق الشائك الملىء بالمخاطر، فكلما مر عليه يوم من حياته كثر بؤسه وشقائه لنفسه وللناس حتى ينتهى به المطاف إلى السقوط فى وادى الكفر والضلال، والأنكى من كل ذلك أنّ مثل هذا الفرد يرى نفسه عالماً ضالعاً بموازين القضاء والحق والعدل فلا يسع أحد احصاء خطاياه وذنوبه!

ثم ينتقل الإمام عليه السلام لبيان صفة اخرى من صفات هذا الجاهل المتخبط

«لم يعض على العلم بضرس قاطع»

، فقد شبهه الإمام عليه السلام بمن يتناول الطعام دون المضغ بحيث لا يسع الجسم هضمه. ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أن المراد بالضرس هنا سن العقل الذى يظهر فى مرحلة تكامل العقل، وكأن هؤلاء الجهال ليس لهم سن عقل، فهم لا يقيمون القضايا بشكل سليم، وبالمقابل هنالك الأفراد العلماء الحلماء الذين يتحدثون بالضرس القاطع؛ أى أنّ حديثهم يستند إلى أسس العقل والمنطق السليم.

وقال عليه السلام فى صفتهم الثالثة أنّهم كالريح العاصف التى تهلك الحرث والزرع فهى تهب هوجاء دون هدف وهذا حال تعامل الجاهل مع الروايات الإسلامية

«يذرو[۷۱۰] الروايات ذرو الريح الهشيم ۷۱۱]»

. إشارة إلى أنّه يطالع ظاهرياً الموضوعات التى تصدت لبيانها الروايات

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۷۹

والسنّة النبوية، ولكن ما جدوى ذلك وهو يفتقر إلى تقييمها الصحيح، فهو لا يمتلك العلم بمضمونها ولا بقوة سندها من ضعفه، كما لا يعرف الجمع بين الروايات المتعارضة ولا يميز المحكمة من المتشابهة. فهو بالضبط كالريح الهشيم التى تذرو النباتات هنا وهناك. فالنباتات الجافة (الهشيم) قد لا تكون لها أية فائدة، بينما قد تفيد إذا جمعت، أمّا الريح الهوجاء تزيل حتى هذه الفائدة الضئيلة من خلال ذروها وتفريقها، وهذا ما عليه الحال بالنسبة للأفراد الجهال الذين يتعاملون مع الروايات دوتن أن تكون لهم معرفة صحيحة بغثها من سمينها وصحيحها من سقيمها.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى صفتهم الرابعة، ليقسم بأنّ هؤلاء الجهال ليسوا حريين بحل ما ترد عليهم من قضايا ولا جديرين بأدنى مدح واطراء يمارسه المتلمقون تجاههم

«لاملى- واللّه- باصدار[۷۱۲] ما ورد عليه، ولا أهل لما قرظ[۷۱۳] به».

ممّا لا شك فيه أنّ الفصل فى الخصومات القضائية والذى يصطلح عليه الفقهاء برد الفروع إلى الأصول إنّما يتطلب رصيداً علمياً ثراً لا يتحلى به هؤلاء الجهال المغرورون، وهذه الضحالة العلمية تفحمهم وتجعلهم يضلون سبل التعامل مع القضايا فلا يميزوا كيفية الدخول فيها أو الخروج منها (المراد بالدخول والخروج هنا ما تعارف بشأن الموضوعات المطروحة على العلماء فيقال أن فلاناً يعلم كيف يرد هذه المسائل وكيف يخرج منها، والفرد الجاهل يفتقر بالمرة لهذه المسألة).

أمّا إحدى مشاكل هؤلاء الأفراد هى إطاحتهم بثلة من المتملقين الذين يهدفون إلى تحقيق مطامعهم الدنيوية فيطرونهم بمختلف ألوان المدح والثناء ويضفون عليهم ما لا يستحقونه من الصفات، فيطرب هؤلاء الجهال لمثل هذه الأكاذيب والنعوت الفارغة رغم علمهم بكذبها وزيفها إلّاأنّهم وبمرور الزمان يظنون أنّهم كذلك وهذه قمة البؤس والشقاء التى يبلغونها بحيث تغلق أمامهم كافة سبل النجاة.[۷۱۴]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۰

وقال عليه السلام فى صفتهم الخامسة

«لا يحسب العلم فى شىء ممّا أنكره، ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ مذهباً لغيره»

. والواقع أنّ هذا من لوازم الضحالة الفكرية وضيق العلم والمعرفة حيث يرى الإنسان نفسه هو العلم الكامل فينكر كل ما ورائه فلا يرى من حرمة لأفكار الآخرين وعلومهم، بينما لا يرى العالم الحق فى العلم والمعرفة سوى الاعتراف بالجهل، فيسوقه ذلك إلى التواضع للآخرين والاستماع إلى أقوالهم «فَبَشِّرْ عِبادِالَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ»[۷۱۵] فهم يستمعون إلى الآخرين ويصطفون أحسن مايرد فى كلامهم، فى حين يطالعك الجاهل المغرور الذى يتحدث على سبيل القطع وهو ليس على شىء.

وصفته السادسة التى ذكرها الإمام عليه السلام:

«وان أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه»

هذا هو الفارق والحد الفاصل بين العالم والجاهل، فالعالم إذا عرض له أمر مبهم كرس له اهتمامه فان صعب عليه حله وإزالة ابهامه استشار من حوله واستفاد من أفكارهم وانفتح على تجاربهم، بينما يهمله الجاهل ويمر عليه مروراً عابراً، لأنّ يعلم بأن التعامل معه والتفكير فيه لا تزيده سوى فضيحة. وزبدة الكلام فهو يعمل على الخلاف ممّا ورد فى الروايات الإسلامية بعدم الحياء من قول لا أدرى إذا عرض عليه ما لا يعلمه ولا ينبغى أن يستنكف عن تعلمه «ولايستحين أحد منكم إذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشىء أن يتعلمه»[۷۱۶]. والواقع هو أنّ عدم الالتزام بمضمون هذه الرواية إنّما يقود إلى اضرار فادحة تطيل الشخص والمجتمع الذى يعيش كواحد من أفراده.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى حصيلة عمل هؤلاء القضاة الجهال عديمى الورع والتقوى بقوله:

«تصرخ من جور قضائه الدما، وتعج ۷۱۷] منه المواريث»

. أجل فما أكثر الدماء التى تسفك والأموال التى تهدر وهى تضج بصراخها من الأحكام المجحفة التى يصدرها هؤلاء القضاة الجهال، فيطرق هذا الصراخ ضمير السامع فيهز أعماقه، بينما يعيش هذا الجاهل نشوة الغرور

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۱

فلا يسمع ولا يرى ما حوله. امّا تعبيره عليه السلام ب

«تصرخ»

و

«تعج»

فهو تعبير فى منتهى الروعة والجمال، حيث عبر عن الدماء التى تراق من غير حلها بالصراخ وكأن لهذه الدماء علم وشعور وإدراك، فى حين ليس لهذا الجاهل المغرور مثل هذه المعانى فهو يعيش فى جهل مطلق.

ومن هنا نعتقد بأنّ ما ذكره بعض الشرّاح من أنّ فى الجملة تقدير ينسبون من خلاله هذه الصراخ إلى أولياء الدم وأصحاب الأموال إنّما يقضى على هذه اللطافة والروعة فى التعبير.

على كل حال فان رسالة القضاء والقضاة التى تهدف إلى حفظ دماء الناس وأموالهم إنّما تضيع فى ظل تصدى هؤلاء الجهال لمسند القضاء؛ الأمر الذى يقود بالتالى إلى تغييب أمن المجتمع وسيادة الفوضى.

والكلام شبيه ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى رواية «أبو ولاد» حين سمع عليه السلام اصدار بعض الأحكام القضائية الظالمة فقال:

«فى مثل هذا القضاء وشبهه تحبس السماء ماءها وتمنع الأرض بركاتها»[۷۱۸].

تأمّلات

۱- آفات علماء السوء

لقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة إلى الآفات الخطيرة للجهال المتشبهين بالعلماء وعلماء السوء الذين يشقون أنفسهم وقومهم. وقد تتسبب بعض هذه الأخطار والآفات فى سفك دماء الأبرياء وهضم حقوق المظلومين المستضعفين، فتصرخ تلك الدماء من الأحكام الظالمة كما فأن الأموال المهدروة من القضاء الجائر. فقد جاء عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح»[۷۱۹]

كما قال صلى الله عليه و آله:

«من أفتى الناس بغير علم وهو لا يعلم

الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك»[۷۲۰].

والعجيب أن هؤلاء الأفراد كلما عملوا أكثر كان ضررهم أعظم، وهذا ما أشار إليه الإمام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۲

الصادق عليه السلام:

«العالم على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلّا بعداً»[۷۲۱].

۲- علم كخيط العنكبوت

لقد شبه عليه السلام علم هؤلاء الجهال المتلبسين بزى العلماء بخيوط العنكبوت؛ وهو التشبيه الذى اقتبس فى الواقع من القرآن الكريم- سورة العنكبوت- الذى شبه أولياء المشركين ببيت العنكبوت «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ». والعنكبوت ينطوى على بعض خصائص العجائب فى الخلقة. فالعنكبوت تنسج خيوطها من قطرة لزجة غاية فى الصغر فى بطنها تلصقها فى الخارج بمساعدة مخلبها؛ حيث لهذا المائع تركيب خاص يتصلب وينجمد بمجرد ملامسته للهواء، ويعتقد بعض العلماء أن للعنكبوت القدرة على نسج ما يعادل خمسمئة متر من هذه الخيوط بالاستفادة من تلك المادة اللزجة الصغيرة. وهذه الخيوط هى التى تشكل بيت العنكبوت وفخه، إلّاأنّ القرآن أشار إلى أنّ أوهن البيوت هو بيت العنكبوت، فأية ريح مهما كانت خفيفة تحطم هذا البيت، كما أنّ قطرة الماء تخترقه، وأدنى شعلة نار تخربه، بل ليس له قابيلة استقطاب التراب والغبار فهى الاخرى تقضى عليه، وهذه هى الصورة الحقيقية لأولياء الشرك وعلم الجهال. فالعلماء الذين يستندون فى علمهم إلى القياس والاستحسان وما إلى ذلك إنّما علمهم كبيت العنكبوت أجوف هزيل لا يصمد أمام شىء وليس من شأنه فعل شىء.

كما يفهم من هذا التشبيه بشأن هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء أنّ فرائسهم كفرائس العنكبوت حيث ينحصر فى الأفراد الضحلين الذين لا قيمة لهم كفرائس العنكبوت من الحشرات التافهة.

۳- اطراء المتملقين

لقد تطرق الإمام عليه السلام فى الخطبة إلى عدم استحقاق هؤلاء إلى المدح والثناء الذى يكيله لهم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۳

المتملقون من أشباه الرجال؛ وهو الأمر الذى يستبطن البلاء الذى يعود على هؤلاء الجهال إلى الاعتقاد بالتدريج أنّ لديهم العلم

والمعرفة والجدارة والأهلية، فيرون فى أنفسهم الكفاءة فى التصدى لهذا المنصب الخطير الذى يؤدى بالتالى إلى هلاكهم واهلاكهم. فضرر هؤلاء المتملقين الذين يحيطون بهؤلاء الجهال ويسوقونهم للتصدى للقضاء لا يقل عن خطر هؤلاء الجهال فى التصدى إن لم يكن أعظم وأفدح؟ الأمر الذى ذمه القرآن الكريم إلى جانب الروايات الإسلامية. ومن ذلك أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«إذا مدح الفاجر اهتز العرش وغضب الرب»[۷۲۲]

وقال صلى الله عليه و آله:

«من مدح سلطاناً جائراً وتخفف وتضعضع له طمعاً فيه كان قرينه إلى النار»[۷۲۳]

. ومن هنا ورد التحذير من مطلق المدح والاطراء لتنبه إلى ذلك حتى الأفراد من أهل الورع والتقوى إلى الأخطار التى ينطوى عليها هذا المديح، فقد ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«احثوا فى وجوه المداحين التراب»[۷۲۴]

وهذا ما حذر منه أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر فى عهده الذى عهده إليه حين ولاه مصر بعد أن دعاه إلى مجالسة أهل الورع والتقوى والصدق:

«ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة»[۷۲۵].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۵

القسم الثالث

اشارة

«إِلَى اللَّه أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعيشونَ جُهّالًا، وَيَمُوتُونَ ضُلَّالًا، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتابِ إِذا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلا أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتابِ إِذا حُرِّفَ عَنْ مَواضِعِهِ وَلا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ!».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى اللَّه بقلب كسير وأنين متواصل من مثل هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء والقضاة من عبدة الأهواء والشهوات الذين مردوا على الغرور وحب الذات، فقال عليه السلام:

«إلى اللَّه أشكو من معشر يعيشون جهالًا، ويموتون ضلالًا»

. والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام ينعتهم بصفات اخرى استمراراً لما وصفهم به فى السابق، فحياتهم بأكملها جهل فى جهل فلم يكن موتهم سوى ضلال فى ضلال (ففى الحقيقة ان العبارة الثانية نتيجة حتمية للعبارة الاولى) فكيف لا يموت على الضلال من يفنى عمره فى الجهل.

أمّا الصفة الاخرى لهم والتى تعدّ علامة فارقة للتعرف عليهم هى:

«ليس فيهم سلعة[۷۲۶]

أبور[۷۲۷] من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا سلعة أنفق ۷۲۸] بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۶

صرف عن مواضعه»

. إنّهم يريدون قرآناً ينسجم مع أهوائهم وأغراضهم الفاسدة ونياتهم السيئة، ولما كان القرآن بتفسيره الحق لا ينسجم مع تطلعاتهم، فهم

ينبذوه ويعمدون إلى تحريفه وتفسيره برأيهم وما تمليه عليهم خيالاتهم.

والنقطة الجديرة بالذكر هنا هى أنّهم يعيشون فى وسط يكن للقرآن منتهى القدسية والاجلال والاكبار على أنّه وحى اللَّه الذى أوحاه إلى نبيّه صلى الله عليه و آله؛ الأمر الذى يدفع بهم ولتحقيق أغراضهم ومآربهم إلى التظاهر بالانضواء تحت رايته فيسعون جاهدين لاضفاء الصيغة القرآنية على تحريفاتهم وتفسيراتهم الخاطئة، فيعود هذا الكتاب السماوى الذى يفيض نوراً وهداية إلى وسيلة لاضلال الناس.

أمّا الصفة الأخيرة التى ينعتها بهم الإمام عليه السلام فهى

«ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر».

نفحات الولاية ؛ ج۱ ؛ ص۳۸۶

ملاحظة

التفسير بالرأى وقلب الحقائق

إنّ أعظم فارق بين المؤمنين المتقين وعديمى التقوى إنّما يكمن فى كون الفريق الأول يتعامل مع القرآن الكريم والأحكام الشرعية كأصل ثابت ويسعى لتكييف إرادته وشؤونه على ضوئه، فان شعروا بأنّهم أخطأوا أو خرجوا من دائرة تلك الأحكام ندموا وتضرعوا إلى اللَّه وطلبوا منه العفو والمغفرة «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ».

أمّا الفريق الثانى الأنانى المغرور فهو يمنح هذه الأصالة لإرادته وأهوائه الطائشة التى لا تعرف القيود والحدود، فهو يسعى لتكييف الآيات القرآنية مع أهوائه ورغباته؛ ولا عجب

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۷

فهو يرى نفسه الأصل والقرآن الفرع، فالأحكام الإلهية محترمة لديه ما كانت منسجمة مع هواه وهوسه، فان لم تكن كذلك ضربها عرض الجدار. ومن هنا وصفه القرآن بالازدواج فى التعامل مع الآيات القرآنية «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ» فهو مصداق بارز لقوله سبحانه «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ». امّا الاسلوب الآخر الذى درج عليه هذا الفريق فانّما يكمن فى التحريف المعنوى للقرآن وتفسيره برأيه، ولا ينشد من ذلك سوى خداع الناس أحياناً أو خداع نفسه أحياناً اخرى وهذا ما ذمته بشدة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. فقد أشار القرآن الكريم إلى اليهود التى مارست هذا الاسلوب بالقول: «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»[۷۲۹] ومن المسلم به أنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يسلمون لأية حقيقة تطرح عليهم، أنّهم كخفافيش الليل التى تعادى الشمس الحقة، وفوق ذلك أنّهم لم يؤمنوا باللَّه طرفة عين؛ ولذلك ورد فى الحديث النبوى الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله انّه قال:

«قال اللَّه جل جلاله: ما آمن بى من فسر برأيه كلامى»[۷۳۰].

كما قال صلى الله عليه و آله:

«أشد ما يتخوف على امتى ثلاث: زلة عالم، أو جدال منافق بالقرآن، أو دنيا تقطع رقابكم»[۷۳۱].

أمّا الحديث عن التفسير بالرأى ومفهومه والأخطار المترتبة عليه فهذا ما سنعرض له فى محله فى الأبحاث القادمة إن شاء اللَّه.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۹

الخطبة الثامنة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم اختلاف العلماء فى الفتيا وفيه يذم أهل الرأى ويكل أمر الحكم فى امور الدين للقرآن.[۷۳۲]

القسم الأول

اشارة

«تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِى حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكامِ فَيَحْكُمُ فِيها بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِها عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيها بِخِلافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمامِ الَّذِى اسْتَقْضاهُمْ فَيُصَوِّبُ آراءَهُمْ جَمِيعاً، وَإِلَهُهُمْ واحِدٌ! وَنَبِيُّهُمْ واحِدٌ! وَكِتابُهُمْ واحِدٌ!».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۰

نظرة إلى الخطبة

يعتقد بعض المحققين- كما ذكرنا سابقاً- أنّ هذه الخطبة هى جزء من الخطبة السابقة وقد فككها الشريف الرضى (ره)؛ الأمر الذى يؤيده مضمون الخطبة ومحتواها؛ فالخطبة السابقة تحدثت عن القضاة والجهال المنحرفين الذين يصدرون الأحكام الجائرة فى قضائهم بما يهدد بالصميم أمن الامّة وصيانة عرضها وأموالها وأنفسها وبالتالى استشراء الفوضى والفساد فى صفوف المجتمع.

كما تحدثت هذه الخطبة هى الاخرى عن القضاة الذين يستندون فى أحكامهم إلى الأدلة الواهية الضعيفة من قبيل القياس والرأى والاستحسان فتوصلهم إلى نتائج خاطئة، والأنكى من ذلك يصوب رئيسهم كل هذه الأحكام المتناقضة ويرى فيها أحكام اللَّه المطابقة للواقع. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى ابطال نظرية التصويب (النظرية التى ترى أن آراء القضاة وفتيا الفقهاء تمثل الأحكام الإلهية الواقعية رغم تضادها وتضاربها مع بعضها)، على أساس الأدلة المنطقية التى تفند مثل هذه العقيدة، ثم يكشف النقاب عن السبيل الذى يقود إلى الحق فى هذه القضايا الإسلامية التى ضل فيها الكثيرون.

والخطبة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: فى الحديث عن الاسلوب الذى اعتمده القضاة فى تعاملهم مع القضايا والتى تستبطن الأحكام المتناقضة التى تخالف أحكام اللَّه.

والقسم الثانى: فى ابطال النظرية التى تصرح بصواب الجميع.

وأخيراً القسم الثالث الذى يتحدث فى الإمام عليه السلام عن عظمة القرآن وكونه المرجع الفصل فى حل جميع الاختلافات.

الشرح والتفسير

ما علّة كل هذا الاختلاف؟

يستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۱

فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله»

ثم أردفه عليه السلام بالقول

«ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد أو نبيهم واحد! وكتابهم واحد».

ولعل هذه المسألة تبدو عيجبة للأعم الأغلب من الناس صعبة التصديق لديهم فى أنّ تصادق جميع الآراء المتضاربة والمتناقضة على أنّها أحكام اللَّه؛ إلّاأنّها واقع قائم تبلور بشكل عقيدة لدى طائفة إسلامية من أبناء العامة. ولو تأملنا العلل والدوافع التى ساقت هذه الطائفة إلى هذا الاعتقاد- والذى سنتطرق إلى تفاصيله فى الأبحاث القادمة- سنكتشف أنّهم جعلوا أنفسهم فى زاوية ضيقة حرجة لم يبق أمامهم من سبيل للخروج من هذا المأزق سوى اللجوء إلى عقيدة التصويب.

إلّا أنّ الإمام عليه السلام يوجه ضربة قاصمة إلى دعائم هذه العقيدة المنحرفة بقوله

«والههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد».

فمما لاشك فيه لا يصدر من اللَّه الواحد فى مسألة واحدة سوى حكم واحد، فهو العالم بكافة الحقائق المحيط بجميع الأشياء فيحكم فيها بحكم واحد على ضوء المصالح والمفاسد.

فلا- يخطئ فى هذا الحكم ولا- من سبيل للنسيان إلى ذاته المقدسة ليختلف الحكم ولا- يندم ولا- ينكشف له بمرور الزمان ما كان مجهولًا- إذن فلا يمكن تصور الاختلاف من جانب اللَّه أبداً.

أضف إلى ذلك فانّ نبيّهم واحد، وهو معصوم فى اصدار الأحكام، فيبيّن الحكم الإلهى دون زيادة أو نقيصة، وعليه فليس هنالك اختلافاً من جانبه أيضاً. وأخيراً كتابهم واحد؛ الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس للتحريف من سبيل إليه، فهو يستند إلى الوحى الإلهى الذى يأبى الاختلاف والتضاد؛ فهو كتاب اللَّه «وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً»[۷۳۳].

إذن فليس هنالك اختلافاً من جانب الكتاب. فهذه العبارات فى الواقع مقدمة لما سيأتى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۲

من كلام فى أنّ هذا الاختلاف انّما ينبع من أفكارهم القاصرة وعجزهم العلمى، وبعبارة اخرى فانّ هذه العبارات اجابة ورد على مسألة التصويب التى تعرض لها الإمام عليه السلام بصورة مفصلة لاحقاً.

والواقع هو أنّ الاعتقاد بالتصويب وصحة الآراء المتناقضة إنّما هو انحراف عن أصل التوحيد ونزوع نحو نوع من الشرك. فالتوحيد الإلهى يعنى أنّ اللَّه واحد، وتوحيد النبوة يرى أنّ نبوة اولى العزم واحدة فى كل عصر، وتوحيد الشريعة فى أن الكتاب السماوى واحد.

وعليه فالميل نحو تعدد الأحكام الواقعية ليس سوى الشرك الذى يتقاطع صراحة وأصل التوحيد.

تأمّلات

۱- مسألة التصويب ونشأتها

تعتبر هذه المسألة من أهم المسائل الإسلامية ذات الصلة الحميمة بمسألة «الاجتهاد» و «الرأى» و «القياس» و «الاستحسان» وما إلى ذلك، كما ترتبط بالأحداث السياسية والتأريخية التى أعقبت وفاة النبى صلى الله عليه و آله. وإليك شرحها باختصار بعيداً عن الاطالة والخروج عن اسلوب البحث:

۱- أنّ عصر الرسالة كان مفعماً بالأحداث المعقدة الاجتماعية والسياسية والعسكرية بحيث لم تدع للمسلمين من مجال للوقوف على كافة الأحكام، وإن بينت اصولها الاساسية فى القرآن.

۲- لقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بعد النبى صلى الله عليه و آله بحيث كانت تظهر مسائل جديدة كل يوم فى الأحكام الفقهية

الإسلامية حتى رأى المسلمون أنفسهم أمام كم هائل من المسائل المستحدثة ولم يروا أجوبتها فى الأحاديث النبوية الشريفة.

أضف إلى ذلك منع بعض الخلفاء (عمر) الصحابة من تدوين السنّة[۷۳۴] مخافة أن تختلط

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۳

بالقرآن، حتى اندثرت أغلب أحاديث رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فأصبح هناك نقصاً حاداً فى المصادر الإسلامية، حتى رأى الفقهاء ولا سيما الخلفاء الذين كانوا يشهدون كل يوم هجوم المسائل الفقهية الجديدة أنّهم يعيشون حرجاً شديداً، بحيث إذا زعموا أنّ الإسلام لا يمتلك الردود تجاه مختلف القضايا الحقوقية والجزائية والفردية والاجتماعية، فند زعمهم بالآية القرآنية «اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً»[۷۳۵].

فالدين الخاتم الذى لا يعرف معنى للمكان والزمان بل يتصف بالعالمية والخلود لابدّ أن يلبى كافة الحاجات على مدى الدهور والعصور إلى نهاية الدنيا، ولكن كيف بذلك مع هذه الأحاديث القليلة التى نقلت عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله. وهنا لا ينبغى أن ننسى بأنّ هذا المأزق الحرج إنّما نشأ من تجاهل وصية رسول اللّه صلى الله عليه و آله وحديثه المعروف بحديث الثقلين الذى قرن فيه العترة الطاهرة من أهل بيته بالقرآن الكريم وأنّ الامّة ان تمسكت بهما معاً فانّها لن تضل بعده أبداً[۷۳۶]. فلو عمل المسلمون بهذه الوصية وتلقوا أحاديث الأئمة المعصومين التى تمثل الامتداد الطبيعى لأحاديث رسول اللّه صلى الله عليه و آله فانّ مشكلة لم تكن لتحدث قط ولم يشهد المسلمون هذه المعضلة التى عصفت بالفرق الإسلامية، وهذا بعينه ما جعل أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا يشعرون بنقص تجاه أية مسألة من المسائل الفقهية، وقد نقلت الآلاف المؤلفة من أحاديث هذه العترة لتمكن فقهاء الإمامية من التعامل مع كافة القضايا الفقهية على ضوء النظرة الإسلامية.

۳- أخيراً وبهدف خروج فقهاء العامة من هذا المأزق والطريق المسدود لم يكن لهم من سبيل سواء اللجوء إلى القياس والاستحسان والاجتهاد بالمعنى الأخص وتشريع القوانين والأحكام من الفقهاء- فانبروا ليقسموا المسائل إلى قمسين: مسائل منصوصة ومسائل لا نص فيها (أى المسائل التى ورد بشأنها حكم فى الكتاب والسنّة والمسائل التى لم يرد فيها نص فى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۴

الكتاب ولا السنّة). فافتوا فى المسائل المنصوصة طبق ماورد فى النص. وأمّا المسائل التى لم يرد فيها نص فقالوا: حل المشكلة يكمن فى أنّه إن كان له شبيه ونظير فى الأحكام الإسلامية قاسوا عليه، مثلًا إذا ورد فى باب الصلاة حكم قاسوا الصوم بذلك الحكم، ان ورد حكم فى الحج قاسوا عليه أحكام العمرة، وإذا لم يكن هناك من شبيه فى الأحكام الإسلامية يجتمع الفقهاء ويتدارسوا مصالح ومفاسد ذلك الأمر ثم يتخذوا بشأنه حكماً وهذا ما أسموه بالاجتهاد (بالمعنى الأخص).

وبعبارة اخرى فان هناك من قال صراحة: مالم يرد فيه النص ليس له فى الإسلام قانون خاص، وهذه وظيفة الفقهاء فى أن يضعوا له حكماً من خلال الظن وتخفيف ثقل المصالح والمفاسد وما يرونه أقرب إلى المصلحة. وهكذا أصبح الاجتهاد بمعنى حق الفقيه فى التشريع متداولًا بينهم.[۷۳۷]

وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ للاجتهاد معنيان مختلفان إذا لم يميز بينهما فان ذلك يؤدى إلى عدّة نتائج سيئة:

المعنى الأول للاجتهاد هو الاجتهاد العام والذى يعنى استنباط الأحكام من الكتاب والسنة وسائر الأدلة الشرعية. وهذا هو الاجتهاد الذى يعتقد به كافة علماء الشيعة، وهو الاجتهاد الذى أنكره الأخباريون قولًا واعتقدوا به عملًا، لأنّ كبار الأخباريين يستدلون بالكتاب والسنة لاثبات الأحكام الشرعية كما يراعون أحكام العام والخاص والمطلق والمقيد وأمثال ذلك.

المعنى الثانى للاجتهاد هو الاجتهاد الخاص وهو الاجتهاد فى المسائل التى لم يرد فيها نص فى الكتاب أو السنة، فيلجأ على ضوئه إلى التشريع وسن الأحكام مع الأخذ بنظر الاعتبار المصالح والمفاسد والتشابه والتناظر. وهذا النوع من الاجتهاد يختص بجمع كثير من علماء العامة وهو ما يصطلحون عليه بالاجتهاد بالمعنى الأخص. وأمّا ما ذكرنا آنفاً بعدم وجود مثل هذا الاجتهاد لدى علماء الشيعة

إنّما يعزى إلى الثر الهائل الذى لديهم من أحاديث الأئمة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۵

المعصومين عليهم السلام كما يرون أنّ الموارد التى لا نص فيها قليلة جداً ولا تتطلب الاجتهاد بالمعنى الثانى، وذلك لأنّهم يلجأون فى مثل هذه الحالات إلى القواعد الكلية أو ما اصطلحوا عليه ب «الاصول اللفظية» و «العملية» التى تبيّن حكم المسألة والعجيب أن طائفة من علماء العامة تعتقد بأنّ الموارد التى لانص فيها انّه لا حكم لها «مالا نص فيه لا حكم فيه» وهذه وظيفة العلماء فى وضع الأحكام لمثل هذه الحوادث (والالتفات إلى هذه المسألة يعدّ ضرورة لفهم الكلمات القادمة فى الخطبة)؛ الأمر الذى يتنافى تماماً وإكمال الشريعة.

۴- إذا ما اعطى حق التشريع ووضع الأحكام فى «ما لا نص فيه» للفقيه وبالالتفات إلى كثرة عدد الفقهاء ولكل منهم الحق فى التشريع، وليس هنالك من الزام فى جمعهم فى شورى لتصوب حكماً واحداً فانّ ذلك سيؤدى إلى اختلاف الآراء وربما تناقضها فى المسألة الواحدة وهنا يبرز مأزقاً آخر وهو: هل يمكن قبول جميع هذه الآراء المختلفة على أنّها حكم اللَّه، أم هناك حكم واحد حق والبقية باطل؟ ولما لم يكن هناك من تفاوت بين هذه الآراء لأنّها صادرة من الفقهاء؛ وليس هنالك من حكم واقعى للَّهليكون معياراً فى تمييز الصحيح من السقيم فسوف لن يبقى هنالك من سبيل سوى التمسك بعقيدة التصويب، أو بعبارة أفضل فقد سقطوا فى وادى التصويب وقالوا كل هذه الآراء تمثل الحكم الواقعى! ويعزز ذلك أنّهم يقولون بعدالة الصحابة وأحياناً عدم خطأهم فى الرأى، ومن هنا كانت هناك آراء متعددة بعدد المجتهدين فى الموضوع الواحد، وكلها تعتبر الحكم الواقعى للمسألة.

فهم حين اعتقدوا بأنّ المرجع فى تعيين الخلافة رغم خطورتها إنّما وكل إلى أهل الحل والعقد (العلماء) فما المانع فى أن يوكل للعلماء الحق فى سن القوانين والأحكام فى المسائل الفرعية التى لم يرد نص بحقها- ومن هنا ظهرت عقيدة التصويب بكل نتائجها وأخطارها بين طائفة من المسلمين إثر عدم العمل بوصية الرسول صلى الله عليه و آله والالتزام بحديث الثقلين.

۵- غلق باب الاجتهاد: فقد أدت هذه المسألة إلى تنامى الآراء والعقائد المختلفة والمتضاربة فى المجتمع الإسلامى وبين فقهاء المسلمين، لتتخذ صبغة خطيرة، كما كانت السبب فى ترديد الامّة فى مسائلها الدينية واتاحة الفرصة لأعداء الإسلام بالتفوه ضد الإسلام والمسلمين والأحكام الإسلامية وهنا انبرت طائفة من المسلمين لتوضع حداً لهذا الوضع

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۶

المؤسف فارتكبت عملًا قبيحاً تجسد فى غلق باب الاجتهاد. فقد صرحوا بأن هذا الحد يكفى ولا يحق لأحد بعد هذا ممارسة الاجتهاد! وحيث اختلفت الامّة طوائف فى الأحكام الشرعية وذهبت كل طائفة لاتباع عالم. فاختاروا أربعة من هؤلاء الفقهاء ممن لهم أتباع كثيرون (وهم أبو حنيفة ومالك ومحمد بن ادريس الشافعى وأحمد بن حنبل) ثم الزموا الناس بتقليد أحد هؤلاء الأربعة وأبطلوا سائر الآراء والعقائد للحيلولة دون الاختلاف والتمزق؛ بينما لا نرى هنالك من دليل فى الكتاب أو السنّة على إمامة هؤلاء الفقهاء الأربعة، وليس لهم أدنى امتياز على من سواهم سوى كثرة أتباعهم، كما لم يقم الدليل على غلق باب الاجتهاد وحصره بهؤلاء الأربعة لكل عصر ومصر! وكما أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة رقم ۱۶

«ألا وأنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها، فتقحمت بهم فى النار»

. فانّ هذه الهفوات العظيمة إنّما افرزتها الزلات الاولى حتى تبلورت كسلسلة ارتبطت حلقاتها لتؤدى بالتالى بأصحابها إلى النار. لقد خلق غلق باب الاجتهاد اليوم مشاكل عويصة لفقهاء العامة وعلمائهم؛ وذلك لأنّهم يرون أنفسهم اليوم أمام سيل جارف من المسائل المستحدثة التى ليس لها من حكم فى المذاهب الأربعة؛ ومن هنا انبرت جماعة منهم علانية واخرى خفية تطالب بفتح باب الاجتهاد بوجه الفقهاء والخروج من حالة التقوقع والانطواء على المذاهب الأربعة، كما خاضوا فى ضرورة الافتاء فى المسائل المستحدثة وإعادة النظر فى المسائل السابقة وهم يتساءلون عن علية حصر الاجتهاد فى المذاهب المذكورة، مع العلم قد ظهر العلماء الذين فاقوهم،

وحتى على فرض عدم تفوقهم على أسلافهم، فمثل هذا السؤال يبقى مطروحاً، إذا اغلق باب الاجتهاد فمن يتصدى للإجابة على المسائل المطروحة اليوم؟

أمّا أتباع أهل البيت عليهم السلام فقد بقوا فى أمان من هذه العاصفة الهوجاء، فهم لم يعتقدوا بغلق باب الاجتهاد (طبعاً الاجتهاد بالمعنى الأول لا الثانى) طرفة عين أبداً، وقد منحوا فقهائهم وعلمائهم حق استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها المعروفة، فى ذات الوقت الذى حظروا فيه الاجتهاد بالمعنى الثانى على كائن من كان.

سؤال:

هنا سؤال يطرح نفسه: الاجتهاد بالمعنى الأول هو الآخر يقود إلى الاختلاف وعليه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۷

فليس هنالك من فارق بين الاجتهاد بالمعنى الأول أو الثانى؟

جواب:

إنّ الالتفات إلى نقطة قد يوضح الجواب على السؤال المذكور، وهى أنّ الاجتهاد بالمعنى الأول يعنى استنباط الأحكام من الكتاب والسنّة، وعليه فالمحور الأصلى للاجتهاد هو نصوص الكتاب والسنّة التى يجمع عليها الفقهاء، فهناك الوحدة التى تجمع هؤلاء الفقهاء، وإن كان هنالك بعض الاختلاف فى الاستنتاجات؛ إلّاانّ هذه الاختلافات طفيفة عادة، ومن هنا نرى وحدة آراء الفقهاء فى غالبية المسائل المشهورة، ولا يوجد سوى اختلاف بسيط فى بعض تفاصيل المسائل.

أمّا الاجتهاد بالمعنى الثانى فهو لا ينطوى على محور معين يجتمع حوله الفقهاء، بل المعيار لدى كل فقيه فكره ورأيه، ومن هنا كانت الخلافات لاتعد ولا تحصى، فقد تطالعنا عدّة آراء فى المسألة الواحدة؛ الأمر الذى يشوه سمعة الشريعة الإسلامية ويسيء إلى كيانها.

أضف إلى ذلك فانّ أنصار الاجتهاد بالمعنى الأول الذى يعنى استنباط الحكم من القرآن والسنّة يقولون:

إنّ دين اللَّه لم ولن يكون ناقصاً، وليس هنالك من واقعة- بالأمس واليوم والغد- ألا وللَّه فيها حكم قد ورد فى العمومات والاطلاقات أو الأدلة الخاصة للكتاب والسنّة وهى واضحة لدى أئمة العصمة عليهم السلام. فمن بلغ باجتهاده ذلك الحكم فقد أصاب، ومن لم يبلغه فقد أخطأ، فان لم يقصر فى مقدمات الاجتهاد واستفرغ مافى وسعه كان معذوراً عند اللَّه ومأجوراً. وهذا هو الاعتقاد بالتخطئة فى مقابل الاعتقاد بالتصويب ولذلك يقول أصحاب هذا الاعتقاد «للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد» بينما زعم أنصار الاجتهاد بالمعنى الثانى أن «كل مجتهد مصيب» أى أنّ كافة الأحكام المتناقضة للمجتهدين والتى تمثل آرائهم هى أحكام إلهية واقعية حقة (لابدّ من الالتفات والتأمل فى هذا الأمر).

۲- نتائج القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد

نشير بصورة مختصرة إلى المفاسد التى ترتبت على القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد:

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۸

۱- الاعتراف بنقصان الدين (والعياذ باللَّه) من حيث الأحكام والاعتماد على آراء الفقهاء وأفكار الأفراد غير المعصومين من الخطأ فى إكمال أحكام الشريعة وسد النقص.

۲- غلق باب الاجتهاد يعنى الاعتقاد بعدم أحقية أى فرد فى الاجتهاد بعد الفقهاء الأربعة من العامة! لأنّ فتح هذا الباب قد يؤدى أحياناً إلى ظهور عشرات الآراء والفتاوى المختلفة فى المسألة الواحدة؛ كما نعلم أنّ غلق باب الاجتهاد، يغلق الطريق على فقهاء الإسلام فى التصدى للرد على المسائل المستحدثة فيزج بمسلمى العالم بمأزق خانق لا يمكنه النجاة منه بالنسبة للأحكام الشرعية.

فالاقتصار على المذاهب بأربعة تأريخ خطير ذا شجون، كما دل على أنّ هذه البدعة فى الإسلام وبسلبها لاستقلالية الفقهاء قد جرت

الويلات. وعلى ضوء ما أورده المقريزى فى كتاب الخطط المقريزية وكذلك ابن الفوطى وآخرين أنّه لم تكن هناك من ضابطة معينة فى انتخاب هذه المذاهب الأربعة سوى أنّ كثرة المذاهب قد ارعبت ولاة البلدان الإسلامية المختلفة وأدت إلى ظهور موجة من الفوضى والهرج والمرج من جانب، ومن جانب آخر أنّ العلل السياسية والاجتماعية هى التى أدت إلى انتشار هذه المذاهب فى كافة بلدان العالم الإسلامى؛ وعليه فلم يكن بالإمكان اسقاطها. ولذلك تواطئ الفقهاء والحكام آنذاك بالوقوف بحزم بوجه كل من يتفوه بما لم يرد فى المذاهب الأربعة المذكورة، والعجيب أنّ هذه المسألة قد حدثت فى القرن السابع عشر. فقد انطلقت فى مصر عام ۶۶۵ وفى بغداد ۶۳۱ بحيث قرر أساتذة المدرسة المستنصرية المعروفة فى عام ۶۴۵ عدم قبول أى طالب ينتمى إلى غير هذه المذاهب.

وهكذا فقد اغلق باب الاجتهاد بعد مرور سبعة قرون على ظهور الإسلام وبلوغ الاجتهاد ذروته، ليصبح كافة الفقهاء مقلدين لهؤلاء الأئمة الأربع ففقدوا استقلاليتهم الفقهية.

وما هذا إلّانتيجة طبيعية لذلك الانحراف الذى وقع فى القرن الأول. فقد اقصيت العترة الطاهرة عدل القرآن الكريم وأحد الثقلين وفتح باب القياس والاستحسان والاجتهاد بالرأى وظهرت هذه الآراء المتناقضة التى جرت الفوضى، فكان كل رأى حكم اللّه، والمؤسف له هو

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۹۹

أنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام لم تتخذ مكانها حتى فى مصاف المذاهب الأربعة.[۷۳۸]

فالحق أنّ ذلك الانحراف الأول هو سبب ظهور هذه البدعة، البدعة التى لم يكن هنالك من سبيل سواها.

۳- الهرج والمرج الفقهى والقضائى

الذى أفرزته الآراء المتعددة والمتناقضة التى قد يصل عددها أحياناً إلى عدد المجتهدين؛ ومما لاشك فيه أنّ المشاكل آنذاك تفوق مشاكل المجالس التشريعية فى عصرنا الحاضر بكثير، وذلك لأنّ مجالس العصر تشهد على الأقل حضور الوكلاء لبلد أو منطقة من العالم فى مكان واحد فيتخذ القرارات على أساس أكثرية الآراء التى تتمتع بالوحدة كحد أدنى بالنسبة لمنطقة معينة؛ أمّا الاجتهاد بالرأى والتصويب فهو يسمح لكل مجتهد من المجتهدين أن يشرع بمفرده، والأعجب من ذلك كل ما يتوصل إليه من حكم فهو حكم اللّه الواقعى، وخلافاً لمجالسنا المعاصرة التى تكون أحكامها أحكاماً وضعية بشرية، فانّ أحكام المجتهدين آنذاك تمثل الأحكام الإلهية التى يلزم الناس بأتباعها.

وأخيراً لا نروم الخروج من بحثنا فى الشرح والتفسير ولذلك نوكل من أراد المزيد بهذا الشأن إلى المصادر المعروفة.[۷۳۹]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۰۱

القسم الثانى: الاختلافات غير المبررة

اشارة

«أَفَامَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحانَهُ بِالاخْتِلافِ فَأَطاعُوهُ! أَمْ نَهاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحانَهُ دِيناً ناقِصاً فاسْتَعانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمامِهِ! أَمْ كانُوا شُرَكاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحانَهُ دِيناً تامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدائِهِ، وَاللَّهُ سُبْحانَهُ يَقُولُ: «ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ» وَفِيهِ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَنَّهُ لا اخْتِلافَ فِيهِ فَقالَ سُبْحانَهُ: «وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

الشرح والتفسير

يفنـد الإمام عليه السـلام فى هـذا الكلام بالأدلـة المحكمـة مسألـة الاجتهاد بالرأى وتصويب آراء المجتهـدين وبالتالى حق الفقهاء فى اصدار الأحكام، ثم يصنف الإمام عليه السلام ذلك إلى خمسة اسس ويغلق كافة الطرق على هولاء، ثم يبين بجلاء تام خطأ هذا اللون من التفكير.

فقـد قال عليه السـلام بعـد أن تساءل على نحو الاسـتنكار عن السب الـذى يقف وراء هـذا الاختلاف فى المسائل الفقهية «أفامرهم الله سبحانه بالاختلاف فاطاعوه».

حقا لا يمكن قبول هذا الامر، فالله واحد أحد يدعو إلى الوحدة ويحذر من الاختلاف والفرق فهو القائل:

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا»[۷۴۰]

وبناءا على هذا فان

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۰۲

الاختلاـف تـابع من موضع آخر، رام الإمـام عليه السـلام الإشـارة إليه «أم نهاهم عنه فعصوه» فالحق أنّ هـذا الأمر يشـكل أحـد مصادر الاختلاف؛ غير أن القضاة الذين يوردون عدّة آراء بشأن مسألة واحدة لايسعهم الاقرار بمثل هذا الاحتمال!

و عليه فان ردّهم على هذا السؤال سيكون بالسلب. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الاحتمال الثالث فقال عليه السلام:

«ام انزل الله سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه»

. من المسـلم به أنّه ليس هنالك مسـلم يقول بنقصان دين الله وإن الله اسـتعان بالعباد لا كماله، بل بالعكس قد صرحتالآيات القرآنية باكمال هذا الدين من جميع الجهات

«اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً»[۷۴۱].

ثم يورد الإمام عليه السـلام الاحتمال الآخر الـذى يبدو بطلانه واضـحا وضوح الشـمس فى رابعة النهار لا أم كانوا شـركاء له، قلهم أن يقولوا، وعليه أن يرضـى» فمن البداهـة أنّ من قال يتعـدد الآلهـة فانّه عليه أن يؤمن بانّ لكل منهم سـهم فى التشـريع واصدار الأحكام؛ فهل للمسـلم الـذى ينطلق فى عقيـدته من التوحيـد أن يعتقد بوجود الشـركاء ويرى فى الفقهاء والقضاة شـركاء لله؟ وبعبارة اخرى فان أحد فروع التوحيد (بعد توحيد الذات والصفات) هو توحيد الأفعال، أحد تفرعات توحيد الأفعال هو توحيد الحاكمية والتشريع؛ وعلى ضوء ذلك فانّ الحكومة لله وحده وتنتهى إليه، فلا حكم إلّاحكمه ولا أمر إلّاأمره!

و لو لم يكن الأمر كذلك لاختفى الحق سبحانه بقسم من التشريع ثم يفوض القسم الآخر منه للعقول البشرية العاخرة.

و هل لغيره من إحاطـة قامة بمصالح الأحكام ومفاسدها! أو يجوز على الله أن يفوض زمام امور عباه لمشـرعين يصدر كل منهم حكماً وقانوناً على ضوء ظنه ورأيه القاصر بحيث يعيش العباد فى هالة من الفوضى والقلق والحيرة فى ظل الآراء المتناقضة المتضاربة!

ثم يتطرق الإمام عليه السـلام إلى آخر احتمال فيقول: «أم أنزل الله سـبحانه ديناً تاماً فقصـر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه». لا شك ولا شبهة أنّه ليس هنالك من ينسب

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۰۳

مثل هـذا القول إلى النبى صـلى الله عليه و آله؛ وذلك لأنّ حتى اولئك الـذين لايقرون بمسألـة العصـمة بصورة مطلقـة ويظنون بعـدم وجود الدليل على عصـمة النبى صـلى الله عليه و آله فى كافة الميادين، فانّ الحد الأدنى أنّهم يسلمون بعصمته فى التبليغ وأداء الوحى، حيث لا يبقى من مفهوم للنبوة والرسالة دون الاعتقاد بالمعنى المذكور.

آنـذاك يعود الإمام عليه السـلام إلى أصل المسألـة فيكشف النقاب عن هـذه الحقيقة وهى أنّ الإسـلام قد شـرع كل ما من شأنه تلبية حاجات البشـرية ومتطلياتها، وعليه فالإمام عليه السـلام يصادر ما أوردوه من قولهم «ما لا نص فيه لاحكم فيه» بالاستناد إلى قوله «و الله

سبحانه يقول: «ما فرطنا فى الكتاب من شىء وفيه تبيان لكل شىء»[۷۴۲] فالآيتان دليلان واضحان على أن الله لم ينزل ديناً ناقصاً عولهم يستعن باحد لا ـ كماله؛ بل جاء فى القرآن كل ما يحتاج إليه، بعضها فى العمومات وبعضها الآخر فى الأحكام الخاصة التى سيأتى الحديث عنها إن شاء الله فى مبحث التأملات ولم ينس الإمام عليه السلام أن يسلب حربة التناقض من القضاة الذين يستشهد كل منهم بآية يتباين مفهوماً وسائر الآيات فقال عليه السلام: «و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنّه لا إختلاف فيه» ثم يعزز الإمام عليه السلام دعوى عدم الاختيارات فىالآيات القرآنية متشهدا بالقرآن «فقال سبحانه! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً»[۷۴۳].

فالواقع أنّ علم الإنسان محدود، وأنّ تقادم الزمان أو تغيير المكان وكشف الظواهر الجديدة إنّما يدعوه إلى تغيير أفكاره باستمرار، ومن هنا فقد يورد كاتب بعض الموضوعات المتناقضة خلال حياته، وليس ذلك بعجيب، هذا من جانب، ومن جانب آخر فان رصيد الإنسان النسيان، فلعه يتحدث اليوم عن شىء فينساه بعد شهر أو سنة ليتحدث عن خلافه.

إلّا أنّ هذه الامور لا تصدق على البارىء سبحانه العالم بكل شىء «و ما كان وما يكون» والعالم بالمحال لو كان كيف يكون، فليس لمرور الزمان من أثر على ذاته المقدسه؛ فهو فوق الزمان والمكان، وناهيك عن هذا فليس هنالك من مفهوم للنسيان بالنسبة لله سبحانه،

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۰۴

فكيفالحال هذه ان يصدر عنه أدنى إختلاف أو تناقض.

وزيدة الكلام أنّ الإمام عليه السلام قد قند ببيان واضح بليغ عقيدة التصويب والتمسك بالقياس والاستمسان والاجتهاد بالرأى، فالله سبحانه أنل ديناً كاملًا وقرآنا جامعا يلبى كافة حاجات البشرية، وإنّ رسول الله صلى الله عليه و آله لم يتوانى فى تبليغ الرسالة، كما أنّ الله لم يقبل لِلُامّة الإسلامية أى اختلاف ودعا االمة مرارا إلى الاخاء والوحدة. وبناءاً على ما تقدم فما تفسير الاعتقاد بصحة الآراء المتناقضة وتصويب الفتاوى المختلفة على أنّها جميع حكم الله المطابق للواقع، سوى الانحراف والضلال.

شمولية القرآن

لقد تضمن القرآن الكريم الآيات الصريحة التى تبيّن كافة امور المسلمين ومتطلباتهم وحاجاتهم إلى يوم القيامة. كما صرّحت الروايات الإسلامية بهذا الأمر، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ان الله تبارك وتعالى انزل فى القرآن تبيان كل شىء حتى والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه العباد، حتى لايستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل فى القرآن، إلّاوقد أنزل الله فيه»[۷۴۴]

ولكن هنا يبرز هذا السؤال: إننا نرى أحكاماً مختلفة لم ترد فى القرآن الكريم وهذا الأمر لاينسجم وشمولية القرآن الكريم؛ مثلا لم يرد فى القرآن شىء بشأن عدد ركعات الصلاة والسلع التى تجب عليها الزكاة وتصاب الزكاة وبعض مناسك الحج وعدد اشواط السعى بين الصفا والمروة والطواف ومسائل اخرى فى القصاص والحدود والديات وآداب القضاء وشرائط المعاملات وأنواع المعاملات المستحدثة وما شاكل ذلك من الموضوعات الشرعية. وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى ثلاثة امور:

الأول: أنّ القرآن يشتمل على الأحكام الكلية والقواعد العامة والعمومات والاطلاقات التى يتمّ حل أغلب المشكلات على ضوئها. فمثلًا الآية

«أَوْفُوا بِالعُقُودِ»[۷۴۵]

فى المعاملات والاية

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۰۵

«وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»[۷۴۶]

فی أبواب العبادات و

«لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا

مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ»[۷۴۷]

فی حقوق الو الـدین وسائرالآیات من هذا القبیل التی من شأنها الاجابهٔ علی أغلب الأسـئلهٔ والمسائل المسـتحدثهٔ أضف إلی ذلک فان القرآن الکریم صرّح بأنّ السنهٔ النبویهٔ تمثل إحدی المصادر الرئیسیهٔ للأحکام الشرعیهٔ والمعارف الإسلامیهٔ

«وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[۷۴۸]

کما وصفهٔ فی آیهٔ اخری بانّه مبین القرآن ومفسره

«وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»[۷۴۹].

النبی صـلی الله علیه و آله من جـانبه وعلی ضوء حـدیث الثقلین فقـد جعـل أهل بیته وعترته علیه السـلام من مصادر الأحکام الشـرعیهٔ والمعـارف الإسـلامیهٔ، ولو التزم المسـلمون بوصـیهٔ القرآن والنبی الأکرام صـلی الله علیه و آله بما بقی هناک سوال فی مجال الأحکام دون إجابهٔ.

و أخیراً یسـتفاد من الروایـات الإسـلامیهٔ المختلفـهٔ أنّ للقرآن ظاهر وباطن، وظاهره المعانی والمفاهیم المعلومـهٔ لـدی الجمیع ویعملون علی ضوئها، أمّا باطنه فهو معانی ومفاهیم اخری لیس لاحـد من سبیل إلیها سوی النبی صـلی الله علیه و آله والأئمـهٔ المعصومین علیهم السلام، الذین یتعاملون مع الآیات وفق رویهٔ وإدراک آخر.

و بناءاً علی هذا لو إصطف الثقلان (القرآن وأهل البیت) ولم یفصلهما المسلمون عن بعضهما، لا ستفادوا من هذا العدل القرآنی الذی یحل أغلب معضلاتهم.

فقد قال الإمام الصادق علیه السلام:

«أنا اعلم کتاب الله وفیه بـدء الخلق وما هو کائن إلی یوم القیامهٔ وفیه خیر السـماء وخیر الأرض وخیر الجنّهٔ وخبر النار وخبر ما کان وما هو کائن، اعلم ذلک کما أنظر إلی کفی ان الله یقول فیه تبیان کل شیء»[۷۵۰]

وجاء فی نهج البلاغهٔ

نفحات الولایهٔ، ج۱، ص: ۴۰۶

«و فی القرآن نبأ ما قبلکم وخیر ما بعدکم وحکم ما بینکم»[۷۵۱]

وقال علیه السلام فی موضع آخر بشأن القرآن

«إلّا أنّ فیه علم ما یأتی والحدیث عن الماضی ودواء دائکم ونظم ما بینکم»[۷۵۲]

ولم یقتصـر نقل هذه الأحادیث علی أهل البیت علیهم السلام، بل نقلت من طرق العامهٔ أیضا، فقد روی السیوطی فی الدر المنشور عن الصـحابی المعروف ابن مسـعود «أنّ فیه علم الأولین والاخرین». وروی عن الاوزاعی فی تفسـیر الآیهٔ «و نزلنا علیک الکتاب تبیانا لکل شیء.

قال: بالسنهٔ»[۷۵۳]. وقد روی السیوطی فی کتاب الاتقان هذا المعنی عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«فی

کتاب الله نبأ ما قبلکم وخبر ما یعدکم وحکم ما بینکم»[۷۵۴]

ثم قال: وقد أورده الترمذی وغیره.

نفحات الولایهٔ، ج۱، ص: ۴۰۷

القسم الثالث: أناقة القرآن وعمقه

اشارة

«وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظاهِرُهُ أَنِيقٌ وَباطِنُهُ عَمِيقٌ، لا تَفْنَى عَجائِبُهُ، وَلا تَنْقَضِي غَرائِبُهُ، وَلا تُكْشَفُ الظُّلُماتُ إِلَّا بِهِ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطيته- فى القسم الثالث- يوصف القرآن الكريم بخمس صفات تنطوى على حقائق عظيمة بشأن أهمية القرآن، مشيرا إلى ضرورة عدم غفلة القضاة والفقهاء عن هذا القرآن والاستضاءة بنور حقائقه ومعارفه، إلى جانب الشعور بانّ القرآن يغنيهم عمّا سواه من المصادر الاخرى سوى السنة التى تستند القرآن يغنيهم عمّا سواه من المصادر الاخرى سوى السنة التى تستند إلى القرآن وتفسير مضامينه. فقد قال فى صفته الاولى «و إنّ القرآن ظاهره أنيق»[۷۵۵].

فالعبارة إشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته، الفاظه موزونة وعباراته رصينه ولآياته وقع و نغمة خاصة لا تجعل الإنسان يشعر بالكلل أو الملل مهما تلاها، والشواهد على ذلك أكثر من ان تحصى نتركها لعدم الخروج من اصل البحث ۷۵۶].

وأمّا صفته الثانية «و باطنه عميق». غالباً ما يبتعد الإنسان عن رصانة المعنى إذا ما خاض فى جمال الظاهر، والعكس صحيح أيضاً فعادة ما يتعذر على الإنسان حسن إختيار الألفاظ إذا

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۰۸

رام الدقة فى أداء المعنى، والخلاصة تبدو عملية الجمع بين المعنى واللفظ ليست بالهينة؛ الحقيقة التى يمكن مشاهدتها بوضوح فى القرآن الكريم الذى جمع العمق فى المعنى إلى جانب الرصانة والسبك فى اللفظ.

أمّا عمق القرآن فقد تلاشت على سطحه كافة الأفكار وتصاغرت أمامه جهايذة العقول، و كيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الثابع من ذاته المقدسة المطلقة، ولعل المتتبع يشعر بحقيقة هذه الكلمات ارا ما طالع أى من السور القرآنية لتتجسد أمامه بوضوح الصفتين التين أوردها الإمام عليه السلام بشأن القرآن.

وأمّا الصفة والرابعة للقرآن فهى «لا تفنى عجائبه، ولا تنقضى غرائبه». ولعل الفارق بين هاتين العبارتين هو أنّ العبارة الاولى تتحدث عن خلود العجائب والحقائق القرآنية السامية، و ذلك لأننا الكثير من الكتب والمؤلفات والمصنفات التى كانت اعجوبة فى زمانها، إلّاأنّ تقادم الزمان قد سلبها تلك الميزة وجردها من اعجوبتها، والقرآن ليس كذلك، فلا يزداد قارىء القرآن ومعبده إلّالذة وحلاوة وطلاوة، بل إنّ قراءته قد تشكف له كل يوم ما كان غائباً عنه بالأمس؛ فتظل لألفاظه ومعانيه مواقع السحر فى النفس.

وأمّا العبارة الثانية فهى تتحدث عن أسرار القرآن التى تتكشف يوما بعد آخر.

أمّا الصفة الأخيرة للقرآن فهى «و لا تكشف الظلمات إلّابه» ليس فقط ظلمة الجهل وظلمة الكفر وإنعدام الإيمان والتقوى، بل ليس لظلمات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية دون التعاليم القرآنية. فاليوم وإن ازدهر العالم من حيث الصناعة وقطع أشواطاً فى الرقى‌التطور، مع ذلك فهناك الظلمات الهائلة التى ألقت بظلالها المشؤومة على المجتمعات البشرية التى فأنّ من المعارك والاقتال وسفك الدماء واستضحال أنواع الظلم والجور والاضطهاد والفقر والحرمان، والأنكى من كل ذلك إنعدام الا من والاستقرار وسيادة الفوض والقلق والاضطراب، وما ذلك إلّانتيجة مباشرة لغياب معانى الإيمان والتقوى والفقر الاخلاقى والمعنوى، وليس هنالك من سبيل للخروج من هذه المآزق سوى بالتمسك بالقرآن بل الأدهى من ذلك هجر القرآن واللجوء إلى الآراء الظنية والأفكار البشرية القاصرة على مستوى الأحكام من قبل قطاعات واسعة من المسلمين.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۰۹

تأمّلان

۱- القرآن والمسائل المستحدثة

هنالك سوال يقتدح فى الأذهان وهو: أنّ المجتمع البشرى فى حالة حركة وتطور مستمر بحيث تستجد يوميا عدّة مسائل على الساحة، فكيف للقرآن أن يواكب هذه الحركة فى حين تتصف أحكامه بالثبات وعدم التغيير؟ وكيف يسعه الردّ على المسائل المستحدثة؟

و للإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك نوعان من الأحكام فى القرآن الكريم هما:

الأحكام الجزئية والأحكام الكلّية. فالاحكام الجزئية من قبيل الأحكام التى ذكرت للصلاة ككيفية الوضوء والغسل والتيمم وسائر المسائل كالقبلة وعدد الصلوات وما شابه ذلك.

وأمّا الأحكام الكلّية فيراد بها القواعد العامة الواردة فى القرآن والتى تتصف بالسعة والشمولية، كقاعدّة وجوب الوفاء بالعقود والمعاهدات «أَوْفُوا بِالعُقُودِ»[۷۵۷] وقاعدّة «لا- حرج» «و ما جعل عليكم فى الدين من حرج»[۷۵۸] وقاعدّة «لا ضرر ولا ضرار» التى استفيدت من بعض الآيات القرآنية، وهى القواعد التى تلبى المتطلبات الإنسانية فى اضفنا إلى القرآن الاصول والقواعد الكلية التى صرّح بها الائمة عليهم السلام فى كلماتهم. بعبارة اخرى الموضوعات فى حالة تغيير مستمر، أمّا الاصول الكلية فهى ثابتة لا يعتريها التغيير، وتغيير الموضوعات لا- يعنى سوى تبدل أحكامها حيث تخرج من حكم وتنضوى تحت حكم آخر، وعليه فاننا نستطيع اليوم وبالاستناد إلى القواعد الكلية أن نستنبط كافة الإجابات على المسائل المستحدثة التى لم يرد ذكرها على وجه الخصوص فى الكتاب والسنة، فجعلها فى كتاب نطلق عليه اسم المسائل المستحدثة، ويقال أن أفضل دليل على إمكان الشىء وقوعه (فى إشارة إلى وجود مثل هذه الكتب وبكثرة لاغلب فقهاء الشيعة والتى تصدت للإجابة على كافة المسائل المسجدة اليوم على الساحة).

و من أراد المزيد فليراجع كتب العلماء بشأن المسائل المستحدثة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱۰

۲- لم لا تنقضى عجائب القرآن

لقد صرّح الإمام عليه السلام فى عبارته الأخيرة بشأن القرآن قائلًا:

«لا تفنى عجائبه ولا تنقضى غرائبه».

فكلما تقادم الزمان واجال العلماء والمفكرون أفكارهم فى أسرار القرآن، كشفوا حقائق جديدة كانت خافية عليهم، أضف إلى ذلك فانّ حلاوة القرآن وطلاوته حقيقة خالدة لا تعرف معنى للزمان، وهى الحقيقة التى ثبتت لدينا بالتجربة فما أكثر ما قرآنا القرآن وتلوناه و لا نزداد تجاهه سوى حيوية دون أن نشعر بأدنى ملل أو تعب؛ ولا غرو فالقرآن كلام الله، وكلام الله كذاته مطلق لا يقيد بالحدود، فهو ليس كلام المخلوق ليكتسب صفات عقلهفكره المعروف بالحدود والزمان والمكان، أضف إلى ذلك فانّ الخطاب القرآنى متواصل إلى يوم القيامة، فاودعه الله من الأسرار التى تتجدد على مدى الزمان.

و نختتم البحث بحديث الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ رجلًا سأل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لايزداد على الدرس والنشر إلّاغضاضة» فقال الإمام عليه السلام لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو فى كل زمان جديدعند كل يوم غض إلى يوم القيامة».[۷۵۹]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱۱

الخطبة التاسعة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

قال للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب فمضى فى بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه فقال يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال:

«ما يُدْرِيك ما عَلَيَّ مِمَّا لِي، عَلَيْك لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ! حائِك ابْنُ حائِكٍ! مُنافِقٌ ابْنُ كافِرٍ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَسَرَك الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلامُ أُخْرَى! فَما فَداك مِنْ واحِدَةٍ مِنْهُما مالُك وَلا حَسَبُكَ! وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَساقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ!

لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الْأَقْرَبُ، وَلا يَأْمَنَهُ الْأَبْعَدُ».[۷۶۰]

قال السيد الشريف: يريد عليه السلام انّه اسرى الكفر مرة وفى الإسلام مرة واما قوله: دل على قومه السيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة، غر فيه قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد وكان قومه بعد ذلك يسمونه «عرف النار» وهو اسم للغادر عندهم.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱۲

الشرح والتفسير

الاصطدام بمنافق طائش

لابدّ من الإشارة إلى نقطتين قبل الخوض فى شرح هذه الخطبة:

۱- جاء فى التأريخ بشأن الأشعث أنّ أسمه الأشعث معدى كرب، وأبوه قيس الأشجّ سمى الأشجّ؛ لأنّه شُجّ فى بعض حروبهم بن معدى كرب بن معاوية. وأم الأشعث كبشة بنت يزيد بن شُرحبيل بن يزيد بن امرىء القيس بن عمرو المقصور الملك.

كان الأشعث أبداً أشعث الرأس، فسمّى الأشعث، وغلب عليه حتى نُسى اسمه.

۲- امّا بشأن المناسبة التى دعت الإمام عليه السلام لمخاطبة الأشعث بهذه الكلمات فهناك إختلاف بين العلماء فقد ورد فى رواية أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استوى جالساً على منبر الكوفة فاخرج كتاباً فيه كلام رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«المسلمون تتكافؤ دماؤهم وهم يد على من سواهم من أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والناس أجمعين»[۷۶۱].

فانبرىالأشعث بن قيس المنافق قائلًا: «هذا والله عليك لا لك» فخفض الإمام عليه السلام إليه بصره فخاطبه بهذه الكلمات أمام الملأ.

ولعل مراد الأشعث بن قيس إذا كانت دماء المسلمين متكافئة وهم يد على من سواهم، فما معنى قتالك لطائفة من المسلمين؟ (و الحال أن المنافقين الذين أوقدوا نار الجمل وصفين والنهروان كانوا يرون الإمام عليه السلام خليفة رسول الله صلى الله عليه و آله فبالاضافة إلى نص النبى صلى الله عليه و آله على خلافته فقد بايعه الناس).

نعود الآن إلى شرح الخطبة، فقد رد الإمام عليه السلام علىالأشعث بن قيس حين اعترضه بقوله «يا أميرالمؤمنين هذا عليك لا لك» فقال:

«ما يدريك ما على ممّا لى».

حيث أراد الإمام عليه السلام أنّك لم تفهم كلامى وما أريد أن أقول. فمرادى هو دعوة المسلمين إلى الوحدة وانبههم إلى خطاهم فى مسألة التحكيم ليرعووا عن تكرار مثل هذه الاخطاء، إلّاأنّك فهمت الكلام بالعكس. ثم اغلظ عليه عليه السلام فقال:

«عليك لعنة الله ولعنة اللاعنيين».

و يشهد تاريخ الأشعث وسيرته الخبيثة أنّه كان مستحقاً لمثل هذه اللعنة وعلى حد قول ابن أبى الحديد فانّ كل فساد فى خلافة على

عليه السلام وكل اضطراب حدث فاصله الأشعث ۷۶۲] ثم

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۳

قال عليه السلام

«حائك بن حائك، منافق بن كافر».

إختلفت أقول الشرّاح بشأن المراد من «حائك» فقد حملها البعض على المعنى الظاهرى على أنّ الحياكة كانت شغلًا للأشعث وأبيه وقد كانت مهنة تمارس من الطبقة الوضيعة فى المجتمع آنذاك البعيدة عن معانى المعارف الدينية والاداب الاجتماعية والمدنية، غير أنّ هذا المعنى لاينسجم وما ورد فى ترجمة الأشعث وأبيه؛ لأنّهما لم يكونا يعملان بهذه المهنة.

و ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بها الإنسان المتكبر والأنانى لأنّ احد معانى «حائك» بمعنى الشخص الذى يتبختر فى مشيه ويتكبر[۷۶۳] وأخيراً قيل بأنّ المراد بها المعنى الكنائى وهو حياكة الأباطيل والأكاذيب وهذا ما كانت عليه سيرة الأشعث وأبيه؛ ولا تقتصر هذه الكناية على اللغة العربية فحسب بل وردت فى سائر اللغات أيضاً.

والجدير بالذكر فانّ هناك رواية أشارت بوضوح إلى هذا المعنى، فقد ورد الكلام عن الحائك عند الإمام الصادق عليه السلام فقال عليه السلام: «انّه ملعون، الحائك ملعون» ثم قال عليه السلام فى تفسير ذلك «إنّما ذلك الذى يحوك الكذب على الله وعلى رسوله»[۷۶۴].

إمّا أنّ الإمام عليه السلام عده منافقاً فذلك ممّا لا نقاش فيه لأنّ أفعاله فى زمان حكومة الإمام عليه السلام إنّما تشير إلى أنّه كان من رؤوس النفاق، فقد كان يشكل أحد العوامل التى أدت إلى شهادة أميرالمؤمنين على عليه السلام وفشل المسلمين فى معركة صفين ونشوب معركة النهروان وبروز مسألة التحكيم، وقد كان فى أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن أبى بن سلول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله كل واحد منهما رأس النفاق فى زمانه.[۷۶۵] وزيدة الكلام فانّ نفاقه أشهر من نار على علم، وامّا التعبير بالكفار عن أبيه فذلك من مسلمات التاريخ حيث كان من المشركين وقد قتل فى الجاهلية إثر خلافات قبلية.

ثم قال عليه السلام:

«والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام اخرى فما فداك من واحدة منهما مالك ولاحسبك».

فقد أورد ابن أبى الحديد: فأمّا الأسر الذى أشار إليه أميرالمؤمنين عليه السلام إليه فى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۴

الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبى فى «جهرة النسب» فقال: إنّ مُرادا لما قتلت قيساً الأشجّ، خرج الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كِندة مُتساندين على ثلاثة ألوية: على أحد الألوية كَبْس ابن هانى بن شُرَحْبيل بن الحارث بن عدىّ بن ربيعة بن معاوية الأكرمين ويعرف هانى بالمطلع، لأنّه كان يغزو فيقول: اطّلعتُ بنى فلان، فسمِّى المُطلِع، وعلى أحدها القشعم أبو جبر بن يزيد الأرقم. وعلى أحدها الأشعث أبو جبر، وأسر الأشعث، ففُدى بثلاثة آلاف بعير، لم يفدَ بها عربى بعده ولا قبله، وأمّا الأسر الثانى فى الإسلام، فإنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله لما قدمت كنده حجّاجاً قبل الهجرة، عرض رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله نفسه عليهم، كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب، فدفعه بنو وَليعَةَ، من بنى عمرو بن معاوية ولم يقبلوه، فلما هاجر صلى الله عليه و آله وتمهدت دعوته، وجاءته وفود العرب، جاءه وفد كِندة، فيهمالأشعث وبنو وَليعةَ فأسلموا فأطعم رسول اللّه صلى الله عليه و آله بنى وَليعة طُعمة من صدقات حَضْرَ مَوت، وكان قد استعمل على حَضْرَ موت زياد بن لبيد البياضىّ الأنصارى، فدفعها زياد إليهم، فأبوا أخذها، وقالوا: لا ظهر لنا، فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك، فأبى زياد، وَحَدَث بينهم وبين زياد شرّ، كاد يكون حرباً، فرجع منهم قوم إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم.

وفى هذه الوَقعة كان الخبر المشهور عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لبنى وَليعةَ: «لَتَنتَهُنّ يا بنى وَليعة، أولًا بعثَنّ عليكم رجلًا

عديل نفسى، يقتل مُقاتلتكم، وبشيء ذراريكم». قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الإمارة إلّايومئذ، وجعلت أنصب له صدرى رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد على عليه السلام، وقال: «هو هذا».

ثم كتب لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى زياد، فوصولا- إليه الكتاب، وقد توفّى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب، فارتدّت بنو وَليعة، وغنّتْ بَغاياهم، وخَضَبْنَ له أيديهُنَّ.

وقال محمد بن حبيب: كان إسلام بنى وَليعه ضعيفا، وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يعلم ذلك منهم.

ولما حجّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حجّة الوداع، وانتهى إلى فم الشَّعب دخل أسامة بن زيد ليبول، فانتظره رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله، وكان أسامة أسوة أفْطس، فقال بنو وَليعةَ: هذا الحبشى حَبَسنا! فكانت الرّدة فى أنفسهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير: فأمّر أبوبكر زياداً على حضر موت، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم، فبايعوه إلّابنى وليعة، فلما خرج ليقبض الصّدقات من بنى عمرو بن معاوية، أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشيطان بن حُجر، وكانت صفيّة نفيسة، اسمها شذرة، فمنعه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱۵

الغلام عنها، وقال: خذ غيرها، فأبى زياد ذلك ولجّ، فاستغاث شيطان بأخيه العدّاء بن حُجْر، فقال لزياد: دَعْها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك، وَلَجّ الغلامان فى أخذها ولجّ زياد وقال لهما: لا تكونَنّ شذرة عليكما كالبَسوس، فهتف الغلامان: يالعمرو! أُنضام ونُضطهد! إنّ الذليل مَنْ أكِلَ فى داره. وهتفا بمسروق بن معدى كرب، فقال مسروق لزياد أطلقها.

ثم قام فأطلقها، فاجتمع إلى زياد بن لَبيد أصحابه، واجتمع بنو وَليعة، وأظهروا أمرهم، فبيّتهم زياد وهم غارون، فقتل منهم جمعا كثير، ونهب وسبى، ولحق فلّهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: لا- أنصركم حتى تملّكونى عليكم. فملّكوه فخرج إلى زياد فى جمع كثيف، وكتب أبو بكر إلى المهاجر ابن أبى أمية وهو على صنعاء، أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقواالأشعث فهزموه وقُتِل مسروق، ولجأالأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُّجَيْر. فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا، ونزلليلا إلى المهاجر وزياد، فسألهما الأمان على نفسه، حتى قدما به على أبى بكر فيرى فيه رأيه؛ على أن يفتح لهم الحصن ويُسْلِم إليهم من فيه. فحملواالأشعث إلى أبى بكر مؤثقاً فى الحديد، فعفى عنه وزوّجه، أخته أمّ فروة بنت أبى قُحافة وكانت عمياء فولدت للأشعث محمداً وإسمعيل وإسحاق.

تأمّلان

۱- علة هذا الاصطدام العنيف

لعل هنالك من يصاب بالذهول ممن لا يعرف مدى نفاقالأشعث بن قيس لهذا الاصطدام العنيف الذى اتبعه الإمام إزائه حتى خاطبه بلعنة الله والناس أجمعين، ثم وصفه بتلك الصفات الشائنة كقوله:

«حائك بن حائك، منافق بن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام اخرى! فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك! وإن إمراً دلّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف! لحرى أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد»

ألا- أنّ أدنى نظرة إلى التاريخ الاسود الذى حفلت به حياة هذا المنافق لتكشف عن مدى فساده وافساده للوسط الإسلامى، بل كان منقوتا حتى فى الجاهلية، إلى جانب كونه اليد الخبيثه فى تأجيج نار الحروب حتى اشتهر بلقب «عرف النار».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱۶

نعم، ليس هنالك ما يثير الدهشة والعجب فى مخاطبته بهذه الكلمات من قبل الإمام عليه السلام.

والواقع لم يرد فى كلام الإمام عليه السلام سوى بعض صفاته الشنيعة التى تحتم على القائد الحكيم فى ظل بعض الظروف أن يعرى بعض الأفراد المتآمرين أمام أعين الامّة وانظارها لكى لا تنطلى عليها حيله والأعيبه، ولا سيما طائفة الشباب من المجتمع التى قد لا تمتلك الاطلاع الكافى عن حياة وماضى اولئك الأفراد، اذن فقد كانت كلماته من قبل التعريف به للُامّة، لأنّها إنطلقت بدافع الإساءة والسب والشتم.

۲- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق

لعل ما ورد فى الخطبة المذكورة يثير لدى البعض هذا السؤال:

إذا كانت للأشعث بن قيس مثل هذه السابقة فى الغدر والنفاق واثارة القلاقل والمفاسد، لم صبر عليه الإمام عليه السلام ولم يأمر بقتله؟ والجواب على هذا السؤال هو أن تعامل أئمة المسلمين مع عناصر النفاق ينطوى على شىء من التعقيد؛ فقد كانت عناصر النفاق تعيش الازدواج فى تظاهرها بالاسلام وأدائها لشعائره من قبيل الصوم والصلاة وقراءة القرآن، واضمارها للكفر والتآمر والخيانة والفساد وعليه فالاصطدام بهم قد يؤدى إلى إثارة بعض التوترات وتعالى أصوات الرأى العام فى قتل المسلمين من أهل القبلة دون التورع فى سفك دمائهم، ولا سيما بالنسبة للأشعث الذى كان ينتمى إلى قوم وقبيلة؛ الأمر الذى يصعد من حدة التوتر لا محالة.

و قد شهد الرسول صلى الله عليه و آله مثل هذه المشكلة، بل كانت أعظم حدة ممّا هى عليه فى عهد أميرالمؤمنين عليه السلام حتى ورد عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لولا أنّى أكره أنّ يقال ان محمداً صلى الله عليه و آله استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدوه فتلهم لضربت أعناق قوم كثير».[۷۶۶]

أجل فقد كانت هنالك طوائف من المنافقين التى إندست بين صفوف المسلمين، بل كانت تشهد حتى الغزوات إلى جانبهم، ولعل الاصطدام بهم كان يعنى أن الإسلام لايقيم وزنا لدماء المسلمين، ومن هنا لم نسمع بان رسول الله صلى الله عليه و آله أمر بقتل أحدهم طيلة حياته المباركة، إلّاأنّ ذلك لم يكن ليمنع الرسول صلى الله عليه و آله بل القرآن فى التصدى لهم وتعريتهم أمام الامّة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱۷

الخطبة العشرون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه ينفر من الغفلة وينبه إلى الفرار للّه

«فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ ما قَدْ عايَنُوا، وَقَرِيبٌ ما يُطْرَحُ الْحِجابُ! وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وَزُجِرْتُمْ بِما فِيهِ مُزْدَجَرٌ، وَما يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّماءِ إِلَّا الْبَشَرُ».[۷۶۷]

الشرح والتفسير

طرح الحجب قريباً

لقد حذر الإمام عليه السلام الامّة من الغفلة ودعاها للتحلى باليقظة وتدارك ما فاتها من خلال العبودية والطاعة خشية من الأحداث التى تتنظرها فى المستقبل القريب. فقد استهل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱۸

كلامه عليه السلام بالقول

«فانّكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم ۷۶۸] وسمعتم واطعتم».

و الذى يستفاد من الروايات أنّ الإمام عليه السلام قد القى هذه الخطبة فى الجمعة الاولى بعد البيعة، و قد حذر الامّة- طبق رواية الكافى- من خيانة ائمتها ودعاها إلى الوحدة ورص الصفوف واجتناب الاختلاف والفرقة، ثم أورد هذه الكلمات لتأكيد المعنى المذكور. امّا ما هى المواضيع التى سيشهدها الإنسان فى عالم ما بعد الموت بعد أن تطرح عنه الحجب فيسوده القلق والاضطراب والجزع، فهذا ممّا اختلفت فيه أقوال العلماء، لكن المسلم به أن هناك موضوعين مهمين: أحدهما انّه سيرى نتائج أعماله وما ينتظره من جزاء وعقاب عليها، والثانى مدى الحسرة والأسف الذى سيشعر به تجاه تقصيراته التى صدرت منه فى حياته الدنيا، الإمكانات التى كان من شأن إستثمارها أن تبلغ به السعادة والفلاح والفوز بالقرب الإلهى ومجاورة الرحمن، غير أنه ضيع كل تلك الفرص، والادهى من ذلك لاسبيل إلى الرجوع إلى الحياة ثانية.

ثم قال عليه السلام: «ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب» نعم أنّ هذه الحجب هى التى جعلتكم تغطون فى هذه الغفلة وتتعلقون بالدنيا وتغترون بها، ولكن اعلموا إنّ هذه الحجب آيلة إلى الزوال وسترون الاشياء والحقائق كما هى حيث لاينفع حينها القلق والجزع والفزع، كما ليس هنا لك من مجال للتوبة.

وهنا يبرز هذا السؤال: لم لا يطرح البارىء سبحانه هذه الحجب عن الإنسان فى الحياة الدنيا لينتبه إلى نفسه ولا يعيش السكر والغفلة؟ يبدو أنّ الآيات القرآنية قد تكفّلت بالإجابة على هذا السؤال: فلو طرحت هذه الحجب ورأى الناس الحقائق على صورتها فانّ أدنى تمرد سيؤدى إلى مواجتهم للعذاب الشديد حيث لم يعدّ هنالك من عذر للتقصير.

فقد صرّحت الآية الثامنة من سورة الانعام و «ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۱۹

و بغض النظر عن هذا الأمر فانّ الإيمان من جراء مشاهدة الحقائق المترتبة على ما بعد الموت سوف لن يكون مدعاة للعبودية والطاعة وسيكون نوعاً من الاجبار والاضطرار، كما نشاهد ذلك فى الأفراد- حتى الصبية منهم- حين يبدون ردود فعلهم المباشرة إذا ما إقتربت أيديهم من النار، فاجتناب المعصية على هذا الضوء سوف لن يكون بدافع من الورع والتقوى و العبودية أبداً.

أمّا قوله عليه السلام

«قريب ما يطرح الحجاب»

فعمر الإنسان مهما كان ليس سوى لحظات عابرة مقارنة بعمر الدنيا وزمان الآخرة. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مسألة مهمّة بهذا الشأن وهى أنّكم وإن لم تروا عالم ما بعد الموت، إلّاأنّ الأدلة عليه قائمة لديكم ومعالمه واضحة أمامكم

«ولقد بصرتم ان ابصرتم، واسمعتم ان سمعتم، وهديتم إن اهتديتم».

وعليه فليس هنالك من عذر لمن ضل السبيل وأخطأ المسيرة، فالحقائق المرتبطة بعالم الآخرة وان حجبت عنكم، إلّاأنّكم على علم بها من خلال ثلاثة طرق: الأول من الاعتبار بما تشاهدونه فى هذا العالم، فاثار الفراعنة وقبور الأسلاف لأدلة واضحة على العاقبة المريرة التى تنتهى إليها مسيرة الأقوام الظالمة والتى تشير إلى أنّ الله بالمرصاد، كما لديكم الكتب السماوية و الرسالات النبوية، أضف إلى ذلك فانّ الأدلة العقلية ليست بالقليلة وهى تقودكم بكل بساطة إلى المعاد واليوم الآخر.

و عليه فعبارته عليه السلام إنّما تشير إلى الأدلة الحسية والنقلية والعقلية.

كما يحتمل أن تكون الجملة الاولى إشارة إلى الأدلة الحسية والعقلية (لأنّ البصيرة تطلق على الإدراك العقلى أيضا) والجملة الثانية تلمح إلى الأدلة النقلية، بينما تشير الجملة الثالثةالهداية الناجعة من هذه الادلة. ثم قال عليه السلام:

«وبحق أقول لكم: لقد جاهرتكم العبر»

فالعالم مليىء بحوادث العبرة والاعتبار التى لا تخفى على أحد، فتلك آثار الفراعنة والأقاصرة والأكاسرة التى تخبر عن أحوال من كان من الامم السالفة. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ* وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ»[۷۶۹]

و قال ايضا: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ* كَذ لِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ». وقال فى موضع آخر «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ»[۷۷۰].

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۲۰

فقد شحن القرآن بهذهالآيات إلى جانب الروايات الإسلامية التى أكدت هذا المعنى.

الادباء والشعراء تعرضوا لهذه الحوادث فى نتاجانهم ممّا يثبت حقيقة قوله عليه السلام:

«لقد جاهرتكم العبر»

. ثم قال عليه السلام:

«و زجرتم بما فيه مزدجر»[۷۷۱]

. ولعل هذا الزجر يستند إلى لسان التكوين الذى ينطلق من أعماق التاريخ واخبار الماضين كما صور ذلك القرآن الكريم «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ»[۷۷۲].

أو عن طريق لسان التشريع والوحى الذى ورد فى الكتب السماوية. وعليه فقد تمت الحجة تكويناً وتشريعاً ولم يعدّ هنالك من عذر.

ثم قال عليه السلام:

«و ما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلّا البشر».

فما هذا الانتظار؟ أتتوقعون أن تهبط عليكم الملائكة ويتلون عليكم الآيات؟ فقد تشدق بذلك الكفار على عهد النبى صلى الله عليه و آله قائلين: «لَوْ ما تَأْتِينا بِالمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ»[۷۷۳]. فرد عليهم القرآن بالقول: «ما نُنَزِّلُ المَلائِكَةَ إِلّا بِالحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ»[۷۷۴] وخلاصة القول فان الله قد أتم حجته عن طريق المشاهدات الحسية لآثار الامم السابقة ومن خلال العقل وأخيراً الوحى، وليس لاحد أن يخرج عن سبيل الطاعة بحجة

«لولا أنزل علينا الملائكة».

ملاحظة: عالم ما بعد الموت

صحيح أنّ هنالك الاغشية الغليظة التى تحول بيننا وبين ذلك العالم وأنّ الحجب الظلمانية لا تدعنا نرى حوادث عالم البرزخ (و ينبغى أن يكون الأمر كذلك؛ فلو طرحت الحجب لفقد الامتحان حرارته ولا نطلق الجميع فى حالة شبه إضطرارية نحو الحق فلم يعدّ هنالك من معيار لتمييز المطيع من العاصى)، غير أنّ الآيات القرآنية والروايات الإسلامية الواردة عن أئمة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۲۱

العصمة عليه السلام قد أشارت إلى طبيعة هذا العالم المرعب، كما بينت مدى الهلع الذى يعترى الإنسان حين مشاهدته لملك الموت وحين يرى ما عمل حاضرا أمامه، فينطلق صوته

«ربّ ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت»[۷۷۵]

فيأتيه الجواب بالسلب، فليس هنالك من سبيل إلى الرجعة كاستحالة عودة الجنين إلى رحم امّه.

و قد أشار الإمام على عليه السلام فى بعض خطبه فى نهج البلاغة إلى هذا الأمر، من ذلك أنّه قال:

«يفكر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره ويتذكر أموالًا جمعها اغمض فى مطالبها ...

واشرف على فراقها تبقى لمن ورائه»[۷۷۶]

أجل أنّ كل هذا الجزع والفزع من جراء مشاهدة ذلك العالم الخطير ورؤية ملك الموت. وقد أسمعنا أولياء الله من ائمة الدين ما ينبغى سماعه عن تلك المنازل المرعبة، إن كانت لنا آذانا صاغية.

«اللّهم رزقنا عيناً بصيرة واذناً سميعة وقلباً حافظاً، لنتزود لتلك الدار قبل وفاتنا وفوات الأوان، فنحلق إلى ذلك العالم بقلب مطمئن ونفس واثقة ونفوز بقرب اوليائك من الشهداء والصديقين «و حسن اولئك رفيقا».

اللّهم تقبل منّا هذا الجهد المتواضع ومن علينا باكماله بفضلك ورحمتك.

الختام

النصف من شهر رمضان المبارك

الولادة الميمونة للإمام المجتبى عليه السلام

سنة ۱۴۱۶ الموافق ۷/ ۳/ ۱۹۹۵ م

---

[۱] (۱) الغدير ۴/ ۱۸۱.

[۲] (۱) مذكرات العلّامة الشريف الرضى/ ۲۹.

[۳] (۱) النقابة: موضوعة على صيانة ذوى الأنساب الشريفة عن ولاية ولا يكافئهم فى النسب ولا يساويهم فى الشرف، ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى وهى على ضربين: خاصة وعامة، وأمّا الخاصة فهو أن يقتصر بنظره على مجرد النقابة من غير تجاوز لها إلى حكم وإقامة حد فلا يكون العلم معتبراً فى شروطها ويلزمه فى النقابة على أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقاً:

۱- حفظ أنسابهم من داخل فيها وليس هو منها، أ وخارج عنها.

۲- تمييز بطونهم ومعرفة أنسابهم حتى لا يخفى عليه منه يتوأب.

۳- معرفة من ولد منهم من ذكر أوانثى فيثبته.

۴- أن يأخذهم من الاداب بما يضافى‌شرف أنسابهم وكرم محتدهم لتكون حشمتهم فى النفوس موقورة وحرمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيهم محضورة.

۵- أن ينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم من المطالب الخبيثة.

۶- أن يكفّهم عن ارتكاب المآثم.

۷- أن يمنعهم من التسلط على العامة لشرفهم.

۸- أن يكون عوناً لهم فى استيفاء الحقوق.

۹- أن ينوب عنهم فى المطالبة بحقوقهم العامة.

۱۰- أن يمنع أمائهم أن يتزوجن إلّامن الأكفاء.

۱۱- أن يقوم ذوى الهفوات منهم فيما سوى الحدود.

۱۲- مراعاة وقوفهم بحفظ اصولها وتنمية فروعها.

[۴] (۱) أغلب ما أوردناه بالنسبة لحياة السيد الرضى قد اقتبسناه من كتاب الغدير ۴/ ۱۸۱- ۲۱۱، إضافة إلى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، عبقرية الشريف الرضى، سفينة البحار ومذكرات العلامة الشريف الرضى.

[۵] (۱) يقع شرحه فى عشرين مجلداً وقد استغرق فى تأليفه أقل بقليل من خمس سنوات وهى مدّة خلافة على عليه السلام على حد تعبيره.

[۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱۱/ ۱۵۳.

[۷] (۲) هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة المتوفى عام ۳۷۴.

[۸] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۱۴.

[۹] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۸۴.

[۱۰] (۵) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۴.

[۱۱] (۱) على صوت العدالة الإنسانى ۱/ ۴۷.

[۱۲] (۲) نهج البلاغة، قصار الكلمات ۸۱.

[۱۳] (۳) الطراز ۱/ ۱۶۵- ۱۶۸.

[۱۴] (۱) نظرات فى القرآن/ ۱۵۴، طبق نهج البلاغة ۱/ ۹۱.

[۱۵] (۲) نقلًا عن كتاب(الجريدة الغيبية) عن مصادر نهج البلاغة/ ۱.

[۱۶] (۳) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۹۶.

[۱۷] (۴) تذكرة الخواص، الباب السادس/ ۱۲۸.

[۱۸] (۱) كشكول الشيخ البهائى ۳/ ۳۹۷.

[۱۹] (۲) عبقرية الشريف الرضى ۱/ ۳۹۶.

[۲۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱۶/ ۱۴۶.

[۲۱] (۲) العبقريات ۲/ ۱۳۸(طبعة دارالكتاب اللبنانى.

[۲۲] (۱) العبقريات ۲/ ۱۴۴.

[۲۳] (۲) العبقريات ۲/ ۱۴۵.

[۲۴] (۳) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۹۰.

[۲۵] (۴) جولة فى نهج البلاغة/ ۱۸ و ۱۹.

[۲۶] (۵) أصول الكافى ۱/ ۱۳۶.

[۲۷] (۶) البيان/ ۹۰.

[۲۸] (۱) الإمام على صوت العدالة الإنسانية ۳/ ۱۷۷.

[۲۹] (۲) الخطبة الشقشقية(الخطبة ۳).

[۳۰] (۳) الرسالة رقم ۴۵.

[۳۱] (۴) الخطبة الاولى وخطبة الأشباح/ ۹۱ وسائر الخطب بهذا الشأن.

[۳۲] (۵) الخطب ۱۰۹- ۱۱۱- ۱۱۳ وما شابهها.

[۳۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۰۲.(بتلخيص)

[۳۴] (۱) مروج الذهب ۲/ ۴۱۹، طبعة دار الهجرة قم.

[۳۵] (۲) تذكرة الخواص/ ۱۲۸.

[۳۶] (۳) البيان والتبيين ۱/ ۸۳.

[۳۷] (۴) مشاكلة الناس لزمانهم/ ۱۵.

[۳۸] (۱)

۱- البيان والتبيين للجاحظ.

۲- تأريخ الطبرى.

۳- الجمل للواقدى.

۴- المغازى لسعيد بن يحيى الاموى.

۵- المقامات لأبى جعفر الاسكافى.

۶- المقتضب للمبرد.

۷- حكاية أبى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام.

۸- حكاية ثعلب عن ابن الاعرأبى.

۹- خبر ضرار الضبابى.

۱۰- رواية أبى جحيفة.

۱۱- رواية كميل بن زياد النخعى.

۱۲- رواية مسعدة بن صدقة لخطبة الاشباح عن الصادق جعفر بن محمد.

۱۳- رواية نوف البكالى.

۱۴- ماذكره أبو عبيد القاسم بن سلام من غريب الحديث.

۱۵- ماوجد بخط هشام بن الكلبى.

[۳۹] (۱) الغدير ۴/ ۱۸۶- ۱۹۳.

[۴۰] (۲) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة/ ۱۰(جدير ذكره أن عدد الشروح التى وردت فى مصادر نهج البلاغة مئة وواحد لا مئة وعشرة).

[۴۱] (۱) الذريعة ۱۴/ ۱۱۱- ۱۶۰.

[۴۲] (۱) وردت هذه الخطبة(ليست بصورة كاملة بل بعضها) فى عدة كتب قبل السيد الرضى(ره) و بعده. وكان ممن رواها قبله: ۱- المرحوم الصدوق فى كتاب التوحيد ۲- المرحوم ابن شعبة الحرانى فى كتاب تحف العقول. أما من نقلها بعده: ۱- الواسطى فى كتاب عيون الحكمة والمواعظ ۲- المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج ۳- ابن طلحة فى كتاب مطالب السؤال ۴- القاضى القضاعى فى دستور معالم الحكم ۵- الفخر الرازى فى التفسير الكبير ۶- الزمخشرى فى ربيع الأبرار ۷- القطب الراوندى فى منهاج البراعة ۸- المرحوم العلامة المجلسى فى ج ۴، ۱۱، ۱۸، ۵۷، ۷۷، ۹۲ و ۹۹ من بحارالانوار. طبعاً هناك تفاوت بين العبارات التى وردت فى الكتب المذكورة مع ما ورد فى نهج البلاغة.

[۴۳] (۱) كثر الكلام بين اللغوين ومفسرى القرآن ونهج البلاغة بشأن معنى الحمد والمدح والشكر، غير أنّ المشهور بينهم أنّ الحمد هو كل مدح إزاء الإعمال الحسنة الاختيارية؛ بينما ينطوى المدح على مفهوم أوسع يشمل الإعمال الاختيارية وغير الاختيارية، أمّا الشكر فأخص من المدح ويقتصر على إيصال أحدهم نعمة إلى آخر فيشكره على تلك النعمة.(من أراد المزيد فليراجع مجمع

البحرين، لسان العرب، المفردات، شرح ابن الهيثم وشرح العلّامة الخوئى). بينما صرّح بعض مفسرى القرآن ونهج البلاغة كالزمخشرى فى الكشاف وابن أبى الحديد فى شرحه أن« الحمد والمدح أخوان، لا فرق بينهما)، ويبدو أن التفسير الأول أصح.

[۴۴] (۲) أورد العلّامة المجلسى ضمن توضيحه لبعض الأخبار فى البحار، تعليقاً على كلام المحقق الطوسى هذا الحديث« ما عبدناك حق عبادتك وما عرفناك حق معرفتك» دون ذكر سنده. بحار الانوار ۶۸/ ۲۳.

[۴۵] (۱) اصول الكافى ۲/ ۹۸، ح ۲۷.

[۴۶] (۲) المصدر السابق/ ۹۷، ح ۱۸.

[۴۷] (۱)« همم» جمع همة تعنى فى الأصل الذويان والجريان والحركة ولهذا يطلق الهم حيث بسبب ذويان الجسم الإنسان وروحه، ثم أطلق على كل أمر مهم أو ما يشغل فكر الإنسان(ورد شبه ذلك فى المفردات).

« غوص» تعنى فى الأصل الغمس فى الماء، ثم أطلقت على الدخول فى كل عمل مهم.

« فطن» جمع فطنة على وزن فتنة الفهم و الذكاء حسب لسان العرب.

[۴۸] (۲)« الأجل» بمعنى انتهاء الشىء كعمر الإنسان وما إلى ذلك كالعقود والعهود.

[۴۹] (۱)« فطر» من مادة« فطر» على وزن بمعنى شق الشىء من الطول ومنه الافطار فى الصوم

[۵۰] (۲)« وتد» من مادة« وند»(على وزن وقت) بمعنى إثبات الشىء ولذلك يطلق الوتد على المسمار الذى يثبت فى الأشياء ويمنحها الثبات أيضاً، وأحياناً يطلق« الوتد» على وزن« الوقت».

[۵۱] (۳)« الصخور» جمع« صخرة»، وقال صاحب لسان العرب تعنى الحجر الكبير الصلب.

[۵۲] (۴)« ميدان» من مادة« ميد» على وزن(صيد) بمعنى الحركة والاضطراب وميدان على وزن(ضربان) بهذا المعنى أيضاً و« ميدان» على وزن(حيران) وجمعه ميادين بمعنى الفضاء الواسع.

[۵۳] (۵) سورة الأعراف/ ۵۷.

[۵۴] (۶) سورة النحل/ ۱۵.

[۵۵] (۱) لقد ذهب المرحوم العلّامة المعروف« محمد جواد مغنية» فى كتابه« فى ظلال نهج البلاغة» إلى أنّ هذه المعرفة تعنى الطاعة والانقياد لأوامر اللَّه ونواهيه، وهذا هو المعنى الذى اختاره من قبله الشارح الخوئى- رضوان اللَّه عليه، فان كان مرادهما الطاعة بالمعنى الشامل للكلمة بما فيها الامور العقائدية صح ذلك، وإن اقتصر على الجوانب العملية فقط يرد عليهما ما أوردناه سابقاً.

[۵۶] (۱) منهاج البراعة ۱/ ۳۲۱. وقد نقل الشارح الخوئى بأنّ لصدر الدين الشيرازى مثل هذا الاعتقاد فى شرح الكافى.

[۵۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۱/ ۱۲۲.

[۵۸] (۱) الأشاعرة هم أتباع« أبو الحسن الأشعرى» الذين يؤمنون بالمعانى، والمراد بالمعانى هو أن مفهوم الصفات من قبيل العالمية والغالبية و ... كالذات الإلهية قديمة أزلية، كما أنّها فى نفس الوقت غير الذات الإلهية، وعليه فهم يعتقدون بأزلية بعض الأشياء، بعبارة اخرى يقولون بتعدد القدماء، وهى العقيدة التى تتنافى تماماً والوحدانية الخالصة، ولذلك ينفى أتباع أهل البيت عليهم السلام- على ضوء ما تلقوه عنهم من تعاليم كالذى جاء فى هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة وكلمات أئمة العصمة عليهم السلام- هذه المعانى التى تمثل الصفات الزائدة على الذات، وقد أشارت العبارة« لا شريك له ولا معانى» لهذا الأمر.

[۵۹] (۱) بحار الأنوار ۶۶/ ۲۹۳.

[۶۰] (۱) سورة طه/ ۵.

[۶۱] (۲) لقد ذهب بعض شرّاح النهج إلى أنّ العبارتين المذكورتين إنّما تبينان موضوعاً واحداً، بينما اعتبر البعض الآخر- مثل ابن أبى الحديد- أن قوله عليه السلام:« كائن لا عن حدث» إشارة إلى الحدوث الزمانى فى العبارة الاولى، ولم ينف حدوثه الذاتى الا فى

كلمته الثانيـة بغض النظر عن الزمـان لأنّه واجب الوجود.(شـرح نهـج البلاغـة لابن أبى الحديـد ۱/ ۷۹). فى حيـن ذهـب آخرون إلى عكس ذلك ففسروا العبارة الاولى بنفى الحدوث الذاتى أو الذاتى والزمانى، والعبارة الثانية بنفى الحدوث الزمانى.(شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ۱/ ۱۲۷). ولكن لم يقم دليل واضـح على أى من هـذا التفاوت، لأن مفردة الحـدوث عادة ما تطلق على الحـدوث الزمانى، كما يمكن حملها على الحـدوث الـذاتى أيضاً، وهكـذا يمكن إطلاق نقطـة العـدم على العـدم الـذاتى والتى غالباً ما تطلق على العـدم الزمانى. وعليه تبـدو هاتان العبارتان متأكدتان فى معناهما وهو نفى الحدوث الزمانى والذاتى؛ على أنّهما تنفيان أى حدوث وعدم عن الذات الإلهية سواءً بالنسبة للذات والزمان.

[۶۲] (۱) هناك احتمالان بشأن« إذ» الواردة فى العبارة؛ الاحتمال الأول: هل هى ظرفية تشـير إلى عدم وجود شىء خلق فى الأزل ولم تكن سوى ذاته المقدسة ليأنس بها ويستوحش لفقدها؟ أم إن« إذ» هنا بمقام التعليل، يعنى كان وما زال واحداً لأنّه لم يكن هناك من وجود، حيث لا يحتاج إلى أحد؟

يبـدو أنّ الاحتمـال الثـانى هو الأقوى. كمـا إن« لا» فى قوله« لا يسـتوحش» زائـدة وردت للتأكيـد، بينما ذهب البعض إلى أنّها جملة استئنافية.

[۶۳] (۱) هـذه هى عقيـدة أغلب المتصوفـة، وشاهـد ذلك العبارة المشـهورة التى يطلقها زعماء هـذه الفرقـة« إنى أنا اللّه» وأعظم من ذلك ما يرددوه من قولهم« سبحانى ما أعظم شأنى»، امّا البعض الآخر فقد نظم أبياتاً من الشـعر وصرح فيها بقوله« أن الصنمية والوثنية هى ذات العبودية»! كما ورد فى الأشـعار الطائشة للمولوى التى تصور اللّه بشـكل صـنم عيّار(وهو عبارة عن موجود مشكوك) يتلبس يوماً بهيئة آدم! ويوماً بهيئة نوح وآخر موسى وعيسى! وأخيراً بشكل محمد صلى الله عليه و آله كما يتلبس بهيئة على وسيفه ذو الفقار! وبالتالى بشكل منصور الذى اعتلى أعواد المشنقة!(نقلًا بتلخيص عن العارف الصوفى وماذا يقولان/ ۱۱۷).

[۶۴] (۱)« الغلاة» هم المغـالون فى الأئمـة عليهم السـلام ولا سـيما على عليه السـلام فعـدوه هو اللّه أو أنّه اتحـد به. و« الخوارج» هم أصـحاب النهروان الذين أسماهم النبى صلى الله عليه و آله بالمارقين وقد قتلهم الإمام شر قتلة فى النهروان. وأمّا« النواصب» فهم أعداء أهل البيت عليهم السلام.

[۶۵] (۲) العروة الوثقى، بحث نجاسة الكافر، المسألة ۲.

[۶۶] (۱) للوقف على المزيـد راجع الكتاب مصـباح الهـدى ۱/ ۴۱۰ للمرحوم آيـة الله الشـيخ محمـد تقى الآملى(الفقيه والفيلسوف المعروف) و كذلك تقريرات المرحوم تقريرات المرحوم آية الله الخوئى ۳/ ۸۱- ۸۲.

[۶۷] (۲) ترجمة و تفسير نهج البلاغة، الاستاذ الجعفرى ۲/ ۶۴.

[۶۸] (۱) سورة ق/ ۱۶.

[۶۹] (۲) سورة الحديد/ ۴.

[۷۰] (۳) سورة المجادلة/ ۷.

[۷۱] (۴) سورة النور/ ۳۶.

[۷۲] (۵) سورة الانفال/ ۲۴.

[۷۳] (۶) بحارالأنوار ۳/ ۲۸۹.

[۷۴] (۱) توحيد ابن خزيمة/ ۲۱۷(طبق نقل بحوث فى الملل والنحل) ۱/ ۱۴۵.

[۷۵] (۲) صحيح البخارى ۶/ ۵۶. تفسير سورة النساء؛ سنن ابن ماجة ج ۱ مقدمة الباب ۱۳ ح ۱۷۷.

[۷۶] (۳) للوقوف على هذه الروايات الموضوعة يقيناً وكذلك تفنيد هذه الروايات واستعراض الأدلة التى تضمنتها الآيات والروايات المعتبرة التى صرّحت باستحالة رؤية اللّه فى الدنيا والآخرة، راجع من التفسير الموضوعى للقرآن نفحات القرآن ۴/ ۲۴۱- ۲۵۱.

[۷۷] (۴) سورة الانعام/ ۱۰۳.

[۷۸] (۵) سورة الاعراف/ ۱۴۳.

[۷۹] (۶) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱.

[۸۰] (۷) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۵.

[۸۱] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۴۹.

[۸۲] (۱) مفتاح السعادة فى شرح نهج البلاغة ۱/ ۱۳۹.

[۸۳] (۲) أصول الكافى/ ۱ باب أدنى المعرفة، ح ۱؛ أيضا ۱، باب النهى عن الصفة، ح ۱؛ أيضاً ۱، باب جوامع التوحيد، ح ۴.

[۸۴] (۱)« أنشأ» من مادة« إنشاء» بمعنى الايجاد وان ذكروا لها عدّة معان.

[۸۵] (۲)« رويّة» بمعنى الرى من الماء كما ورد فى مقاييس اللغة، الا انّها تستعمل بمعنى التفكير المصحوب بالدقة. وكأنه يروى فكره بشأن تلك المسألة، أو رى تلك المسألة بفكره واداء حق التفكير.

[۸۶] (۳)« أجال» من مادة جولان بمعنى الحركة والتجوال.

[۸۷] (۴)« همامة»: لقد ذكر شرّاح ومفسروا نهج البلاغة لهذه المفردة عدّة معان. فقد عناها البعض بالرغبة القطعية الباطنية بالشىء بحيث ينزعج لفقدانها(شرح ابن ميثم البحرانى ۱/ ۱۳۲). بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها تعنى الترديد فى القيام بعمل(منهاج البراعة ۱/ ۵۱). وقال آخرون انّها تعنى الاهتمام بالشىء(شرح مغنية ۱/ ۲۷).

وقال ابن أبى الحديد فى شرحه المعروف لنهج البلاغة: وقوله عليه السلام:« ولا ـ همامة نفس اضطرب فيها» فيه رد على المجوس والثنوية القائلين بالهمامة الذين يعتقدون بأنّ النورالأعظم حين هم بمجابهة الظلمة بدا عليه الشك والترديد فخرج من ذاته بشىء يسمى بالهمامة.

أمّا فى اللغة- كما ورد فى لسان العرب- فالهمامة تعنى الضعف والوهن والفتور ولذلك يطلق على كل رجل أو امرأة عجوز اسم« هِم» و« هِمة».

ويبدو ممّا ذكر أن« الهمامة» الواردة فى العبارة إنّما تعنى الضعف والعجز فى العزم والإرادة بحيث يتعذر على الشخص اتخاذ القرار، أو أنّه يتخذ القرار بصعوبة.

[۸۸] (۱) سورة يس/ ۸۲.

[۸۹] (۱)« لام» و« لائم» من مادة« لأم» بمعنى الجمع والإصلاح وضم شىء إلى شىء آخر والملائمة بينهما، ومن هنا اطلق على الدرع اسم« لأمة» على وزن« رحمة» لالتحام حلقاتها وتداخلها مع بعضها.

[۹۰] (۲)« غرّز» من مادة« غرز» على وزن« قرص» تعنى فى الأصل غرس الابرة أو الجعل والادخال، ثم اطلقت فيما بعد على الطبائع التى أودعت الإنسان أو سائر الكائنات الحية، وكأنّ هذه الطبائع بمثابة البذور التى غرست فى أرض الوجود الإنسانى.

[۹۱] (۱)« أشباح» جمع« شبح» طبق ما أورده أغلب أرباب اللغة بمعنى الشخص فى الأصل، كما وردت بمعنى ظهور الشىء واتضاحه، ومن هنا يطلق الشبح اليوم على الموجود الذى يتراءى ظله ثم يظهر فجأة.

[۹۲] (۱) سورة طه/ ۵۰.

[۹۳] (۲) سورة الروم/ ۳۰.

[۹۴] (۳) سورة الحجر/ ۲۱.

[۹۵] (۱)« قرائن» جمع« قرينة» بمعنى المصاحب والرفيق، ولذلك يقال لزوجة الرجل قرينته(الصحاح والقاموس وسائر الكتب اللغوية)، بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغة كابن أبى الحديد إلى أنّ القرائن جمع قرونة(على وزن معونة) وهى النفس ولكن يبدو

المعنى الأول أنسب بالاستناد إلى التعبيرات التى وردت فى الجملة.

[۹۶] (۲)« أحناء» جمع« حِنْو» على وزن فعل« وحنو» على وزن حرف وتطلق على كل شىء فيه اعوجاج وانحناء- على ضوء ماورد فى المقاييس ولسان العرب- كعظم الفك والاضلاع. ثم وردت بمعنى الجوانب أيضاً(وذلك لأن جوانب وأطراف الأشياء غالباً ما تشتمل على انحناءات).

[۹۷] (۳) لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الضمائر التى وردت فى هذه العبارات إنّما تعود إلى الأشياء لا الغرائز كما صرح بذلك بعض شرّاح نهج البلاغة؛ وذلك لعدم وجود الانسجام بين الاحتمال الثانى ومضمون الجملة.

[۹۸] (۱) لقد أورد ابن ميثم هذا الموضوع بصيغة اشكال ثم أجاب عنه بان أسماء اللَّه أكثر من هذا العدد وقد ذكر عدّة شواهد على مدعاه(شرح نهج البلاغة، لابن ميثم ۱/ ۱۳۷). جدير بالذكر ان هذا الحديث قد ورد فى الدر المنثور عن صحيح البخارى وصحيح مسلم ومسند أحمد وسنن الترمذى وسائر المصادر الروائية ۳/ ۱۴۷(نفحات القرآن ۴/ ۴۶).

[۹۹] (۲) أصول الكافى ۱/ ۹۱، باب النسبة، ح ۲ وص ۱۱۳، باب حدوث الأسماء، ح ۲.

[۱۰۰] (۱) إنّ من أورد هذا الجواب لحل الإشكال المذكور قد واجه هذا السؤال: وهو أنّ لازمة هذا الكلام أنّ ليس للَّهمن علم بكثرة الموجودات بوصف الكثرة قبل وجودها، لأنّه ليس هنالك من كثرة فى ذاته، أو بتعبير آخر، أنّ علمه متفاوت بالموجودات قبل وجودها وبعده: فقد كان سابقاً على نحو العلم الإجمالى، ولاحقاً على نحو العلم التفصيلى، والعجيب أنّ بعضهم قد اعترف بهذا التفاوت.

[۱۰۱] (۱)« فتق» على وزن مشق بمعنى الشق والضجوة بين شيئين وهى ضد الرتق(كما أورد ذلك الراغب فى مفرداته). ويقال للصبح« فتيق»، لأنّه يشق الافق ويظهر، وقال صاحب لسان العرب انّه يطلق« فتيق اللسان» على الفرد الخطيب والفصيح اللسان، لأنّه يتحلى بلسان طلق ذرب.

[۱۰۲] (۲)« أجواء» جمع« جو» بمعنى- حسب قول المفردات ولسان العرب- الفضاء الحاصل بين السماء والأرض.

[۱۰۳] (۳)« شق» بمعنى الفتحة فى الشىء، ومن هنا اطلق الشقاق على الاختلاف الذى يحدث بين الناس ويفصلهم عن بعضهم البعض الآخر.

[۱۰۴] (۴)« أرجاء» جمع« رجا»(دون همزة» تعنى حسب« مقاييس اللغة» أطراف البئر أو أطراف أى شىء آخر، الرجاء بالهمزة فيعنى الأمل. بينما يعتقد البعض من قبيل كاتب« التحقيق» أنّ معناها الأصلى الشىء الذى يرجى وقوعه فى الجوانب الأطراف، ولذلك يطلق على هذه الجوانب والأطراف المرجوة« رجا» دون همزة.

[۱۰۵] (۵)« سكائك» جمع« سكاكة» على وزن خلاصة، قال صاحب لسان العرب أنّها تعنى الفضاء الواقع بين السماء الأرض، وقال ابن أبى الحديد هى أعلى الفضاء.

[۱۰۶] (۶)« الهواء» بمعنى الخالى والساقط، ولذلك يطلق لفظ الهواء على كل شىء خالٍ، ومن ذلك الفضاء بين السماء والأرض. وأمّا سبب إطلاق لفظة« الهوى» على الشهوات والنزوات النفسية فهى أنّها تشكل مصدر سقوط الإنسان فى الدنيا والآخرة(مقاييس اللغة، مفردات الراغب، لسان العرب). ويبدو ان اطلاق هذه المفردة على الغاز اللامرئى المركب من الاوكسجين والاوزون إنّما هو من الاستعمالات الجديدة والذى يناسب أيضاً المعنى الأصلى، لأنّه يبدو موضعاً خالياً(و إن ورد بهذا المعنى فى بعض الروايات أيضاً).

[۱۰۷] (۱) توحيد الصدوق/ ۶۶، كما ورد شبيه هذا المضمون فى/ ۱۴۵- ۲۲۶.

[۱۰۸] (۱) كل شىء يدور حول نفسه انّما يتعرض إلى قوة تحاول طرده من المركز، كالشعلة التى ندورها بايدينا فاذا تركناها فجأة قذفت إلى نقطة بعيدة، وما هذا إلّالوجود قوة الطرد المركزية، وكلما تضاعفت هذه القوة فان شدة القذف خارجاً تتناسب طردياً وازدياد تلك القوة.

[۱۰۹] (۲)« متلاطم» من مادة« لطم» على وزن ختم بمعنى صفع الوجه باليد، ثم استخدمت هذه المفردة لاحقاً بمعنى اصطدام الأمواج مع بعضها.

[۱۱۰] (۳)« التيار» بمعنى أمواج البحر التى يقذف بها الماء، وقد أطلقها البعض(مقاييس اللغة ولسان العرب) على كل نوع من الأمواج.

[۱۱۱] (۱)« متراكم» من مادة« ركم» على وزن رزم بمعنى تراكم شيء والقاء بعضه على بعض، وتطلق على الغيوم والرمال والمياه وحتى الجموع الغفيرة من الناس التى تتجمع فى موضع(المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[۱۱۲] (۲)« زخار» من مادة« زخر» و« زخور» بمعنى الامتداد والارتفاع، كما يطلق على امتلاء البحر وتلاطمه.

[۱۱۳] (۳)« عاصفة» من مادة« عصف» على وزن عصر بمعنى الخفة والسرعة، ومن هنا يطلق العصف على قشور الحبوب التى تكسر بسرعة، كما يقال« عاصف» و« معصف» للشيء الذى يحطم سائر الأشياء وينعمها(المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[۱۱۴] (۴)« زعزع» على وزن زمزم بمعنى الحركة والاضطراب والاهتزاز، كما تستعمل بمعنى الشديد(مقاييس اللغة ولسان العرب).

[۱۱۵] (۵)« قاصفة» من مادة« قصف» على وزن حذف بمعنى كسر الشيء، ومن هنا يطلق القاصف على العواصف الشديدة التى تكسر السفن فى البحار وكذلك الرعد والبرق الشديد الكاسر(المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[۱۱۶] (۶)« شدّ» على وزن مدّ بمعنى قوة الشيء وقدرته، ولذلك يصطلح بالشديد على الفرد القوى(ولا سيما القوى فى الحرب). كما تستعمل هذه المفردة بمعنى ربط العقدة وأحكام وثاقها(سواء كانت فى البدن أو فى القوى الباطنية والروحية أو فى المصيبة والعذاب).(لسان العرب، المفردات ومقاييس اللغة).

[۱۱۷] (۷)« فتيق» من مادة« فتق» ذكرناها سابقاً.

[۱۱۸] (۸)« دفيق» من مادة« دفق» على وزن دفن بمعنى دفع الشيء إلى الإمام، كما تستعمل بمعنى السرعة. ولذلك يطلق« الادفق» على الناقة السريعة.

[۱۱۹] (۱)« اعتقم» من مادة« عُقم» على وزن قفل بمعنى الجفاف المانع من قبول الأثر، ويطلق العقيم على المرأة التى لا تتقبل نطفة الرجل، كما تأتى بمعنى الضيق أيضاً كما ورد فى المفردات ولسان العرب ومقاييس اللغة.

[۱۲۰] (۲) مهبها من الهبوب على وزن السجود الحركة بالنسبة للسيف والاضطراب ومن هنا تطلق على هبوب الرياح.

[۱۲۱] (۱)« مرب» من مادة« ربّ» التى تعنى فى الأصل التربية، وتطلق الرب على المربى والمالك والخالق(وهو مصدر له معنى الفاعلية) ويفيد معنى الاستمرار والملازمة إذا جاء من باب الأفعال(إرباب) لأنّ التربية متعذرة دون الاستمرار).

وبناءً على هذا فانّ« مربّ» مصدر ميمى بمعنى الدوام والبقاء.

[۱۲۲] (۲)« أعصف» من مادة« عصف» على وزن عصر، بمعنى السرعة والحركة والشدة كما ذكرنا.

[۱۲۳] (۳)« تصفيق» من مادة« صفق» على وزن سقف بمعنى تقليب الشيء بعضه على بعض بحيث يصاحبه الصوت، ومن هنا اطلق التصفيق على ضرب الكفين- وهى هنا بمعنى تحريك المياه وتقليبها على بعضها(لسان العرب، مقاييس اللغة، شرح محمد عبدة).

[۱۲۴] (۴)« مَخَضَ» من مادة« مخض» على وزن قرض بمعنى تحريك الموائع فى ظروفها، ولذلك يستعمل هذا التعبير أثناء تحريك اللبن فى القربة لفصل الزبدة عنه.

[۱۲۵] (۵)« ساجى» من مادة« سجو» على وزن سهو بمعنى السكون والهدوء.

[۱۲۶] (۶)« مائر» من مادة« مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعة، وتطلق هذه المفردة على الجادة أيضاً لأن الناس يتحركون عليها ذهاباً وإياباً.

[۱۲۷] (۷)« عباب» من مادة« عب» بمعنى شرب الماء سريعاً دون تريث، ومن هنا اطلق العباب على الماء الكثير والمطر الغزير والسيل

العظيم، وهى هنا بمعنى تراكم المياه على بعضها.

[۱۲۸] (۸)« ركام» أشرنا إلى معناها سابقاً(ما تراكم منه بعضه على بعض).

[۱۲۹] (۹)« منفهق» من مادة« فهق» على وزن فرق بمعنى المفتوح الواسع، ولذلك يصطلح بالمنفهق على الجزء الواسع من الوادى والوعاء المملوء بالماء.

[۱۳۰] (۱)« مكفوف» من مادة« كف» على وزن سد بمعنى قبض الشيء وجمعه، ولذلك اطلق على راحة اليد الكف لأنّها سبب قبض اليد، كما يطلق المكفوف على الأعمى لقبض بصره.

[۱۳۱] (۲)« سمك» بمعنى الارتفاع ولهذا يسمى السقف بالسمك لارتفاعه.

[۱۳۲] (۳)« عمد» على وزن سبد وعُمُد كلاهما جمع« عمود» بمعنى الدعامة.

[۱۳۳] (۴)« يدعم» من مادة« دعم» على وزن فهم بمعنى دعامة الشيء ودعام ودعامة بمعنى الخشب الذى يحمل الأشياء ويشدها، وتطلق على الشيء والشخص الداعم.

[۱۳۴] (۵)« دسار» بمعنى المسمار والحبل الذى يربط به الشيء.

[۱۳۵] (۶)« ثواقب» من مادة« ثقب» على وزن سقف بمعنى الشيء؛ ثقب الشيء واختراقه ومن هنا اطلق الثواقب على الكواكب المضيئة المنيرة، فكأنّ نورها يثقب البصر وينفذ فيه، أو أنّ نورها يخترق السماء ليصلنا.

[۱۳۶] (۷)« مستطير» من مادة« طير» بمعنى انتشار الشيء فى الهواء، ثم استعمل كل شيء سريع وكذلك الطيور. ومستطير بمعنى واسع ومنتشر. ومن هنا يقال استطار الفجر، أى انتشر ضوءه.

[۱۳۷] (۸)« رقيم» من مادة« رقم» بمعنى الخط والكتابة، كما وردت هذه المفردة بمعنى الكتاب. وهو اسم من أسماء الفلك وسمى به لأنّه مرقوم بالكواكب.

[۱۳۸] (۱) للوقوف على هذه الروايات، انظر ۳/ ۱۰ و ۵۷ من بحار الأنوار، طبعة بيروت. وردت أغلب الأحاديث فى ج ۵۷.

[۱۳۹] (۱) لقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى حركة الأرض من قبيل الآية ۸۸ من سورة النمل« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع اللَّه الذى اتقن كل شيء» والآية ۲۵ من سورة المرسلات« الم نجعل الأرض كفاتا».(وطبق بعض التفاسير فان الآية ۴۰ من سورة يس« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» تدل على أنّ الشمس والقمر يسبحان فى الفضاء العلوى. للوقوف أكثر على التفاصيل. انظر تفسير الأمثل.

[۱۴۰] (۱) لقد أشار المرحوم« الخواجة نصير الدين الطوسى» فى كتابه« تجريد الاعتقاد» إلى الأدلة الخمسة لفرضية العقول العشرة فيفندها جميعاً ويقول فى عبارة قصيرة« وأدلة وجوده مدخولة». وللوقوف أكثر على هذا الموضوع راجع كلام الخواجة والعلّامة الحلى بهذا الشأن.

[۱۴۱] (۲) الطريف أنّ القرآن أشار إلى السموات السبع فى سبع من آياته، وهى الآية ۲۹ من سورة البقرة، ۴۴ من سورة الاسراء، الآية ۸۶ من سورة المؤمنون، الآية ۱۲ من سورة فصلت، الآية ۱۲ من سورة الطلاق، الآية ۳ من سورة الملك والآية ۱۵ من سورة نوح. كما وردت بعض الآيات التى أشارت بعبارات اخرى إلى هذا الأمر.

[۱۴۲] (۱) بحار الأنوار ۵۵/ ۷۸.

[۱۴۳] (۱) مجلة الفضاء ۵۶/ آذار عام ۱۹۷۲ م.

[۱۴۴] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۸۰.

[۱۴۵] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۹.

[۱۴۶] (۱)« العلا» جمع« عليا» بمعنى الأعلى والأشرف.

[۱۴۷] (۲)« أطوار» جمع« طور» على وزن قول بمعنى الصنف، كما تعنى الحد والحالة أيضاً.

[۱۴۸] (۳) ان الضمير« هن» فى العبارة كما يشير ظاهرها يعود إلى السموات، إلّاأنّ المراد الفواصل بين السموات بدليل قوله« ثم فتق ...» وفاء التفريع فى« فملأهن».

[۱۴۹] (۴)« سجود» جمع« ساجد»، كالركوع جمع راكع.

[۱۵۰] (۵)« صافون» جمع« صاف» على وزن حاد من مادة« صف» بمعنى المساواة وقد اقتبست فى الأصل من« صفصف» بمعنى الأرض المستوية.

[۱۵۱] (۶) سورة الملك/ ۱۹.

[۱۵۲] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۳.

[۱۵۳] (۲) بحار الانوار ۵۹/ ۱۹۸.

[۱۵۴] (۳) سورة الزمر/ ۷.

[۱۵۵] (۱) سورة النحل/ ۱۰۲.

[۱۵۶] (۲) سورة البقرة/ ۹۷.

[۱۵۷] (۳) سورة النحل/ ۲.

[۱۵۸] (۱)« سدنة» جمع« سادن» بمعنى الخادم والبواب.

[۱۵۹] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۱/ ۱۵۸ وشرح نهج البلاغة للمرحوم الميرزا حبيب اللّه الخوئى ۲/ ۲۶.

[۱۶۰] (۱)« ناكسة» من مادة« نكس» على وزن عكس بمعنى الانقلاب رأساً على عقب ولذلك يطلق المنكوس على الوليد الذى يسقط على رجليه.

[۱۶۱] (۲)« متلفعون» من مادة« لفع» على وزن نفع بمعنى الاشتمال على الشىء والالتفاف به، ومن هنا يقال للمرأة حين تلف عليها عباءها« تلفعت المرأة».

[۱۶۲] (۳)« نظائر» جمع« نظير» بمعنى المثل.

[۱۶۳] (۱) بحار الأنوار ۵۶/ ۲۰۲(باب حقيقة الملائكة).

[۱۶۴] (۱) سورة بقرة/ ۲۸۵.

[۱۶۵] (۱) منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة ۲/ ۳۲- ۳۵، وقد أورد المرحوم العلّامة المجلسى الروايات المرتبطة بالعرش والكرسى فى المجلد ۵۵ من بحار الأنوار، ومنها الروايات السابقة فى ص ۵، ۱۷ و ۵۵.

[۱۶۶] (۱) سورة الأنبياء/ ۲۶- ۲۷.

[۱۶۷] (۲) سورة التحريم/ ۶.

[۱۶۸] (۱) سورة الأنبياء/ ۲۸.

[۱۶۹] (۱)« حزْن» على وزن« وزن» بمعنى المواضع الوعرة على الأرض، كما يطلق الحُزن أو الحَزَن على الهم والغم، لأنه نوع وعورة فى روح الإنسان.

[۱۷۰] (۲)« عذب» على وزن« جذب» بمعنى الماء الطاهر والحلو الصالح للشرب.

[۱۷۱] (۳)« سبخ» وجمعها سباخ بمعنى ما ملح من الأرض.

[۱۷۲] (۴)« سنّ» من مادة« سن» على وزن ظن بمعنى صب الماء على شىء، كما تأتى بمعنى نعومة الشىء.

[۱۷۳] (۵)« لاط» من مادة« لوط» على وزن صوت بمعنى خلط الشىء وعجنه.

[۱۷۴] (۶)« لزبت» من مادة« لزوب» على وزن سكوت بمعنى التصق وثبت واشتد.

[۱۷۵] (۷)« أحنا» جمع« حنو» على وزن حرص بمعنى الانحناء والجوانب والأطراف.

[۱۷۶] (۱)« أصلد» من مادة« صلد» على وزن صبر بمعنى أحكم وجعل الشيء صلباً أصلتاً.

[۱۷۷] (۲)« صلصل» من مادة« صلصلة» بمعنى اليبوسة والجفاف بحيث تخرج منها الأصوات بمجرّد ملامستها لشيء، كما وردت بمعنى الجاف والمحكم.

[۱۷۸] (۳) اللام فى« لوقت معدود» بمعنى إلى. ذهب البعض إلى أنّها لام التعليل، بينما احتمل البعض أنّ المراد بهذه العبارة هو أنّ هذا الوضع سيستمر إلى قيام الساعة ثم تتفكك بعد ذلك أعضاء البدن تماماً، إلّاانّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً للغاية، لأنّه من المراحل المختلفة لخلق الإنسان ولم تطرح لحد الآن قضية نفخ الروح.

[۱۷۹] (۴)« فبقى أربعين سنة ملقى تمر به الملائكة فتقول لأمر ما خلقت؟». منهاج البراعة ۲/ ۴۴.

[۱۸۰] (۵)« مثلت» من مادة« مثول» على وزن حصول بمعنى استوت وقامت.

[۱۸۱] (۶)« يجيل» من مادة« اجالة»(مصدر باب أفعال من جول وجولان بمعنى يدور).

[۱۸۲] (۱)« يختدم» من مادة« اختدام» بمعنى الاستخدام.

[۱۸۳] (۱) أنّ العبارة« والأذواق والمشام والألوان والأجناس» هى عطف على عبارة الحق والباطل، بينما عدها البعض عطفاً على المعرفة. فى حين يفيد التأمل فى كلامه عليه السلام أن المعنى الأول هو الأنسب. وعلى ضوء المعنى الأول فان قوّة التميز المعرفة ستشمل كل هذه الامور، امّا على أساس المعنى الثانى فانّ المعرفة تعدّ من النعم الإلهية، كما أن قوّة الشامة والباصرة والذائقة هى نعمة اخرى(لابدّ من التأمل هنا).

[۱۸۴] (۲)« الجنس» فى اللغة بمعنى الأقسام والأنواع المختلفة، وهناك القرائن الواردة فى خطب نهج البلاغة التى تدل على هذا المعنى ومنها الخطبة رقم ۹۱.

[۱۸۵] (۳)« معجوناً» حال للإنسان الذى ورد فى العبارة السابقة.

[۱۸۶] (۱) يمكن أن تكون جملة« من الحر والبرد» بياناً للاخلاط المتباينة، أو للأضداد والأخلاط معاً.

[۱۸۷] (۱) راجع من أجل الوقوف بصورة أعمق كتاب« الداروينية وآخر فرضيات التكامل». كما استعرضنا ذلك بصورة مقتضبة فى تفسيرنا الأمثل ۱۱/ الآية ذيل الآيات ۲۶ حتى ۴۴ من سورة الحجر.

[۱۸۸] (۱) سورة الحجر/ ۲۹.

[۱۸۹] (۲) سورة المؤمنون/ ۱۴.

[۱۹۰] (۳) سورة الأعراف/ ۱۷۹.

[۱۹۱] (۱)« خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع حسب« المقاييس» وأورد الآخرون ما يشبه هذا المعنى أيضاً.

[۱۹۲] (۲) سورة ص/ ۷۰- ۷۱.

[۱۹۳] (۱) سورة البقرة/ ۳۴.

[۱۹۴] (۲)« الحميّة» من مادة« حمى» على وزن نهى معناها الأصلى الحرارة التى تنتج من الشمس والنار والمواد الاخرى أو من داخل جسم الإنسان، كما يعبر أحياناً بالحمية عن القوة الغضبية حيث إنّ حالة الإنسان تشتعل آنذاك، ويطلق الحمى على حرارة البدن حين الارتفاع.

[۱۹۵] (۱) سورة الحجر/ ۳۶.

[۱۹۶] (۲) إشارة إلى آية ۳۷ و ۳۸ من سورة الحجر« قالَ فَإِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ* إِلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ».

[۱۹۷] (۳) تفسير نور الثقلين ۳/ ۱۴ ح ۴۶.

[۱۹۸] (۱) لقد تكفلت المناجاة الثانية من المناجاة الخمسة عشر للإمام على بن الحسين عليهما السلام ببيان كيفية تأثير هوى النفس وكذلك تأثير الشيطان فى انحراف الإنسان بصورة مفصلة.

[۱۹۹] (۲) سورة البقرة/ ۳۴ وسورة الاعراف/ ۱۱ وسورة الاسراء/ ۶۱ وسورة الكهف/ ۵۰ وسورة طه/ ۱۱۶.

[۲۰۰] (۳) نور الثقلين ۱/ ۵۸.

[۲۰۱] (۱) سورة الكهف/ ۵۰.

[۲۰۲] (۲) سورة ص/ ۷۶.

[۲۰۳] (۳) مجمع البيان ۱/ ۸۲، ذيل الآية ۳۴ من سورة البقرة.

[۲۰۴] (۱) سورة الكهف/ ۵۰.

[۲۰۵] (۲) سورة الحجر/ ۴۲.

[۲۰۶] (۳) سورة الحجر/ ۱۰۰.

[۲۰۷] (۱) سورة آل عمران/ ۱۷۸؛ سورة الروم/ ۴۱.

[۲۰۸] (۲) سورة الحج/ ۵۳- ۵۴.

[۲۰۹] (۱) تفسير نور الثقلين ۴/ ۴۷۲ ح ۹۳.

[۲۱۰] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۱/ ۱۹۰ فصاعداً.

[۲۱۱] (۱) راجع كتاب التفسير بالرأى لآية اللّه مكارم الشيرازى بشأن هذا الموضوع.

[۲۱۲] (۱) فى ظلال نهج البلاغة ۱/ ۵۱.

[۲۱۳] (۱)« أرغد» من مادة« الرغد» بمعنى الحياة الرغيدة الوادعة، كما ترد بمعنى النعمة الوافرة بالنسبة للإنسان والحيوان أيضاً(المفردات ومقاييس اللغة).

[۲۱۴] (۲)« نفاسة» من مادة« النفس» على وزن« حبس» بمعنى الروح، ولما كان التنفس مصدر الحياة فقد استخدمت هذه المفردة لذلك المعنى، ثم وردت« المنافسة» بمعنى السعى من أجل الوصول إلى مكانة مهمّة، لأنّ الإنسان يجهد نفسه فى ذلك السعى، ومن هنا استعملت« النفاسة» بمعنى الحسد والبخل(المفردات ومقاييس اللغة ولسان العرب).

[۲۱۵] (۱) هناك احتمالان حول رجوع الضمير فى« شكه» و« وهنه»، فقد صرّح أغلب شرّاح نهج البلاغة بأنّ الضمير يعود إلى آدم؛ أى أن آدم عليه السلام باع يقينه بشكه وعزمه بوهنه وضعفه. بينما الاحتمال الآخر أن يكون الضمير عائداً إلى إبليس فى المفردتين وذلك لأنّه هو الذى أوجد هذا الشك والوهن، ففى الواقع هو اضافة إلى السبب لا مفعول. لكن يبدو الاحتمال الأول أصوب من الثانى.

[۲۱۶] (۲) سورة طه/ ۱۱۵.

[۲۱۷] (۳) سورة الاعراف/ ۲۱.

[۲۱۸] (۴)« الجذل» على وزن الجدل بمعنى الفرح والسرور كما وردت فى صحاح اللغة، وقال صاحب المقاييس أنّ الجذل على وزن الجسم بمعنى جذر الشجرة الذى يقومها ويمنحها الاستقامة، ومن هنا كانت قامة الفرحان مستوية بينما كانت قامة المغموم منحنية، كما تطلق أحياناً على الأرض اللزجة، إلّاأنّها استعملت بمعنى الفرح.

[۲۱۹] (۵)« وجل» على وزن أجل بمعنى الخوف والخشية.

[۲۲۰] (۱) هناك كلام فى الضمير« جنته» هل يعود إلى اللّه أم إلى آدم. فلو كان عائداً إلى آدم، فان ظاهر العبارة يفيد إرجاعه إلى

الجنّة التى كان فيها عليه السلام، وإن عاد الضمير إلى اللّه فلا لزوم أن تكون تلك الجنّة التى كان فيها آدم، ويمكن أن تكون جنّة آدم جنّة دنيوية أو الجنّة التى سيعود إليها وهى الجنّة الأخروية كجنّة الخلد، لكن الظاهر أن الضمير يرجع إلى لفظ الجلالة بقرينة الضمير فى توبته ورحمته، رغم أنّ ظاهر كلمة(مردّ) يفيد العودةتلك الجنّة، ويمكن أن تكون مطلق الجنّة، بعبارة اخرى ليس هنالك من منافاة بين نوع الجنّة مع المفردة« مردّ».

[۲۲۱] (۱) بحار الانوار ۱۱/ ۱۴۳، ح ۱۲.

[۲۲۲] (۲) الكافى ۳/ ۲۴۷، باب جنّة الدنيا، ح ۲.

[۲۲۳] (۱) قال ابن أبى الحديد: تعتقد الإمامية لايجوز على اللّه أن يبعث نبياً وقد ارتكب المعاصى قبل نبوته سواء الكبيرة أو الصغيرة، عمداً أو سهواً؛ وتختص هذه العقيدة بالإمايمة، أمّا أصحابنا فلا يرون امتناع الكبائر على النبى قبل نبوّته. وأضاف ابن أبىالحديد وهذا ما يعتقده الإمامية بالنسبة لأئمتهم الاثنى عشر حيث يرون لهم عصمة مطلقة كعصمة الأنبياء(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۱۰).

[۲۲۴] (۲) سورة طه/ ۱۱۷.

[۲۲۵] (۱) تفسير نور الثقلين ۲/ ۱۱ ح ۳۴؛ سورة الاعراف/ ۲۰.

[۲۲۶] (۲) سورة الأعراف/ ۲۱.

[۲۲۷] (۳) انظر تفسير نور الثقلين ۱/ ۶۰؛ الدر المنثور ۱/ ۵۲ و ۵۳ وذيل الآية ۳۵ من سورة البقرة.

[۲۲۸] (۱) نور الثقلين ۱/ ۶۰(بتلخيص).

[۲۲۹] (۲) التوراة، سفر التكوين، الفصل الثانى، رقم ۱۷.

[۲۳۰] (۳) بحار الأنوار ۱۱/ ۱۸۱.

[۲۳۱] (۴) تفسير نور الثقلين ۱/ ۶۷.

[۲۳۲] (۱) كتاب الخصال نقلًا عن تفسير الثقلين ۱/ ۶۸.

[۲۳۳] (۲) تفسير الدر المنثور ۱/ ۶۰(ذيل الآية ۳۷ من سورة البقرة).

[۲۳۴] (۳) شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى ۲/ ۱۱۸.

[۲۳۵] (۴) تفسير الدر المنثور ۱/ ۵۹.

[۲۳۶] (۱)« الميثاق» كما ورد فى صحاح اللغة من مادة« الوثوق» بمعنى الاعتماد على أمانة الشخص. ومن هنا أطلق على الميثاق اسم العهد، لأنّه يدعو إلى الاطمئنان والوثوق(طبعاً كان الأصل موثاق ثم بدلت الواو بالياء).

[۲۳۷] (۲) انظر التفسير الموضوعى« نفحات القرآن» ۷/ ۳۱۷.

[۲۳۸] (۳) سورة الأحزاب/ ۷.

[۲۳۹] (۴)« أنداد» جمع« ند» على(وزن) ضد بمعنى المثل، وأراد هنا المعبودين من دونه سبحانه وتعالى، بينما قال صاحب المقاييس أنّها تعنى الانفصال والهروب والمخالفة. ولهذا قال اللغويون بأن الند لا يطلق على كل مثل، بل تطلق على المثل الذى يتخذ مساراً يخالف آخر فى أعماله وأفعاله كالفرد الذى يماثل آخر إلّاأنّه يحاربه.

[۲۴۰] (۵)« اجتال» من مادة« جولان» بمعنى العصر، إلّاأنّها اقترنت بالحرف(عن) فى عبارة الإمام عليه السلام فعنت الانصراف عن الشىء، ومعناها هنا صرفتهم عن قصدهم.

[۲۴۱] (۶) لقد ذكر هذا الاحتمال فى الأبحاث المتعلقة بعالم الذر، حيث يمكن أن يكون تفسيرها بالمسائل الفطرية والاستعدادات الإلهية التى أودعها اللّه الذات الإنسانية. وللوقوف أكثر على هذا الموضوع، راجع تفسير الأمثل ۷/ ۴.

[۲۴۲] (۱)« واتر» من مادة« وتر» بمعنى الفرد فى مقابل الشفع بمعنى الزوج، وجاءت هنا بمعنى الواحد؛ أى أنّ الأنبياء قد أتوا الواحد تلو الآخر من أجل هداية الناس. وقال البعض معناها الموالاة مع الفاصلة، كأن يقال« واتر ما عليه من الصوم»؛ أى صام يوماً وأفطر آخر، فى قبال« متدارك» الذى يعنى الموالاة دون تخلل الفاصلة.

[۲۴۳] (۱)« أوصاب» من مادة« وصب» بمعنى مرض مزمن، والواصب يطلق على الشىء الموجود دائماً حسب المفردات، وجاءت هنا بمعنى المتاعب والمشاكل والمعاناة.

[۲۴۴] (۲)« تهرمهم» من مادة« هرم» على وزن حرم بمعنى الكهولة والعجز.

[۲۴۵] (۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة الحج.

[۲۴۶] (۲)« غابر» من مادة« غبار» و« غبور» بمعنى الشىء المتبقى، ومن هنا يطلق على الحليب المتبقى فى الثدى اسم الغبرة، كما يطلق الغبار على التراب المتبقى فى الهواء، ويقال الغابر للأشخاص والأزمنة الماضية(راجع المقاييس والمفردات ولسان العرب).

[۲۴۷] (۱) لقد ورد الفعل« سمى» بصيغة المجهول فى بعض نسخ نهج البلاغة وما ذكرناه سابقاً يتفق وهذه النسخة، أمّا إذا ذكر بصيغة المعلوم تصبح العبارة بهذا الشكل« من سابق سمى له من بعده» إلّاانّ الاحتمال الأول أنسب.

[۲۴۸] (۲)« نسلت» القرون من مادة« نسل» بمعنى تكاثر الأولاد، والعبارة كناية رائعة عن توالى القرون وكأن كل قرن قد ولد من القرن السابق.

[۲۴۹] (۱) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع، انظر كتاب نفحات القرآن ۴/ ۴۴۰ فصاعداً.

[۲۵۰] (۱) أصول الكافى ۱/ ۱۶.

[۲۵۱] (۱) الكافى ۱/ ۱۷۹.

[۲۵۲] (۲) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ۱۴۷.

[۲۵۳] (۳) سورة الأحزاب/ ۳۹.

[۲۵۴] (۴) منهاج البراعة ۲/ ۱۶۰.

[۲۵۵] (۱) راجع كتاب القواعد الفقهية ۱/ ۳۸۳، قاعدّة التقية للوقوف بصورة أشمل على مفهوم التقية وتقسيمها إلى الأحكام الخمسة(الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح) والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن.

[۲۵۶] (۱)« انجاز» من مادة« نجز» على وزن رجز بمعنى الانهاء وتحقيق الشىء.

[۲۵۷] (۲) الضمير فى(نبوته) يعود إلى النبى، أمّا الضمير فى(عدته) ففيه احتمالان: أن يكون عائداً على اللّه أو عائداً على النبى، إلّاأنّ الأول أنسب، وذلك لأن بعثة النبى كانت وعداً إلهياً وعد بها نبى اللّه إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء، كما يحتمل أن يكون الضميران عائدين للّهسبحانه.

[۲۵۸] (۳)« سماته» جمع« سمة» بمعنى العلامة.

[۲۵۹] (۴) إذا تعدت رغب بحرف فى عنت الرغبة فى الشىء والاقبال عليه، بينما تعنى العزوف عن الشىء والانصراف عنه، حيث يكون معنى العبارة أن اللّه لم يرد لنبيه أن يعيش صعاب الدنيا أكثر من هذا الحد، فقبضه من هذا العالم الدنى ليضمه إلى جواره فى العالم العلوى.

[۲۶۰] (۱)« هملًا» من مادة« همل» على وزن حمل بمعنى ترك الشىء إلى جانب اهماله وعدم الاهتمام به.

[۲۶۱] (۲) راجع كتاب« نفحات القرآن» المجلد التاسع للوقوف على أسناد حديث الثقلين وتواتره عند علماء الفريقين.

[۲۶۲] (۱) سورة الجاثية/ ۲۴.

[۲۶۳] (۲) سورة يس/ ۷۸.

[۲۶۴] (۳) سورة الزمر/ ۳.

[۲۶۵] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۲۲۷.

[۲۶۶] (۵) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۱۷.

[۲۶۷] (۶) شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم ۱/ ۲۰۵.

[۲۶۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ۱/ ۲۰۶.

[۲۶۹] (۲) سورة الجمعة/ ۲.

[۲۷۰] (۱) فى ضلال نهج البلاغة ۱/ ۶۳.

[۲۷۱] (۱) كتاب منصوب بصفته عطف بيان للحرف مافى الجملة(خلف فيكم ما خلفت الأنبياء) أو أنّه مفعول لفعل تقديره(خلف) أو(أعنى).

[۲۷۲] (۱) وردت كلمة« مبيناً» بصيغة اسم الفاعل وهى حال لفاعل خلق(أى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله) والضمير فى حلاله وحرامه و .. يعود على القرآن بينما ذهب بعض شرّاح النهج إلى أن مبيناً وسائر الأوصاف التى وردت لاحقاً من قبيل مفسراً هى حال لكتاب اللَّه، والضمائر فى حلاله وحرامه و ... تعود إلى كتاب اللَّه أو ربّكم، إلّاانّ القول الأول أنسب.

[۲۷۳] (۲) سورة المجادلة/ ۱۲.

[۲۷۴] (۳) سورة المجادلة/ ۱۳.

[۲۷۵] (۴) سورة المائدة/ ۲.

[۲۷۶] (۵) سورة النساء/ ۱۰۱.

[۲۷۷] (۱) سورة البقرة/ ۱۷۳.

[۲۷۸] (۲) سورة النساء/ ۳۶.

[۲۷۹] (۳) سورة آل عمران/ ۹۷.

[۲۸۰] (۴) سورة المائدة/ ۵۵.

[۲۸۱] (۵) سورة المائدة/ ۳۸.

[۲۸۲] (۶) سورة إبراهيم/ ۲۴.

[۲۸۳] (۱) سورة التحريم/ ۱۱.

[۲۸۴] (۲) سورة البقرة/ ۲۷۵.

[۲۸۵] (۳) سورة النساء/ ۲۹.

[۲۸۶] (۴) سورة المائدة/ ۸۹.

[۲۸۷] (۵) سورة النساء/ ۹۲.

[۲۸۸] (۶) سورة القيامة/ ۲۳.

[۲۸۹] (۷) سورة الانعام/ ۱۰۳.

[۲۹۰] (۱) سورة النساء/ ۱۵.

[۲۹۱] (۲) سورة البقرة/ ۱۷۸.

[۲۹۲] (۱) هناك محذوف فى هذه العبارة، ففى الحالة الثانية يكون تقدير العبارة كالآتى:« وبين ما يكون واجباً دائما».

[۲۹۳] (۲) مباين خبر لمبتدأ محذوف تقير الجملة هو مباين، والضمير هو يعود إلى الكتاب، وهنالك إحتمال آخر إلّاأنّ الذى أوردناه

هو الأنسب.

[۲۹۴] (۳) سورة المزمل/ ۲۰.

[۲۹۵] (۱) سورة الحشر/ ۷.

[۲۹۶] (۲) لقد ورد هذا الحديث بعدة تعابير فى مصادر الشيعة والسنّة، فراجع احقاق الحق، ۹/ ۳۰۹- ۳۷۵؛ بحار الانوار ۲۳/ ۱۱۸، ۱۳۲، ۱۳۳، ۱۳۴، ۱۵۵؛ رسالة الثقلين ۹.

[۲۹۷] (۱) تفسير نور الثقلين ۱/ ۴۷۳.

[۲۹۸] (۱) راجع تفسير الأمثل ۱/ ۳۹۰ ذيل الآية ۱۰۶ من سورة البقرة.

[۲۹۹] (۲) سورة يوسف/ ۱۱۱.

[۳۰۰] (۳) سورة الروم/ ۴۲.

[۳۰۱] (۱) سورة الزمر/ ۲۷.

[۳۰۲] (۱)« أنام» فسرها البعض بالناس، والبعض الآخر بالموجودات العاقلة التى تعيش على الأرض من الإنس والجن. وعلى ضوء التفسير الأول يصبح مفهوم العبارة اختصاص القبلة بالناس، بينما تكون قبلة الانس والجن حسب التفسير الثانى. وقيل هى مشتقة من مادة ونام بمعنى الصوت ثم اطلقت فيما بعد على جميع الكائنات الحية ولا سيما الانس والجن(تاج العروس، مادة أنم).

[۳۰۳] (۲)« يردون» من مادة« ورود» بمعنى دخول الحيوانات على حياضها عند عطشها ثم اطلق على كل دخول لمكان.

[۳۰۴] (۳)« يألهون» من مادة« أله، ألوهاً» بمعنى العبادة. بناءً على هذا يألهون بمعنى يعبدون، كما قيل إنّ مادته تعنى الحيرة؛ لأنّ الإنسان يتحير حين يفكر فى ذات اللّه وصفاته. وقيل أصله(وله) وقد استدلت واوه بالهمزة(ويؤيد هذا المعنى ورود كلمة الولوه فى العبارة بصيغة المفعول المطلق) والوله بمعنى التضرع بلهفة.

[۳۰۵] (۴)« الحمام» بالفتح بمعنى الطيور والحمام بالكسر بمعنى الموت، وقد أريد المعنى الأول فى العبارة(أى الحمام بالفتح).

[۳۰۶] (۱)« سماع» على وزن طلاب جمع« سامع» كطلاب جمع طالب.

[۳۰۷] (۲) ليس هنالك من فارق يذكر بشأن الضمير فى(إليه) ان كان عائداً لبيت اللّه أو إلى لفظ الجلالة.

[۳۰۸] (۳) نور الثقلين ۳/ ۴۸۸، ح ۷۴.

[۳۰۹] (۴) شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى ۲/ ۲۴۹ نقلًا عن الكافى؛ بحار الانوار ۹۶/ ۱۸۷.

[۳۱۰] (۵) ورد فى الأحاديث أنّ من الأنبياء الذين حجوا البيت هم آدم ونوح وابراهيم وموسى ويونس وعيسى وسليمان ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله(شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى ۲/ ۲۵۲).

[۳۱۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۲۴.

[۳۱۲] (۲)« يحرزون» من مادة« الاحراز» بمعنى الحفظ والادخار والخزن. ومن هنا يطلق الحرز على الموضع المحفوظ كالصندوق والمخزن وما شابه ذلك.

[۳۱۳] (۳)« وفادة» بمعنى البزوغ والطلوع، ثم أصبحت بمعنى النزول والدخول، كما يصطلح بالوفد على الهيئة والجماعة التى ترد على دولة أو زعيم أو فئة ذات مكانة.

[۳۱۴] (۱) بحار الأنوار ۱۲/ ۸۶.

[۳۱۵] (۲) سورة البقرة/ ۱۲۷.

[۳۱۶] (۳) سورة آل عمران/ ۹۶.

[۳۱۷] (۴) شرح نهج البلاغة للخوئى ۲/ ۲۳۵.

[۳۱۸] (۵) فروع الكافى ۴/ ۲۴۰(باب فضل النظر إلى الكعبة).

[۳۱۹] (۶) وسائل الشيعة ۸/ ۷(باب وجوبه على كل مكلف مستطيع).

[۳۲۰] (۱) بحار الأنوار ۹۹/ ۲۶.

[۳۲۱] (۱) فروع الكافى ۴/ ۲۷۱(باب أنّه لو ترك الناس الحج لجاءهم العذاب).

[۳۲۲] (۲) دليل الحرمين الشريفين ۱/ ۵۴(نقلًا عن قول القمر).

[۳۲۳] (۱) لقد أشارت الرواية التى نقلها هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام بصورة إجمالية إلى فلسفة هذه الجوانب الأربعة للحج(وسائل الشيعة ۸/ ۹) كما يمكن لمن أراد المزيد أن يراجع التفسير الأمثل/ ۱۴ بشأن فلسفة الحج.

[۳۲۴] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۴۳.

[۳۲۵] (۱)« استتمام» قد تعنى الاتمام أو المطالبة بالاتمام، وقد أريد بها هنا المعنى الثانى ويؤيد ذلك الجملة اللاحقة.

[۳۲۶] (۲)« استسلام» بمعنى الانقياد والتسليم، وعناها بعض اللغويين بموافقة الظاهر للباطن بالنسبة للشىء والانقياد من لوازمها.

[۳۲۷] (۳)« استعصام» بمعنى المطالبة والحفظ ودفع الامور المكروهة.

[۳۲۸] (۴) سورة إبراهيم/ ۷.

[۳۲۹] (۵)« يئل» من مادة« وأل» على وزن وعد بمعنى النجاة واللجوء والعودة.

[۳۳۰] (۱)« ممتحن» من مادة« محن» على وزن وهن بمعنى الاختبار والامتحان، إلّاانّ بعض أرباب اللغة قالوا أصلها استخراج التراب حين حفر البئر.

[۳۳۱] (۲)« مصاص» من مادة« مص» على وزن نص بمعنى التذوق والامتصاص ومن هنا اصطلح بالمصاص على عصارة الشىء الممتص حين وروده بدن الإنسان.

[۳۳۲] (۳)« الأهاويل» جمع أهوال« وهول» بمعنى الخشية والخوف.

[۳۳۳] (۴)« مدحرة» من مادة« دحر» بمعنى الطرد والابعاد.

[۳۳۴] (۱)« المأثور» من مادة« أثر» بمعنى العلامة الباقية من الشىء ولذلك يطلق على العلوم المتبقية من الماضين« علم المأثور».

[۳۳۵] (۲)« الساطع» من مادة« سطوع» بمعنى الانتشار، فالنور الساطع هو النور الواسع المنتشر كما ورد بمعنى المرتفع.

[۳۳۶] (۳)« صادع» من مادة« صدع» بمعنى الشق فى الجسم الصلب والمحكم ثم أطلق على كل شىء قاطع.

[۳۳۷] (۴) سورة حجر/ ۹۴.

[۳۳۸] (۱)« ازاحة» من مادة« زيح» على وزن زيد بمعنى الأبعاد والاقصاء.

[۳۳۹] (۲)« مثلات» جمع« مثله» على وزن عضلة بمعنى البلاء والمصاب الذى يحل بالإنسان فيصبح مثالًا وعبرة للآخرين(مفردات الراغب، تحقيق، الصحاح ومجمع البحرين).

[۳۴۰] (۳) سورة الرعد/ ۶.

[۳۴۱] (۴) سورة البقرة/ ۲۸۵.

[۳۴۲] (۱) سورة مريم/ ۹۵.

[۳۴۳] (۱) مناقب ابن شهر آشوب، ۲/ ۱۱۵(مستدرك الوسائل؛ ۱۸/ ۲۸ وبحار الانوار، ۴۱/ ۵۱).

[۳۴۴] (۲) نهج البلاغه، الخطبة ۱۲۶.

[۳۴۵] (۱) كتاب« المناقب المرتضوية» تأليف المولى محمد صالح الكشفى الحنفى/ ۳۶۴، طبعة يومباى(مطابق نقل احقاق الحق ۸/ ۶۰۲).

[۳۴۶] (۱) طبقا لما ورد آنفا فان الواو فی قوله« و الناس فی فتن ....» حالیة أی أنّ الله سبحانه بعث النبی صلی الله علیه و آله حین کان الناس علی هذه الحالة، إلّاأنّ بعض شرّاح نهج البلاغة إحتملوا أن الواو إبتدائیة والعبارات رسمت صورة عن أوضاع الناس فی عصر الإمام علیه السلام، غیر أنّ هذا الاحتمال لا یبدو صحیحا والحق هو الاحتمال الأول، رغم انّ هذه العبارات یمکن أن تکون تحذیرا لِلُامّة فی عصره من العودة إلی عصر الجاهلیة بفعل أمراض حب الذات واطاعة الاهواء.

[۳۴۷] (۱)« إنجذم» من مادة« الانجذام» بمعنی إنقطع وإنفصل ومن هنا یطلق إسم الجذام علی ذلک المرض الذی یصیب الجسم فیؤدی إلی انفصال الأعضاء.

[۳۴۸] (۲)« تزعزعت» من مادة« زعزع» بمعنی تحرکت واضطربت، فیقال علی سبیل المثال: زعزع الریح الشجرة.

[۳۴۹] (۳)« سواری» جمع سارية العمود و الدعامة.

[۳۵۰] (۴)« نجر» علی وزن فجر یعنی الاصل، کما یعنی الاصلاح والشکل والهیئة ومنه اطلق اسم النجار. وقد وردت هذه المفردة فی العبارة بالمعنی الأول.

[۳۵۱] (۵) سورة البقرة/ ۲۸۵

[۳۵۲] (۱)« خامل» بمعنی الشیء المنسی الذی لاقیمة له.

[۳۵۳] (۱)« إنهارت» من مادة« الانهیار» بمعنی الاندراس والزوال.

[۳۵۴] (۲)« درست» من مادة« دروس» بمعنی إندثار آثار الشیء وزوالها.

[۳۵۵] (۳)« شرک» جمع« شرکة» علی وزن حسنه، وقال البعض جمع أشراک بمعنی الطرق العامة.

[۳۵۶] (۴)« مناهل» جمع« منهل» بمعنی مورد النهی.

[۳۵۷] (۵)« سارت» من مادة« سور» بمعنی الرفع والاعلاء.

[۳۵۸] (۶)« داست» من مادة« دوس» و« دیاس» بمعنی الهضم.

[۳۵۹] (۷)« أخفاف» جمع« خف» وهو للبعیر کالقدم للإنسان.

[۳۶۰] (۸).« اظلاف» جمع« ظلف» بالکسر للبقر والشاء وشبههما کالخف للبعیر والقدم للإنسان.

[۳۶۱] (۹)« سنابک» جمع« سنبک» علی وزن قنفذ بمعنی طرف الحافر.

[۳۶۲] (۱۰) یمکن أن تکون جملة« فی فتن داستهم» متعلقة بمحذوف تقدیره لا والناس فی فتن داستهم»، کما إحتمل البعض أنّ الجار والمجرور متعلق بسارت فی الجملة السابقة ویبدو الاحتمال الأول أقوی.

[۳۶۳] (۱) تائهون جمع تائه بمعنی الضائع.

[۳۶۴] (۲) ذهب البعض إلی أن الجار والمجرور فی قوله« فی خیر دار» یتعلق بمفتونین، والحال أن الانسب أن یکون خبر لمبتدأ محذوف تقدیره« و الناس فی خیر دار» والجملة حال لعصر الجاهلیة والواو فی قوله وشر جیران هی واو المعیة.

[۳۶۵] (۳) سهود مصدر بمعنی الارق وقلة النوم(الصحاح، المفردات، لسان العرب والمقاییس).

[۳۶۶] (۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱/ ۱۳۷.

[۳۶۷] (۱) سورة الانعام/ ۱۳۷.

[۳۶۸] (۲) سورة الاسراء/ ۳۱.

[۳۶۹] (۳) سورة التکویر/ ۸.

[۳۷۰] (۱) سورة الانفال/ ۳۵. امّا المشهور بالنسبة لسبب نزول سورة التوبة ومن الامور التی أمر أمیر المؤمنین علیه السلام بابلاغها المشرکین« و لا یطوفن یا لبیت عریانا». نور الیقلین، ۲/ ۱۷۹- ۱۸۱ ح ۱۴ و ۱۷ و ۱۸ و ۲۰ ومجمع البیان، ۵/ ۳.

[۳۷۱] (۲) سورة النحل/ ۵۷.

[۳۷۲] (۳) سورة الصافات/ ۱۵۰.

[۳۷۳] (۴) سورة الانعام/ ۱۳۹.

[۳۷۴] (۵) سورة الاحزاب/ ۴.

[۳۷۵] (۶) سورة المجادلة/ ۲.

[۳۷۶] (۱) سورة آل عمران/ ۱۰۳

[۳۷۷] (۲) سورة الجمعة/ ۲.

[۳۷۸] (۳) عذر التقصير لدى محمد والقرآن، ص ۷۷(نقلا عن تفسير الامثل، ۳/ ۳۱).

[۳۷۹] (۱) فقد تصدت هذه الأحاديث التى روتها مصادر الفريقيين لبيان مكانة أهل البيت عليه السلام.

فقد صرّح حديث الثقلين بأنّ أهل البيت عليه السلام هم عدل القرآن الذين لا يفترقون عنه حتى يردا على النبى صلى الله عليه و آله حوضه. أمّا الحديث الثانى فقد شبههم بسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق. وأخيراً حديث صلى الله عليه و آله الذى قال فيه:« مثل أهل بيتى فيكم كمثل النجوم باى إقتديتم إهتديتم وإنّ النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض».

[۳۸۰] (۲)« لجأ» و« ملجأ» بمعنى الملاذ.

[۳۸۱] (۳)« عيبة» بمعنى الوعاء و الصندوق أو الشيئى الذى تحفظ فيه الأشياء و قد اشتق فى الواقع من العيب و قد استعمل بالمعنى المذكور لأنّ العيوب عادة ما تستر.

[۳۸۲] (۴)« موئل» من مادة« وأل» على وزن سهل بمعنى المرجع والملاذ وموضع النجاة.

[۳۸۳] (۵)« كهوف» جمع« كهف» بمعنى الغار، إلّاأنّ البعض قال الكهف هو الغار الواسع، ولما كان الناس يلجأون إلى الغيران فى أغلب الأوقات فقد احتمل أن يكون بمعنى الملاذ والموضع الذى يحفظ الأشياء.

[۳۸۴] (۶) اعلم ان هنالك اختلافا بين الشرّاح بشأن الضمير فى هذه العبارات الست. فقد ذهب البعض إلى أنّها ترجع جميعا إلى النبى صلى الله عليه و آله بينما تفيد القرائن أنّ الضمير فيها يعود إلى الله سبحانه(و لا يسما بالالتفات إلى قوله وكهوف كتبه) بينما يعود الضمير فى العبارة الأخيرة إلى الدين كما سيأتى توضيح ذلك لاحقا.

[۳۸۵] (۱) بحار الانوار ۱۰/ ۱۱۸، ح ۱.

[۳۸۶] (۲) راجع التفسير الامثل، ذيل آية ۱۵ من سورة النحل.

[۳۸۷] (۳)« إرتعاد» من مادة« رعدّة» بمعنى الاهتزاز، ومن هنا يطلق الرعد على الصوت العظيم الذى تحدثه السحب والغيوم.

[۳۸۸] (۴)« فرائص» جمع« فريصة» هى اللحمة بين الجنب والكتف التى ترعد حين الخوف ولذلك كانت(ارتعاد الفرائض) كناية عن الخشية والاضطراب، ومن هنا كانت الفرصة تطلق على المدّة الزمانية للقيام بعمل(المقاييس، المفردات ولسان العرب).

[۳۸۹] (۱) نهج البلاغه، الكلمات قصار، ۱۴۷.

[۳۹۰] (۱) راجع الى تفسير نفحات القرآن، ج ۹.

[۳۹۱] (۱)« فجور» من مادة« فجر» بمعنى الشق فى الشى ومن هنا يطلق الفجر على طلوع الصبح وكأن ضياء الصبح يشق حجاب الليل المظلم، كما يصطلح على الأعمال غير المشروعة بالفجور لأنّها تخترق حجب الدين.

[۳۹۲] (۲)« الغرور» بمعنى الغفلة فى اليقظة، ووردت بمعنى المكر والحيلة، والغرور بفتح الغين بمعنى الشىء الذى يخدع الإنسان ويستغفله، كما فسر بمعنى الشيطان، لانه يخدع الناس بوعوده الكاذبة.

[۳۹۳] (۳)« الثبور» من مادة« ثبر» على وزن صبر بمعنى الحبس والهلاك والفساد الذى يصد الإنسان عن بلوغ الهدف.

[۳۹۴] (۱) انظر إحقاق الحق ۶/ ۴؛ ۱۶/ ۴۰۲ واعيان الشيعه ۱/ ۲۶۴.

[۳۹۵] (۱) تفسير نور الثقلين ۱/ ۲۰- ۲۱.

[۳۹۶] (۲) تفسير نور الثقلين ۱/ ۱۳۴.

[۳۹۷] (۱) هنالك محذوف فى الجملة تقديره:« الآن إذا رجع الحق إلى أهله لم لا تؤدون حقه». وقد ورد تقدير ذلك فى مصادر نهج البلاغة:« الآن إذا رجع الحق إلى أهله من أهل بيت البنوة يجرى ما يجرى من الحوادث ويقع ما يقع من الاختلاف؟».(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۳۰۲) وكلا النتجيتين واحدة.

[۳۹۸] (۲) سورة الاحزاب/ ۳۳.

[۳۹۹] (۳) سورة آل عمران/ ۶۱.

[۴۰۰] (۴) سورة المائدة/ ۶۷.

[۴۰۱] (۵) لقد أشرنا فى ذيل كل آية واردة بهذا الشأن فى التفسير الأمثل إلى المصادر؛ ومن أراد الوقوف على ۲ التفاصيل فليراجع احقاق الحق، ج ۳ ورسالة القرآن، ج ۹.

[۴۰۲] (۱) كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة للمرحوم المحقق الفيروز آبادى.

[۴۰۳] (۲) عبقات الأنوار للسيد حامد حسين الهندى.

[۴۰۴] (۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱/ ۱۷.

[۴۰۵] (۲) على فى الكتاب والسنة ۱/ ۱۰.

[۴۰۶] (۳) الغدير ۱۰/ ۲۷۱.

[۴۰۷] (۴) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱/ ۱۴۰.

[۴۰۸] (۱) شواهد التنزيل ۱/ ۳۲۹.

[۴۰۹] (۲) صحيح الترمذى، ۱۳/ ۱۶۸، طبع الصاوى مصر(۵/ ۶۳۵ طبع دار احياء التراث العربى).

[۴۱۰] (۳) انظر« رسالة القرآن»/ ۹.

[۴۱۱] (۱) منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة، ۳/ ۳۲.

[۴۱۲] (۲)« الرحبة» بمعنى المكان الواسع، ويعتقد البعض أنّها اسم موضع فى الكوفة، بينما يرى البعض الآخر هى موضع يبعد ثمانية فراسخ عن الكوفة(مجمع البحرين ومراصد الاطلاع).

[۴۱۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۱/ ۲۵۱.

[۴۱۴] (۲) تذكرة الخواص/ ۱۲۴.

[۴۱۵] (۳) شرح ابن ميثم بحرانى ۱/ ۲۵۲.

[۴۱۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۰۵

[۴۱۷] (۱)« تقمص» من مادة فميص بمعنى لبسها كالقميص.

[۴۱۸] (۲)« الرحا» بمعنى الطاحونة، وقد استعملت مادتها بصورة ناقص واوى وناقص يائى.

[۴۱۹] (۳)« ينحدر» من مادة إنحدار بمعنى الانهمار والسقوط على وجه الكثرة.

[۴۲۰] (۱) سورة النحل/ ۱۱.

[۴۲۱] (۲) للوقوف على حقيقة التعبيرات الواردة بشأن أميرالمؤمنين على عليه السلام وأفضليته المطلقة على من سواه من أفراد الامّة، نكتفى بالايضاحات التى وردت فى مقدمة الكتاب بشأن فضائله ومناقبه عليه السلام.

[۴۲۲] (۳) للوقوف على إسناد هذا الحديث المعروف فى مصادر العامة، انظر إحقاق الحق ۵/ ۴۶۸- ۵۰۱.

[۴۲۳] (۴) تفسير نور الثقلين ۵/ ۳۸۶ وليس هنالك من منافاة بين هذا التفسير وذلك الذى فسره بالماء الجارى، ۲ ولا التفسير الذى ورد فى بعض الروايات من أنّ المراد بالماء المعين أصل وجود الإمام عليه السلام، وذلك لإمكانية جمع هذه المعانى فى مفهوم الآية.

[۴۲۴] (۱) لقد ذكر ابن أبى الحديد بحثا مفصلًا بهذا الشأن فى شرحه لنهج البلاغة، ثم تطرق إلى العلوم الإسلامية وشرح كيفية إرتباطها بعلم الإمام عليه السلام من الناحية التاريخية(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۷- ۲۰).

[۴۲۵] (۱)« سدلت» من مادة« سدل» على وزن عدل بمعنى نزول الشىء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يغطى، وعليه فان مفهوم سدلت هنا تركتها وارخيت عليها شيئا.

[۴۲۶] (۲)« كشح» على وزن فتح بمعنى الضلع و« طوى عنه كشحه» كناية عن عدم الاهتمام بشىء والانصراف عنه.

[۴۲۷] (۳)« جذاء» بمعنى القطع والكسر.

[۴۲۸] (۴)« طخية» بمعنى الظلمة وتاتى بمعنى السحب الخفيفة و« الطخياء» بمعنى الليلة الظلماء.

[۴۲۹] (۱)« يكدح» من مادة« كدح» بمعنى السعى المصحوب بالتعب.

[۴۳۰] (۲) الهاء فى هاتا علامة تنبيه والتاء إسم إشارة مونث، إشارة إلى طخية»« الظلمة» التى وردت فى العبارة السابقة. واعتبر البعض أن المشار إليه الحالة المستفادة من العبارة فيكون المعنى« فرأيت أنّ الصبر على هذه الحالة أحجى».

[۴۳۱] (۳)« احجى» من مادة« حجا» بمعنى العقل، وعليه أحجى تعنى الاعقل.

[۴۳۲] (۴)« قذى بمعنى التلوث.

[۴۳۳] (۵)« الشجى» بمعنى الهم والغم والشدة والألم، وتعنى أيضا ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه.

[۴۳۴] (۱) سيرة ابن هشام ۴/ ۳۱۶.

[۴۳۵] (۱) سورة مريم/ ۵- ۶.

[۴۳۶] (۲) سورة فاطر/ ۳۲.

[۴۳۷] (۳) اصول الكافى ۱/ ۳۲- ۳۴.

[۴۳۸] (۴) منهاج البراعة ۳/ ۴۵.

[۴۳۹] (۱) انظر مجلة رسالة الحوزة للوقوف على المباحث المهمّة التى طرحت فى تلك الندوةو التقارب الذى حصل بين الأفراد.

[۴۴۰] (۱) توفى فى العام الثالث عشر من الهجرة بعد أن تولى الخلافة لمدة سنتين وثلاثة أشهر.« مروج الذهب ۲/ ۳۰۴ الطبعة الرابعة».

[۴۴۱] (۲) سورة بقرة/ ۱۸۸.

[۴۴۲] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۷۴.

[۴۴۳] (۲) الأعشى من أبرز شعراء الجاهلية. سئل يونس النحوى: من أشعر الشعراء؟ قال: لا أعلم أشعر هم إلّاأنى أقول إمرء القيس فارسا والنابغة حين الخوف وزهير عند الحب وإلّا عشى عند الطرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، لقب بالاعشى لضعف بصره وقد عمى آخر عمره واسمه ميمون بن قيس، وأراد بشعره السابق الزمان الذى كان يجالس فيه حيان أخو جابر أحد أشراف اليمامة حين كان يعيش الأعشى آنذاك فى نعمة موفورة فيقارنها مع عيشه الآن فى صحارى مكة والمدينة فيقول أين تلك الحياة من هذه!

[۴۴۴] (۳) شرح ابن ميثم البحرانى ۱/ ۲۵۷.

[۴۴۵] (۴) لقد استفاضت مصادر الفريقين التى روت هذا الحديث، وقد أورده إبن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة، ۱/ ۱۶۹.

و صرّح العالم المصرى الكبير الشيخ محمد عبده فى شرحه لنهج البلاغة قائلًا: روى البعض أنّ أبابكر لما تمت له البيعة قال:« أقيلونى

فلست بخيركم» لكن أغلب العلماء رو وا الحديث أنّه قال:« و ليتكم ولست بخيركم»(شرح نهج البلاغة لمحمد عبده، ص ۸۶ ذيل هذه الخطبة). وجاء فى حاشية إحقاق الحق عن ابن حسنويه المحدث الحنفى الموصلى فى كتابه« در بحر المناقب» حديثا مفصلا أنّ أبابكر قال:« أقيلونى فلست بخيركم وعلى فيكم»(إحقاق الحق ۸/ ۲۴۰). وروى الطبرى فى تأريخه لما بويع أبى بكر فى السقيفة قال:« أيّها الناس فانّى قد وليت عليكم ولست بخيركم»(تأريخ الطبرى ۲/ ۴۵۰ طبع بيروت مؤسسة الأعلمى). وروى ابن قتيبة الدينورى فى الإمامة والسياسة أنّ أبابكر خطب الناس باكياً فقال:« لا حاجة لى فى بيعتكم أقيلونى بيعتى»(الإمامة والسياسة ۱/ ۲۰).

[۴۴۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۶۹.

[۴۴۷] (۲) نهج البلاغة، خطبة ۱۷۳.

[۴۴۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۶۹.

[۴۴۹] (۲)« حوزة» بمعنى الناحية و الطبيعة، من مادة« حيازة» بمعنى الجمع والاحاطة.

[۴۵۰] (۳)« الكلم» فى الأصل بمعنى الجرح، واطلق لفظ الكلام لاثره القاطع فى المقابل.

[۴۵۱] (۴)« العثار بمعنى السقوط و الكبوة.

[۴۵۲] (۵)« الصعبة» بمعنى الانسان أو الحيوان الطائش، ما ليست بذلول و أريد بالصعبة هنا الناقة الجامحة.

[۴۵۳] (۶)« أشنق» بمعنى سحب زمام الناقة و« شناق» على وزن كتاب يطلق على الحبل الذى تربط به القربة.

[۴۵۴] (۷)« خرم» من مادة« خرم» بمعنى القطع.

[۴۵۵] (۸)« أسلس من» مادة« سلس» على وزن قضص و سلاسه بمعنى السهولة و عليه فان أسلس بمعنى أرخى.

[۴۵۶] (۹)« تقحم» من مادة« قحوم» على وزن شعور بمعنى رمى النفس فى الهلكة دون إجالة الفكر.

[۴۵۷] (۱) هنالك إحتمال ثالث ذكرهنا فى أنّ المراد الخلافة على عهد الإمام على عليه السلام، حيث شهدت الأوضاع بروز خطرين، ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً.

[۴۵۸] (۲)« منى» من مادة« منو» بمعنى ابتلى واصيب.

[۴۵۹] (۳)« خبط» بمعنى« ضرب» الناقة للأرض، واريد بها السير على غير هدى

[۴۶۰] (۴)« شماس» بمعنى الاباء والطيش(إباء ظهر الفرس عن الركوب).

[۴۶۱] (۵)« تلون» بمعنى تغيير الحال أو اللون.

[۴۶۲] (۶)« إعتراض» بمعنى السير على غير خط مستقيم، كأنّه يسير عرضاً فى حال سيره طولًا.

[۴۶۳] (۱) الغدير ۶/ ۲۹۰.

[۴۶۴] (۲) شرح نهج بلاغة لإبن أبى الحديد ۱/ ۱۸۱.

[۴۶۵] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۸۲.

[۴۶۶] (۱) الغدير ۶/ ۱۱۰.

[۴۶۷] (۱) ورد فى مقاييس اللغة أن« الزعم» عبارة عن الكلام الذى لا واقعية له وصاحبه ليس متأكداً منه.

[۴۶۸] (۲) اللام فى لفظ الجلالة مفتوحة للاستغاثة واللام فى الشورى مكسورة وللمستغاث منه.

[۴۶۹] (۳)« أسففت» من مادة« إسفاف» بمعنى إقتراب شىء من آخر ويستعمل هذا اللفظ فى الطائر إذا دنا من الأرض، كما يستعمل فى نسج الحصير لان خيوطه تقترب من بعضها البعض الآخر، كما وردت بمعنى شدة النظر(راجع مقاييس اللغة ولسان العرب).

[۴۷۰] (۱)« صغا» من مادة« صغو» بمعنى الميل.

[۴۷۱] (۲)« ضغن» على وزن ضمن بمعنى البغض والعداوة.

[۴۷۲] (۳)« هن» سيأتى التفسير لا حقا.

[۴۷۳] (۴) نقل الخوئى فى شرحه عن الطبرى عدم حضور طلحة فى الشورى بل فى المدينة(شرح الخوئى، ۳/ ۷۳).

[۴۷۴] (۱) صرّح علماء اللغة بان« هن» تعنى فلان وتقال حين يريد الإنسان الإشارة من بعيد إلى شىء لقباحته أو لأسباب اخرى، وعادة ما تستعمل هذه المفردة فى الصفات السيئة والقبيحة ولا تستعمل فى الامور الحسنة.

[۴۷۵] (۲)« نافجا» من مادة« نفج» على وزن رفع بمعنى رافعا.

[۴۷۶] (۳)« الحضن» ما بين الابط والكشح ونافجاً حضنيه تقال للمتكبر ولمن إمتلأ بطنه طعاماً.

[۴۷۷] (۴)« نثيل» من مادة« نثل» على وزن نسل بمعنى غائط الإنسان وروث الحيوان.

[۴۷۸] (۵)« معتلف» من مادة« علف» بمعنى موضع العلف، وقد أراد بالعبارة الشخص الذى همه جمع الأموال وملىء البطن وافراغها.

[۴۷۹] (۶)« الخضم» أكل الشىء الرطب بتمام الفم وهى تقابل القضم التى تعنى الأكل بأطراف الأسنان، وقال البعض الخضم بمعنى أكل العلف الطرى والقضم بمعنى أكل العلف الجاف.

[۴۸۰] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۱/ ۱۹۸.

[۴۸۱] (۲)« انتكث» من مادة« نكث» على وزن عكس بمعنى النقض والكسر ومن هنا يقال لعدم الالتزام بالعهد نقضه.

[۴۸۲] (۳)« فتل» بمعنى اللف، ومقتول وفتيلة من هذا الباب.

[۴۸۳] (۴)« أجهز» من مادة« إجهاز»، تطلق على المجروح وتفيد التسريع فى الموت واتمام العمل.

[۴۸۴] (۵)« كيت» من مادة« كبو» بمعنى السقوط والوقوع على الوجه، ومن هنا يقال كبابه الجواد إذ سقط لوجهه.

[۴۸۵] (۶)« بطنته» من مادة« بطن» بمعنى التخمة(ملىء الجوف الطعام أو النهم فى الأكل).

[۴۸۶] (۱)« آلكم» من مادة« الا» يألو بمعنى التقصير، وعلى هذا الاساس فان« لم آلكم» يعنى لم أُقصر فى حقكم.« لسان العرب».

[۴۸۷] (۲) الكامل لابن أثير ۲/ ۴۲۵.

[۴۸۸] (۱) المراد بآية الحجاب قوله سبحانه:« فاسئلوهن من وراء حجاب» الذى نزل فى نساء النبى صلى الله عليه و آله والكلمة المذكورة أن طلحة لما أنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله: ما الذى يعنيه حجابهن اليوم، وسيموت غدا فننكحهن.

[۴۸۹] (۱) فى حوادث ۳۳ ۳۵، مع تصرف واختصار فى جميع ما أورده فى هذا الفصل(۹ نهج ۲).

[۴۹۰] (۲) المتأله: المتعبد المتنسك.

[۴۹۱] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۲/ ۱۴۳.

[۴۹۲] (۱)« راعنى» من مادة« روح» على وزن نوع بمعنى الخوف و الخشية و الفلق كما وردت بمعنى الدهشة والذهول.

[۴۹۳] (۲)« عرف» بمعنى الكثرة والازدهام و من هنا يطلق على شعر عنق الضبع.

[۴۹۴] (۳)« ضبع» له ثلاثه معان، الحيوان المعروف و أحدا أعضاء الانسان(العضد) والثالث أنه أحد صفات‌الناقه. و قد تكون كناية عن سنين القحط التى تهجم على الانسان.

[۴۹۵] (۴)« ينثالون» من مادة« ثول» على وزن قول بمعنى ازدحام زنابير العسل حين تجتمع و تروح و تجيىء ثم اطلقت على كل ازدحام يتخلله ذهاب و اياب(مقاييس اللغة و الصحاح و لسان العرب).

[۴۹۶] (۱)« مرق» من مادة« مروق» على وزن غروب بمعنى الخروج من الشىء حيث تستعمل فى خروج السهم- ويقول صاحب صحاح اللغة ولسان العرب- المراد به المرور من الهدف واصابة طرفه ومن هنا سمى الخوارج ب« المارقين» لانهم كانوا جماعة مفرطة متعصبة رأت نفسها أكثر إسلامية من أمير المؤمنين على عليه السلام.

[۴۹۷] (۲)« قسط،» وردت أحيانا بمعنى الظلم والعدول عن الحق ولذلك يقال قسط على وزن فقط للأفراد الذين إعوجت أرجلهم، كما وردت بمعنى العدل. قال الراغب فى المفردات القسط بمعنى السهم والنصيب فاذا أخذ سهم شخصى قيل له قسط وهذا مصداق الظلم، واقساط تعنى دفع سهم الآخر وهذا عين العدالة. وعليه فالمعنيان يعودان الى مادة واحدة فقد صرّح صاحب لسان العرب أنّ جاء فى حديث على عليه السلام قال:« امرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» واضاف صاحب لسان العرب« و القاسطون أهل صفين».

[۴۹۸] (۱) مستدرك الصحيحين ۳/ ۱۳۹(طبعة دار المعرفة).

[۴۹۹] (۲) لقد طبع هذا الكتاب فى ذيل المستدرك(المجلد السابق والصفحة السابقة).

[۵۰۰] (۳) اسد الغابة ۴/ ۳۳.

[۵۰۱] (۴) تاريخ بغداد ۱۳/ ۱۸۷(طبعة دار الكفر).

[۵۰۲] (۱) سورة القصص/ ۸۳.

[۵۰۳] (۲)« وعوها» من مادة« وعى» على وزن نفى، قال صاحب المقاييس تغنى صنم الشىء إلى آخر، وقال صاحب المفردات تعنى حفظ الحديث وما شابه ذلك(وكلاهما بمعنى واحد).

[۵۰۴] (۳)« راق» من مادة« روق»- حسب المقاييس- بمعنى تقدم شىء على آخر و تأتى أحيانا بمعنى الحسن والجمال ومن هنا يصطلح بالرواق على مقدمة البيت أو الاضرحة المقدسة و قد جاءت هنا بمعنى الحسن والجمال.

[۵۰۵] (۴)« زبرج» بمعنى الزينة والذهب كما تأتى بمعنى نقوش القماش.

[۵۰۶] (۵) يتضح بجلاء أنّ الضمائر فى هذه العبارة والعبارات السابقة إنّما يعود إلى الفرق الثلاث الناكثين والمارقين والقاسطين التى اشير إليها فى العبارة السابقة، بينما يرجح المرحوم العلّامة المجلسى فى البحار أنّ هذه الضمائر إنّما تعود إلى الخلفاء الثلاث، غير أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً. ولعل هذا هو الذى دفع المرحوم المجلسى لان يختتم كلامه باحتمال رجوع الضمائر إلى كافة من أشارت إليهم الخطبة.

[۵۰۷] (۱) فى ظلال نهج البلاغة ۱/ ۹۶.

[۵۰۸] (۱) ما ورد أعلاه، اقتبس من« الكامل فى التأريخ» لابن الأثير ج ۳ مع تلخيص».

[۵۰۹] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۵۹.

[۵۱۰] (۲)« الكامل فى التاريخ» لابن الاثير، شرح نهج البلاغة للخوئى، تاريخ الطبرى، ج ۴، نور الولاية، مروج الذهب، ج ۲« مع التلخيص والاختصار».

[۵۱۱] (۱)« نَسَمَة» فى الأصل بمعنى هبوب الرياح بشكل هادىء، وتستعمل أحيانا للاشارة إلى التنفس، ويُطلق أحياناً على الانسان، فيقال« نَسَمَة، أما المقصود بها فى بحثنا هذا فهو« الانسان» أو« الروح».

[۵۱۲] (۲)« حاضر» بمعنى حضور الشخص أو الشئى، وقال أرباب اللغة آنهاتأتى بمعنى القبيلة والطائفة الكبيرة، ولعلها وردت هنا بهذين المعنيين.

[۵۱۳] (۳)« لايقاروا» من مادة« قرار» بمعنى السكون، وعليه فالمراد بالعبارة أن لا يسكتوا ولا يسكنوا.

[۵۱۴] (۴) كظة ما يعترى الاكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استئثار الظالم بالحقوق.

[۵۱۵] (۵)« سغب» تعنى الجوع، و لذلك يقال« ذو مسغبة على القحط» و ورد فى القرآن« أو اطعام فى يوم ذى مستغبة» و جاءت فى كلام الامام عليه السلام كناية عن هضم حقوق المظلومين.

[۵۱۶] (۶)« غارب»، الكاهل والكلام تمثيل للترك وارسال الأمر.

[۵۱۷] (۱) سورة الانعام/ ۹۵.

[۵۱۸] (۲) سورة المومنون/ ۱۴.

[۵۱۹] (۳) والشاهد على ذلك الشعر الذى تمثل به عليه السلام فى قضية مخالفة طلحة والزبير والتمهيد لنشوب معركة الجمل. حيث قال:

فتن تحل بهم وهن شوارع‌تسقى آواخرها بكأس الأول بحار الانوار، ۳۲/ ۱۱۸.

[۵۲۰] (۱)« ألفيتم» من مادة« الفاء»، بمعنى وجدتم ورأيتم.

[۵۲۱] (۲) عفطة العنز: ما تنثره من أنفها، واكثر ما يستعمل ذلك فى النعمة وإن كان الأشهر فى الاستعمال بالنون« النقطة».

[۵۲۲] (۱) شرح نهج الباغة ابن أبى الحديد ۱/ ۲۰۵

[۵۲۳] (۱) اصول الكافى ۲/ ۲۴۲ كتاب الإيمان والكفر، باب قلة عدد المؤمنين، ح ۴.

[۵۲۴] (۱) هذا إذا أخطا الشهود فان كان عن عمد فحكمهم القصاص كما ورد فى كتاب القصاص. والنقطة الجديرة بالذكر للشهود الذين حصل الرجم لشهادتهم أن يرجعوا وما دفع يؤخذ من الأربعة بالتساوى وللوقوف أكثر راجع كتاب الجواهر، ۴۱/ ۲۲۵، ولابدّ من الالتفات هنا إلى وجود بعض التفاوت بين ما ورد فى هذا الحديث وما جاء فى الكتب الفقيهة.

[۵۲۵] (۲) سورة المائدة/ ۸۲.

[۵۲۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ۱/ ۲۶۹، المتسدرک ۷/ ۵۵.

[۵۲۷] (۲) ورد هذا المعنى فى الرسالة التى كتبها معاوية وبعث بها لمحمد بن أبى بكر والتى نقلتها أغلب المصادر الإسلامية ومنها مروج الذهب، فقد قال فيها أنى وأبيك نقر بفضل على وحقّه علينا ... إلّاأنّ أبيك وفاروقه(عمر) هما أول من خالفه بعد وفاة النبى صلى الله عليه و آله. وقال اليعقوبى فى تاريخه: وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون فى على عليه السلام.(تاريخ اليعقوبى ۲/ ۱۲۴).

[۵۲۸] (۱)« اهتديتم» من« الاهتداء» تستعمل- حسب قول بعض شرّاح نهج البلاغة وارباب اللغة- حيث يميل الإنسان بإرادته للهداية وهكذا جاءت فى العبارة.

[۵۲۹] (۲)« ظلماء» على وزن صحراء بمعنى ظلمة أول الليل أو بعبارة اخرى النور بعد الظلمة؛ خلافا للظلمة بمفهومها العام ولعل الإمام عليه السلام أراد بها عصر الجاهلية الذى يعتبر فى الواقع ظلمة بعد النور؛ أى دعوة الأنبياء أولى العزم.

[۵۳۰] (۳)« تسنمتم» من مادة سنم على وزن قلم بمعنى العلو ومن هنا يطلق على ذروة الجمل إسم سنام.

[۵۳۱] (۴)« ذروة» من مادة« ذرو»، لها معنيان: أحدهما إشراف شىء على آخر ومن هنا تطلق الذروة على قمة الجبل، والآخر تفتت الشىء وتفرقه.

[۵۳۲] (۵)« أفجرتم» من مادة« فجر» بمعنى الفجوة الواسعة قى الشىء ومن هنا اطلق الفجر على الصباح الذى يشق عتمة الليل، وأفجرتم بمعنى دخول الفجر.

[۵۳۳] (۶)« سرار» من مادة« سر» بمعنى الخفاء وما يقابل العلن، وتطلق مفردة السرار عادة على الليالى الأخيرة للشهر حيث يكون الجو ظلاما دامساً.

[۵۳۴] (۱) سورة البقرة/ ۲۵۷.

[۵۳۵] (۲) سورة المائدة/ ۱۵- ۱۶.

[۵۳۶] (۳) سورة الزخرف/ ۴۴.

[۵۳۷] (۴)« النبأة» من مادة« نبأ» بمعنى القدوم من مكان إلى آخر ومن هنا اطلق النبأ على الخبر الذى ينتقل من مكان إلى آخر والنبأة بمعنى الصوت الخفى لأن الصوت ينتقل من مكان إلى آخر(مقاييس اللغة).

[۵۳۸] (۵) قال بعضى شرّاح نهج البلاغة أن قوله« أصمته الصيحة» ليس معناه أن الصيحة كانت علة لصممه، بل معناه أنّهم كانوا

صمما عن سماع صوت الوحى، كقوله سبحانه« أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون»(سورة يونس/ ۴۲).

[۵۳۹] (۱)« جنان» بمعنى القلب لأنه فى صدر الإنسان وقد اشتقت هذه المفردة من جن(على وزن فن) بمعنى الاستتار ومن هنا يطلق جنّة على الحديقة الغناء والأرض المغطاة بالأشجار، ويطلق الجنين على الطفل المستتر فى بطن امّه كما تطلق مفردة الجن لأنّهم استجنوا فلا يروا والمجنون تطلق على من ستر عقله.

[۵۴۰] (۲)« خفقان» بمعنى الاضطراب، ويستعمل للخوف والخشية لانها تدعو للاضطراب والمراد بها فى العبارة خوف اللّه.

[۵۴۱] (۱)« أتوسمكم» من مادة« وسم» على وزن ولم أتفرس فيكم، الأثر والعلّامة؛ أى كنت أرى فيكم علائم الغدر منذ البداية.

[۵۴۲] (۲)« مغترين» من مادة« غرور» بمعنى مخدوعين.

[۵۴۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۳۰ و ۲۳۱.

[۵۴۴] (۲)« جلباب» بمعنى الثوب والستر.

[۵۴۵] (۱)« جواد» جمع« جادة» بمعنى الطرق الكبيرة و الواسعة.

[۵۴۶] (۲)« مضلة» من مادة« ضلال» الموضع الذى يضل سالكه وعليه فمعنى جواد المضلة طرق الضلال.

[۵۴۷] (۳)« تميهون» من مادة« موه» على وزن نوع بمعنى تجدون ماءاً، ومنه أخذت مفردة الماء وأماه بمعنى بلغ الماء. عليه فمعنى لاتميهون لا تبلغون الماء(و إن أجهدتم أنفسكم فى حفر الأبار).

[۵۴۸] (۴) سورة الانفال/ ۲۹.

[۵۴۹] (۵) اصول الكافى ۱/ ۲۱۸.

[۵۵۰] (۱) بحارالانوار ۲۴/ ۱۲۸ ح ۱۳.

[۵۵۱] (۲) بحارالانوار ۶۷/ ۵۹(باب القلب وصلاحه).

[۵۵۲] (۳) أصول الكافى ۲/ ۲۴۹ ح ۳(باب ان المؤمن صنفان).

[۵۵۳] (۱) اصول الكافى ۲/ ۲۰۰، ح ۵.

[۵۵۴] (۱) سورة طه/ ۶۵- ۶۷.

[۵۵۵] (۲)« توافقنا» من مادة« الوقوف» والقاف مقدمة على الفاء.

[۵۵۶] (۱) سورة الرعد/ ۱۷. للوقوف على تفاصيل هذا المثل القرآنى راجع تفسير الأمثل/ ۱۰ ذيل هذه الآية.

[۵۵۷] (۱) لقد نقلت هذه الخطية من سائر المصادر الاخرى غير نهج البلاغة. ومن بين مصادر نهج البلاغة ماروى عن كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقى، ۲/ ۱۳۹، تذكرة الخواص للسبط الجوزى والاحتجاج للطبرسى ۱/ ۱۲۷ كما يستفاد من كلمات ابن أبى الحديد أنّه نقل هذه الخطية من طرق اخرى

[۵۵۸] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن ميثم ۱/ ۲۷۶.

[۵۵۹] (۲) الكامل لابن أثير ۲/ ۳۲۶.

[۵۶۰] (۳)« عرجوا» من مادة« تعريج» بمعنى الرغبة أو الترغيب وهى هنا بمعنى الاعتزال.

[۵۶۱] (۴)« المنافرة» حسب قول صاحب مقاييس اللغة تعنى التحاكم لدى القاضى ومن لوازمها النزاع والمخاصمة.

[۵۶۲] (۱) جاء فى الرواية المشهورة عن النبى صلى الله عليه و آله:« مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق». امّا قول ابن أبى الحديد أن هذا الحديث صحيح الا ان أهل البيت عليه السلام لم يرادوا بهذه اللفظة فهو خاطئ. فقد أراد الإمام عليه السلام بهذه العبارة أن اسمعوا لما آمركم به واطيعوا ولاتتبعوا ما تمليه عليه إرادتكم.

[۵۶۳] (۲) لابدّ من الالتفات هنا ألى الفعل(أراح) قد يأتى لازما أحيانا ومتعديا أحيانا اخرى، ومفهومه على ضوء المعنى الأول أراح

نفسه بينما معناه أراح الآخرين متعديا.

[۵۶۴] (۱)« آجن» من مادة« أجن» على وزن ضرب واجون المتعفن المتغير اللون والطعم وقد وردت هنا كإشارة للخلافة.

[۵۶۵] (۲)« يغص» من مادة« غصص» على وزن هوس بمعنى صعبة الابتلاع.

[۵۶۶] (۳)« ايناع» من مادة« ينع» على وزن منع بمعنى النضج والبلوغ، وعادة ما تستعمل هذه المفردة بشان نضج الثمار، كما تأتى بهذا المعنى أيضاً إذا جاءت من باب الافعال.

[۵۶۷] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۶.

[۵۶۸] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۳۳.

[۵۶۹] (۲) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۱۱/ ۱۱۳.

[۵۷۰] (۱) بحارالانوار ۶۷/ ۲؛ تفسير نور الثقلين ۱/ ۴۰۵.

[۵۷۱] (۲)« اندمجت» من مادة« اندماج» الانطواء وهى هنا إشارة للاسرار المودعة قلب الإمام عليه السلام.

[۵۷۲] (۳)« بحت» من مادة« بوح» على وزن لوح بمعنى الاعلان وترك الكتمان ومن هنا يطلق« الباحة» على المحيط الواسع و« المباح» على الأعمال الجائزة.

[۵۷۳] (۴)« أرشية» جمع« رشاء» على وزن رضاء بمعنى الحبل الطويل، ومن هنا سميت الرشوة لأنّها كالحبال التى تتصل بالدلو ليسحب الماء من البئر.

[۵۷۴] (۵)« طوى» من مادة« طى» و هى البئر العميقة البعيدة.

[۵۷۵] (۱) لقد تناول أحد الشعراء المعروفين هذه الحالة ليشبهها بنوعين من الأفراد، طائفة قليلة المعرفة فهى كالثمار الخام التى تلتصق بشدة فى الشجرة، واخرى عارفة وهى كالثمار الناضجة التى تتساقط بيسر وسهولة من الشجرة.

[۵۷۶] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۵۵.

[۵۷۷] (۳) بحارالانوار ۴۲/ ۲۳۹.

[۵۷۸] (۱) كثر الكلام بين الشرّاح والمفسرين بشأن من أشار بهذا على الإمام عليه السلام. فقد نسبه المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل إلى إسامة بن زيد، بينما نسبه بعض المؤرخين والشرّاح من غير الإمامية للإمام الحسن عليه السلام، ولكن لايبدو هذا التفسير صحيحاً بالاستناد إلى الرابطة التى كانت قائمة بين الإمام الحسن عليه السلام وأبيه عليه السلام. الاحتمال الأخير فهو أنّ هذه الإشارة لم تكن من قبل فرد بل من قبل طائفة ضالة خلدت إلى الراحة والدعة.

[۵۷۹] (۱) أشار مؤلف كتاب« مصادر نهج البلاغة» إلى المصادر الاخرى التى نقلت هذه الخطبة ومنها« تأريخ الطبرى، أمالى الشيخ الطوسى، صحاح اللغة وغريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام».

[۵۸۰] (۲)« ضبع» على وزن سبع، يطلق أحيانا على القحط والجفاف لأنّه يأكل كل شيىء ويقضى عليه.

[۵۸۱] (۳)« اللدم» حسب ما صرّح به بعضى أرباب اللغة هو صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباً غير شديد، ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الصوت إذا تكرر يمكنه أن يؤدى إلى النوم.

[۵۸۲] (۴)« يختلها» من مادة« ختل» على وزن ختم بمعنى الخداع والمخاتلة بمعنى المشى بهدوء نحو الصيد بحيث لايهرب.

[۵۸۳] (۵)« الراصد» من مادة« الرصد» بمعنى المترقب ومن هنا يطلق على مراقبة المنجمين اسم الرصد كما يطلق على موضع الرصد اسم المرصد.

[۵۸۴] (۱) إرشاد المفيد ۱/ ۲۴۳، طبع دار النشر العلمية الإسلامية.

[۵۸۵] (۱) جاء فى« مصادر نهج البلاغة» أن هذه الخطبة وردت فى ربيع الأبرار للزمخشرى، ۱/ ۱۰۹ والنهاية لابن أثير فى غريب

الحديث ۲/ ۵۰.

[۵۸۶] (۱) سورة النحل/ ۹۹- ۱۰۰.

[۵۸۷] (۲)« اشراک» جمع« شریک» و« شَرَک» بمعنی افتح ویحتمل المعنیان فی العبارة المذکورة، وقد اختار کل شارح من شرّاح نهج البلاغة أحد هذین المعنیین.

[۵۸۸] (۳) لقد استهلت العبارة بفاء التفریع لبیان شرحها للعبارة السابقة.

[۵۸۹] (۱) سورة البقرة/ ۱۶۸ و ۲۰۸؛ سورة الانعام/ ۱۴۲؛ سورة النور/ ۲۱.

[۵۹۰] (۲) هذا التفسیر علی أساس أنّ حرف الباء فی بهم للتعدیة، امّا إذا فسرت بالاستعانة فانّ مفهوم الجملة سیصبح أنّ الشیطان بالاستعانة بهؤلاء سیرکب الخطأ والزلل؟ ولکن بالالتفات إلی العبارة« وزین لهم الخطل» وفاء التفریع فی فرکب یبدو التفسیر الأول أنسب.

[۵۹۱] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۶.

[۵۹۲] (۴) کلمة« فعل» یمکن أن تکون مفعولًا مطلقاً لفعل محذوف تقدیره« فعلوا ذلک فعل ...» کما یمکن أن تکون مفعولًا مطلقاً لما سبق(نظر، نطق، رکب وزین) وسیصبح مفهوم الجملة أن أفعال هؤلاء أفعال من شرک الشیطان فی عمله.

[۵۹۳] (۱) سورة الاسراء/ ۶۵.

[۵۹۴] (۲) سورة النحل/ ۹۹.

[۵۹۵] (۳) سورة إبراهیم/ ۲۲.

[۵۹۶] (۱) سورة الانعام/ ۱۱۲.

[۵۹۷] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبی الحدید ۱/ ۲۳۲.

[۵۹۸] (۲) کتاب مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۳۴- ۳۳۵.

[۵۹۹] (۱) شرح ابن أبی الحدید ۱/ ۲۳۱.

[۶۰۰] (۲)« ولیجة» من مادة« ولوج» بمعنی الدخول، کما تعنی الدخول الخفی ویقال ولیجة لما یضمر فی القلب ویکتم، وقد جاءت هنا بمعنی الأمر الخفی.

[۶۰۱] (۱) قال صاحب« مصادر نهج البلاغة» علاوة علی نقل الشریف الرضی لهذا الکلام فی نهج البلاغة، فقد رواه الواقدی ضمن إحدی خطبه علیه السلام یوم الجمل. کما نقله المرحوم الشیخ المفید فی کتاب الجمل(ص ۱۷۷) عن کتاب الجمل للواقدی. وأخیراً ذکره ابن عثم الکوفی فی کتاب الفتوحات.

[۶۰۲] (۱) بحارالانوار ۳۲/ ۶۰- ۱۸۸.

[۶۰۳] (۱) بحارالأنوار ۱۹/ ۲۲۴.

[۶۰۴] (۱) جاء فی مصادر نهج البلاغة أنّ المرحوم المفید نقل هذه الخطبة فی الإرشاد/ ۱۸۸.

[۶۰۵] (۱) سورة فاطر/ ۶.

[۶۰۶] (۲) سورة الاسراء/ ۶۴.

[۶۰۷] (۱) سورة الکهف/ ۱۰۴.

[۶۰۸] (۲) سورة یوسف/ ۱۰۸.

[۶۰۹] (۳) یری بعض أرباب اللغة أن« آیم» جمع« یمین» بمعنی القسم وقد سقطت النون وهی مبتدأ لخبر محذوف تقدیره(و ایمن اللّه قسمی).

[۶۱۰] (۴)« افرطن» من مادة« إفراط» بمعنى تجاوز الحد(ما يقابل التقريط)، كما تأتى بمعنى ملأ الشيء حتى يفيض، وقد جاءت بهذا المعنى فى العبارة.

[۶۱۱] (۵)« ماتح» بمعنى امتداد الشيء ثم اطلقت على المستسقى الذى يدلى بدلوه لاستخراج الماء من البئر. وقيل إنّ الماتح لمن يستسقى الماء من أعلى البئر، بينما المايح من تحته.

[۶۱۲] (۱) سورة الحجرات/ ۹.

[۶۱۳] (۲) منهاج البراعة للخوئى ۳/ ۱۶۷- ۱۶۹.

[۶۱۴] (۳) قال بعض شرّاح نهج البلاغة أن هذه العبارة جملة شرطية من حيث المعنى، تقد يرها لوزالت الجبال لاتزل(شرح ابن ميثم ۱/ ۲۸۷).

[۶۱۵] (۱) سفينة البحار، مادة أمن.

[۶۱۶] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۴.

[۶۱۷] (۳) سورة الانفال/ ۴۵.

[۶۱۸] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۴.

[۶۱۹] (۲) سورة آل عمران/ ۱۲۶.

[۶۲۰] (۱) سورة الانفال/ ۶۵.

[۶۲۱] (۲) نهج البلاغة، الكلمات قصار/ ۸۲.

[۶۲۲] (۱) سند هذه الخطبة هو ماورد فى كلام الشريف الرضى، وقد ورد شبيه هذا الكلام فى كتاب مصابيح الظلم من كتب المحاسن البرقى. أنّ أحد أصحاب الإمام عليه السلام قال بعد أنّ أظفر اللّه الإمام عليه السلام بالخوارج فى النهروان، طوبى لنا قاتلنا بين يديك فقتلنا الخوارج، فرد الإمام عليه السلام بعبارات شبيهة بما ورد فى هذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۳۹).

[۶۲۳] (۱)« الرعاف» خروج الدم من الأنف.

[۶۲۴] (۱) سورة الشمس/ ۱۴.

[۶۲۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱.

[۶۲۶] (۲) بحارالانوار ۶۵/ ۱۳۱.

[۶۲۷] (۳) سورة آل عمران/ ۱۸۳.

[۶۲۸] (۴) بحارالانوار ۹۷/ ۹۴.

[۶۲۹] (۵) وسائل الشيعة/ ۱۱، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ۵.

[۶۳۰] (۱) قال المرحوم المحقق الخوئى أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد انتهاء معركة الجمل، ورواها- مع بعض الاختلاف- المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج وعلى بن إبراهيم القمى والمحدث البحرانى، كما نقلها- حسب كتاب مصادر نهج البلاغة- عدد من العلماء من عاشوا قبل الشريف الرضى كالدينورى فى الأخبار الطوال والمسعودى فى مروج الذهب وابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۴۴).

[۶۳۱] (۱)« رغا» من مادة« رغاء» على وزن دعاء صوت الجمل كما يطلق على صوت الضبع أيضاً.

[۶۳۲] (۲)« عقر» من مادة« عقر» على وزن فقر بمعنى الأصل والجذر، وتعنى الجرح والقطع اذا استعملت للناقة كما تأتى بمعنى الهلاك.

[۶۳۳] (۳) سورة طه/ ۹۷.

[۶۳۴] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۱/ ۲۵۲- ۲۶۶ إلّاأنّه كتب حنين خطأ بدلًا من بدر.

[۶۳۵] (۲)« بين أظهركم» بمعنى بينكم، وأظهر جمع ظهر بمعنى الخلف وهو خلاف الباطن، ويستعمل هذا اللفظ للشخص الذى يعيش بين مجموعة تسانده و تحميه، و أحيانا يستعمل هذا اللفظ للعيش فى مجموعة يؤيدونه ويحمونه أو لا يحمونه.« لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ أولا يحمونه.« لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ لابن الاثير».

[۶۳۶] (۳)« شاخص» من مادة« شخص» بمعنى المرتفع واطلقت على قامة الإنسان حين تلوح من بعيد، ومن هنا اطلق على الشخص المسافر اسم الشاخص، وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة المذكورة.

[۶۳۷] (۱) اصول الكافى ۲/ ۳۷۵، باب مجالسة أهل المعاصى، وقد وردت فى هذا الباب عدّة روايات بهذا المضمون.

[۶۳۸] (۲) سورة المدثر/ ۳۸.

[۶۳۹] (۳) الذى تولى الخلافة عام ۳۸۱ ه(الكامل فى التأريخ ۱/ ۸۰).

[۶۴۰] (۴)« القائم بأمر الله»، من خلفاء الدولة العباسية، اصبح خليفة عام ۴۲۲ هجرى« الكامل فى التاريخ ۹/ ۴۱۷».

[۶۴۱] (۵) من النقاط التى تسترعى الانتباه إن إبن أبى الحديد كان من الذين عاشوا فى القرن السابع الهجرى وكان يُطلق على الخليج الفارسى اسم« بحر الفرس».

[۶۴۲] (۶) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۵۳.

[۶۴۳] (۱)« جاثمة» من مادة« جثوم» بمعنى الجمع والجثم بالصدر على الأرض، وتطلق هذه المفردة على الأفراد الذين يخلدون إلى الأرض وليس لهم من حركة سوى الكسل والنعاس.

[۶۴۴] (۲)« لجة» بمعنى الموجة والماء الواسع العميق، وتعنى فى الأصل ذهاب واياب الشىء ومن هنا يطلق لجة على البحر المائج، كما يطلق اللجوج على الأفراد الذين يصرون على شىء، كما تطلق على موج البحر.

[۶۴۵] (۳) هذا التفسير يصدق فى حال كون الباء فى« بذنبه» والباء فى« بعفوالله» باء السببية، ولكن اذا كانت الباء للالصاق فيكون مفهوم الجملة: الشخص الذى تلوث وابتلى بالذنوب، وبقى بعيداً عن الناجين، ولكن العفو الالهى يشمل هذا الشخص فيصبح من الناجين. لكن المعنى الأول هو الارجح طبق المقاييس الأدبية.

[۶۴۶] (۱)« شرف» على وزن هدف بمعنى الموضع المرتفع.

[۶۴۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۶/ ۲۲۵.

[۶۴۸] (۱) بحارالأنوار ۳۲/ ۲۵۶(مضمون الرواية).

[۶۴۹] (۱) جاء فى مصادر نهج البلاغة أن المرحوم الشيخ المفيد تقل فى كتاب الجمل/ ۲۱۷ عن الواقدى أنّ علياً عليه السلام حين انتصر فى المعركة ووزع الغنائم على الجنود ألقى هذه الخطبة: كما وردت مع إختلاف طفيف فى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۳۴۸).

[۶۵۰] (۱)« غرض» بمعنى الهدف وهو ما ينصب ليرمى بالسهام، ثم اطلق على كل هدف، كما ذكر له معان اخرى من قبيل الملل والشوق.

[۶۵۱] (۲)« نابل» من مادة« نبل» بمعنى الضارب بالنبل.

[۶۵۲] (۳)« فريسة» من مادة« فرس» على وزن فرض بمعنى الضرب، ولما كان الحيوان الوحشى يضرب فريسة بالأرض اطلق عليه المفترس، كما اطلق اسم الفرس على الحصان لضربه الأرض برجله.

[۶۵۳] (۴)« صائل» من مادة« صول» و« صولة» بمعنى الحملة والقهر والغلبة.

[۶۵۴] (۱)« القطائع» ما يقطعه الإمام بعض الرعية من أرض بيت المال ذات الخراج، ويسقط عنه خراجه، ويجعل عليه ضريبة يسيرة

عوضا عن الخراج، وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بنى اميهٔ وغير هم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورهٔ، وقد كان عمر أقطع قطائع، ولكن لأرباب الغناء فى الحرب والآثار المشهورهٔ فى الجهاد؛ عثمان أقطع القطائع صلهٔ لرحمه وميلا إلى أصحابه من غير عناء فى الحرب ولا أثر.

[۶۵۵] (۲) جاء فى مصادر نهج البلاغهٔ أن هذه الخطبهٔ قد ذكرت فى كتاب الاوائل لأبى هلال العسكرى وكذلك كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان المصرى وإثبات الوصيهٔ للمسعودى مع بعض الاختلاف(مصادر نهج البلاغهٔ ۱/ ۳۵۰).

[۶۵۶] (۱) بحار الأنوار ۷۲/ ۳۶.

[۶۵۷] (۲) بحار الأنوار ۷۲/ ۳۹.

[۶۵۸] (۳) بحار الأنوار ۷۵/ ۸۳.

[۶۵۹] (۴) مستدرک الوسائل ۱۱/ ۳۲۰.

[۶۶۰] (۵) تفسير الصافى، سورهٔ الرحمن/ ۷.

[۶۶۱] (۱) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبىالحديد ۱/ ۱۹۹.

[۶۶۲] (۱) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبى الحديد ۱/ ۲۶۹.

[۶۶۳] (۱) لقد نقلت هذه الخطبهٔ فى عدّهٔ كتب منها:

۱- الشيخ الطوسى، تلخيص الشافى ۳/ ۵۳، ۲- الجاحظ، البيان والتبيين ۳/ ۴۴، ۳- العقد الفريد ۴/ ۱۳۲، ۴- إرشاد المفيد، ۵- كتاب الجمل، ۶- عيون الأخبار، ۷- المسعودى، اثبات الوصيهٔ، ۸- كنز العمال، ۹- الكلينى، روضهٔ الكافى/ ۶۷، ۱۰- تاريخ اليعقوبى، ج ۱۱- المجلسى، بحار الأنوار.

[۶۶۴] (۱)« زعيم» من مادهٔ« زعم» بمعنى بيان الكلام الذى يحتمل فيه الخلاف، ثم أطلق الزعيم على من يكفل شخصاً ويضمنه لأنّه يكون عرضهٔ للتهمهٔ، وقد جاءت هذه المفردهٔ فى العبارهٔ بمعنى الضامن والكفيل، كما يطلق الزعيم على القائد الذى يتولى زمام الامور لأنّه يتكفل بالأعمال المهمّهٔ.

[۶۶۵] (۲)« مثلات» جمع« مثلهٔ» على وزن عضلهٔ بمعنى مقارنهٔ شىء بآخر، ثم اطلقت على العذاب الإلهى والعقوبهٔ التى تحذر الإنسان من ارتكاب ما يوجبها.

[۶۶۶] (۳)« حجز» من« حجز» على وزن عجز بمعنى الحائل بين شيئين وقد وردت بهذا المعنى فى العبارهٔ، فالتقوى تحول دون الوقوع فى الشبهات.

[۶۶۷] (۱)« بلبلهٔ» ذكر أرباب اللغهٔ عدّهٔ معان لهذه المفردهٔ منها الاختلاط وهذا هو المعنى المناسب لها فى هذه العبارهٔ.

[۶۶۸] (۲)« غربلهٔ» لها معنيان أحدهما فصل الخبيث من الطيب بالغربال(بكسر الغين وضمها) والآخر القطع والفصل.

[۶۶۹] (۳)« سوط» أى كما تختلط الابزار ونحوها فى القدر عند غليانه فينقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، وكل ذلك حكايهٔ عمّا يؤولون إليه من الاختلاف وتقطع الأرحام وفساد النظام.

[۶۷۰] (۱)« الوشمهٔ» فى الأصل بمعنى الخال الذى يوخز بالابرهٔ ثم يطلى بمادهٔ ملونهٔ تحت الجلد، كما أطلقت على الأشياء الصغيرهٔ كقطرهٔ ماء المطر أو الحديث القصير، وقد وردت هنا بالمعنى الأخير.

[۶۷۱] (۱)« شمس» من مادهٔ« شموس» و« شماس» على وزن فتوح وكتاب بمعنى التغيير وعدم الاستقرار ومن هنا اطلق اسم الشمس، حيث تتحرك على الدوام، وشمس التى وردت فى العبارهٔ جمع شموس بمعنى الفرس الجموح الذى يمنع ظهره من الركوب.

[۶۷۲] (۱)« ذلل» جمع« ذلول» وهى المروضهٔ الطائعهٔ.

[۶۷۳] (۱) سورهٔ البقرهٔ/ ۲۴۹.

[۶۷۴] (۲) سورة المائدة/ ۱۰۰.

[۶۷۵] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۱/ ۲۸۱.

[۶۷۶] (۱) سورة فاطر/ ۳۲.

[۶۷۷] (۲) سورة الواقعة/ ۷- ۱۱.

[۶۷۸] (۳)« مضلة» على وزن« مفعلة،» قال أرباب اللغة انّها تعنى كثرة وجود الشيء فى المكان وعليه فمفهوم العبارة أنّ الانحراف إلى اليمين واليسار يدعو إلى ضلال عظيم.

[۶۷۹] (۱) سورة البقرة/ ۱۴۳.

[۶۸۰] (۱) سورة الأعراف/ ۱۲۸.

[۶۸۱] (۲)« خاب» من مادة« خيبة» بمعنى الفشل والحرمان وعدم الظفر بالشيء.

[۶۸۲] (۳)« صفحة» بمعنى عرض الشيء وقد يراد بها الوجه ومنها المصافحة.

[۶۸۳] (۱)« سنخ» بمعنى الأصل والجذر، وكذلك محل غرس الشجر، وهو المكان الذى تَثبت فيه جذور وأصل الشجرة. ويستعمل هذا اللفظ أحيانا بمعنى الرسوخ فى شيء، وكل هذه المعانى مقاربة لبعضها، وفى العبارة أعلاه تشير إلى جذور العلوم والمعارف والاعمال الصالحة والتى رسخت فى أرضية التقوى والتى لايمكن أن تُجتّثَ جذورها.

[۶۸۴] (۱)« وراء» من مادة« ورى» على وزن« وزن» وفى الأصل بمعنى الاستتار، وأحيانا يطلق على الشيء الذى حُجب عن الانظار بواسطة حاجز فاصبح غير منظور باعتباره خلف الشيء أو وراءه.

وفى العبارة أعلاه جاءت هذه الكلمة بمعنى الخلف أو الوراء.

[۶۸۵] (۱) بحارالأنوار ۶۵/ ۱۵۷« مع قليل من التخليص والإيجاز».

[۶۸۶] (۱) نقل صاحب كتاب« مصادر نهج البلاغة» هذه الخطبة عن طائفة من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضى ومنهم:

۱- الكلينى فى الكافى بطريقين ۲- ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث ۳- أبو طالب المكى فى قوت القلوب ۴- الهروى فى الجمع بين الغريبين ۵- القاضى النعمان فى كتاب اصول المذهب.

كما نقلها عن طائفة اخرى من العلماء بعد السيد الرضى كالطوسى فى الأمالى والطبرسى فى الاحتجاج والمفيد فى الإرشاد.

[۶۸۷] (۱) بحار الأنوار ۸۳/ ۱۵۳.

[۶۸۸] (۲) بحار الأنوار ۹۱/ ۹۴.

[۶۸۹] (۳) بحار الأنوار ۸۳/ ۱۵۲.

[۶۹۰] (۴) سورة النحل/ ۹.

[۶۹۱] (۱) سورة رعد/ ۱۴.

[۶۹۲] (۲) ميزان الحكمة ۴/ ۵۶۶، كما ورد مضمون هذا الحديث فى عدّة روايات نقلتها أغلب الكتب.

[۶۹۳] (۱) سورة نحل/ ۲۵.

[۶۹۴] (۲) سورة المدثر/ ۳۸.

[۶۹۵] (۳) شرح نهج البلاغة للمحقق الخوئى ۳/ ۲۵۱.

[۶۹۶] (۴) اصول الكافى ۱/ ۵۴، باب البدع.

[۶۹۷] (۱) سورة العنكبوت/ ۱۳.

[۶۹۸] (۱)« موضع» من مادة« ايضاع» بمعنى السرعة فى الحركة(وهو يعطى معنى اللازم لا المتعدى رغم أنّه من باب الافعال) وهو

هنا إشارة لحركة الجهال المتشبهين بالعلماء السريعة بين الجهال.

[۶۹۹] (۲)« عاد» من مادة« العدو» بمعنى الركض.

[۷۰۰] (۳) مقاييس اللغة، الجوهرى، لسان العرب.

[۷۰۱] (۴)« هدنة» بمعنى الصلح والمسالمة بين الناس.

[۷۰۲] (۱)« بكر» من مادة«» بكرة على وزن لقمة بمعنى أول النهار ثم أطلقت على كل بداية وانطلاقة، وهى هنا إشارة إلى أنّ الجهال المتشبهين بالعلماء إنّما يلهثون خلف الأعمال العابثة من أول النهار حتى الليل.

[۷۰۳] (۲) يمكن أن تكون الجملة(ما قل منه خير ممّا كثر) صفة لجمع مفهومه: يجمع شيئاً قليله خير من كثيره، كما قيل يمكن أن تكون مضافة، وفى هذه الحالة تتطلب تقديراً؛ أى من جمع شىء ما قل منه خير ممّا كثر، ولكن ليس هنالك من فارق فى المعنى.

[۷۰۴] (۱)« آجن» بمعنى الماء العفن.

[۷۰۵] (۲)« طائل» من مادة« طول» على وزن قول بمعنى الفائدة والامتداد، ومن غير طائل تعنى دون فائدة.

[۷۰۶] (۳) الوسائل الشيعه ۱۷/ ۳۷(واضح أن وصى النبى هنا تنطوى على مفهوم واسع يشمل العلماء العدول من أتباع النبى).

[۷۰۷] (۱)« العنكبوت» هى الحشرة المعروفة، وهناك اختلاف فى أصلها من مادة عكب أن عنكب، وقيل اقتبست من مادة« عكوب» بمعنى الغبار لأنّ خيوطه تشبه الغبار.

[۷۰۸] (۱)« خباط» من مادة« خبط»، صيغة مبالغة من خبط الليل إذ سار فيه على غير هدى، ومن هنا يطلق خابط أو ضابط على الفرد المجنون او الذى لا يستطيع توازنه.

[۷۰۹] (۲)« عشوات» جمع« عشوة» بمعنى الظلمة.

[۷۱۰] (۳)« يذرو» من مادة« ذرو» على وزن ضرب بمعنى ينثر(وقد وردت هذه المفرة بهيئة ناقص واوى وناقص يائى).

[۷۱۱] (۴)« هشيم» من مادة« هشم» بمعنى ما يبس من النبات وتهشم وتفتت.

[۷۱۲] (۱)« اصدار» من مادة« صدور» ضد الدخول.

[۷۱۳] (۲)« قرظ» بمنى مدح.

[۷۱۴] (۳) ذكر بعض شراح نهج البلاغة هنا المفردة« فرط» من مادة التفريط و« فوض» من مادة التفويض بدلاد من« قرظ» من مادة« التقريظ» بمعنى المدح و الثناء. و حيث آلينا على أنفسنا ألانجرى خلف اختلاف نسخ نهج‌البلاغة و نكتفى بالنسخة المعروفة المتداولة اليوم، لذلك نغض الطرف عن الخوض فى ما ذكروه.

[۷۱۵] (۱) سورة الزمر/ ۱۷- ۱۸.

[۷۱۶] (۲) نهج البلاغة، الكلمات قصار، الكلمة ۸۲.

[۷۱۷] (۳)« تعج» من مادة« عج» و« عجيج» بمعنى ارتفاع الصوت وهنا بمعنى الصراخ.

[۷۱۸] (۱) وسائل الشيعة ۱۳/ ۲۵۶.

[۷۱۹] (۲) اصول الكافى ۱/ ۴۴.

[۷۲۰] (۳) اصول الكافى ۱/ ۴۳.

[۷۲۱] (۱) اصول الكافى ۱/ ۴۳.

[۷۲۲] (۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۱۵۰.

[۷۲۳] (۲) بحار الأنوار ۷۲/ ۳۶۹.

[۷۲۴] (۳) بحار الأنوار ۷۰/ ۲۹۴.

[۷۲۵] (۴) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۷۲۶] (۱)« سلعة» على وزن فرقة، المتاع والبضائع التجارية، وفى الأصل جاءت من مادة« سَلْع» بمعنى الفتحة أو الفُرجة أو الشق، وتطلق على ثغرة الجبل أو شق الجبل، وبما أن البضائع التجارية توضع بشكل علنى فى منظر ومرآى العيون، لذلك سميت« سلعة».

[۷۲۷] (۲)« أبور» من مادة« بَوْر» على وزن غَوْر بمعنى الهلاك والفساد، ومن هنا يطلق هذا اللفظ على الركود فى السوق لانه يتسبب فى أضرارٍ لرؤوس المال.

[۷۲۸] (۳)« أنفق» من مادة« نفاق ونفوق»، وفى الأصل بمعنى الزوال والانعدام، ومن هنا يقال للعطاء والصرف« انفاق»، والظاهر بان ذلك يطلق على الاموال التى تصرف أو تنفق، أى التى تخرج من اليد، واذا استفيد من اللفظ فى موضوع الانفاق والعطاء فيكون معناها، البذل والمساعدة، حيث يقصد بها الأموال التى يتم انفاقها.

ويطلق أيضا على رواج الأمتعة فى السوق« نَفاق» على وزن« طلاق» وذلك لانها تُشترى بسرعة من قبل الناس، وبذلك تخرج من السوق.

[۷۲۹] (۱) سورة البقرة/ ۷۵.

[۷۳۰] (۲) بحار الأنوار ۸۹/ ۱۰۷.

[۷۳۱] (۳) بحار الأنوار ۸۹/ ۱۰۸.

[۷۳۲] (۱) طبق ماورد فى مصادر نهج البلاغة بشأن سند الخطبة، رواها محمد بن طلحة الشافعى فى كتاب مطالب السؤال ۱/ ۱۴۱ وصرح بأن محمد بن طلحة وان عاش بعد الشريف الرضى إلّاأنّ رواية هذه الخطبة مع بعض الاختلاف الطفيف دليل على وجود مصدر آخر لديه غير نهج البلاغة، ثم أضاف: يستفاد من رواية القاضى نعمان المصرى فى« دعائم الإسلام» الذى عاش قبل الشريف الرضى أنّ هذه الخطبة كانت معروفة عند الشيعة. والذى يستفاد من كلام محمد بن طلحة أنّ هذا الكلام هو جزء من الخطبة السابقة، والواقع أنّهما خطبة واحدة مع سابقتها فهى مرتبطة بها تماماً، ولذلك يبرز هنا هذا السؤال: لم فصلهما الشريف الرضى عن بعضهما؟ ذهب صاحب مصادر نهج البلاغة إلى احتمالين:

الأول أن يكون الشريف الرضى نقلهما من مصدرين، والآخر أنّه كتب حقاً: ومن هذا الكلام؛ أى أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة، إلّاأنّ نساخ نهج البلاغة التبس عليهم الأمر فكتبوا« ومن كلام له عليه السلام الذى يفيد كونه كلاماً مستقلًا».(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۶۲ مع شىء من التوضيح).

[۷۳۳] (۱) سورة النساء/ ۸۲.

[۷۳۴] (۱) المرحوم العلّامة الأمينى ذكر فى المجلد السادس من الغدير الأدلة على هذه المسألة من أهم مصادر العامة من قبيل سنن ابن ماجة وسنن الدارمى ومستدرك الحاكم فى تذكرة الحفاظ وكنز العمال وغيرها تحت عنوان« نهى الخليفة عن الحديث» وبيّن كيف ان عمر نهى عن تدوين أحاديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهدد بالحبس والنفى كل من رواها.

[۷۳۵] (۱) سورة المائدة/ ۳.

[۷۳۶] (۲) لقد تحدثنا بالتفصيل فى كتاب نفحات القرآن ج ۹ بحث« الولاية والإمامة العامة فى السنّة» عن حديث الثقلين وتواتره فى المصادر الروائية للفريقين ومصادره المعروفة فى صحيح مسلم والترمذى والدارمى ومسند أحمد وخصائص النسائى ومستدرك الصحيحين وسنن البيهقى وغيرها من المصادر.

[۷۳۷] (۱) الاصول العامة للفقه المقارن/ ۶۱۷.

[۷۳۸] (۱) للوقوف على التفاصيل انظر كتاب« توضيح الرشاد فى تأريخ عصر الاجتهاد» للمحدث المحقق المرحوم الحاج الشيخ آقا بزرك الطهرانى.

[۷۳۹] (۲) أنوار الاصول ۲/ ۵۱۹- ۵۴۳ و ۳/ ۶۳۲- ۶۵۸، المستصفى للغزالى ۲/ ۲۳۴، الاصول العامة للفقه المقارن/ ۳۰۵ و ۶۱۷.

[۷۴۰] (۱) سورة آل عمران/ ۱۰۳.

[۷۴۱] (۱) سورة المائدة/ ۳.

[۷۴۲] (۱) لابدّ من الالتفات إلى أن قوله« ما فرطنا فى الكتاب من شئى» هو نص الآية ۳۸ من سورة الانعام، أمّا قوله« فيه تبيان لكل شىء» فهو مضمون الآية ۸۹ من سورة النحل لا عينها« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء».

[۷۴۳] (۲) سورة النساء/ ۸۲.

[۷۴۴] (۱) تفسير نور الثقلين، ۳/ ۷۴، اصول الكافى، ۱/ ۵۹(هناك احتمالان بشأن هذه الرواية: الأول انّ« لو» شرطية، والآخر أنّها حرف تمنى و« إلّا» احياناً للإستثناء واخرى للتنبيه، راجع مرآة العقول، ۱/ ۲۰۲.

[۷۴۵] (۲) سورة المائدة/ ۱.

[۷۴۶] (۱) سورة الحج/ ۷۸.

[۷۴۷] (۲) سورة البقرة/ ۲۳۳.

[۷۴۸] (۳) سورة الحشر/ ۷.

[۷۴۹] (۴) سورة النحل/ ۴۴.

[۷۵۰] (۵) اصول الكافى، ۱/ ۶۱(كما نقل المرحوم الكلينى فى هذا الباب عدّة روايات).

[۷۵۱] (۱) نهج البلاغة، الكلمات قصار، الحكمة ۳۱۳.

[۷۵۲] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۸.

[۷۵۳] (۳) الدر المنشور ۴/ ۱۲۷- ۱۲۸.

[۷۵۴] (۴) الاتقان، نوع ۶۵ من العلوم المستفادة من القرآن.

[۷۵۵] (۱)« أنيق» من مادة« انق» على وزن رمق بمعنى الشىء الجميل.

[۷۵۶] (۲) للوقوف على المزيد راجع كتاب نفحات القرآن، ۸/ ۱۱۴ بحث« اعجاز القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة».

[۷۵۷] (۱) سورة المائدة/ ۱.

[۷۵۸] (۲) سورة الحج/ ۷۸.

[۷۵۹] (۱) ميزان الحكمة ۸/ ۷۰؛ بحار الانوار ۹۲/ ۱۵.

[۷۶۰] (۱) جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة عدم وجود الاختلاف بين العلماء فى نقل هذه الخطبة، قد نقلها من عاش قبل السيد الرضى، كأبى الفرج الاصفهانى فى كتاب الاغانى، وقد توفى الاصفهانى قبل نشر نهج البلاغة ۴۴ سنة(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۳۶۹).

[۷۶۱] (۱) ورد فى عدّة روايات ان المراد بقوله« من أحدث حدثا» القتل وسفك الدماء وهو المعنى الانسب لهذه العبارة، راجع وسائل الشعية، ۱۹/ ۱۱- ۱۹ ابواب القصاص، الباب ۴ و ۸.

[۷۶۲] (۲) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۲/ ۲۷۹.

[۷۶۳] (۱)« حائك»: وتأتى أحيانا من مادة« حوك» بمعنى الحياكة والنسيج، وتأتى أحيانا من« حيك» بمعنى التكبر والخيلاء أثناء المشى.

[۷۶۴] (۲) وسائل الشيعة، ۱۲/ ۱۰۱، الباب ۲۳، من أبواب ما يكتسب به، الحديث ۲.

[۷۶۵] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۹۶.

[۷۶۶] (۱) وسائل الشيعة، أبواب حد المرتد/ الباب ۵ ح ۳.

[۷۶۷] (۱) أورد المرحوم الکلینی فی کتاب الکافی فی باب« ما یجب من حق الإمام علی الرعیـة» بعض هـذه الخطبـة فی ذیل روایـة(راجع کتاب الکافی، ۱/ ۴۰۵ ح ۳، باب ما یجب من حق الإمام علی الرعیة).

[۷۶۸] (۱)« وهلتم» من مـادة« وهـل» علی وزن« وهب» بمعنی فقـد صبره فی مقابـل الحوادث الصـعبة، وتـأتی بمعنی الخوف واحیـانا بمعنی التأوه والأنین.

[۷۶۹] (۱) سورة الصافات/ ۱۳۷– ۱۳۸.

[۷۷۰] (۲) سورة الدخان/ ۲۵– ۲۹.

[۷۷۱] (۱)« زجرتم» و« مزدجر» من مادة« زجر» بمعنی الصدعن عمل بصوت عال، ثم اطلق علی کل منعصدر کما یستعمل فی التهی عن الذنوب.

[۷۷۲] (۲) سورة القمر/ ۴.

[۷۷۳] (۳) سورة الحجر/ ۷.

[۷۷۴] (۴) سورة الحجر/ ۸.

[۷۷۵] (۱) سورة مؤمنون/ ۹۹– ۱۰۰.

[۷۷۶] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۹.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبِیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِـنَ کَلَامِنَـا لَاتَّبَعُونَـا... (بَـنـادِرُ البِـحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة "الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللّهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة "للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ –

فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّـلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلکم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩